الجوهر الفريد

في

علم التوحيد

عبدالهادي إدريس أبوأصبع

المستشار بمحكمة استئناف بنغازي (سابقاً)

الطبعة الأولى

1998ف

رقم الإيداع
3352 / 1998ف
دار الكتب الوطنية - بنغازي

ردمك 9959-201-00-5
الوكالة الليبية للرقم الدولي الموحد للكتاب
دار الكتب الوطنية - بنغازي
ص. ب. 9127
هاتف : 9096379 - 9097073
بريد مصور : 9096380

تجميع مرئي وإخراج : رضا البرغثي

الإهداء

إلى المرشدين والوعاظ الذين يعظون الناس

ويرشدونهم إلى طريق الخير

إلى الذين يُخرِجون الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم

إلى الذين يُعلّمون الناس قواعد دينهم الحنيف

الدين الإسلامي

أهدي كتابي هذا...

المؤلف

عبدالهادي أبوأصبع

شكر وعرفان

أحب أن أتقدم بين يدي هذا الكتاب بالشكر والعرفان والامتنان للأخوين:

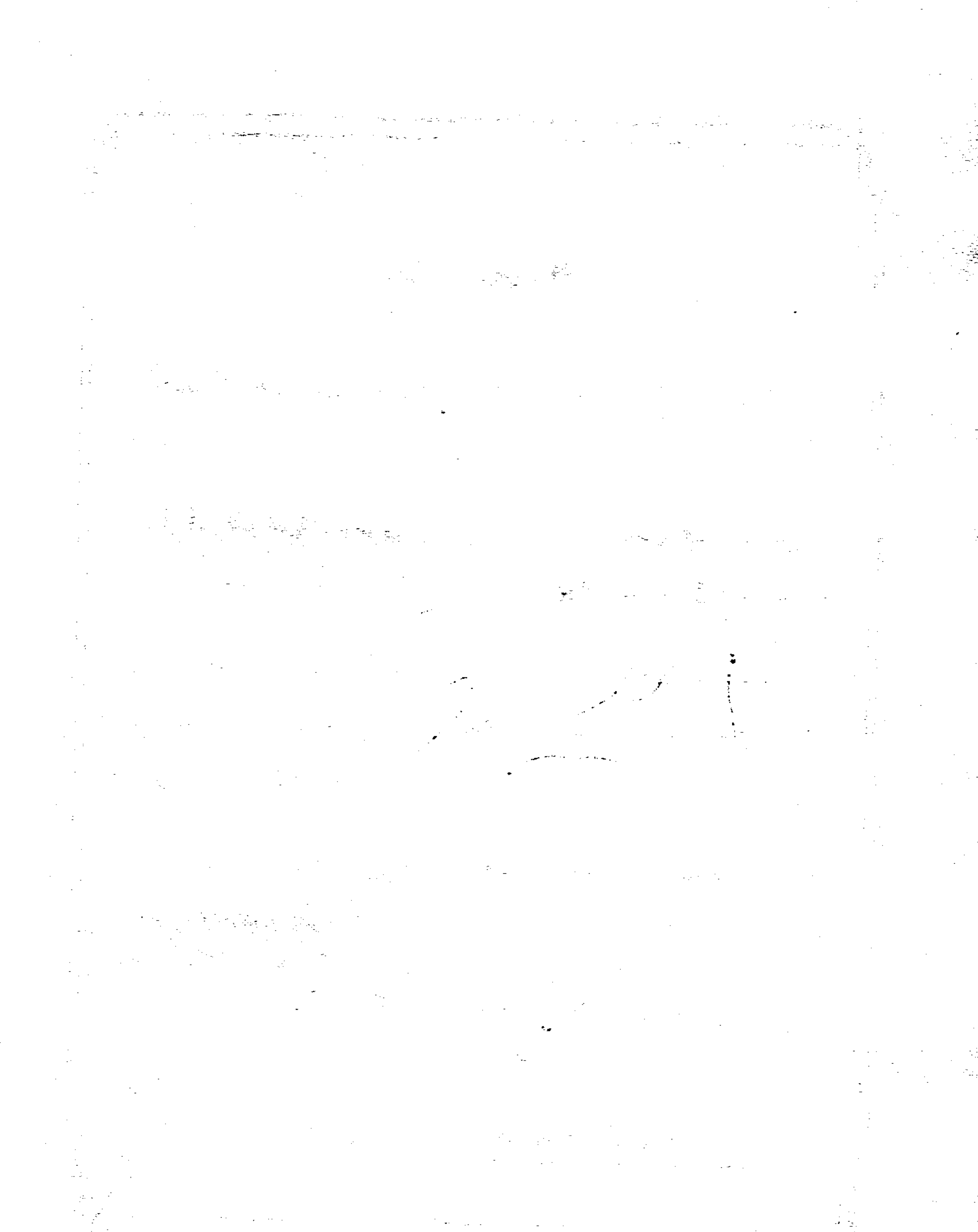
أ. أشرف خليفة اليدري	**أ. عادل محمد المغربي**
دراسات عليا في اللغة العربية	دراسات عليا في اللغة العربية

اللذين قاما بالمراجعة اللغوية وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة لهذا الكتاب المبارك، تقديراً لما بذلوه من عطاء كريم وجهد رائع من غير انتظار لشكر أو ترقب لجزاء.

ولا ننسى أن نُسدي جزيل الشكر للأديب الكاتب : **محمد سالم المزوغي** لآرائه وملاحظاته النيِّرة.

والشكر أولاً وآخراً لله سبحانه وتعالى، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

خليفة عبدالهادي أبوأصبع



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِرَه على الدين كله ولو كره المشركون. وأشهد أن لا إله إلا الله، أنزل الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون. وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، بيَّن للناس ما نُزِّل إليهم لعلهم يتفكرون. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

أما بعد، فإن الدين الإسلامي دين عام يتناول كل شيء في هذا الوجود. يتناول علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فيضع لكل علاقة ما ينظمها ويضبطها في كل زمان ومكان استنباطاً من كتاب الله الكريم وسنة نبيه العظيم. ولقد بذل العلماء السابقون رضي الله عنهم كل ما في وسعهم لاستخراج قواعد الدين واستنباطها من الكتاب والسنة، وأحاطوا بها جميعاً فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، وتركوا لنا ثروة عظيمة من النصوص والقواعد التي حوتها بطون الكتب في مختلف العلوم الشرعية بما في ذلك علم التوحيد. إلا أن هذه الثروة لم يتمكن من الانتفاع بها إلا القلة القليلة من الناس وهم الذين تفرغوا لدراسة هذه العلوم؛ وذلك لصعوبة أسلوب الكتب التي احتوتها، الأمر الذي أشعَر المتخصصين في هذا الميدان بضرورة تلخيص هذه الكتب وإخراجها في صورة مبسطة وبأسلوب سهل لينتفع بها

جميع الناس، فأخذوا في كتابة المؤلفات التي تكشف عن هذه الكنوز والنفائس وبذلوا كل ما في وسعهم لإبراز هذه القواعد وتوضيحها حتى ظهر للمسلمين وضوح قواعد دينهم من توحيد وعبادات ومعاملات.

ولما كانت عقائد التوحيد من إلَهِيَّات ونبُوَّات وسَمْعيات وغيرها مما يتناول علاقة الإنسان بربه أهم الموضوعات التي تناولتها هذه المؤلفات، ولما كانت هذه العقائد هي أول ما يجب على المكلف معرفته على الإطلاق، فقد رأيت أن من واجبي أن أُسهم بجهدي المتواضع في هذا الميدان، فألفت هذا الكتاب الصغير في حجمه، الكبير في علمه **(الجوهر الفريد في علم التوحيد)** مقتفياً آثار أهل السنة من أشاعرةٍ وَمَاتُرِيدِيَةٍ؛ لأن هذه الآثار هي النهر الذي ارتشفت منه بعض قطرات على يد أستاذي وشيخي الجليل العالم العامل والورع الصالح الشيخ محمد علي الصفراني غفر الله له ولجميع المسلمين. وقد اعتمدت في تأليفه على الكتب المشهورة في مذهب أهل السنة وخاصة حاشية البيجوري على متن الجوهرة، وحاشيته على متن السنوسية، والشرح الكبير لمنظومة ابن عاشر للشيخ ميارة، وشرح الخريدة للشيخ الدردير، ومتن الشيبانية، وكتاب الغُنْيَة للشيخ عبد القادر الجيلاني، وغير ذلك من بعض البحوث العلمية وشرح عقيدة العوام.

وقد رتبته على مقدمة وأربعة أبواب كما يلي :

(المقدمة) وتشتمل على تعريف الدين وحقيقة الإيمان والإسلام.

(الباب الأول في الإلهيات) ويشتمل على العقائد المتعلقة بصفات الله سبحانه وتعالى.

(الباب الثاني في النبوّات) ويشتمل على العقائد المتعلقة بصفات الرسل عليهم الصلاة والسلام.

(الباب الثالث في السمعيات) ويشتمل على حقيقة الموت والفناء والبعث والحساب والجنة والنار.

(الباب الرابع في الإحسان) ويشتمل على تعريف الإحسان في العبادة، والتصوف، والتوبة من الذنوب، وتضعيف الحسنات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقوى الله عز وجل، والخوف من العقاب، والرجاء في الثواب.

والله أسأل أن ينفع به كما نفع بأصله إنه سميع مجيب، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المؤلف

عبد الهادي أبو أصبع

التاريخ : غرة ذي القعدة 1408هـ، الموافق 15يونيه 1988م.



علم التوحيد

علم التوحيد لغة : هو العلم بأن الشيء واحد. وشرعاً : علم يُقْتَدَر به على إثبات العقائد الدينية المكتسبة من أدلتها اليقينية. هذا تعريفه من الناحية اللغوية والشرعية، أما تعريفه بمعنى الفن المدون فهو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدانيته والتصديق بها ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً. ويسمى أيضاً علم الكلام لأن المتقدمين يقولون في الترجمة عن مباحثه (مباحث الكلام في كذا).

أما مبادئه فهي عشرة كمبادئ أي فن من فنون العلوم والتي نظمها بعضهم في قوله :

إنَّ مَبَادِي كُلِّ فَنٍّ عَشَرَهْ ... الْحَدُّ والمَوْضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَهْ
وفَضْلُهُ ونِسْبَةٌ والواضِعْ ... والاسْمُ الاستمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ
مَسَائِلٌ والْبَعْضُ بالْبَعْضِ اكتفى ... ومَنْ دَرَى الجميعَ حَازَ الشَّرفَا

فحَدُّهُ هو تعريفه من الناحية الشرعية المتقدم : علم يُقتدر به على إثبات العقائد الدينية المكتسبة من أدلتها اليقينية. وموضوعه ذات الله تعالى من حيث ما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز وذات رسله كذلك والممكن من حيث إنه يُتوصَّل به إلى وجود صانعه. والسَّمعيات من حيث اعتقادها. وثمرته معرفة الله بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية. وفضله أنه أشرف العلوم لكونه متعلقاً بذات الله تعالى وذات رسله وما يتبع ذلك، كما أنه أشرف العبادات على الإطلاق. ونسبته إلى العلوم أنه أصل العلوم الدينية والدنيوية، وما سواه فرع عنه، قال بعضهم :

أَيُّهَا الْمُقْتَدِي لِتَطْلُبَ عِلْماً كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الْكَلاَمِ
تَطْلُبُ الفِقْهَ كَيْ تُصَحِّحَ حُكْماً ثُمَّ أَغْفَلْتَ مُنزِلَ الأَحْكَامِ

وواضعه أبو الحسن الأشعري ومن تبعه، وأبو منصور الماتُرِيدِي ومن تبعه، بمعنى أنهم دوَّنوا كتبه وردُّوا الشُّبَهَ التي أوردتها المعتزلة وغيرهم، وإلا فالتوحيد جاء به كل نبي من لدن آدم ونوح عليهما السلام إلىنبينا محمد-ﷺ-، قال تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىبِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَىأَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَتَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1]، واسْمُهُ علم التوحيد لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه، ويسمى أيضاً عِلم الكلام كما تقدم، واستمداده من الأدلة العقلية والنقلية. وحكم الشارع فيه الوجوب العيني على كلِ مكلف ذكراً كان أم أنثى ولو بأدلة إجمالية. وأما معرفة أدلته التفصيلية فهي فرض كفاية إذا قام بها البعض سقط الفرض عن الباقين. ومسائله قضاياه الباحثة عن الواجبات والجائزات والمستحيلات.

هذا وقد نص علماء الكلام على أن التوحيد هو أصل الدين، ولذا فمن المناسب تعريف الدين كما يلي :

تعريف الدين :

الدين لغة يطلق على عدة معان، منها الطاعة والعبادة والجزاء والحساب. وشرعاً له تعريفان كما يلي :

(التعريف الأول) مختصر، وهو ما شرعه ا لله تعالى على لسان نبيه من الأحكام. وسُمِّيَ ديناً لأننا ندين به وننقاد له. ويسمى أيضاً مِلّة لأن جبريل عليه السلام أملاه على الرسول، والرسول أملاه على أمته. كما يسمى شرعاً وشريعة لأن ا لله شرعه لعباده أي بيَّنه لهم على لسان نبيه، فا لله هو الشارع حقيقة والنبي شارع مجازاً.

---

(1) الشورى : 11 .

(التعريف الثاني) مُطوّل، وهو وضعٌ إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات. فمعنى (وضعٌ إلهي) شيء موضوع بقطع النظر عن أن يكون حكماً أو غيره منسوب للإله وهو الله تعالى، ويخرج به الوضع البشري حسب الظاهر، وإلا فالواضع لجميع الأشياء هو الله في الحقيقة وذلك كوضع القوانين السياسية التي ترجع إليها سياسة العالم كعلم إصلاح المنزل وحسن العشرة مع الأهل والإخوان والأوضاع الصناعية كالنجارة والحدادة وغير ذلك. وكان الحكماء والقدماء يؤلفون كتباً في سياسة الرعية وإصلاح المدن فيحكم بها ملوك من لا شرع لهم، فإنه وإن كان الخالق لِكل الأشياء هو الله تعالى إلا أن البشر لهم كسب فيها.

فإن قيل يلزم على ذلك أن أحكام الفقه الاجتهادية ليست من الدين لأن المجتهدين من البشر، فالجواب: إنها من الدين قطعاً، وهي من الوضع الإلهي، غاية الأمر أنها تخفى على عامة البشر، والمجتهدون يظهرونها ويستدلون عليها بقواعد الشرع ولا دخل لهم في وضعها.

ومعنى (سائق لذوي العقول السليمة) باعث وحامل لأصحاب العقول الكاملة وهم المكلفون، لأن المكلف إذا سمع ما يترتب على فعل الواجب من الثواب أو على فعل الحرام من العقاب انساق إلى فعل الأول وترك الثاني، ويخرج به الوضع الإلهي غير السائق لأحد من الأشياء التي لا اطلاع للبشر عليها كالذي تحت الأرضين فإن ما لا يعرفه البشر لا ينساقون إليه، كما يخرج به ما يسوقهم وغيرهم من الحيوانات كالأوضاع الطبيعية التي تهتدي بها الحيوانات وهي الإلهامات التي تسوقها لفعل منافعها كنسج العنكبوت لبيتها، واتخاذ النحل بيوتاً لها من الجبال والشجر ونحوه، واجتناب مضارها كنِفَارِ الشاة من الذئب وغير ذلك. ومعنى (باختيارهم المحمود) بإرادتهم الخيِّرة، ويخرج به الأوضاع السائقة لهم بدون اختيارهم أو باختيارهم المذموم. فالأولى كالآلام السائقة إلى الأنين رغماً عنهم كالوجدانيات قبل الجوع

والعطش فإنهما يسوقان إلى الأكل والشرب جبراً، والثانية كحب المال فإنه يبعثهم إلى منع الزكاة باختيارهم المذموم. ومعنى (إلى ما هو خير لهم بالذات) ما فيه سعادتهم الأبدية من الخير الذاتي، ويخرج بذلك صنعتا الطب والفلاحة فإنهما وإن كانتا بالاختيار المحمود لكن لا إلى الخير الذاتي بل إلى الخير العام لجميع الناس.

إطلاق لفظ الدين على كل ما يُتدين به :

يطلق لفظ الدين على كل ما يُتديَّن به ولو باطلاً، ودليل ذلك قوله تعالى:﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1]، فقد جاء في تفسير هذه الآية أن من يتدين بغير دين الإسلام لا يُقَرُّ عليه. ومعنى بغير دين الإسلام أي بدين غير دين الإسلام كما جاء في تفسير قوله تعالى :﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[2] أن هذه الآية نزلت لما ادعى اليهود أنه لا دين أفضل من دين اليهودية، وادعى النصارى أنه لا دين أفضل من دين النصرانية. ومعنى الآية : إن الدين المرضي عند الله هو الشرع المبعوث به الرسل المبني على التوحيد ومفهومه : إن الدين غير المرضي هو ما خالف ذلك. وتطبيقاً لمعنى هذه الآية الكريمة أن دين الإسلام الصحيح كما أنه هو الدين الذي جاء به محمد-ﷺ- فهو الدين الذي جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتفرَّقُواْ فِيهِ﴾[3]، فالخطاب في هذه الآية لأمة محمد -ﷺ-، والمعنى أن الله شرع لكم يا أمة محمد ديناً قيماً واضحاً صحيحاً وهو الدين الذي جاءت به الرسل من أهل الشرائع المعظمة المستقلة المتجددة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وما جاء به محمد

---

(1) آل عمران : 84 .

(2) آل عمران : 19 .

(3) الشورى : 11 .

فحافظوا عليه ولا تختلفوا فيه. والمراد بأمة محمد هنا أمة الدعوة وهم جميع الناس بمن فيهم أهل الكتاب اليهود والنصارى.

وبذلك يتبين أن دين محمد -ﷺ- قد جمع بين جميع الأديان المتقدمة ونسخها بحيث لا يقبل التدين بأي دين سواه. وتوضيح ذلك أن أهل الشرائع من الرسل السابقين وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى كل منهم جاء بشرع جديد، وأما من عداهم من الرسل فكان كل رسول يبعث بتبليغ شرع من قبله، فالرسولان اللذان هما بين نوح وإبراهيم وهما هود وصالح مكلف كل منهما بتبليغ شرع نوح، والذين هم بين إبراهيم وموسى وهم لوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب مكلفون بتبليغ شرع إبراهيم، والذين هم بين موسى وعيسى وهم هارون واليسع وذو الكفل وداود وسليمان وإلياس ويونس وزكريا ويحيى مكلفون بتبليغ شرع موسى. ولم يذكر آدم وإدريس من بين أهل الشرائع مع أنهما بعثا قبل جميع الرسل لأنه لم يكن قبل نوح أحكام مشروعة، فآدم كان شرعه التوحيد ومصالح المعاش واستمر ذلك الأمر مع إدريس، فلما بعث نوح شرع الله له تحريم نكاح الأمهات والبنات والأخوات، ووظف عليه الواجبات وأوضح له الآداب والديانات ولم يزل ذلك الأمر يتوالى ويتأكد ببعثة الرسل واحداً بعد واحد وشريعة بعد شريعة حتى ختمت بشريعة محمد -ﷺ-، وكلما بعث الله نبياً أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي لَيَتَّبِعَنَّهُ، وأخذ عليه أن يعهد إلى أمته بذلك، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ* قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1]، وقد أوفى سيدنا عيسى عليه السلام وهو آخر رسول قبل نبينا محمد -ﷺ- بهذا العهد كما أخبر

---

(1) آل عمران : 80 -81 .

القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[1] ، وعليه فمن بقي من اليهود أو النصارى على دين اليهودية أو النصرانية بحجة أنه باق على دين موسى أو دين عيسى فهو كافر بدين موسى وعيسى أيضاً لعدم إيفائه بعهد الرسول الذي يزعم أنه باق على دينه. وينطبق عليه حكم الآية الكريمة :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2] .

وجوب المعرفة بالتوحيد :

يجب على كل مكلف ذكراً كان أم أنثى من الإنس أو الجن ولو من العوام والنساء أن يعرف علم التوحيد باستثناء الملائكة ولو على القول بأنهم مكلفون؛ لأن الخلاف في تكليفهم إنما هو بالنسبة إلى غير معرفة الله تعالى، أما هي فإنها جبلِّيَّة في حقهم فلا يوجد فيهم من يجهل صفات الله تعالى كما في الجن والإنس، ولذلك قال الله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ﴾[3] ثم قال :﴿وأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾، فلم يطلق الأمر في الإنس والجن كما أطلقه في الملائكة بل خصصه بأولي العلم منهم.

والتكليف هو إلزام ما فيه كلفة، وقيل هو طلب ما فيه كلفة، والقول الأول هو الراجح. وعليه يكون الإلزام قاصراً على الوجوب والحرمة دون الندب والكراهة والإباحة إذ لا إلزام فيها. وعلى القول الثاني يشمل الندب والكراهة أيضاً دون الإباحة إذ لا طلب فيها ، فليست من التكليف على القولين. فإن قيل كيف هذا مع قولهم: الأحكام الشرعية عشرة : خمسة وضعية وهي خطاب الله تعالى المتعلق بجعل الشيء

---

(1) الصف : 6 .

(2) آل عمران : 84 .

(3) آل عمران :18 .

سبباً أو شرطاً أو مانعاً أو صحيحاً أو فاسداً، وخمسة تكليفية وهي الإيجاب والتحريم والندب والكراهة والإباحة، فالجواب : إن ذلك من باب التغليب، أو أن معنى كونها تكليفية أنها لا تتعلق إلا بالمكلف كما صرحوا به في أصول الفقه، من أن أفعال الصبي ونحوه كالبهائم مهملة، ولا يقال إنها مباحة لأن المباح هو الذي لا إثم في فعله ولا في تركه، ولا يُنفى الشيء إلا حيث صح ثبوته.

وشروط التكليف : البلوغ والعقل وبلوغ الدعوة وسلامة الحواس. فالمكلف هو البالغ العاقل سليم الحواس، وهذا في الإنس، أما الجن فهم مكلفون من أصل الخلقة فلا يتوقف تكليفهم على البلوغ. وخرج بالبالغ الصبي فليس مكلفاً، فمن مات قبل البلوغ فهو ناج ولو من أولاد الكفار، ولا يعاقب على كفر ولا غيره خلافاً للحنفية الذين يقولون بتكليف الصبي العاقل بالإيمان لوجود العقل وهو كاف عندهم، فإن اعتقد الإيمان أو الكفر فهو على ما اعتقده، وإن لم يعتقد واحداً منهما كان من أهل النار لوجوب الإيمان عليه بمجرد العقل. وخرج بالعاقل المجنون فليس بمكلف، وكذلك السَّكران غير المتعدي بخلاف المتعدي، لكن محل ذلك إن بلغ مجنوناً أو سكران واستمر على ذلك حتى مات، أما لو بلغ عاقلاً ثم جُنَّ أو سَكِر أو كان غير مؤمن ومات على ذلك فهو غير ناج. وخرج بالذي بَلَغَتْهُ الدعوة من لم تبلغه كمن نشأ في شاهق جبل فليس بمكلف على الأصح خلافاً لمن قال بتكليفه لوجود العقل الكافي في وجوب المعرفة عندهم ولو لم تبلغه الدعوة، والمراد بالدعوة دعوة النبي -ﷺ- بالإسلام.

واختلف على القول باشتراط بلوغ الدعوة فقيل يكفي بلوغ دعوة أي نبي ولو سيدنا آدم عليه السلام لأن التوحيد ليس أمراً خاصاً بمحمد -ﷺ-، وقيل لابد من بلوغ دعوة الرسول الذي أرسل إليه، والتحقيق كما نقله أهل العلم أنه لابد من بلوغ دعوة الرسول الذي أرسل إليه، وعليه فإن أهل الفترة وهم من كانوا بين أزمنة الرسل أو في زمن الرسول الذي لم يرسل إليهم ناجون وإن بدلوا أو غيروا أو عبدوا

الأصنام[1]، فإن قيل كيف هذا مع إخبار النبي -ﷺ- بأن جماعة من أهل الفترة في النار كامرئ القيس وحاتم الطائي وبعض آباء الصحابة وذلك لما سأله أحد الصحابة وهو يخطب فقال له أين أبي يا رسول الله؟ فقال في النار. فالجواب : إن الأحاديث الواردة في ذلك أحاديث آحاد وهي لا تعارض النصوص القطعية وأعلى هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[2] أو إنه يجوز أن يكون تعذيب من ورد تعذيبهم لأمر يختص بهم يعلمه الله تعالى ورسوله. وخرج بسليم الحواس غيره من عديمها، ولهذا قال بعض أئمة الشافعية: لو خلق الله إنساناً أعمى أصم سقط عنه التكليف.

وإذا كان أهل الفترة ناجين على القول الراجح كما تقدم فيجب أن نعتقد نجاة أبوي النبي-ﷺ- لأنهما من أهل الفترة. قال العلامة البيجوري في حاشيته على جوهرة التوحيد : إذا علمت أن أهل الفترة ناجون على الراجح علمت أن أبوي النبي -ﷺ- ناجيان لكونهما من أهل الفترة، بل جميع آبائه وأمهاته ناجون ومحكوم بإيمانهم لم يدخلهم كفر ولا رجس ولا عيب ولا شيء مما كان عليه الجاهلية بأدلة نقلية كقوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً -ﷺ-: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾[3] ، وقوله-ﷺ- : «أنا أَنْفَسكم نسباً وصهراً وحسباً، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذب لا تتشعب شعبتان إلاّ كنت في خيرهما، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً»[4] ، وغير ذلك من الأحاديث. وما نقل عن أبي حنيفة في الفقه الأكبر من أن والدي نبينا محمد -ﷺ- ماتا على الكفر فمدسوس عليه، وحاشاه أن يقول ذلك في والدي المصطفى -ﷺ- ، على أنه قيل إن

---

(1) هذا على الذي رجَّحه المتأخرون، وفي الذي غيَّر وبدَّل خلاف.

(2) الإسراء : 15 .

(3) الشعراء : 217 - 219 .

(4) أورده السيوطي في الحاوي للفتاوى 211/210/2. وجاءت أحاديث كثيرة في معناه رواها الطبراني في الأوسط وأبونعيم في الدلائل وابن عساكر في التاريخ.

الله تعالى أحياهما حتى آمنا به ثم أماتهما لما روي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله -ﷺ- سأل ربه أن يُحْيِيَ له أبويه فأحياهما فآمنا به ثم أماتهما[1].

قال السُّهَيْلي والله قادر على كل شيء وله أن يخص نبيه -ﷺ- بما شاء من فضله وينعم عليه بما شاء من كرمه، وفي ذلك قال بعضهم :

حَبَا اللَّهُ النَّبِيَّ مَزِيدَ فَضْلٍ ... عَلَى فَضْلٍ وَكَانَ بِهِ رَؤُوفَا

فَأَحْيَا أُمَّهُ وَكَذَا أَبَاهُ ... لإِيمَانٍ بِهِ فَضْلاً مُنِيفَاً

فَسَلِّمْ فَالْقَدِيمُ بِذَا قَدِيرٌ ... وَإِنْ كَانَ الحديثُ بِهِ ضَعِيفَا

قال العلامة البيجوري في حاشيته على جوهرة التوحيد : ولعل هذا الحديث صح عند أهل الحقيقة بطريق الكشف كما أشار إليه بعضهم بقوله :

أَيقَنْتُ أَنَّ أَبَا النَّبِيِّ وأُمَّهُ ... أَحْيَاهُمَا الرَّبُّ الْكَرِيمُ الْبَارِي

حَتَّى لَهُ شَهِدَا بِصِدْقِ رِسَالَةٍ ... صَدِّقْ فَتِلْكَ كَرَامَةُ الْمُخْتَارِ

هَذَا الْحَدِيثُ وَمَنْ يَقُولُ بِضَعْفِهِ ... فَهْوَ الضَّعِيفُ عَنِ الْحَقِيقَةِ عَارِ

هذا وقد اختلف في وجوب معرفة الله سبحانه وتعالى فقيل إنها واجبة بالشرع وهذا هو مذهب الأشاعرة وجَمْعٍ من غيرهم، وكذلك سائر الأحكام إذ لا حكم قبل الشرع لا أصلياً ولا فرعياً، قال ناظم الورقات :

لاَ حُكْمَ قَبْلَ بعْثَةِ الرَّسُولِ ... بَلْ بَعْدَهَا بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ

وَالأَصْلُ فِي الْأَشْيَاءِ قَبْلَ الشَّرْعِ ... تَحْرِيمُهَا لاَ بَعْدَ حُكْمٍ شَرْعِي

وذهبت المعتزلة إلى أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل، ولذلك قال صاحب جمع

---

[1] أورده الخطيب عن عائشة. وفي المواهب: ((أحيا الله أبويه حتى آمنا به)).

الجوامع : وحكّمت المعتزلةُ العقلَ أي جعلته حاكماً مدركاً للأحكام وإن لم يرد الشرع، ويقولون إن الشرع جاء مقوّياً ومؤكداً للعقل فلا يَنفون الشرع أصلاً وإلا كفروا قطعاً، ويبنون كلامهم على التحسين والتقبيح العقليين؛ فالحسن عندهم ما حسَّنه العقل والقبيح ما قبَّحه العقل، فإذا أدرك العقل أن هذا الفعل حسن بحيث يُذَمُّ على تركه ويُمْدَحُ على فعله حكم بوجوبه وهكذا. وأما عند أهل السنة فالحسن ما حسَّنه الشرع والقبيح ما قبَّحه الشرع.

ومذهب الماتُرِيدِيَّة أن وجوب المعرفة بالعقل بمعنى أنه لو لم يَرِدْ به الشرع لأدركه العقل استقلالاً لوضوحه لا بناءً على التحسين العقلي كما قالت المعتزلة، والحق أن العقل لا يستقل بشيء أصلاً.

وخلاصة القول في وجوب معرفة الله سبحانه وتعالى أن المذاهب ثلاثة : مذهب الأشاعرة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالشرع لكن بشرط العقل، ومذهب الماتريدية وهو أن وجوب المعرفة ثبتت بالعقل دون سائر الأحكام، ومذهب المعتزلة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل.

والمراد بمعرفة الله العلم بعقائد التوحيد. فالمعرفة والعلم مترادفان أي بمعنى واحد على التحقيق[1] ، وهذا المعنى الواحد هو الجزم المطابق للواقع عن دليل. ويخرج بالجزم الظن والشك والوهْمُ، وبالمطابق غير المطابق كجزم النصارى بالتثليث أي بأن الله ثالث ثلاثة. ويخرج بالدليل التقليد، فليس كل منها بمعرفة إلا أن المتصف بواحد من الأربعه الأُوَل وهي الظن والشك والوهم والجزم غير المطابق للواقع يعتبر كافراً اتفاقاً وأحرى إن جزم بعدم وجود الله. أما المتصف بالتقليد وهو الأخذ بقول الغير بلا دليل أي الاعتقاد بمضمون قول الغير دون أن يعرف دليله ففي صحة إيمانه خلاف كما

---

(1) وذلك في حق العبد، أما في حق الله عز وجل فلا يصح ترادفهما، إذ لا يوصف بالعارف ويوصف بالعالم لأن العرفان يسبقه جهل (راجع كتاب كليات الكفوى، ص611).

سيأتي. ويخرج بعدم معرفة الدليل التلامذة بعد أن يرشدهم شيوخهم إلى الأدلة فهم عارفون لا مقلدون. وقد ضرب لهم الشيخ السنوسي مثلاً للفرق بينهم وبين المقلدين بجماعة نظروا الهلال فسبق أحدهم لرؤيته فأخبرهم به، فإن صدقوه من غير معاينة فهم مقلدون وإن أرشدهم بالعلامة حتى عاينوه فهم غير مقلدين.

وأما أوجه الخلاف في صحة إيمان المقلّد فهي ستة: **(أولها)** عدم صحة إيمان المقلّد، وعليه فيعتبر المقلّد كافراً[1]. **(الثاني)** صحة إيمانه مع العصيان مطلقاً سواء كان فيه أهلية للنظر أم لا، وعليه فيكون المقلّد عاصياً لا كافراً. **(الثالث)** صحة إيمانه مع العصيان إن كان فيه أهلية للنظر، وعليه فيكون المقلّد مؤمناً إن لم يكن فيه أهلية للنظر، وعاصياً إن كان فيه أهلية للنظر. **(الرابع)** صحة إيمانه إن كان قد قلّد القرآن والسنة النبوية القطعية وإلاّ فلا، وعليه فيكون المقلّد مؤمناً إن كان تقليده للقرآن والسنة لاتباعه القطعي، وكافراً إن كان تقليده لغير ذلك لعدم أمن الخطأ على غير المعصوم. **(الخامس)** صحة إيمانه من غير عصيان مطلقاً ولو كان فيه أهلية للنظر لأن النظر شرط كمال، فمن كان فيه أهلية للنظر ولم ينظر فقد ترك الأَوْلى. **(السادس)** صحة إيمانه ويحرم عليه النظر، وعليه فيجب الاكتفاء بالتقليد دون نظر، فإن نظر أثم خوفاً من الوقوع في الخطأ[2]. قال العلامة البيجوري في حاشيته على جوهرة التوحيد: وهذا القول مخلوط بالفلسفة وما أحسن قول بعضهم:

عَابَ الْكَلَامَ أُنَاسٌ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ ... وَمَا عَلَيْهِ إِذَا عَابُوهُ مِنْ ضَرَرِ

مَا ضَرَّ شمسَ الضُّحَى فِي الأُفْقِ طَالِعَةً ... أَنْ لاَ يَرَى ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرِ

---

(1) نُسب هذا القول للإمام السنوسي في عقيدته الكبرى ثم رجع عنه.

(2) هذا الخلاف إنما يجري بينهم في المقلّد الجازم، أما الشاك والظان فمتفق على عدم صحة إيمانه، هذا بالنظر لأحوال الآخرة، أما في الدنيا فكل من نطق بلسانه شهادة التوحيد حكمنا بإيمانه إلا إن اقترن الإقرار بما ينافي ذلك كالسجود للصنم. (راجع هداية المريد لعقيدة أهل التوحيد للشيخ عليش).

قال العلامة البيجوري : والقول الحق الذي عليه المُعَوَّل هو القول الثالث من الأقوال المتقدمة وهو صحة إيمان المقلّد إن لم يكن فيه أهلية للنظر ومع العصيان إن كان فيه أهلية للنظر.

ونقل عن التاج السُّبْكي رضي الله عنه أنه حقق في الاكتفاء بالتقليد وعدم الاكتفاء به فقال : إذا جزم المقلّد بصحة قول الغير جزماً قوياً بحيث لو رجع المقلّد عن ذلك لم يرجع المقلّد فإن ذلك يكفيه في الأحكام الدنيوية فيناكِحُ ويؤُمُّ وتؤكَلُ ذبيحتُه ويرثه المسلمون ويرثهم ويُسْهَم له في الجهاد ويُدْفَن في مقابر المسلمين، وفي الأحكام الأخروية أيضاً فلا يخلّد في النار إن دخلها ومآله إلى النجاة والجنة، فهو مؤمن لكنه عاص بترك النظر إن كان فيه أهلية للنظر. وإن لم يجزم بصحة قول الغير جزماً قوياً بحيث لو رجع المقلّد رجع هو ففي صحة إيمانه وعدم صحته خلاف، وهذا الخلاف إنما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله، أما بالنظر لأحكام الدنيا فيكفي فيها الإقرار فقط.

وإلى الأقوال المتقدمة في الخلاف بين المتكلمين في صحة إيمان المقلّد وعدم صحته أشار صاحب الجوهرة بقوله:

فَكلُّ مَنْ كُلِّفَ شَرْعاً وَجَبَا	عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مَا قَدْ وَجَبَا
لِلَّهِ وَالْجَائِزَ والْمُمْتَنِعَا	وَمِثْلَ ذَا لِرُسْلِهِ فَاسْتَمِعَا
إذْ كُلُّ مَنْ قَلَّدَ في التَّوْحِيدِ	إيمَانُهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ تَرْدِيدِ
فِفِيهِ بَعْضُ اَلْقَوْمِ يَحْكِي الْخُلْفَا	وَبَعْضُهُمْ حَقَّقَ فِيهِ الْكَشْفَا
فَقَالَ إِنْ يَجزِمْ بقَوْلِ الْغَيْرِ	كَفَى وإلاَّ لَمْ يَزَلْ في الضَّيْرِ

والضَّير التي في البيت الأخير بمعنى الضرر ويقصد به الخوف على إيمانه.

ولا فرق في الخلاف بالنسبة للمقلّد بين أهل الأمصار والقرى وبين من نشأ في شاهق جبل خلافاً لمن خصه بمن نشأ في شاهق جبل دون أهل الأمصار والقرى. قال

اليوسي: تحدثت امرأتان بمحضري في زمن صِغَرِي وذكرتا الذنوب، فقالت إحداهما: الله يغفر لنا، فقالت الأخرى: يغفر لنا إن وفقه الله الذي خلقه هو أيضاً. ومثل ذلك كثير في الناس، فمنهم من يعتقد أن الصحابة أنبياء وهذا كفر، ومنهم من ينكر البعث ويقول من مات ثم جاء وأخبرنا ! إلى غير ذلك من الكفر الصريح والعياذ با لله.

وحكى الآمِديُّ اتفاق الأصحاب على انتفاء كفر المقلّد وأنه لايعرف القول بعدم صحة إيمانه إلا لأبي هاشم الجُبَّائي من المعتزلة. وذكر ابن حجر عن بعضهم أنه أنكر وجوب المعرفة أصلاً وقال إنها حاصلة بأصل الفطرة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] وبقوله-ﷺ-: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه»[2]، ولذلك قال أبو منصور الماتُريدي أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون عارفون بربهم وأنهم حَشْوُ الجنة كما جاءت به الأخبار وانعقد به الإجماع فإن فطرتهم جُبِلَتْ على توحيد الصانع وقِدَمِهِ وحُدُوثِ ما سواه وإن عجزوا عن التعبير عنه باصطلاح المتكلمين.

هذا وإن المراد بالمعرفة معرفة صفاته عز وجل وسائر أحكام الألوهية لا معرفة ذاته وكُنهِ حقيقته إذ لا يعرف ذاتَه وكُنهَ حقيقته إلاَّ هُوَ. وقد ورد في الحديث الشريف: «تَفكَّرُوا في الخَلْق ولا تَتَفكَّروا في الخالق فإنه لا يُحِيط به الفكر»[3] كما ورد في الأثر: «إن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار»، وقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: «العجز عن الإدراك إدراك».

وقد تتردد أسئلة حول معرفة الله عز وجل، نحو: أين الله؟ وكيف لا نراه؟ إلى غير ذلك، والجواب عن مثل هذه الأسئلة يكون بسؤال السائل نفسه عما يراه ويشاهده في كل لحظة، فنقول له:

---

(1) الروم : 29

(2) متفق عليه.

(3) رواه أبونعيم في الحلية عن ابن عباس.

يَدُ مَنْ تلك التي امتدت إلى عين الإنسان فجعلتها في عُلبة منخفضة من العظم لئلا تتعرض للتلف والمهالك وغطتها بأجفان وجعلت لها ماء مِلْحاً من الدموع؟

ويَدُ مَنْ تلك التي جعلت ماء الأذن مُرًّا لئلا تتسرب إليها الحشرات عند النوم، وجعلت ريق الفم عَذْباً مع أن الماء الذي نشربه واحد؟

ويَدُ مَنْ تلك التي جعلت اللِسَان يضغط على الهواء الذي يخرج من الجوف في جوانب الفم فيُنْتِج صوتاً يتحول إلى كلام منتظم يعبر عما في الضمير من خواطر وأفكار؟ فأَيُّ جهاز وُضِع في اللِّسَان حتى لاينزلق منه الكلام فيظهر غير منظم؟

ويَدُ مَنْ تلك التي أتقنت صنع البلعوم بحيث جعلته يَسُدُّ قصَبة الهواء عند دخول الطعام والشراب ويَسُدُّ مَسْلَكَ الطعام عند دخول النفَس؟

وأي جهاز وُضِعَ في الأنف حتى يميز بين الرائحتين الطيبة والخبيثة. وأي جهاز وُضِعَ في الأذن حَتَّى يميز بين الأصوات المتعددة وهي قطعة لحم؟

ويَدُ مَنْ تلك التي جعلت لكل مَفْصلٍ قطعة شحم تُسَهِّل حركته بقدر معلوم؟

ويَدُ مَنْ تلك التي امتدت إلى شجرة التوت فجعلت لها أوراقاً يأكلها الدود فيخرج لنا حَرِيراً ، ويأكلها النحل فيخرج لنا عَسَلاً مع أن عُصارة الورق بعد الهضم واحدة؟

لو تأملت ذلك كله لعلمت أن للكون إلهاً يتصرف فيه. فإن قلت إن الطبيعة هي السبب، نقول لك **(أولاً)** ومن صنع الطبيعة؟ **(وثانياً)** لو كانت الأمور بالطبيعة لكانت عصارة الورق الذي يأكله الدود ويأكله النحل واحدة، ولو كانت الأمور بالطبيعة لأحرقت النار سيدنا إبراهيم، ولقطعت السكين رقبة سيدنا إسماعيل، ولما وُجِد آدم بلا أب وأم، وحواء بلا أم ، وعيسى بلا أب.

فمن أراد معرفة الله فلينظر إلى مخلوقاته لأن النظر وسيلة للمعرفة، وليبدأ بالنظر إلى نفسه لأنها أقرب الأشياء إليه، فقد ورد في الأثر: (من عرف نفسه عرف ربه)، أي

من عرف نفسه بالحدوث والفقر عرف ربه بالقدم والغنى، وصدَق من قال: نَظَرُكَ فِيكَ يَكْفِيكَ. ثم لينظر إلى العالم العُلوِيِّ كالشمس والقمر والنجوم، ثم إلى العالم السُّفلِيِّ كالجبال والبحار والأنهار وغير ذلك من مخلوقات الله العظيمة وعلى رأسها السَّمَوات والأرض قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] ، وقال صاحب الجوهرة :

وَاجْزِمْ بِأَنَّ أَولاً مِمَّا يَجِبْ ... مَعْرِفَةٌ وفِيهِ خُلْفٌ مُنتَصِبْ
فَانظُرْ إِلى نَفْسِكَ ثُمَّ انْتَقِلِ ... لِلْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ ثُمَّ السُّفْلِي
تَجِدْ بِهِ صُنْعاً بَدِيعَ الْحِكَمِ ... لَكِنْ بِهِ قَامَ دَلِيلُ الْعَدَمِ

والنظر لغة : الإبصار، أي إدراك الشيء بحاسة البصر (أي العين)، والفكر (أي حركة النفس في المعقولات – وأما في المحسوسات فتخيل). فالنظر مشترك بين الإبصار والفكر ، والمراد منه هنا الثاني وهو الفكر.

وعُرْفاً : ترتيب أمرين معلومين ليتوصل بترتيبهما إلى عِلْم مجهول، كترتيب الجملة الصغرى مع الجملة الكبرى عند أهل المنطق في قولنا : العالم متغير وكل متغير حادث. فإنه يوصل للعِلْم بحدوث العالَم المجهول قبل ذلك الترتيب فنقول : العالَم حادث.

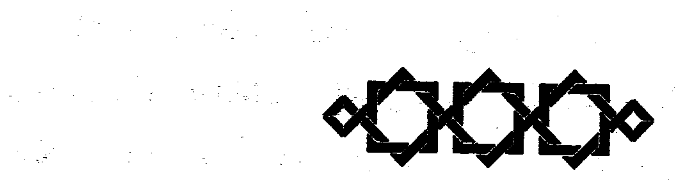
والمراد بالنفس الذات لا الروح، لأن الروح لا اطلاع لنا عليها. وبالنظر إلى الذات نصل إلى ما اشتملت عليه من سمع وبصر وكلام وطول وعرض وعمق ورضا وغضب وبياض وحمرة وسواد وعلم وجهل وإيمان وكفر ولذة وألَم وغير ذلك مما لا يحصى،

---

[1] البقرة : 163 .

وكلها متغيرة من عدم إلى وجود ومن وجود إلى عدم، فتكون حادثة وهي قائمة بالذات لازمة لها، وملازم الحادث حادث، وذلك دليل الافتقار إلى صانع حكيم واجب الوجود عام العلم تام القدرة، فتستدل بها على وجود صانعك وصفاته وهو الله سبحانه وتعالى القائل :﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1] .

والمراد بالإنسان في أول الآية (آدم)، أما الضمير في (جعلناه) فهو راجع على الإنسان بمعنى بني آدم.



[1] المؤمنون : 12 - 14 .

الإيمان والإسلام

لما كان الإيمان والإسلام باعتبار متعلّق مفهومهما وهو ما علم من الدين بالضرورة من أقسام علم التوحيد ذكرهما المتكلمون في مباحثه لكنهم اختلفوا في وضعهما فأخرهما بعضهم عن الإلهيات والنبوّات والسمعيات وقدمهما آخرون عنها لاحتياج الخائضين في تلك المباحث إليهما. وفيما يلي بيان حقيقة كل من الإيمان والإسلام :

أولاً : الإيمان

حقيقة الإيمان لغة : مطلق التصديق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[1]، أي بمصدق.

وشرعاً : التصديق بجميع ما جاء به نبينا محمد -ﷺ- مما عُلِم من الدين بالضرورة. أي عُلم من أدلة الدين بدون نظر وإن كان في الأصل نظرياً إلا أنه لما اشتهر صار ملحقاً بالضروري بجامع الجزم في كل من العام والخاص من غير قبول للتشكيك. والمراد بتصديق النبي -ﷺ- في ذلك الإذعان لما جاء به والقبول له، وليس المراد وقوع نسبة التصديق إليه في القلب من غير إذعان وقبول له حتى يلزم الحكم بإيمان كثير من الكفار الذين كانوا يعرفون حقيقة نبوته ورسالته -ﷺ-، ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[2] أي يعرفون محمداً -ﷺ- كما يعرفون أبناءهم. قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وهو ممن أسلم من اليهود: لقد عرفت محمداً حين رأيته كما عرفت ابني، ومعرفتي لمحمد أشد.

---

(1) يوسف : 17 .

(2) البقرة : 145 .

ويكفي الإجمال فيما يعتبر التكليف به إجمالاً كالإيمان بغالب الأنبياء والملائكة، ولابد من التفصيل فيما يعتبر التكليف به تفصيلاً كالإيمان بالرسل الخمسة والعشرين وهم حسب الترتيب الزمني : آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وهارون وموسى واليَسَع وذو الكفل وداود وسليمان وإلياس ويونس وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقد ذكرهم على هذا الترتيب الشيخ أحمد المرزوقي في منظومته (عقيدة العوام) فقال :

هُمْ آدَمٌ إِدْرِيسُ نُوحٌ هُودُ مَعْ — صَالِحْ وإِبْرَاهِيمُ كُلٌّ مُتَّبَعْ
لُوطٌ وإِسْمَاعِيلُ إِسْحَاقٌ كَذَا — يَعْقُوبُ يُوسُفٌ وأَيُّوبُ احْتَذَى
شُعَيْبُ هَارُونٌ وَمُوسَى وَالْيَسَعْ — ذُو الكِفْلِ دَاوُدُ سُلَيْمَانٌ اتَّبَعْ
إِلْيَاسُ يُونُسْ زَكَرِيَّا يَحْيَى — عِيسَى وَطَهَ خَاتَمٌ دَعْ غَيَّا
عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ — وَآلِهِمْ مَا دَامَتِ الأَيَّامُ

وكالإيمان بالملائكة العشرة وهم : جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ومنكر ونكير ورقيب وعتيد ومالك ورضوان، سلام الله عليهم أجمعين. وقد ذكرهم على هذا الترتيب الشيخ أحمد المرزوقي أيضاً فقال :

وَالمَلَكُ الَّذِي بِلاَ أَبٍ وَأُمْ — لاَ أَكْلَ لاَ شُرْبَ وَلاَ نَوْمَ لَهُمْ
تَفْصِيلُ عَشْرٍ مِنْهُمُ جِبْرِيلُ — مِيكَالُ إِسْرَافِيلُ عِزْرَائِيلُ
مُنْكَرْ نَكِيرٌ وَرَقِيبٌ وَكَذَا — عَتِيدُ مَالِكٌ وَرِضْوَانٌ احْتَذَى

ومعنى وجوب الإيمان بالرسل تفصيلاً أنه لو عُرِضَ على المؤمن واحد منهم لم ينكر نبوته ولا رسالته، فمن أنكر نبوة واحد منهم أو رسالته كفر، وكذلك معنى

وجوب الإيمان بالملائكة تفصيلاً أنه لو عُرِضَ على المؤمن واحد منهم لم ينكر ملائكيَّتَهُ، فمن أنكر ملائكيَّةَ واحد منهم كفر، باستثناء منكر ونكير فلا يكفر منكرهما للاختلاف في أصل السؤال.

كما يجب الإيمان بحَمَلة العرش والحافين به إجمالاً كسائر الملائكة.

واختلف في النطق بالشهادتين وهو قول (**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله**) للمتمكن من ذلك، فقيل شرط لصحة الإيمان أي لإجراء أحكام المؤمنين عليه من التوارث والتناكح والصلاة خلفه وعليه ودفنه في مقابر المسلمين ومطالبته بالصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من واجبات الإسلام؛ لأن التصديق القلبي وإن كان إيماناً إلا أنه باطن خفي فلا بد له من علامة ظاهرة تدل عليه لِتُنَاط -أي تُعَلَّقَ- به تلك الأحكام. ولذا فإن النطق بالشهادتين في حق المتمكن منه هو أحد شروط الإسلام الستة وهي: البلوغ والعقل وعدم الإكراه والنطق بالشهادتين والترتيب بينهما أي تقديم أشهد أن لا إله إلا الله على أشهد أن محمداً رسول الله، والموالاة أي عدم التفريق بينهما بمدة طويلة. وقد نظم بعضهم هذه الشروط فقال :

شُرُوطُ الاسْلاَمِ بِلاَ اشْتِبَاهِ ... عَقْلٌ بُلُوغٌ عَدَمُ الإِكْرَاهِ

وَالنُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَالْوِلاَ ... وَالسَّادِسُ التَّرْتِيبُ فَاعْلَمْ وَاعْمَلاَ

وزاد بعضهم اشتمال الشهادتين على لفظ (أشهد) في كل منهما، ولا يشترط الإتيان بحرف العطف. واختلف في النطق بهما باللغة العربية فاشترط الشافعية ذلك ووافقهم ابن عرفة من المالكية، وقال غيرهم لا يتعين ذلك، فلو أتى بهما بالعجمية صح إسلامه ولو كان يحسن العربية، بل يكفي كل ما يدل على الإيمان من الألفاظ، فلو قال الله واحدٌ ومحمدٌ رسولُه كفى. وفي جميع الأحوال لابد من الاعتراف برسالته -ﷺ- إلى جميع الناس العرب وغير العرب، أما من صدَّق بقلبه و لم يُقِرَّ بلسانه لا لعذر

منعه ولا لإباء أي امتناع بل اتفق له ذلك فهو مؤمن عند الله غير مؤمن في الأحكام الدنيوية، وأما المعذور إذا قامت قرينة على إسلامه بغير النطق كالإشارة فهو مؤمن، وأما الممتنع بأن طُلِبَ منه النطق بهما فأبى فهو كافر ولو أذعن بقلبه فلا ينفعه ذلك في الدنيا ولا في الآخرة، ومن أقر بلسانه و لم يصدق بقلبه كالمنافق فهو مؤمن بالنسبة للأحكام الدنيوية، غير مؤمن عند الله تعالى، ومحل كونه مؤمناً في الأحكام الدنيوية ما لم يُطّلَعْ على كفره بعلامة كسجود لصنم مثلاً وإلا جرت عليه أحكام الكفر، أما غير المتمكن من النطق بالشهادتين كالأخرس فلا يطالب بهما ويعتبر مؤمناً كمن اختَرَمَتْهُ المنية قبل أن ينطق بهما من غير تراخٍ فهو مؤمن عند الله بخلاف من تمكن وفرَّطَ -أي لم ينطق بهما- حتى مات فليس بمؤمن، وهذا بالنسبة للكافر الأصلي الذي يريد الدخول في الإسلام، وأما أولاد المسلمين فهم مؤمنون قطعاً وتجري عليهم الأحكام الدنيوية ولو لم ينطقوا بالشهادتين طول عمرهم، وكذلك المؤمن إذا نام أو غفل أو جُنَّ أو أغمي عليه أو حصل له حادث فمات و لم ينطق بالشهادتين فهو مؤمن وتجري عليه أحكام الإيمان.

أما العمل كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من الطاعات فهو شرط كمال على القول المختار لأهل السنة، فمن أتى بالعمل فقد حصل له الكمال ومن تركه فهو مؤمن لكنه فَوَّت على نفسه الكمال، وهذا إذا لم يكن مُسْتَحِلاًّ ترك العمل استخفافاً بالشارع أو عناداً أو شاكاً في مشروعيته وإلا فهو كافر فيما عُلِم من الدين بالضرورة. وقالت المعتزلة إن العمل شَطْرٌ من الإيمان، لأن الإيمان عندهم هو الاعتقاد والنطق والعمل، فمن ترك العمل فليس بمؤمن لفقده جزءاً من الإيمان وليس بكافر لوجود التصديق، فهو عندهم في منزلة بين المنزلتين أي بين الإيمان والكفر ويُخلَّد في النار ويعذب بأقل من عذاب الكافر.

وإنما كان القول المختار هو قول أهل السنة لأن الإيمان في اللغة هو التصديق،

فيستعمل شرعاً في تصديق خاص ولا دليل على نقله للثلاثة التي هي الاعتقاد والنطق والعمل كما زعمه المعتزلة.

هذا وقد دلت النصوص على ثبوت الإيمان قبل الأوامر والنواهي، وعلى أن الإيمان والعمل الصالح متغايران، وعلى أن الإيمان والمعاصي يجتمعان، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[1]، فهذه الآية تفيد ثبوت الإيمان قبل الأمر بالصوم، وقوله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**﴾[2]، فإن أصل العطف للمغايرة، وقوله جل شأنه: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَ هُم مُّهْتَدُونَ**﴾[3]، فقد اقتضى مفهوم الآية اجتماع الإيمان مع الظلم الذي هو بمعنى المعاصي، وقيل إن المراد بالظلم في هذه الآية الشرك كما في قوله تعالى حكاية عن لقمان: ﴿ **يَا بُنَيِّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[4]، وعلى هذا القول فمفهوم الآية من باب قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾[5] التي نزلت في حق المشركين الذين يقرون بأن الله هو الخالق والرازق والمعطي والمانع ومع ذلك يعبدون الأصنام، فيكون المراد بالإيمان هنا مطلق التصديق.

وقيل إن النطق بالشهادتين ليس شرطاً لصحة الإيمان وإنما هو شطر من الإيمان أي جزء منه، وهذا القول لبعض المحققين كأبي حنيفة وجماعة من الأشاعرة؛ وعليه فيكون الإيمان عندهم اسماً لعمل القلب واللسان جميعاً وهما التصديق والإقرار، واعترض على

---

(1) البقرة : 182 .

(2) البروج : 11 .

(3) الأنعام : 83 .

(4) لقمان : 12 .

(5) يوسف : 106 .

هذا القول بأن الإيمان يؤخذ في المعذور كالأخرس، والشيء لا يوجد بدون شطره، وأجيب عن ذلك بأنه ركن يحتمل السقوط كما فيمن ذكر، وأما التصديق فإنه ركن لا يحتمل السقوط، وعليه فمن صدَّق بقلبه و لم يتفق له الإقرار في عمره ولو مرة واحدة مع القدرة على ذلك لايكون مؤمناً لا في الظاهر عند الخلق ولا في الباطن عند الخالق. والمعتمد أن النطق بالشهادتين شرط لإجراء الأحكام الدنيوية فقط وليس شرطاً لصحة الإيمان ولا شطر في الإيمان، أما عند الله تعالى فهو مؤمن كما تقدم، وإلى هذا الخلاف أشار صاحب الجوهرة في قوله :

وفُسِّرَ الإيمَانُ بالتَّصدِيقِ   والنُّطْقُ فِيهِ الْخُلْفُ بِالتَّحْقِيقِ

فَقِيلَ شَرْطٌ كالْعَمَلْ وَقِيلَ بَلْ   شَطْرٌ...............(البيت)

واختلف في الإيمان هل هو مخلوق أم لا، والصحيح أنه مخلوق، لأنه إما أن يكون هو التصديق بالقلب فقط أو مع الإقرار باللسان، وكل من القلب واللسان مخلوق. أما ما يقال من أنه قديم باعتبار الهداية فهو خروج عن حقيقة الإيمان، نعم إنِ الْتُفِتَ للقضاء الأزلي صح القول بأنه قديم.

زيادة الإيمان ونقصه :

تقدم أن العمل الصالح عند أهل السنة من كمال الإيمان، ولما كان كذلك فقد رجح جماعة من العلماء وهم جمهور الأشاعرة القول بزيادة الإيمان بحسب ما تزيد طاعة الإنسان، والطاعة هي فعل المأمور به واجتناب المنهي عنه، كما رجحوا القول بنقص الإيمان بحسب ما تنقص هذه الطاعة، وقال جماعة ومنهم أبو حنيفة إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأنه اسم للتصديق البالغ نهاية الجزم والإذعان. وإلى هذه الأقوال يشير صاحب الجوهرة بقوله :

وَرُجِّحَتْ زِيَادَةُ الإِيمَانِ　　بِمَا تَزِيدُ طَاعَةُ الإِنسَانِ

وَنَقْصُهُ بِنَقْصِهَا وَقِيلَ لاَ　　وَقِيلَ لاَ خُلْفَ كَذَا قَدْ نُقِلاَ

وقوله (وقيل لاخلف) أشار به إلى قول جماعة آخرين ومنهم الفخر الرازي وإمام الحرمين من أنه لا يوجد خلاف حقيقي بين الفريقين بل الخلاف لفظي، فالقول بأنه يزيد وينقص محمول على ما به كماله وهو الأعمال الصالحة، والقول بأنه لا يزيد ولا ينقص محمول على أصله وهو التصديق الباطني.

والقول بزيادة الإيمان ونقصه محله في غير الأنبياء والملائكة، فإيمان الملائكة لا يزيد ولا ينقص، وإيمان الأنبياء يزيد ولا ينقص لأن الكامل يقبل الكمال ولا يقبل النقصان. كما أن الأنبياء يحْصُلُ لهم تَجَلٍّ عظيم في بعض الأحيان كما حصل لنبينا محمد -ﷺ- ليلة الإسراء والمعراج فإنه بعد هذه الليلة ليس بمنزلة ما قبله بل أكثر، وكما حصل لسيدنا إبراهيم عليه السلام من اطمئنان قلبه لما أراه الله سبحانه وتعالى كيف يُحْيِي الموتى استجابة لقوله عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَ لَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وعليه فالأقسام ثلاثة : قسم يزيد إيمانه وينقص وهم الأمة إنساً وجناً، وقسم لا يزيد ولا ينقص وهم الملائكة لأن إيمانهم جبِلِّيٌّ أي طبيعي، وقسم يزيد ولا ينقص وهم الأنبياء، وزاد بعضهم قسماً رابعاً ينقص إيمانه ولا يزيد وهم الفُسَّاق.

هذا وقد استدل العلماء على زيادة الإيمان ونقصه بدليلين أحدهما عقلي والآخر نقلي، فالعقلي هو أنه لو لم تتفاوت درجة الإيمان بالزيادة والنقص لكان إيمان آحاد الأمة بل المنهمكين منهم في الفسق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة، واللازم

---

[1] البقرة : 259 .

وهو المساواة باطلة فكذلك الملزوم الذي هو عدم التفاوت بالزيادة والنقص، أما النقلي فهو ما ورد من النصوص الكثيرة في هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[1]، وقوله: ﴿ لِيَزْدَادُواْ إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِيمَاناً﴾[3]، وقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[4]، وكقوله -ﷺ- لابن عمر لما سأله هل الإيمان يزيد وينقص: «نعم يزيد حتى يُدْخِلَ صاحبه الجنة، وينقص حتى يُدْخِلَ صاحبه النار»[5]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «لو وُزِن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به»[6]. ويخرج إيمان الأنبياء من حيث أنه يزيد ولا ينقص كما تقدم.

ثانياً : الإسلام

حقيقة الإسلام لغة : مطلق الامتثال والانقياد، ومنه قول الشخص أسلمت أمري إلى الله أي انقدت له.

وشرعاً : الامتثال والانقياد لما جاء به النبي -ﷺ- مما عُلِم من الدين بالضرورة.

وعلى هذا فالإيمان والإسلام متغايران مفهوماً -أي معنىً- وإن تلازما شرعاً باعتبار المحل بعد اتحاد الجهة المعتبرة، فلا يوجد مؤمن ليس بمسلم ولا مسلم ليس بمؤمن، ولا يرد على ذلك من صدَّق بقلبه واخْتَرَمَتْهُ المنية لأنه عند الله مؤمن ومسلم وإن كان عندنا ليس بمسلم ولا مؤمن، فالتلازم بعد اتحاد الجهة المعتبرة، وهذا بالنسبة

---

(1) الأنفال : 2 .

(2) الفتح : 4 .

(3) المدثر : 31 .

(4) التوبة : 125 .

(5) عند ابن ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء.

(6) رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر من قوله، وأخرجه ابن عدي والديلمي عن ابن عمر مرفوعاً.

للإيمان والإسلام المُنجِّيَين، وإلا فلا تلازم بل بينهما العموم والخصوص الوجهي فيجتمعان فيمن صدَّق بقلبه وانقاد بظاهره، وينفرد الإيمان فيمن صدَّق بقلبه فقط، وينفرد الإسلام فيمن انقاد بظاهره فقط، وهذا ما ذهب إليه جمهور الأشاعرة. وذهب جمهور الماُتريدِية والمحققون من الأشاعرة إلى اتحاد مفهومهما، وظاهره أن الخلاف حقيقي، والتزم بعضهم بأن معنى الإسلام عندهم الإذعان الباطني بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[1] ، وأجاب الأشاعرة عن ذلك بأن معنى هذه الآية أفمن شرح ا لله صدره لقبول الإسلام، والمراد به من جمع بين الإيمان والإسلام، وعلى هذا فالنطق دليل عليهما معاً، والعمل كمال لهما معاً.

وبعضهم جعل الخلاف لفظياً باعتبار المآل، فحمل القول باتحاد مفهومهما على معنى أن كل من اتصف بأحدهما فهو متصف بالآخر شرعاً وإن تغايرا معنى، وحُمِلَ القولُ بتغاير مفهومهما على أنهما متغايران معنىً وإن اتحدا محلاً، فآل الأمر إلى أنهما متغايران معنىً باتفاق. وعليه فيكون معنى الإيمان التصديق الباطني، ومعنى الإسلام الانقياد الظاهري، وأما محلهما فهو واحد، فكل محل لأحدهما محل للآخر.

وكما أن الإيمان يُفسر بالنطق بالشهادتين إلى جانب التصديق بالقلب كما تقدم فإن الإسلام يُفسر بالعمل كالصلاة والزكاة والصوم والحج بالإضافة إلى النطق بالشهادتين، فالنطق بالشهادتين كما أنه يدخل في الإيمان يدخل كذلك في الإسلام. فالشهادتان هما القاعدة الأولى من قواعد الإسلام الخمس، بل هي شرط في غيرها من هذه القواعد، قال ابن عاشر :

قَوَاعِدُ الإِسْلَامِ خَمْسٌ وَاجِبَاتْ   وَهْيَ الشَّهَادَتَانِ شَرْطُ الْبَاقِيَاتْ

ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ فِي الْقِطَاعْ   وَالصَّوْمُ وَالْحَجُّ عَلَى مَنِ اسْتَطَاعْ

---

(1) الزمر : 21 .

كلمة التوحيد :

المراد بكلمة التوحيد الشهادتان (**لا إله إلا الله، محمد رسول الله**)، وإنما عُبِّرَ عنها بكلمة مع أنها سبع كلمات لأن هذه الكلمات السبع كالكلمة الواحدة في عدم التفريق بينها في الغالب، فينبغي للمؤمن أن يعرف سِرَّ هذه الكلمة المشرفة وما تنطوي عليه من المحاسن حتى يتشعشع القلب عند ذكرها بأنواع اليقين وتتموج فيه أضواء الإيمان فتنبسط على الظاهر وتنتشر إلى عليين. وقد نص العلماء على وجوب فهم معناها وإلا لم ينتفع بها صاحبها في الإنقاذ من الخلود في النار، كما ينبغي فهم حكمها وفضلها، وفيما يلي بيان ذلك :

معنى كلمة التوحيد وحكمها وفضلها :

قبل الكلام على معنى هذه الكلمة المشرفة ينبغي معرفة إعرابها، وبالتأمل فيها يتبين أنها تحتوي على صَدْرٍ وعَجُزٍ. الصَّدرُ هو (**لا إله إلا الله**) والعَجُزُ هو (**محمد رسول الله**)، فعَجُزُها ظاهر الإعراب وهو جملة من مبتدأ وخبر ومضاف إليه. وأما صَدْرُها ففي إعرابه عدة وجوه، نختار منها هذا الوجه وهو أن (**لا**) نافية للجنس تعمل عمل إنَّ وهي حرف مبني على السكون، و(**إلَهَ**) اسمها مبني على الفتح في محل نصب، وخبرها محذوف تقديره معبود بحق إلا الله، و(**إلاَّ**) أداة استثناء مفرغة، و(**اللهُ**) مرفوع على البدلية، والأقرب أن يكون بدلاً من الضمير المستتر في الخبر المقدر.

وأما معنى هذه الكلمة فلا شك أنها محتوية على نفي وإثبات. فالمنفي كل فرد من أفراد حقيقة الإله غير مولانا جل وعز، والمثبت من تلك الحقيقة فرد واحد وهو الله سبحانه وتعالى، والإلَهُ هو المستغني عن كل ما سواه والمفتقِرُ إليه كلُّ ما عداه.

قال الشيخ السنوسي رحمه الله : معنى الألوهية استغناء الإله عن كل ما سواه

وافتقار كل ما عداه إليه. فمعنى لا إله إلا الله لا مستغني عن كل ما سواه ومفتقر إليه كل ما عداه إلا الله تعالى.

هذا معنى الشق الأول من الكلمة المشرفة وهو (**لا إله إلا الله**)، أما معنى الشق الثاني منها وهو (**محمد رسول الله**) فهو ظاهر لا يحتاج لتوضيح.

وأما حُكم هذه الكلمة فيختلف باختلاف الأشخاص، فالمؤمن أصالة يجب عليه أن يذكرها مرة في العمر وينوي في تلك المرة بذكرها الوجوب، فإن ترك ذلك فهو عاص وإيمانه صحيح، وأما الكافر فذكره لها واجب شرط في صحة إيمانه القلبي إن كان قادراً على النطق، فإن عجز عنها بعد حصول إيمانه القلبي لمفاجأة الموت له ونحو ذلك سقط عنه الوجوب وكان مؤمناً على المشهور من أقوال أهل السنة، وقيل لا يصح الإيمان بدون ذكرها مطلقاً ولا فرق في ذلك بين المختار والعاجز، وقيل يصح الإيمان بدون ذكرها مطلقاً مع العصيان لتاركها اختياراً كما في حق المؤمن بالأصالة إذا نطق بها و لم ينو الوجوب. ومنشأ هذه الأقوال الثلاثة الخلاف في هذه الكلمة المشرفة هل هي شرط في صحة الإيمان أو شطر -أي جزء- منه أو ليست بشرط ولا شطر كما تقدم في آخر فقرة (الإيمان).

وأما فضل هذه الكلمة فلو لم يكن في بيان فضلها إلا كونها عَلَماً على الإيمان في الشرع، لا تُعصَم الدماء والأموال إلا بحقها، وكون إيمان الكافر موقوفاً على النطق بها لكان كافياً للعقلاء، فكيف وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة، فمنها قول الرسول -ﷺ-: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[1]. ومنها قوله -ﷺ- : «قال موسى عليه الصلاة والسلام: يا رب علمني ما أذكرك به وأدعوك به. فقال : يا موسى قل لا إله إلا الله. قال موسى عليه الصلاة والسلام: يا رب كل عبادك يقولون هذا. قال: قل لا إله إلا الله. قال: لا إله إلا أنت، إنما أريد

---

[1] رواه مالك في الموطأ، وزاد الترمذي في روايته «له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

شيئاً تخصني به. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعَامِرَهُنَّ غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله»[1]. وقوله عليه الصلاة والسلام: « يؤتى برجل إلى الميزان ويؤتى بتسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مد البصر فيها خطاياه وذنوبه فتوضع في كفة الميزان، ثم يؤتى ببطاقة مقدار الأنملة فيها شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله فتوضع في الكفة الأخرى فترجح بخطاياه وذنوبه»[2]، وقوله: «ما قال عبدٌ لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه إلا فتحت له أبواب السماء حتى يُفْضِي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر»[3]، وقوله: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[4]، وقوله: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»[5]، وقوله: «لَقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا»[6]

وروي أن من قالها سبعين ألف مرة كانت له فداء من النار. وروي عن الشيخ أبي زيد القرطبي أنه قال سمعت في بعض الآثار أن من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار فعملت على ذلك رجاء بركة الوعد أعمالاً ادخرتها لنفسي وعمِلت منها لأهلي، وكان إذ ذاك يَبِيتُ معنا شابٌّ يقال إنه يكاشف في بعض الأوقات الجنة والنار، وكان في نفسي منه شيء، وبينما نحن مجتمعون إذ صاح ذلك الشاب صيحة منكرة وقال: يا عم هذه أمي في النار. فلما رأيت ما به قلت في نفسي اليوم أُجَرِّبُ صدقه، فألهمني الله أن السبعين ألفاً هي فداء هذه المرأة أم الشاب من النار، فقلت في نفسي الأثر حق، والذين رووه لنا صادقون، اللهم إن السبعين ألف نويتها فداء لهذه المرأة من النار و لم يطلع على ذلك أحد إلا الله تعالى، فما استتممت الخاطر في نفسي

---

(1) أخرجه النسائي وابن حبان.

(2) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم.

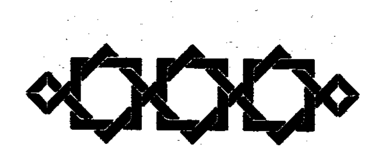
(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

(4) رواه مسلم.

(5) رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح الإسناد.

(6) رواه ابن أبي الدنيا عن حذيفة.

حتى قال الشاب: يا عم ها هي أمي أخرجت من النار، فحصلت لي فائدتان : إيماني بصدق الأثر، وسلامتي من الشاب أي من الاعتراض عليه وعلمي بصدقه[1] . اللهم اجعلنا من المؤمنين الصادقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

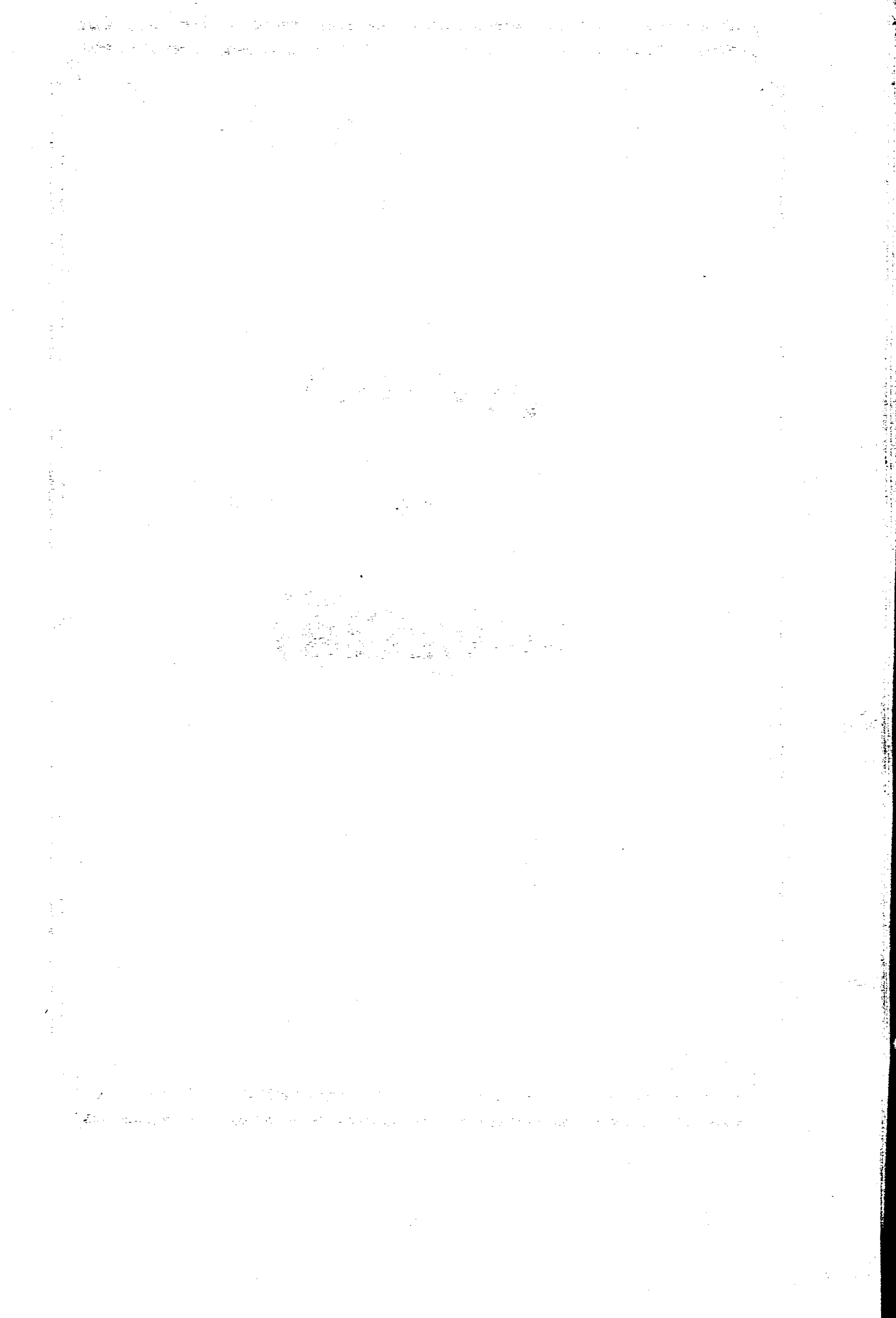


(1) كتاب نشر المحاسن لليافعي – ص 50 .

الباب الأول

في

الإلهيات



الإلهيات

المراد بالإلَهِيَّات العقائد المتعلقة بالإله جل وعز. ومدخل هذه العقائد الحكم العقلي، وفيما يلي بيان هذه العقائد مفصَّلة بعد بيان الحكم العقلي :

الحكم العقلي :

الحكم العقلي هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه من غير توقف على تكرار ولا وضع واضع، وينحصر في ثلاثة أقسام وهي: الوجوب والاستحالة والجواز. فالواجب ما لا يُتصوَّر في العقل عدمه، والمراد بالتصور هنا التصديق بمعنى الإذعان والقبول، ويدخل في ذلك كل من الواجب الضروري والواجب النظري، والأول هو ما لا يحتاج إلى نظر واستدلال كالتحيز للجِرْم -أي الجسد- بمعنى أخذه قدراً من الفراغ الموهوم وهو الهواء، والثاني ما يحتاج إلى نظر واستدلال كقدرة الله تعالى وكذا سائر ما ذكر في هذا الباب. والمستحيل ما لا يُتصوَّر في العقل وجوده، والمراد بالتصور هنا التصديق بمعنى الإذعان والقبول كما تقدم في تعريف الواجب، ويدخل في ذلك كل من المستحيل الضروري والمستحيل النظري، والأول هو ما لا يحتاج إلى نظر كخُلُوِّ الجِرْم عن الحركة والسكون، والثاني ما يحتاج إلى نظر كالشريك لله عز وجل. والجائز ما يصح في العقل وجوده وعدمه أي يصح في العقل وجوده تارة وعدمه تارة أخرى لا وجوده وعدمه في آن واحد لأنه مستحيل، ويدخل في ذلك كل من الجائز الضروري والجائز النظري، والأول هو ما لا يحتاج إلى نظر كحركة الجِرْم، والثاني ما يحتاج إلى

نظر كتعذيب المطيع وإثابة العاصي، لكن تعذيب المطيع مستحيل شرعاً وإن كان جائزاً عقلاً، وكذا إثابة العاصي إن كان عاصياً بالكفر، وأما إن كان عاصياً بغير الكفر كانت جائزة شرعاً كما هي جائزة عقلاً.

والعقل له تعاريف كثيرة أحسنها أنه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية. ويستفاد من هذا التعريف أن المدرك في الحقيقة هي النفس وإنما العقل آلة في الإدراك كسائر القُوَى ولذلك قال ابن القاسم في آياته[1] : اتفق المحققون على أن المدرك للكليات والجزئيات هي النفس الناطقة وأن نِسْبة الإدراك إلى قواها كنسبة القطع إلى السِّكين.

وإنما اقتُصِر على تعريف الحكم العقلي دون أخويه الحكم الشرعي والحكم العادي لأنه المحتاج إليه في فن التوحيد دونهما. واستكمالاً للفائدة نعرض لتعريف هذين الحكمين فنقول : أقسام الحكم من حيث هو ثلاثة: **(الأول)** الحكم العقلي وقد تقدم الكلام عليه. **(الثاني)** الحكم الشرعي وهو كلام الله المتعلق بفعل الشخص من حيث التكليف أو الوضع له وينحصر في قسمين: خطاب تكليف وهو كلام الله تعالى المتعلق بفعل الشخص من حيث التكليف، وخطاب وضع وهو كلام الله تعالى المتعلق بفعل الشخص من حيث الوضع. وللأول خمسة أقسام: الإيجاب وهو كلام الله المتعلق بطلب فعل الشيء طلباً جازماً، والندب وهو كلام الله المتعلق بطلب فعل الشيء طلباً غير جازم، والتحريم وهو كلام الله تعالى المتعلق بطلب ترك الشيء طلباً جازماً، والكراهة وهي كلام الله تعالى المتعلق بطلب ترك الشيء طلباً غير جازم، والإباحة وهي كلام الله المتعلق بالتخيير بين فعل الشيء وتركه. وللثاني خمسة أقسام أيضاً وهي: كلام الله تعالى المتعلق بكون الشيء سبباً أو شرطاً أو مانعاً أو صحيحاً أو فاسداً.

---

(1) ابن القاسم هو العلامة المحقق شهاب الدين أبو العباس العبادي الشافعي، توفي سنة 994هـ، والآيات هو حاشية له على شرح جمع الجوامع للسبكي في أصول الفقه سمَّاها (الآيات البينات).

(الثالث) الحكم العادي وهو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بواسطة التكرار، وينحصر في أربعة أقسام : ربط وجود بوجود كربط وجود الشبع بوجود الأكل، وربط عدم بعدم كربط عدم الشبع بعدم الأكل، وربط وجود بعدم كربط وجود البرد بعدم السَّتر، وربط عدم بوجود كربط عدم الإحراق بوجود الماء.

العقائد المتعلقة بمولانا جل وعز :

العقائد المتعلقة بمولانا جل وعز ثلاثة أقسام: قسم واجب له، وقسم مستحيل عليه، وقسم جائز في حقه. وفيما يلي بيان عقائد كل قسم من هذه الأقسام على الترتيب :

أولاً : العقائد الواجبة في حقه جل وعز

العقائد الواجبة في حقه جل وعز ثلاث عشرة صفة وهي : الوجود والقِدَم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث وقيامه تعالى بنفسه والوحدانية والقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام[1] . وفيما يلي شرح هذه الصفات :

(الصفة الأولى) الوجود، وإنما قُدِّمت هذه الصفة على الصفات الأخرى لأنها كالأصل لما عداها، إذ لا يصح الحكم بالقِدَم وما بعدها إلا بعد ثبوته بالوجود. واختلف في الوجود فقيل هو عين المَوجود، وهذا القول لأبي الحسن الأشعري، وقيل هو غير المَوجود وهو للإمام الرازي، وعليه التعريف المشهور وهو أنه الحال الواجبة للذات ما دامت الذات حال كون تلك الحال غير مُعَلَّلَة بعلة، ويخرج بذلك الحال المُعَلَّلَة بعلة ككونه قادراً فإنه مُعَلَّل بعلة وهي القدرة، وككونه مريداً فإنه مُعَلَّل بعلة وهي الإرادة وهكذا، ومعنى كونها مُعَلَّلة بعلة أنها لازمة لشيء آخر غير الذات، فعُلِم من ذلك أن الحال قسمان أحدهما غير مُعَلَّل بعلة والآخر مُعَلَّل بعلة. وعَدُّ الوجود صفة على القول

---

(1) هذا على رأي من لم يثبت الأحوال والمتأخرون على إثباتها.

الأول وهو كونها عين الوجود غير ظاهر لأن الصفة لابد أن تكون غير الموصوف، إلا أنه يقال: لمَّا صح أن يقال الله عالم مثلاً صح أن يقال الله موجود، وعليه جاز أن يكون الوجود صفة لشبهه بها في ذلك، وهذا كله بناء على إبقاء هذا القول على ظاهره، والحق تأويله بأن المراد ليس أمراً زائداً على المَوجود بحيث يُرَى بل هو أمر اعتباري.

على أنه لا يجب على المكلف اعتقاد شيء من ذلك، بل يكفي أن يعتقد أن الله موجود، وإن لم يعتقد أن الوجود عين الموجود أو غير الموجود لأن هذا مما اختلف فيه المتكلمون، وكذا يقال في مثل ذلك من بقية الصفات.

(**الصفة الثانية) القِدَم**، وهو في حقه تعالى عدم أوَّلِيَّة الوجود أو عدم افْتِتَاح الوجود، وفي حقنا طول المدة، وهذا مستحيل في حقه تعالى، وللعلماء في الفرق بين القديم والأزَلِي ثلاثة أقوال: (**أولها**) أن القديم هو الموجود الذي لا ابتداء لوجوده، والأزَلي هو ما لا أول له عَدَمِياً أو وُجُودِياً، فكلُّ قديمٍ أزَلِيٌّ وليس كل أزَلِيٍّ قديماً. (**الثاني**) أن القديم هو القائم بنفسه الذي لا أول لوجوده، والأزَلي هو ما لا أول له عَدَمِياً أو وُجُودِياً قائماً بنفسه أو بغيره. (**الثالث**) أن كلاً منهما ما لا أول له عَدَمِياً أو وُجُودياً قائماً بنفسه أو لا، فَهُمَا على هذا القول مترادفان، ثم على القول الأول الصفات السَّلبية لا توصف بالقِدم وتوصف بالأزَلية، بخلاف الذات العلية والصفات الثبوتية فإنها توصف بالقدم والأزَلية، وعلى القول الثاني الصفات مطلقاً لا توصف بالقِدم وتوصف بالأزَلية بخلاف الذات العلية فإنها توصف بكل منهما، وعلى القول الثالث كل من الذات والصفات مطلقاً يوصف بالقِدَم والأزَلِيَّة.

(**الصفة الثالثة) البقاء**، وهو في حقه تعالى عدم الآخرية للوجود أو عدم اختتام الوجود، والآخرية تطلق على الانقضاء وهو المراد هنا، ويقابلها بهذا المعنى الأوَّلِية بمعنى الابتداء وهو المراد في الصفة الثانية (القِدَم) وتطلق على البقاء بعد فناء الخلق،

ومنها بهذا المعنى اسمه تعالى (الآخر) ويقابلها بهذا المعنى الأولية بمعنى السَّبق على الأشياء ومنها بهذا المعنى اسمه تعالى (الأول).

(الصفة الرابعة) مخالفته تعالى للحوادث، أي عدم مماثلته تعالى لمخلوقاته، ويعلم من ذلك نَفْيُ الْجِرْمية أي الجسَدية والعَرَضية والكلية والجزئية. فإذا أَلْقَى الشيطانُ في ذهنك أنه إذا لم يكن المولى جِرْماً ولا عَرَضاً ولا كُلاً ولا جزءاً فما حقيقته؟ فقل له في رَدِّ ذلك : لا يعلم الله إلا الله ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[1].

(الصفة الخامسة) قيامه تعالى بنفسه، أي عدم افتقاره تعالى إلى المَحَل أي الذات التي يقوم بها وعدم افتقاره تعالى إلى المُخَصِّص أي المُوجِد، فمعنى القيام بالنفس شيئان: عدم افتقاره إلى المحل وعدم افتقاره إلى المخصِّص، وأما صفاته فهي مستغنية عن المخصِّص وقائمة بذاته تعالى، وأما ذوات الحوادث فمفتقرة إلى مخصِّص ومستغنية عن الذات التي تقوم بها، وأما صفاتهم فمفتقرة إلى المحل والمخصِّص معاً ، فالأقسام أربعة.

(الصفة السادسة) الوحدانية، أي في الذات والصفات والأفعال، فأقسام الوحدانية ثلاثة: وحدانية في الذات، ومعناها عدم التركيب في الذات وعدم التعدد فيها، فهي عبارة عن نفي الكَم المتصل في الذات، وهو عَرَض يقوم بمتصل الأجزاء، وعن نفي الكَم المنفصل في الذات، وهو عَرَض يقوم بمنفصل الأجزاء. ووحدانية في الصفات، ومعناها عدم تعدد الصفات لمولانا جل وعز من جنس واحد كأن يكون له قدرتان فأكثر، خلافاً لمن قال بتعدد ذلك حسَب تعدد المتعلقات، وعدم ثبوت صفة لغيره كصفته تعالى كأن يكون لغيره قدرة كقدرته تعالى، وأما أن يكون لغيره قدرة لا كقدرته تعالى فلا يضر، لأنها عبارة عن نفي الكَم المتصل في الصفات وهو تعدد الصفات لذاته تعالى من جنس واحد، وعن نفي الكَم المنفصل في الصفات وهو ثبوت صفة لغيره كصفته تعالى.

---

(1) الشورى : 9 .

(الصفة السابعة) القدرة، وهي كما عَرَّفها المتكلمون: صفة وجودية قائمة بذاته تعالى، يَتَأَتّى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه، وفي قولهم يَتَأَتّى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه إشارةٌ إلى تعلقها الصَّلوحي القديم وهو صلاحيتها في الأزَل للإيجاد والإعدام، لا إلى تعلقها التنجيزي الحادث وهو الإيجاد والإعدام بالفعل لأن المتبادر من التعبير بالتَّأَتي هو الأول، وأيضاً التعبير بكل ممكن يقتضيه، لأنها لا تتعلق تعلقاً تنجيزياً حادثاً بكل ممكن إذ الممكن الذي تعلق علم الله تعالى بعدم وجوده كإيمان أبي جهل لا تتعلق به ذلك التعلق وإن تعلقت به تعلقاً صلوحياً قديماً، وبهذا يمكن الجمع بين الخلاف في كونه مقدوراً أو غير مقدور بحيث يُحمل الأول على التعلق الصلوحي القديم والثاني على التعلق التنجيزي الحادث. فتلخص أن للقدرة تعلقين أحدهما صلوحي قديم والآخر تنجيزي حادث.

وقال بعضهم : هي صفة تؤثر في الممكن الوجود أو العدم، وهذا القول مجاز عقلي من باب الإسناد إلى السَّبب، وإلا فالمؤثر حقيقة هو الله سبحانه وتعالى إذ لا فعلَ إلاَّ له. وأما قول العامة القدرة فعَّالة أو انظر فعل القدرة أو نحو ذلك فحرام، وقيل مكروه ما لم يعتقد القائل أن القدرة تؤثر بنفسها وإلاَّ فهو كُفْرٌ والعياذ بالله، ويخرج بالممكن وهو الجائز الواجب والمستحيل فلا تتعلق القدرة بواجب ولا بمستحيل.

(الصفة الثامنة) الإرادة، وهي كما عَرَّفها المتكلمون : صفة وجودية قائمة بذاته تعالى تُخَصِّصُ الممكن ببعض ما يجوز عليه. وفي قولهم تُخَصِّصُ الممكن ببعض ما يجوز عليه إشارةٌ إلى تعلقها التنجيزي القديم وهو تخصيص الشيء ببعض ما يجوز عليه أزلاً، وإلى تعلقها التنجيزي الحادث بناء على القول به وهو تخصيص الشيء بذلك حين إيجاده أو إعدامه، لا إلى تعلقها الصلوحي القديم وهو صلاحيتها أزلاً لتخصيص الممكن بكل شيء مما جاز عليه، لأن المتبادر من التعبير بالتخصيص أن المراد التخصيص بالفعل وأيضاً التعبير ببعض ما يجوز عليه يقتضيه لأنها تصلح في الأزل لتخصيص الممكن بكل

شيء مما جاز عليه لا بالبعض فقط. فتلخص أن للإرادة ثلاثة تعلقات بناء على القول بأن لها تعلقاً تنجيزياً حادثاً، والتحقيق أن ذلك ليس تعلقاً مستقلاً بل إظهار للتعلق التنجيزي القديم، وعلى هذا فيكون لها تعلقان فقط، أحدهما صلوحي قديم والآخر تنجيزي قديم، وإسناد التخصيص إليها مجاز عقلي من باب الإسناد إلى السَّبب وإلا فالمخصص حقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

والمراد بقولهم ببعض ما يجوز عليه (الممكنات المتقابلات) وهي ستة أشياء تقابلها ستة أخرى، وتلك الأشياء هي : الوجود بدلاً عن العدم، والصفة المخصوصة بدلاً عن سائر الصفات، والزمان المخصص بدلاً عن سائر الأزمنة، والمكان المخصوص بدلاً عن سائر الأمكنة، والجهة المخصوصة بدلاً عن سائر الجهات، والمقدار المخصوص بدلاً عن سائر المقادير، وقد نظمها بعضهم بقوله:

الْمُمْكِنَاتُ الْمُتَقَابِلاَتُ وُجُودُنَا وَالْعَدَمُ الصِّفَاتُ

أَزْمِنَةٌ أَمْكِنَةٌ جِهَاتُ كَذَا الْمَقَادِيرُ رَوَى الثِّقَاتُ

ومعنى كونها متقابلات أنها متنافيات، فالوجود مقابل للعدم ، وبعض الصفات مقابل بعضاً فكون الشيء أبيض مقابل كونه أسود، وبعض الأزمنة مقابل بعضاً فكون الشيء في زمن نوح عليه السلام يقابل كونه في زمن محمد -ﷺ- ، وبعض الأمكنة يقابل بعضاً فكون الشيء في مصر مثلاً يقابل كونه في الحجاز، وبعض الجهات يقابل بعضاً فكون الشيء في جهة المشرق مثلاً يقابل كونه في جهة المغرب، وبعض المقادير يقابل بعضاً فكون الشيء طويلاً يقابل كونه قصيراً.

ويخرج بالممكن -وهو الجائز- الواجب والمستحيل فلا تتعلق الإرادة بواجب ولا بمستحيل كالقدرة، ويشمل الممكن الخير والشر خلافاً للمعتزلة القائلين بأن إرادة الله لا تتعلق بالشرور والقبائح. قيل إن القاضي عبد الجبار الهَمَذاني وهو من المعتزلة دخل

على الصاحب بن عباد وعنده الشيخ أبوإسحاق الإسفراييني فلما رأى القاضي عبدالجبار الشيخ الإسْفرايني قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء، يعرض بقول أهل السنة إن إرادة الله تتعلق بالشر كما تتعلق بالخير. فقال الشيخ : سبحان من لا يَجري في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار : أفيريد ربنا أن يُعْصَى؟ فقال الشيخ : أفيُعْصَى ربنا كرهاً؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن منعني من الهدى وقضى عليَّ بالرَّدَى، أَحْسَنَ إليَّ أمْ أسَاءَ؟ فقال الشيخ : إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء. فَبُهِتَ المعتزلي و لم يتكلم. وإلى رأي أهل السنة يشير صاحب الشيبانية بقوله:

وَنُؤْمِنُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ ... مِنَ اللَّهِ تَقْدِيراً عَلَى الْعَبْدِ عُدِّدَا

فَمَا شَاءَ رَبُّ الْعَرْشِ كَانَ كَمَايَشَا ... وَمَا لَمْ يَشَأْ مَاكَانَ فِي الْخَلْقِ مُوجَدَا

قال الشيخ البيجوري: اختلف في جواز نِسْبة فعل الشرور والقبائح إليه تعالى، والراجح جواز ذلك في مقام التعليم لا في غيره، وهذا الخلاف جارٍ أيضاً في نسبة الأمور الخسِيسَة إليه تعالى، والأصح الجواز في مقام التعليم لا في غيره كذلك، فلا يجوز في غير مقام التعليم أن يقال الله خالق القردة والخنازير، وسبحان من رزق الهدهد ومن ذَبَّبَ الشَّوْك.

والصحيح أن الإرادة تخالف كُلاًّ من الأمر والرضا والعلم، فتخالف الأمر بمعنى أنها ليست عينَه ولا مستلزمةً له. قال صاحب الجوهرة :

وقُدْرَةٌ إِرَادَةٌ وَغَايَرَتْ ... أَمْراً وَعِلْماً والرِّضَا كَمَا ثَبَتْ

فالضمير في قوله (غايرتْ) يرجع إلى الإرادة، وذكر القدرة قبلها إنما هو لضرورة النظم فقط، فالحكم بالمغايرة خاص بالإرادة دون القدرة، وعليه فقد يريد الله الشيء ويأمر به كإيمان من علم الله منهم الإيمان، وقد يريد الشيء ولا يأمر به ككفر من علم الله منهم الكفر، وقد لا يريد الشيء ولا يأمر به ككفر من علم الله منهم الإيمان، وقد

يأمر بالشيء ولا يريده كإيمان من علم الله منهم عدم الإيمان، وإنما أمرهم به مع كونه لم يرده منهم لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1]، فالأقسام أربعة: أراد وأمر، وأراد ولم يأمر، ولم يرد ولم يأمر، ويأمر ولا يريد.

والمراد بالأمر هنا الأمر النفسي لا اللفظي، لأن مغايرة الإرادة للأمر اللفظي في غاية الظهور فليس فيه خلاف، وإنما الخلاف في الأمر النفسي وهو اقتضاء أي طلب الفعل كاترك كذا وكُفَّ عن كذا بخلاف لا تفعل كذا فإنه نهي لا أمر.

وفي ذلك رَدٌّ على المعتزلة الذين يقولون إن إرادة الله تعالى لفعل غيره أمره به وهو اعتقاد فاسد. وتخالف الإرادة الرضا أيضاً وهو قبول الشيء والإثابة عليه لأن الإرادة قد تتعلق بما لا يرضي الله كالكفر الواقع من الكفار فإنه تعالى أراده منهم ولم يرضه قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[2]، وفي هذا رَدٌّ على من زعم أن إرادة الله تعالى لفعل غيره تستلزم رضاه بهذا الفعل وهو زعم باطل، ولذا قيل: قدّر ورَضِيَ، وقدّر ولم يَرْضَ، قدّر الخير ورضيه وقدّر الشر ولم يرضه.

وتخالف الإرادة العلم كذلك، بمعنى أنها ليست عينه ولا مستلزمةً له، لأن العلم يتعلق بالواجب والمستحيل بالإضافة إلى الجائز كما سنعرفه، بخلاف الإرادة التي لا تتعلق إلا بالجائز كما تقدم، وفي هذا رَدٌّ على من زعم من المعتزلة أن إرادة الله تعالى لفعل غيره هي علمه بهذا الفعل أو مستلزمة له وهو زعم باطل.

(الصفة التاسعة) العلم، وهي صفة وجودية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالشيء على وجه الإحاطة على ما هو به دون سَبْقِ خَفَاءٍ، ففي قولهم تتعلق بالشيء إلى آخره إشارة إلى تعلق العلم التنجيزي القديم وهو تعلقه بالشيء في الأزل، وليس له إلا هذا التعلق

---

[1] الأنبياء : 23 .

[2] الزمر : 8 .

خلافاً لمن زعم أن له تعلقاً صلوحياً قديماً وتعلقاً تنجيزياً حادثاً لما يلزم عليه من اتصافه بالجهل -تعالى الله عن ذلك- لكنه يتعلق بالشيء قبل وجوده على وجه أنه سيكون، وبعد وجوده على وجه أنه كان. فالتعبير بكان أو سيكون إنما هو باعتبار المعلوم لا باعتبار العلم، فهو سبحانه وتعالى يعلم الأشياء أزلاً إجمالاً وتفصيلاً، ويعلم الكليات والجزئيات خلافاً لما زعمه الفلاسفة من أنه سبحانه وتعالى لا يعلم الجزئيات وقد كذبوا على الله ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1]، وهذا أحد الأمور الثلاثة التي كفروا بإنكارها ،والثاني حدوث العالَم، والثالث حشر الأجساد يوم القيامة، فهم يقولون إن العالَم قديم وإن الأجساد لا تُحشر يوم القيامة، وفي ذلك قال بعض العلماء :

بِثَلاَثَةٍ كَفَرَ الْفَلاَسِفَةُ الْعِدَا	إِذْ أَنكَرُوهَا وَهْيَ حَقّاً مُثْبَتَهْ
عِلْمٌ بِجُزْئِيٍّ حُدُوثُ عَوَالِمٍ	حَشْرٌ لأَجْسَادٍ وَكَانَتْ مَيِّتَهْ

ويتعلق العلم تعلقاً تنجيزياً قديماً فقط كما عرفنا بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات، فالواجبات كذاته تعالى وصفاته، والجائزات كخلقه تعالى للأشياء، والمستحيلات كالشريك له فيعلم أنه معدوم، وإنما تعلق علمه سبحانه وتعالى بالواجبات والجائزات والمستحيلات لأنه ليس من صفات التأثير بخلاف القدرة والإرادة.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم الأشياء أزلاً إجمالاً وتفصيلاً كما تقدم فإن التصرفات التي يظهرها في خلقه كان يعلمها قبل الظهور، قيل إن رجلاً سأل ابنَ الشَّجَرِي وهو في مجلسه للوعظ يقرر تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2]

---

(1) الملك : 14 .

(2) الرحمن : 27 .

فقال له : ماذا يفعل ربك الآن؟ فلم يرد عليه ابنُ الشَّجَرِي وانصرف إلى بيته وبات تلك الليلة مهموماً فرأى المصطفى -ﷺ- في المنام فذكر له الأمر وسأله عن الجواب فقال له: إن السائل هو الخِضْر وسيعود إليك فقل له: شؤون يُبديها ولا يَبتديها، يخفِضُ أقواماً ويرفع آخرين، فأصبح مسروراً وذهب إلى مجلسه فأتاه الرجل وأعاد عليه السؤال فأجابه بما تقدم فقال له: صَلِّ على من علَّمك، وانصرف مسرعاً.

والمراد بالشؤون الأحوال، وقوله يُبديها ولا يَبتديها معناه يُظهرها ولا يَستأنفها علماً لأنه يعلمها قبل ذلك، فمعنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كل وقت هو في أمر يظهره على وفق علمه وإرادته أزلاً ودليل ذلك قوله تعالى في حق أصحاب أهل الكهف: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾[1]، والمعنى: بعثناهم لِيَظهَر لهم متعلّق علمنا أي التنجيزي القديم، فاللام في (لِنَعْلَمَ) ليست للتعليل، وإنما هي للعاقبة والمآل.

هذا علم الله، أما علمنا نحن فهو إدراك الشيء على ما هو به، ويطلق حقيقة عرفية على القواعد المدونة وعلى المَلَكة التي يُقتدر بها على إدراكات جُزئيَّة، والعلم والمعرفة معناهما واحد. ومقابل العلم الجهل وهو إمَّا بسيط أو مُرَكَّب، فالبسيط هو عدم العلم بالشيء عما من شأنه العلم، والمركَّب هو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع، وإنما سُمِّيَ مُرَكَّباً لاستلزامه جهلين: جهله بالشيء وجهله بأنه جاهل، وفي ذلك قال بعضهم :

جَهِلْتَ وَمَا تَدْرِي بِأَنَّكَ جَاهِلٌ ... وَمَنْ لِي بِأَنْ تَدْرِي بِأَنَّكَ لاَ تَدْرِي

(الصفة العاشرة) الحياة، وهي صفة وجودية تصحح لمن قامت به صفات الإدراك، أي أن يتصف بصفات الإدراك التي هي العلم والسمع والبصر، ومثل صفات الإدراك

---

(1) الكهف : 12 .

غيرها من سائر الصفات كالقدرة والإرادة[1]. وهذا التعريف يحتمل أن يكون للحياة القديمة فقط وهو المناسب للمقام، ويحتمل أن يكون لكل من الحياة القديمة والحادثة، ولا يصح أن يكون للحياة الحادثة فقط لأنه خروج عن المقام.

والحياة الحادثة غير الروح، فليست الروح هي الحياة، إذ قد توجد حياة بلا روح، فقد خلق الله الحياة في كثير من الجمادات معجزة أو كرامة بدون روح كالشَّجَر الذي سلَّم على المصطفى عليه الصلاة والسلام، والحصى الذي سبَّح في كفه -ﷺ- .

والحياة لا تتعلق بشيء من الموجود أو المعدوم.

(الصفة الحادية عشرة) السَّمع، وهي صفة وجودية قائمة بذاته تعالى تتعلق بكل موجود على وجه الإحاطة تعلقاً زائداً على تعلق العلم، وله ثلاثة تعلقات: تعلق تنجيزي قديم وهو تعلقه أزلاً بذاته تعالى وصفاته، وتعلق صلوحي قديم وهو صلاحيته للتعلق بالموجود الجائز قبل وجوده، وتعلق تنجيزي حادث وهو تعلقه تنجيزياً بالموجود المذكور بعد وجوده، والمراد بالموجود الواجب والجائز.

أما في حق الحوادث فالسمع قوة مودعة في العصب المفروش في مقعر الصماخ، وهذا تعريفه عند الحكماء ، أما عند أهل السنة فهو قوة خلقها الله تعالى في الأذنين.

(الصفة الثانية عشرة) البصر، وهي صفة وجودية قائمة بذاته تعالى تتعلق بكل موجود على وجه الإحاطة تعلقاً زائداً على تعلق العلم، وهو كالسمع له ثلاثة تعلقات: تعلق تنجيزي قديم وهو تعلقه أزلاً بذاته تعالى وصفاته، وتعلق صلوحي قديم وهو صلاحيته للتعلق بالموجود الجائز قبل وجوده، وتعلق تنجيزي حادث وهو تعلقه تنجيزياً بالموجود المذكور بعد وجوده، والمراد بالموجود الواجب والجائز.

---

[1] هذا تعريف الإمام السنوسي، وهناك تعريف لكل من الحياتين كل واحدة بمفردها وهو أسلم، فحُدَّت القديمة بقوله: (صفة أزلية تقتضي صحة العلم)، وحُدَّت الحادثة بقوله: (كيفية يلزمها قبول الحس والحركة الإرادية)، انظر شرح الخريدة.

أما في حق الحوادث فالبصر قوة مركوزة في العَصَبَتين المتلاقيتين في مقدم الدماغ على وجه التقاطع الصليبي. وهذا تعريفه عند الحكماء، أما عند أهل السنة فهو قوة خلقها الله تعالى في العينين.

واختلف هل السمع أفضل أو البصر في حق الحوادث، والقول الأول هو الصحيح أي أن السمع أفضل من البصر، وقيل إن البصر أفضل لأنه يدرك به الأجسام والألوان والهيآت بخلاف السمع فإنه قاصر على الأصوات، ورد هذا القول بأن كثرة المتعلقات التي تدرك بالبصر إنما هي فوائد دنيوية لا يعول عليها، ألا ترى أن من جالس أصَمَّ فكأنما جالس حجراً ملقىً على الأرض، وأما الأعمى الذي يسمع فهو في غاية الكمال الفهمي والعلم الذوقي.

هذا ويدخل في الموجودات التي يتعلق بها بصر الله تعالى وسمعه الألوان والأصوات، بل حتى الأكوان وهي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون مما يتعلق بها سمعه تعالى وبصره[1].

(**الصفة الثالثة عشرة) الكلام**، وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت، مُنَزَّهة عن التقدُّم والتأخُّر والإعراب والبناء والسكوت. وقولهم ليست بحرف ولا صوت فيه رد على بعض المبتدعة كالحشَوِيَّة الذين يقولون إن كلام الله تعالى هو الحروف والأصوات المتوالية المترتبة ويزعمون أنها قديمة، وتغالى بعضهم حتى زعم قِدَم هذه الحروف التي نقرؤها وما يتعلق بذلك من المداد والورق، بل تجاوز جهل بعضهم فعدَّ غلاف المصحف قديماً كالكلام النفسي. وقالت المعتزلة كلام الله هو الحروف والأصوات الحادثة وهي غير قائمة بذاته، فمعنى كونه تعالى متكلماً عندهم أنه خالق للكلام في بعض الأجسام لزعمهم أن الكلام لايكون إلا بحروف وأصوات وهو مردود بأن الكلام النفسي ثابت لغة، كما قال الشاعر العربي:

---

(1) قال ميارة في شرح ابن عاشر: ويسمع ويرى تبارك وتعالى مع ذلك فيما لا يزال ذوات الكائنات كلها وجميع صفاتها الوجودية كانت من قبيل الأصوات أو من غيرها أجساماً كانت أو ألواناً أو أكواناً أو غيرها.

ويتعلق الكلام بالواجبات والجائزات والمستحيلات، غير أن تعلقه تعلق دلالة لا تعلق انكشاف، وهو صفة واحدة لكنها تتنوَّع باعتبار تعلقاتها، فتعلقها بطلب فعل الصلاة مثلاً يُسمَّى أمراً، وتعلقها بطلب ترك الزنا مثلاً يُسمى نهياً، وتعلقها بمثل قصة فرعون يُسمى خبراً، وتعلقها بالإخبار بأن الطائع له الجنة يُسمى وعداً، وتعلقها بالإخبار بأن العاصي يدخل النار يُسمى وعيداً، إلى غير ذلك من التعلقات، وجميعها تعلقات تنجيزية قديمة إلا الأمر والنهي عند الأشاعرة فلهما تعلقان صلوحيان قديمان قبل وجود المكلفين وتعلقان تنجيزيان حادثان بعد وجودهم.

وكما يطلق كلام الله على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى يطلق على الألفاظ التي نقرؤها ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «ما بين دَفَّتَيِ الْمُصْحَف كلام الله تعالى» أي مخلوق له ليس من تأليف المخلوقين، وإطلاقه على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى وعلى الألفاظ التي نقرؤها قيل بالاشتراك وقيل حقيقة في النفسِي مجاز في اللفظي، وعلى كل من القولين من أنكر أن ما بين دَفَّتَيِ المصحف كلام الله تعالى فقد كفر إلا أن يريد أنه ليس هو الصفة القائمة بذاته تعالى، ومع كون اللفظ الذي نقرؤه حادثاً لا يجوز أن يقال (القرآن حادث) لأنه يطلق على الصفة القائمة بذاته تعالى أيضاً كما تقدم لكنْ مجازاً على الأرجح، فربما يُتوهَّم من إطلاق أن القرآن حادث أن الصفة القائمة بذاته تعالى حادثة، ولذلك ضُرِبَ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وحُبِسَ على أن يقول بخلق القرآن فلم يرض.

ونُقِلَ عن بعض المتكلمين من المتقدمين أن الألفاظ التي نقرؤها تدل على الكلام القديم وهو خلاف التحقيق لأن بعض مدلوله قديم كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[1]، وبعض مدلوله حادث كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ

(1) البقرة : 253 .

﴿مِن قَوْمِ مُوسَى﴾[1] ، والتحقيق أن هذه الألفاظ تدل على بعض مدلول الكلام القديم لأنه يدل على جميع الواجبات والجائزات والمستحيلات، فالألفاظ التي نقرؤها تدل على بعض هذا المدلول، فلو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الكلام القديم طلب إقامة الصلاة مثلاً نفهم ذلك من قوله تعالى:﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾[2] ولو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الكلام القديم النهي عن الزنا مثلاً نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا﴾[3] ، وهكذا. فمدلول الكلام اللفظي هو مدلول الكلام النفسي، وإن شئت قلت هو مثله لتغايرهما باعتبار الدَّالِّ، نعم الألفاظ التي نقرؤها تدل على الكلام القديم بطريق الدلالة الالتزامية العرفية لأن كل من له كلام لفظيٌّ لزم عُرفاً أن له كلاماً نفسياً.

والحاصل أن الكلام اللفظي باعتبار دلالته المطابقية يدل على مثل مدلول الكلام القديم كما قال بعض المتأخرين، وباعتبار دلالته الالتزامية العرفية يدل على نفس الكلام القديم كما قاله بعض المتقدمين، وفي هذا المقام أكَّدَ الشيخ اللقاني في جوهرة التوحيد على وجوب تنزيه القرآن عن الحدوث حيث قال :

وَنَزِّهِ الْقُرْآنَ أَيْ كَلامَهْ عَنِ الْحُدُوثِ وَاحْذَرِ انْتِقَامَهْ

قال الشيخ البيجوري في شرح هذا البيت: أي اعتقد أيها المكلف تنزه القرآن بمعنى كلامه تعالى عن الحدوث خلافاً للمعتزلة القائلين بحدوث الكلام زعماً منهم أن من لوازمه الحروف والأصوات وذلك مستحيل عليه تعالى، فكلام الله تعالى عندهم مخلوق لأن الله خلقه في بعض الأجرام. ومذهب أهل السنة أن القرآن بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق. وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق، لكن يمتنع أن

---

(1) القصص : 76 .
(2) المزمل : 20 .
(3) الإسراء : 32 .

يقال القرآن مخلوق ويراد به اللفظ الذي نقرؤه إلا في مقام التعليم لأنه ربما أوهم أن القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق، ولذلك امتنعت الأئمة من القول بخلق القرآن، وقد وقع في ذلك امتحان كبير لخلق كثير من أهل السنة، فخرج البخاري فاراً وقال: اللهم اقبضني إليك غير مفتون، فمات بعد أربعة أيام، وسجن عيسى بن دينار عشرين سنة، وسئل الشعبي فقال : أما التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فهذه الأربعة حادثة، وأشار إلى أصابعه فكانت سبب نجاته، واشتهر مثل ذلك عن الإمام الشافعي رضي الله عنه، وحُبِس الإمام أحمد وضُرِب بالسِّياط حتى غُشِيَ عليه، ويذكر أن النبي -ﷺ- قال للإمام الشافعي في المنام : بشر أحمد بالجنة على بلوى تصيبه، فأرسل له كتاباً ببغداد فلما قرأه بكى ودفع للرسول قميصه.

هذا كله بالنسبة للقرآن بمعنى اللفظ المقروء، أما بالنسبة للقرآن الذي هو كلام الله فلا خلاف في أنه صفة من صفاته القديمة، وفي ذلك يقول صاحب الشيبانية:

كَلامٌ قَدِيمٌ مُنْزَلٌ غَيْرُ مُحْدَثٍ ... بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ وَالدَّلِيلُ تَأَكَّدَا

كَلامُ إِلَهِ العَالَمِينَ حَقِيقَةً ... فَمَنْ شَكَّ فِي هَذَا فَقَدْ ضَلَّ وَاعْتَدَى

وَمَنْ قَالَ مَخْلُوقٌ كَلامُ إِلَهِنَا ... فَقَدْ خَالَفَ الإِجْمَاعَ جَهْلاً وَأَلْحَدَا

هذا رأي أهل السنة وهو الحق. أما المعتزلة فإنهم يقولون بأن القرآن مخلوق وليس صفة من صفاته عز وجل، وبعضهم يقول إنه مُحْدَث وليس مخلوقاً، ورُدَّ هذا القول بأن الحدوث مثل الخلق، فهو كمن هرب من المطر ووقف تحت الميزاب. ومما تمسَّك به المعتزلة من النصوص الدالة على الحدوث قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[2]، ونحو ذلك من الآيات. والجواب أن كل ظاهر من

(1) القدر : 1 .

(2) الحجر : 9 .

الكتاب والسنة يدل على حدوث القرآن فهو محمول على اللفظ المقروء لا على الكلام النفسي. والمراد باللفظ المقروء اللفظ المنزل على نبينا محمد -ﷺ- المُتَعبَّد بتلاوته المُتَحَدَّى بأقصر سورة منه، والراجح أن المنزل هو اللفظ والمعنى، وعلى هذا القول يجوز الاعتقاد بأن الله وضع القرآن أولاً في اللوح المحفوظ ثم أنزله في صحائف إلى سماء الدنيا في محل يقال له بيت العزة في ليلة القدر، ثم أنزله على النبي -ﷺ- مفرقاً بحسب الوقائع، ولذا قال الشيخ اللقاني في الجوهرة:

فَكُلُّ نَصٍّ لِلْحُدُوثِ دَلاَّ ... اِحْمِلْ عَلَى اللَّفْظِ الَّذِي قَدْ دَلاَّ

وينطبق هذا الحكم على قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[1]. فالمراد بالمحدث هنا اللفظ المتجدد الذي يسمعونه من النبي -ﷺ- حين يقرأ عليهم ما نزل من القرآن، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ﴾[2].

هذا وقد اختلف علماء الكلام في صفة (الإدراك) فقال بعضهم بثبوتها، وعليه تكون صفات المعاني ثماني صفات، وقال بعضهم بنفيها، وتوقف البعض الآخر فلم يقل بالثبوت ولا بالنفي، وإلى هذه الأقوال الثلاثة أشار الشيخ اللقاني في الجوهرة بقوله:

فَهَلْ لَهُ إِدْرَاكٌ اَوْ لاَ خُلْفُ ... وَعِنْدَ قَوْمٍ صَحَّ فِيهِ الْوَقْفُ

وحقيقة الإدراك في حق الحادث تصور حقيقة الشيء المُدْرَك (اسم مفعول) عند المُدْرِك (اسم فاعل)، وفي حقه سبحانه وتعالى : صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يُدْرَك بها الملموسات كالنعومة والخشونة والمشمومات كالرائحة الطيبة والمذوقات كالحلاوة من غير اتصال بمحالها التي هي الأجسام ولا تَكَيُّف بتكيُّفها، لأن ذلك أمر عادي وقد

---

(1) الأنبياء : 2 .

(2) الشعراء: 4 .

ينفك، وقيل يدرك بها كل موجود، وهي صفة واحدة عند المتأخرين ولكن الواقع في كتب الكلام أنها ثلاث صفات وهي: صفة إدراك الملموسات، وصفة إدراك المشمومات، وصفة إدراك المذوقات.

وقد استدل القائلون بإثباتها بأنها صفة كمال، وكل كمال واجب لله تعالى، ولأنه لو لم يتصف بها لاتصف بضدها وهو نقص، والنقص عليه تعالى محال، فيجب أن يتصف بها على ما يليق به من غير اتصال بالأجسام ومن غير وصول اللّذّات والآلام له تعالى. أما القائلون بنفيها فقد استدلوا بأنه لو اتصف سبحانه وتعالى بها لزم الاتصال بمحَالِّها تلازماً عقلياً فلا يُتَصَوَّر انفكاكها، واللازم مستحيل في حقه تعالى، واستحالة اللازم وهو الاتصال توجب استحالة الملزوم وهو اتصافه تعالى بها. وقد رد القائلون بإثباتها على ذلك بقولهم : إنهم لا يُسَلِّمون أن بين الاتصاف بها والاتصال بمحالها تلازماً عقلياً لما تقدم من أن ذلك أمر عادي يقبل الانفكاك، كما أن دعوى أنه تعالى لو لم يتصف بها لاتصف بضدها هي دعوى فاسدة لمنافاة العلم الواجب له تعالى لذلك الضد، لأن علمه تعالى محيط بمتعلقاتها. أما القائلون بالتوقف فقد استدلوا بتعارض الأدلة في ذلك كما ذكر الفريقان الآخران. قال الشيخ البيجوري: وهذا القول أسلم وأصح من القولين الأولين.

كما اختلفوا في صفة (التكوين) فأثبتها الماتريدية ونفاها الأشاعرة. وعلى قول الماتريدية هي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يُوجِدُ بها ويُعْدِمُ بها، لكن إن تعلقت بالوجود تُسَمَّى إيجاداً، وإن تعلقت بالعدم تُسَمَّى إعداماً، وإن تعلقت بالحياة تُسَمَّى إحياءً ، وهكذا. فصفات الأفعال عندهم قديمة لأنها هي صفة التكوين وهي قديمة. وقال بعضهم إن هذه كلَّها صفات متعددة وفيه تكثير للقدماء جداً. أما على قول الأشاعرة فإن صفات الأفعال كالإيجاد والإعدام والإحياء هي تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة. فإن قيل على طريقة الماتريدية الذين أثبتوا هذه الصفة: ما وظيفة القدرة عندهم؟

أجيب بأن وظيفتها تهيئة الممكن بحيث تجعله قابلاً للوجود والعدم. ورُدَّ هذا القول بأن قبوله لذلك ذَاتِيٌّ له، وأجيب بأن الذاتي إنما هو القَبول الإمكاني بخلاف القبول الاستعدادي القريب من الفعل. وعلى القول بثبوت هذه الصفة تكون صفات المعاني تسع صفات.

وبهذا ينتهي الكلام على الصفات الواجبة لله سبحانه وتعالى، وقد قسم علماء الكلام هذه الصفات إلى ثلاثة أقسام: نفسية وسلبية ومعاني. فالنَّفْسِيَّة صفة واحدة وهي الوجود، وسُمِّيَتْ بالنفسية نسبة إلى النفس أي الذات، فالصفة النفسية هي ما لا تتعقل الذات إلا بها، وليس له تعالى صفة نفسية سوى الوجود.

والسَّلبية خمسُ صفات وهي: القدم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث وقيامه تعالى بنفسه والوحدانية، وسميت بالسَّلبية لأنها مفسَّرة بالسَّلب، فالقِدم سلب أوَّلية الوجود، والبقاء سلب آخرية الوجود، والمخالفة للحوادث سلب المماثلة لها، والقيام بالنفس سلب الافتقار، والوحدانية سلب التعدد. وليس المراد من كونها سلبية أنها مسلوبة عن المولى سبحانه وتعالى إذ هي ثابتة له لا مسلوبة عنه، وإنما المراد أنها سلبت ما لا يليق به جل وعز من أولية الوجود وآخريته والمماثلة والافتقار والتعدد.

والمعاني سبع صفات وهي: القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، وسميت بصفات المعاني لأن كل واحدة منها لها معنىً قائمٌ بذاته تعالى، وتقدم أن القدرة والإرادة تتعلقان بجميع الممكنات أي الجائزات، والعلم والكلام يتعلقان بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات، والسمع والبصر يتعلقان بجميع الموجودات أي الواجبات والجائزات، أما الحياة فلا تتعلق بشيء لأنها صفة تصحِّحُ لمن قامت به صفات الإدراك من غير أن تطلب أمراً زائداً على قيامها بمحلها.

قال الشيخ الدردير في خريدته:

وَوَاجِبٌ تَعْلِيقُ ذِي الصِّفَاتِ حَتْماً دَوَاماً مَا عَدَا الْحَيَاةِ
فَالْعِلْمُ جَزْماً وَالْكَلاَمُ السَّامِي تَعَلَّقَا بِسَائِرِ الأَقْسَامِ
وَقُدْرَةٌ إِرَادَةٌ تَعَلَّقَا بِالْمُمْكِنَاتِ كُلِّهَا أَخَا التُّقَى
وَاجْزِمْ بِأَنَّ سَمْعَهُ وَالْبَصَرَا تَعَلَّقَا بِكُلِّ مَوْجُودٍ يُرَى

ثم إن تعلق القدرة والإرادة تعلق تأثير، وتعلق العلم والسمع والبصر تعلق انكشاف وتعلق الكلام تعلق دَلالة.

الصفات المعنوية :

الصفات المعنوية سبع صفات وهي: ملازمة للسبع المعاني المتقدمة، وهي كونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً.

وقد اختلف فيها علماء الكلام فبعضهم قال إنها ليست بزائدة على صفات المعاني فلم يَعُدَّها من الصفات الواجبة، وبعضهم قال إنها زائدة على صفات المعاني فعَدَّها من الصفات الواجبة. قال العلامة الدردير في شرح الخريدة : اختلف المتكلمون في الصفات المعنوية السبع هل هي صفات زائدة على صفات المعاني أو ليست بزائدة عليها؟ فذهب الإمام الأشعري إلى أنها ليست بزائدة على صفات المعاني وأنه لا وجود لها في الخارج، لا في خارج الأعيان ولا في خارج الأذهان، بل هي أمور اعتبارية لا وجود لها إلا في الذهن، ومعنى كونه تعالى قادراً عبارة عن قيام القدرة بالذات، ومعنى كونه تعالى عالماً عبارة عن قيام العلم بالذات، فليس هناك إلا الذات والقدرة والعلم وهكذا إلى آخرالصفات السبع. وهذا بناء على ما ذهب إليه من أن الأمور قسمان: قسم موجود في الخارج، وقسم معدوم، ولا واسطة بين الموجود والمعدوم. فالموجود ما له تحقق ووجود في الخارج، والمعدوم ما لا وجود له أصلاً إلا في الذهن فقط عند إدراكه وتعقُّله وعند الحكم عليه أو به، فإذا انصرف الذهن عنه زال وجوده في الذهن.

وذهب آخرون ومنهم الرازي إلى أن الصفات المعنوية السبع صفات زائدة على صفات المعاني وأنها أمور ثابتة في نفسها بقطع النظر عن الاعتبار والذهن وأنها واسطة بين الموجود والمعدوم. وبناء على ما ذهب إليه هؤلاء تكون الأمور ثلاثة: موجود ومعدوم ووساطة، وتسمى بالحال. فالموجود ما له تحقق في الخارج وفي نفسه وفي الذهن عند ملاحظته، والمعدوم ما ليس له وجود إلا في الذهن فقط عند إدراكه وتعقّله، والحال ماله وجود في نفسه وفي الذهن عند ملاحظته وليس له وجود في الخارج. وعلى هذا القول فالمعنوية أحوال وهي صفات قائمة بذاته تعالى لها وجود في نفسها ولا يَصِحُّ أن تُرَى، والمعاني صفات موجودة قائمة بذاته تعالى ويصح أن تُرَى (انتهى كلام الدردير).

فإذا أخذنا بالقول الأول فتكون الصفات الواجبة لله تعالى ثلاث عشرة صفة كما تقدم، وإذا أخذنا بالقول الثاني فتكون الصفات الواجبة لله تعالى عشرين صفة.

وليس معنى إسقاط الصفات المعنوية على القول الأول إنكار أصلها ، وإنما هو إنكار زيادتها على صفات المعاني بحيث تكون واسطة بين الموجود والمعدوم كما نص على ذلك الشيخ البيجوري في حاشيته على الجوهرة، فكونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً إلى آخره مُجْمَعٌ عليه وليس فيه خلاف بين أهل السُّنة، وإنما الخلاف في زيادته على المعاني.

ثانياً: العقائد المستحيلة في حقه جل وعز

العقائد المستحيلة في حقه جل وعز ثلاث عشرة صفة وهي أضداد الثلاث عشرة الواجبة والتي تقدم الكلام عليها في الفقرة ما قبل الأخيرة.

وهذه الصفات هي : العدم والحدوث والفناء والمماثلة للحوادث والافتقار والتعدد والعجز والكراهة والجهل والممات والصمم والعمى والبكَم. وفيما يلي شرح هذه الصفات :

(**الصفة الأولى) العَدَم**، وهي ضد الوجود، والتقابل بينهما من التقابل بين الشيء والأخص من نقيضه، لأنَّ نقيض الوجود لاوجود وهو يشمل العدم والأمر الاعتباري والواسطة على القول بها، فالعدم أخص من لا وجود الذي هو نقيض الوجود.

(**الصفة الثانية) الحدُوث**، وهي ضد القِدم، والتقابل بينهما من التقابل بين الشيء والمساوي لنقيضه، لأن نقيض القِدم لا قِدم وهو عين الحدوث لأنه لا واسطة بينهما، هذا إن فُسِّرَ الحدوث بمعناه المجازي وهو التجدد بعد عدم، أما إن فُسِّرَ بمعناه الحقيقي وهو الوجود بعد عدم، فالتقابل بينهما من التقابل بين الشيء والأخص من نقيضه، لأن نقيض القِدم لا قِدم كما سبق، وهو يشمل الحدوث بالمعنى المذكور والتجدد بعد عدم، فعلى هذا الحدوث أخص من لا قِدم الذي هو نقيضْ القِدم.

(**الصفة الثالثة) الفناء**، وهي ضد البقاء، ويُسَمَّى طُرُوُّ العدم أي حصوله بعد أن لم يكن، والتقابل بينه وبين البقاء من التقابل بين الشيء والمساوي لنقيضه، لأن نقيض البقاء لا بقاء ، وهو عين طُرُوِّ العدم الذي هو الفناء.

(**الصفة الرابعة) المماثلة للحوادث**، والتقابل بينها وبين المخالفة للحوادث من التقابل بين الشيء والمساوي لنقيضه لأن نقيض المخالفة لا مخالفة، وهي عين المماثلة. وأنواع المماثلة عشرة ذكرها السنوسي رحمه الله في عقيدته المشهورة بقوله: والمماثلة للحوادث بأن يكون جِرماً أي تأخذ ذاته العلية قَدْراً من الفراغ، أو يكون عَرَضاً يقوم بالجِرم، أو يكون في جهة للجِرم، أو له هو جهة، أو يتقيد بمكان أو زمان، أو تتصف ذاته العلية بالحوادث، أو يتصف بالصِغَر، أو بالكِبَرِ، أو يتصف بالأغراض في الأفعال أو الأحكام.

والمراد بالجِرم ما ملأ فراغاً، سواء كان مركباً أو مفرداً بخلاف الجسم فإنه يختص بالمركَّب، والصحيح أن معتقد الجِسْمية لا يكفر إلا إذا قال إنه جِسْم كالأجسام فيكفر للتشبيه. ومعنى تأخذ ذاته العلية قَدْراً من الفراغ أنه يلزم من كونه جرماً أخذُه قَدْراً من الفراغ وهو ما بين السماء والأرض. وتسميته فراغاً إنما هو بحسَب الوهم،

ولذلك يُسَمَّى فراغاً موهوماً، وإلاَّ فهو مملوء بالهواء ، غاية الأمر أن الهواء جسم لطيف يتداخل بعضه في بعض إذا حَلَّ جسْم آخر في مكانه. وقد اسْتُفِيدَ من قوله (تأخذ ذاته العلية) إلى آخره جواز إطلاق الذات عليه تعالى وهو الصحيح، والدليل على ذلك ما رواه ابن حجر بقوله: (تفكروا في كل شيء ولا تتفكروا في ذات الله تعالى). وقيل لا يجوز ذلك، وقيل بالوقف. ومعنى أو يكون عَرَضاً، العَرَض هو ما قام بغيره من الصفات الحادثة، فهو أخص من مطلق الصفة لانفرادها في الصفة القديمة. ومعنى أو يكون في جهة للجِرْم أي في إحدى الجهات السِّتّ وهي: اليمين والشمال والأمام والخلف وفوق وتحت، فليس الله عن يمين العرش ولا عن شماله ولا أمامه ولا خلفه ولا فوقه ولا تحته. فالحذر كل الحذر مما يعتقده العامة من أن الله تعالى فوق العالَم، لكن الصحيح أن معتقد الجهة لا يكفر كما قاله ابن عبدالسلام وقيَّده النووي بأن يكون من العامة، وقيَّده ابن أبي جمرة بعسر فهم. واختلف في المراد بالجِرْم هنا فقيل كرة العالَم بأسرها، وقيل أي جِرْم كان، وهو المتبادر لشموله. ومعنى أو لَهُ هو جهة أي فليس لله يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا فوق ولا تحت، فالحذر كل الحذر مما يعتقده العامة من أن العالَم تحت الله. لكن الصحيح أن معتقد الجهة لا يكفر كما سَبَق. واختلف في الجهة فقيل إنها مختصة بالنوع الإنساني دون غيره ولو حيواناً فلا تضاف الجهة إليه إلا بواسطة الإنسان، وعلى هذا يكون قولهم عن يمين المنبر مثلاً على حذف مضاف والتقدير عن يمين ملاصق المنبر أو نحو ذلك، والتحقيق أنها ليست مختصة بالإنسان بل تضاف له ولغيره، وعليه فيكون قولهم عن يمين المنبر مثلاً على ظاهره. ومعنى أو يتقيد بمكان أي يَحُلُّ به فالمراد بالتقيد بالمكان حلوله فيه لا اختصاصه به دون غيره وإن كان هو المتبادر من لفظ التقيد، والمكان عند أهل السُّنَّة هو الفراغ الموهوم، وعند الفلاسفة هو السَّطح الباطن من الحاوي الْمُمَاس للسَّطح الظاهر من المحوي كباطن الكوز المماس لظاهر الماء. ومعنى أو زمان أي أو يتقيد بزمان بأن تدور عليه الأفلاك أو يَكُرُّ عليه الجديدان الليل والنهار، والمشهور أن الزمان هو حركة

الفَلَك، وقيل هو مقارنة متجدد موهوم لمتجدد معلوم إزالةً للإبهام كقولك آتيك طلوع الشمس، واختار بعض المحققين أنه من مواقف العقول وهو الحق. ومعنى أو تتصف ذاته العلية بالحوادث أي كَأَنْ تتصف بقدرة حادثة أو إرادة حادثة أو علم حادث إلى غير ذلك من الصفات. ومعنى أو يتصف بالصِّغَر أي بقلة الأجْزاء. ومعنى أو بالْكِبَر أي بكثرة الأجزاء ، ويؤخذ من ذلك أنه لا يطلق عليه تعالى صغير أو كبير لأن الصغير ما قلّت أجزاؤه والكبير ما كَثُرت أجزاؤه، لكن محل منع إطلاق الكبير عليه تعالى إذا أريد به كثير الأجزاء، وأما إذا أريد به العظيم فلا يمتنع إطلاقه عليه تعالى لوروده في قوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[1]. ومعنى أو يتصف بالأغراض في الأفعال أو الأحكام، أي أن أفعاله تعالى كإيجاد زيد وعمرٍو مثلاً، وأحكامه كإيجاب الصلاة والزكاة مثلاً منزهة عن الغَرَض أي المصلحة، ولا يرد على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2] لأن اللام فيه للعاقبة والصيرورة لا للتعليل، إلا أنها وإن كانت منزهة عن الغرض فلا تخلو عن الحكمة وإن لم تصل إليها عقولنا لأنها لو لم تكن لحكمة لكانت عبثاً وهو محال عليه تعالى. والفرق بين الغرض والحكمة أن الغرض يكون مقصوداً من الفعل أو الحُكْم، والحكمة لا تكون كذلك.

(**الصفة الخامسة**) **الافتقار**، وهو ضد قيامه تعالى بنفسه، والتقابل بينهما من التقابل بين الشيء ونقيضه، فيستحيل عليه تعالى أن لا يكون قائماً بنفسه، بأن يكون صفةً يقوم بمحل أي ذات أو يحتاج إلى مخصِّص أي مُوجِدٍ. والدليل على استحالة ذلك أنه لو افتقر إلى المحل لكان صفة، ولو كان صفة لم يتصف بصفات المعاني والمعنوية وهي صفات أزلية قائمة به جلّت قدرته للأدلة التي تقدمت.

(**الصفة السادسة**) **التعدد**، وهو ضد الوحدانية، والتقابل بينهما من التقابل بين الشيء

---

(1) الرعد : 10 .

(2) الذاريات : 56 .

ونقيضه، فيَسْتحيل عليه تعالى أن لا يكون واحداً بأن يكون مُرَكّباً في ذاته، أو يكون له مماثل في ذاته أو صفاته، أو يكون معه في الوجود مؤثر. وفي هذا رَدٌّ على المعتزلة القائلين إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختياريَّة بقدرة خلقها الله فيه، وهو اعتقاد فاسد، إلا أن الصحيح عدم كفرهم بذلك لأنهم لم يجعلوا خالقية العبد كخالقية الله تعالى حيث جُعِلَ العبدُ مفتقراً إلى الأسباب والوسائط بخلافه تعالى، وذهب البعض إلى تكفيرهم.

ومن الاعتقادات الفاسدة اعتقاد تأثير الأسباب العادية في مُسبَّباتها، فلا تأثير للنار في الحرق، ولا للطعام في الشَّبع، ولا للسِّكِّين في القطع وهكذا. فمن اعتقد أن شيئاً منها يؤثر بنفسه فلا نزاع في كفره، ومن اعتقد أن شيئاً منها يؤثر بقوة أودعها الله فيه فهو فاسق مبتدع وفي كفره قولان والراجح عدم كفره، ومن اعتقد أنه لا تأثير لشيء منها وإنما المؤثر هو الله تعالى لكن بينها وبين مُسبَّباتها تلازم عقلي- بمعنى أنه إذا وجدت النار مثلاً وجد الحرق، وإذا وجد السِّكِّين وجد القطع فهو جاهل بحقيقة الحكم وربما جره ذلك إلى الكفر لأنه قد يؤدي به إلى إنكار الأمور الخارقة للعادة كمعجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي أُلْقِيَ في النار ولم تؤثر فيه، وسيدنا إسماعيل عليه السلام الذي لم تؤثر فيه السِّكِّين، فلا ينجو إلا من اعتقد أنه لا تأثير لشيء منها، ولا تلازم بينها وبين مُسبَّباتها بأن اعتقد صحة التخلف فيمكن أن يوجد السبب ولا يوجد المسبَّب.

ومن هذه الاعتقادات الفاسدة أيضاً اعتقاد التأثير بالعلة بأن يقول إن الأشياء علة أي سبب في وجود شيء من غير أن يكون لله تعالى فيه اختيار فهو كافر. والفرق بين التأثير بالطبع والتأثير بالعلة وإن اشتركا في عدم الاختيار، أن التأثير بالطبع يتوقف على وجود الشرط وانتفاء المانع كالإحراق بالنسبة للنار فإنه يتوقف على شرط مُمَاسَّة النار للشيء الْمُحْرَق وانتفاء مانع البلل فيه مثلاً، وأما التأثير بالعلة فلا يتوقف على ذلك بل

كلما وجدت العلة وجد المعلول كحركة الخاتم بالنسبة لحركة الإصبع، فالقائلون بالتعليل يقولون إن حركة الإصبع علة في حركة الخاتم، وأهل السُّنّة يقولون إن الحركة بالنسبة لكل من الإصبع والخاتم خلقها الله سبحانه وتعالى من غير تأثير لحركة الإصبع في حركة الخاتم، وإلى هذه الاعتقادات أشار الشيخ الدردير في خريدته بقوله:

وَالفِعْلُ فَالتَّأْثِيرُ لَيْسَ إلاَّ لِلْوَاحِدِ الْقَهَّارِ جَلَّ وَعَلاَ
وَمَنْ يَقُلْ بِالطَّبْعِ أَوْ بِالْعِلَّةْ فَذَاكَ كُفْرٌ عِنْدَ أَهْلِ المِلَّةْ
وَمَنْ يَقُلْ بِالْقُوَّةِ الْمُودَعَةِ فَذَاكَ بِدْعِيٌّ فَلاَ تَلْتَفِتِ

(**الصفة السابعة**) **العجز**، وهو ضد القدرة، والتقابل بينهما من تقابل الضِّدَّيْن عند أهل السُّنة، ومن تقابل العَدَم والمَلَكَة عند المعتزلة لأن العجز عند أهل السُّنة أمر وجودي يضاد القدرة، وعند المعتزلة عدم القدرة عما مِن شأنه أن يكون قادراً.

والمستحيل هو العجز عن الممكن أي الجائز، فيشمل جميع الممكنات أي الممكن كخلق السموات والأرضين، والجنة والنار، وإيجاد مثل هذا العالم وأحسن منه، ولهذا اعترض البقاعي على الغزالي في قوله: (لَيْسَ فِي الإِمْكَانِ أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ) بأن فيه نسبة العجز إليه تعالى، لكن أجيب عن الغزالي بأن المراد أنه لا يمكن أن يوجد أبدع من هذا العالم لعدم تعلق قدرة الله وإرادته بإيجاده، ولو شاء الله تعالى لأوجد أبدع منه، فليس في كلامه ما يقتضي نسبة العجز إليه تعالى كما توهمه البقاعي.

وسُئِلَ بعضهم عمن قال : لا يقدر الله أن يخرجني من مملكته، هل يكفر أم لا؟ فأجاب بأنه لا يكفر، لأن خروجه من مملكته تعالى مستحيل لعدم إمكان وجود مملكة لغيره يخرجه إليها، والقدرة لا تتعلق بالمستحيل، فلا ضَيْرَ في ذلك، كما لا ضَيْرَ في أن يقال لا يقدر الله أن يتخذ ولداً أو زوجة أو نحو ذلك، ولكن عدم الخوض في ذلك أَوْلَى.

(**الصفة الثامنة) الكراهة**، وهي ضد الإرادة، والتقابل بينهما من تقابل العَدَم والمَلَكَـة، لأن الكراهة عدم الإرادة، وعبر عنها الإمام السَّنوسي في عقيدته بقوله: وإيجاد شيء من العالَم مع كراهته لوجوده أي عدم إرادته له تعالى، أو مع الذهول أو الغفلة أو بـالتعليل أو بالطبع. قال الشيخ البيجوري في الحاشية: وفي الكلام حذف أولاً وآخراً، والتقدير: وإيجاد شيء من العالَم أو إعدامه مع كراهته لوجوده أو عدمه، وإنما كـان ذلـك منافيـاً للإرادة لأن خروج شيء من العالَم عنها ينفي عموم تعلقها وأحرى خروج جميع العالَم عنها، فمنافاة هذا للإرادة من حيث عموم تعلقها لا من حيـث ذاتُهـا، بخلاف الإيجاد بالتعليل أو بالطبع فإنه مُنَافٍ لها من حيـث ذاتُهـا، ولا فـرق بين الخـير والشـر خلافـاً للمعتزلة الذين يقولون إنه تعالى لا يريـد الشـرور والقبـائح، واحتجـوا بـأن إرادة الشَّـر شَرٌّ، وإرادة القبيح قبيحة، وبأن النهي عما يُرَادُ والأمرَ بما لا يُرَادُ سـفه، وبـأن العقـاب على ما أريد ظلم، والله منزه عن ذلك كله، ورُدَّ بأن ذلك إنمـا يُعَدُّ شـراً أو قبيحـاً أو سفهاً أو ظلماً بالنسبة إلى الحادث لا إليه تعالى لأنه لاَ يُسْأَلُ عما يفعلُ، وحكمـة أمـره أو نهيه ظهور الامتحان هل يطيع العبد أَوْ لاَ.

وإنما فُسِّرت الكراهة بعدم الإرادة في المتن مع أن التفسير ليـس مـن وظيفـة المتون لئلا يُتَوَهم أن المراد بالكراهة معناها الفقهي وهو طلب تـرك الشـيء طلبـاً غـير جـازم، وللتنبيه على خطأ المعتزلة في قولهم إن الإرادة على وفق الأمـر، وبنـائهم علـى ذلـك أن المكروه شرعاً ليس بمراد. أما ذكر الأمور الأربعة وهي الذهول والغفلة والتعليل والطبع مع إمكان الاستغناء عنها لدخولها في الكراهة فلأن المقصود من هذا العلم ذكر العقـائد على وجه التفصيل؛ لأن خطر الجهل فيه عظيم، فلا يُكْتَفَى فيـه بعـام عـن خـاص، ولا بملزوم عن لازم.

هذا وقد اختلف في الذهول والغفلة فقيل إنهما متساويان، وقيل إن الغفلة أعم من الذهول لأن الذهول هو عدم العلـم بالشـيء مـع تقـدم العلـم بـه، والغفلـة عـدم العلـم

بالشيء مطلقاً، وقيل إن الذهول أعم من الغفلة لأن الغفلة زوال الشيء من القوة المُدرِكة في العقل مع بقائه في الحافظة، والذهول زواله من المدركة مطلقاً. وعلى هذا فالسَّهو مرادف للغفلة، وأما النسيان فهو أخص من الذهول لأنه زوال الشيء من الحافظة والمدركة معاً، كما يؤخذ من القاموس حيث قال: غفل عنه تركه وسها عنه. ووجه منافاة كل من الذهول والغفلة للإرادة أنهما مُنَافِيَانِ للعلم، وكل ما كان منافياً للعلم كان منافياً للإرادة وعليه إيرادات دفعها العلماء لا نطول بذكرها. أما التعليل فهو أن ينشأ عن الشيء شيءٌ آخر من غير أن يكون له إرادة واختيار فيه بلا توقف على وجود شرط وانتفاء مانع، ومثالها عند القائلين به حركة الإصبع مع حركة الخاتم المتقدمة في شرح صفة التعدد، فالقائلون بها يعتقدون أن الله أوجد حركة الإصبع وهي أوجدت حركة الخاتم، فالأُولى علة عندهم للثانية، بمعنى أنها مؤثرة فيها تأثير العلة في المعلول، ويُسَمُّون ذات الباري سبحانه وتعالى علة العلل لما ذكر - قَبَّحهم الله تعالى[1] .

وأما الطبع فهو أن ينشأ عن الشيء شيءٌ آخر بطبعه وحقيقته من غير أن يكون له إرادة واختيار فيه مع التوقف على وجود شرط وانتفاء مانع، ومثالها إحراق النار وقطع السِّكين كل منهما بطبعه، وقد تقدم الكلام على ذلك في شرح صفة التعدد.

(**الصفة التاسعة) الجهل**، وهو ضد العلم، والتقابل بينهما من تقابل العَدَم والمَلَكة[2]، لأن الجهل هو عدم العلم. ويدخل في ذلك الظن والشك والوَهْم، فالظن وهو إدراك الطَّرَف الراجح، والشك وهو إدراك كل من الطرفين على حد سواء، والوَهْم وهو إدراك الطرف المرجوح. وقد عبَّر عنه الإمام السَّنوسي في عقيدته بقوله: وكذا يستحيل عليه تعالى الجهل وما في معناه بمعلومٍ ما. فقوله (وما في معناه) يقصد به الظن والشك

---

(1) وهو مذهب الفلاسفة القائلين بالعقول العشرة - قبحهم الله تعالى.

(2) ولقد فرَّق العلماء بين نوعي الجهل، فإذا كان مركباً وهو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه فالتقابل بينه وبين العلم من التقابل بين الضدين، وأما إذا كان بسيطاً وهو عدم العلم بالشيء فمن التقابل بين العدم والملكة.

والوَهْم كما تقدم ويدخل فيه أيضاً كون العلم ضرورياً أو نظرياً أو بديهياً أو كسبياً، وقوله (بمعلومٍ ما) يشمل جميع المعلومات.

(الصفة العاشرة) الموت، وهوضد الحياة، والتقابل بينهما من تقابل الضدين عند أهل السُّنة، فالموت عندهم أمْرٌ وجودي يُضَادُّ الحياة ودليله قوله تعالى: **﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾**[1]، ومن تقابل العَدَم والمَلَكَة عند المعتزلة فهو عندهم عدم الحياة، ورَدُّوا بأن المراد بالخلق في الآية التقدير أي قَدَّر الموت، وهو كما يكون للأمر الوجودي يكون للأمر العدمي .

(الصفة الحادية عشرة) الصَّمَم، وهو ضد السَّمع، والتقابل بينهما من تقابل الضدين عند أهل السُّنة، فالصَّمم عندهم أمرٌ وجودي يُضَادُّ السَّمع، ومن تقابل العَدَم والمَلَكَة عند المعتزلة فهو عندهم عدم السَّمع عما مِن شأنه أن يكون سميعاً.

(الصفة الثانية عشرة) العَمَى، وهو ضد البصر، والتقابل بينهما من تقابل الضدين عند أهل السُّنة، فالعَمَى عندهم أمر وجودي يُضَادُّ البصر، ومن تقابل العَدَم والمَلَكَة عند المعتزلة، فهو عندهم عدم البصر عما من شأنه أن يكون بصيراً.

(الصفة الثالثة عشرة) البَكَم، وهو ضد الكلام، والتقابل بينهما من تقابل الضدين عند أهل السُّنة، فالبَكَمُ عندهم أمر وجودي يُضاد الكلام، ومن تقابل العَدَم والمَلَكَة عند المعتزلة، فهو عندهم عدم الكلام عما من شأنه أن يكون متكلماً.

أضداد الصفات المعنوية :

أضداد الصفات المعنوية سبع صفات، وهي مستحيلة على الله تعالى وملازمة للسَّبع المعاني المستحيلة المتقدمة وهي كونه تعالى: عاجزاً وكارهاً وجاهلاً وميِّتاً وأصمَّ وأعمى

---

(1) الملك : 2 .

وأبكم. ويسري عليها الخلاف نفسه الذي تقدم في الصفات المعنوية الواجبة لله عز وجل.

فإذا أخذنا بالقول الأول وهو أن الصفات المعنوية ليست بزائدة على صفات المعاني فتكون الصفات المستحيلة على الله تعالى ثلاث عشرة صفة وهي أضداد الثلاث عشرة الواجبة، وإذا أخذنا بالقول الثاني وهو أن الصفات المعنوية زائدة على صفات المعاني فتكون الصفات المستحيلة على الله تعالى عشرين صفة وهي أضداد العشرين الواجبة.

ثالثاً: العقيدة الجائزة في حقه عز وجل

العقيدة الجائزة في حقه عز وجل صفة واحدة وهي فعل كل ممكن أو تركه.

قال الشيخ البيجوري في حاشيته على السَّنوسية: الجائز والممكن مترادفان عند المتكلمين، فيؤخذ على صاحب المتن أنه جاء بشيء في تعريف نفسه فكأنه قال وأما الجائز في حقه تعالى ففعل كل جائز وتركه، والممكن في حقه تعالى فعل كل ممكن وتركه، وهذا موجب للدور لتوقف كل من المعرَّف والتعريف على الآخر، وأجيب بأجوبة احسنها أن كُلاً منهما يطلق ويراد به تعلق القدرة بالمقدور، وهذا هو المراد بالمعرّف بدليل الإخبار عنه بالفعل، ويطلق ويراد به نفس المقدور الذي هو أثر الفعل، وهو المراد بالممكن الواقع في التعريف، وحينئذ ينتفي الدور في التعريف هنا. وبهذا يجاب عن اعتراض آخر وهو أن الجائز مرادف للممكن، وكلام صاحب المتن يفيد التغاير لأن الجائز نفس الفعل أو الترك، والممكن نفس المفعول أو المتروك، وتوضيح الجواب أن إرادة نفس الفعل أو الترك من الجائز، وإرادة نفس المفعول أو المتروك من الممكن لا تنافي أن الجائز مرادف، لأن كُلاً منهما يطلق بمعنيين كما سبق.

وكونه تعالى يجوز في حقه فعل كل ممكن أو تركه فيه رَدٌّ على المعتزلة في قولهم بوجوب الصلاح والأصلح عليه تعالى، والأول ما قابل الفساد كالإيمان في مقابلة الكفر والصحة في مقابلة المرض، والثاني هو ما قابل الصلاح كإطعامه أطعمة لذيذة في مقابلة إطعامه أطعمة غير لذيذة، وقيل هما شيء واحد.

ومن الجائز في حقه تعالى بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام خلافاً للمعتزلة في قولهم بأنها واجبة عليه تعالى بناءً على معتقدهم الفاسد من أنه يجب عليه تعالى فعل الصلاح والأصلح، وقد وجهوا ذلك بأن آراء الناس تختلف وتتفاوت فيقع التنازع والتظالم، فالصلاح أن يقيم لهم سفيراً مؤيَّداً بالمعجزات فينقاد له الكل. وخلافاً للبراهمة وهم طائفة من كفار الهند يُعرَفون بأصحاب بَرْهَام يتبعون ما حسَّنه العقل دون الشرع، فيسْتقبحون ذبح الحيوان لما فيه من التعذيب، ويسْتقبحون الصلاة لما فيها من وضع الوجه الذي هو أشرف الأعضاء على الأرض ورفع العجيزة، ويبيحون الزنا ووطء المحارم، ويقولون باستحالة بعثة الرسل، وقيل يقولون بجوازها لكن لاحاجة إليها. وقد أشار الشيخ الدردير في خريدته إلى اعتقاد المعتزلة بوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى فقال:

وَمَنْ يَقُلْ فِعْلُ الصَّلاَحِ وَجَبَا ... عَلَى ٱلإِلَـهِ قَدْ أَسَاءَ ٱلأَدَبَا

كما أشار اللقاني في الجوهرة إلى اعتقاد كل من المعتزلة والبراهمة بالنسبة لإرسال الرسل بقوله :

وَمِنْـهُ إِرْسَالُ جَمِيعِ الرُّسْلِ ... فَلاَ وُجُوبَ بَلْ بِمَحْضِ الْفَضْلِ

أي من الجائز العقلي في حقه تعالى إرساله لجميع الرسل من آدم إلى سيدنا محمد -ﷺ- ، فلا يجب عليه ذلك خلافاً للمعتزلة الذين يقولون بوجوبه، ولا يستحيل خلافاً للبراهمة الذين يقولون باستحالته.

براهين العقائد الواجبة والجائزة في حقه عز وجل :

نتكلم في هذه الفقرة عن براهين العقائد الواجبة والجائزة في حقه عز وجل على الترتيب السابق، لكن على أساس أن برهان كل صفة يثبتها وينفي ضدها، وأن براهين صفات المعاني هي نفسها براهين الصفات المعنوية، ومنه يعلم أن برهان الوجود يثبته وينفي العَدَم، وبرهان القِدَم يثبته وينفي الحدوث، وهكذا إلى آخر الصفات السَّلبية، وأن برهان القدرة يثبتها وينفي العجز، كما يثبت كونه تعالى قادراً وينفي كونه تعالى عاجزاً، وأن برهان الإرادة يثبتها وينفي الكراهة، كما يثبت كونه تعالى مريداً وينفي كونه تعالى كارهاً، وهكذا إلى آخره.

والبرهان مَأخوذ من البَرْهِ أي القطع، يقال بَرَهْتُ العود أي قطعْتُه لأنه يقطع الخصم عن المحاجَّة. وقيل من البَرَهِ وهو البياض، يقال امرأة بَرْهاء أي بيضاء لأنه يُبَيِّض القلب ويُصَفِّيه من الجهل. والصحيح أن البرهان أخصّ من الدليل، وقيل بترادفهما. وفيما يلي شرح هذه البراهين حسب ترتيب الصفات:

أولاً: (برهان الوجود) برهان وجوده تعالى حدوث العالَم وهو ما سوى الله وصفاته من الموجودات والأحوال على القول بها. وأما المعدومات من العالَم سواء كانت ممكنة كولد لزيد قبل وجوده، أو مستحيلة كالشريك لله تعالى فليست من العالَم. وقيل إن العالَم هو ذو الروح من ملائكة وإنس وجن وحيوان، وقيل إنه الملائكة، وقيل إنه الإنس والجن، وقيل إنه الإنس والجن والملائكة والشياطين، وقيل إنهم أهل الجنة وأهل النار. وعلى جميع الأقوال فهو حادث وليس قديماً لأنه يجوز عليه العَدَم، وكل ما جاز عليه العَدَم استحال عليه القِدَم، كما قال الشيخ اللقاني في الجوهرة :

وَكُلُّ مَا جَازَ عَلَيْهِ الْعَدَمُ عَلَيْهِ قَطْعاً يَسْتَحِيلُ الْقِدَمُ

وحدوث العالَم هو الحق الذي لاجدال فيه خلافاً لما زعمه الفلاسفة من أن العالَم

قديم، وهو كفر منهم. وهذا أحد الأمور الثلاثة التي كفر الفلاسفة بإنكارها. والثاني حشر الأجساد يوم القيامة؛ حيث زعموا أنها لا تُحْشَر وإنما الحشر للأرواح فقط. والثالث علم الله تعالى بالجزئيات؛ حيث زعموا أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات. وقد نظم بعضهم هذه الأمور الثلاثة في بيتين تقدم ذكرهما في شرح الصفة التاسعة من الصفات الواجبة لله تعالى وهي (صفة العلم) من فقرة (العقائد الواجبة في حقه عز وجل) من الباب الأول.

وقد ذكر الإمام السَّنوسي في عقيدته الدليل على حدوث العالَم فقال : ودليل حدوث العالَم ملازمته للأعراض الحادثة من حركة وسكون وغيرهما، وملازم الحادث حادث. والمعنى: إن الدليل على حدوث العالَم هو ملازمته للأعراض الحادثة. وإنما خص الحركة والسكون بالتصريح لأنهما ملازمان للأجرام ملازمة ضرورية يشهدها كل عاقل، لكن في جعلهما من الأعراض نظرٌ لأن الأعراض جمع عَرَض وهو خاص بالأمر الوجودي كالسَّواد والبياض مثلاً، ولا كذلك الحركة والسُّكون لأن الحركة هي انتقال الجِرم وهو ما مَلأ فراغاً من حَيِّزٍ إلى آخر والسُّكون ضده، وقيل إن الحركة هي الحصول الأول في غير الحيز الأول والسُّكون ما عدا ذلك، وكل من الانتقال وضده والحصول الأول في غير الحيز الأول وما عداه كل منهما أمر اعتباري. وقوله : وملازم الحادث حادث هي النتيجة، أي لأن ملازم الشيء لا يصح أن يسبقه إذ لو سبقه لانتفت الملازمة وهو خلاف الفرض.

وهذا الدليل خاص بالأجرام، فالمراد من العالَم هنا خصوص الأجرام بخلاف ما تقدم فإن المراد به ما يشمل الأجرام والأعراض.

كما ذكر الإمام السَّنوسي الدليل على حدوث الأعراض فقال : ودليل حدوث الأعراض مشاهدة تغيرها من عدم إلى وجود ومن وجود إلى عدم. والمعنى : إن الدليل على حدوث الأعراض مشاهدتها متغيرة من عدم إلى وجود وبالعكس، وهذا لا يظهر

إلا في الوجودي منها كالسواد والبياض دون الحركة والسكون لأن ذلك لا يشاهد، وإنما يشاهد الجِرم حال كونه متحركاً أو ساكناً أو نحو ذلك.

وإنما كان حدوث العالَم هو برهان وجوده عز وجل لأن المحدِث له هو الله سبحانه وتعالى. وقد ذكر الإمام السَّنوسي الدليل على ذلك فقال : أما برهان وجوده تعالى فحدوث العالَم، لأنه لو لم يكن له مُحْدِث بل حدث بنفسه لزم أن يكون أحد الأمرين المتساويين مساوياً لصاحبه راجحاً عليه بلا سبب وهو محال.

والمعنى: إن الدليل على خلق الله سبحانه وتعالى للعالَم هو أنه لو لم يكن له خالق بل خلق نفسه بنفسه لترتب عليه أن يكون أحد الأمرين المتساويين وهما الوجود والعدم مُسَاوياً لصاحبه، وفي الوقت نفسه راجحاً عليه بلا سبب، وهو محال لما فيه من اجتماع الرجحان والمساواة وهما ضدان، ومثال ذلك ميزان اعتدلت كفتاه ورجحت إحداهما على الأخرى بدون سبب يجعلها ترجح كوضع شيء فيها مثلاً، وهذا مستحيل.

أما دليل حدوث الأجرام فإنه يتوقف على إثبات زائد عليها وهو الأعراض، وعلى إثبات الملازمة بينهما وعلى إبطال حوادث لا أول لها، وإثبات هذه الأمور يكون على النحو التالي :

فإذا قال الخصم لا نُسَلِّم أن هناك أمراً زائداً على الأجرام أبطلنا قوله بالمشاهدة إذ ما من عاقل إلاّ ويَحُسُّ أن لذاته شيئاً زائداً عليها كالقيام والقعود والحركة والسكون إلى غير ذلك، فإذا قال سلَّمنا ذلك لكن لا نُسَلِّم الملازمة بين هذا الزائد وبين الأجرام أبطلنا قوله بمشاهدة عدم الانفكاك بين الجِرم والزائد عليه، وإذا قال سلَّمنا ذلك لكن لا نُسَلِّم بدلالة عدم الانفكاك على حدوث الأجرام لاحتمال أن تكون الأجرام قديمة والزائد عليها حوادث لا أوَّلَ لها ؛ إذ ما من حركة إلا وقبلها حركة وهكذا فتكون حادثة بالشخص قديمة بالنوع -بمعنى أن نوع الحركة قديم وشخصها حادث- أبطلنا

قوله بأنه لا وجود للنوع إلا في ضمن شخصه، فإذا كان الشخص حادثاً لزم أن يكون النوع كذلك وبالتالي يبطل القول بحوادث لا أول لها.

ودليل حدوث الأعراض يتوقف على إبطال قيام العرض بنفسه وإبطال انتقاله لغيره وإبطال كُمونه في الجِرم، وإبطال أن القديم ينعدم، وإبطال هذه الأمور يكون على النحو التالي :

لأن الخصم ربما لا يُسَلِّم بأن الأعراض تتغير من عدم إلى وجود وعكسه، فالحركة بعد السكون مثلاً لم تكن معدومة ثم وجدت بل كانت موجودة قبل ذلك، أبطلنا قوله بسؤاله عن هذه الحركة : هل كانت قائمة حينئذ بنفسها؟ أو انتقلت من محلها أي جِرمها لمحل آخر؟ أو كَمُنت في محلها؟ فإن قال قائمة بنفسها، أبطلنا قوله بأن العَرَض لا يقوم بنفسه، إذ لا يعقل صفة من غير موصوف، فلا يعقل حركة من غير متحرك. وإن قال انتقلت إلى محل أي جِرْم آخر أبطلنا قوله بأنه لو انتقل لكان بعد مفارقة الجِرم الأول وقبل وصول الثاني قائماً بنفسه وهو لا يُعْقَل كما تقدم، وإن قال كَمُنت في محلها أبطلنا قوله بأنه يلزم على ذلك اجتماع الضدين الحركة والسكون وهو باطل، فالضدان لا يجتمعان. وإذا قال سلّمنا ذلك كله لكن لا نُسَلِّم أنه يدل على حدوثها لاحتمال أن تكون قديمة وتتغير من عدم إلى وجود وبالعكس أبطلنا قوله بأن القديم لا ينعدم. وقد جمع بعضهم هذه الأمور السبعة في بيت واحد فقال :

زَيْدٌ مَ قَامَ مَا انْتَقَلْ مَا كَمَنَا ... مَا انفَكَّ لاَ عُدْمَ قَدِيمٍ لاَحَنَا

فقوله (زَيْدٌ) مصدر زاد وهو إشارة لإثبات زائد على الأجرام، وقوله (مَ قَامَ) - بحذف ألف ما للوزن- إشارة إلى نفي قيام العَرَض بنفسه، وقوله (ما انتقلْ) بسكون اللام للوزن إشارة إلى نفي انتقال العَرَض، وقوله (مَا كَمَنَا) بفتح الميم وكسرها إشارة إلى نفي كمون العَرَض، وقوله (ما انفكَّ) إشارة إلى إثبات ملازمة الأجرام للأعراض

وقوله (لاَ عُدْمَ قَدِيمٍ) مركب إضافي إشارة إلى نفي العَدَم عن القديم، وقوله (لاحَنا) لا نافية وحَنَا رمز بالحاء إلى حوادث لا أول لها إشارة إلى بطلان ذلك، وهذا البرهان يفيد إثبات وجود الله بواسطة إخبار الرسل كما قرره المحققون.

قال الشيخ البيحوري: هذه الأمور تُسَمَّى المطالب السبعة، وبمعرفتها ينجو المكلف من أبواب جهنم السبعة كما قال المصنف ولا يعرفها إلا الراسخون في العلم.

وقد أشار ابن عاشر إلى ما تقدم من شرح هذا البرهان بقوله :

وُجُـودُهُ لَـهُ دَلِيـلٌ قَـاطِعْ حَاجَـةُ كُـلِّ مُحْـدَثٍ لِلصَّـانِعْ
لَـوْ حَدَثَـتْ بِنَفْسِهَا الأَكْـوَانُ لاَجْتَمَعَ التَّسَاوِي وَالرُّجْحَـانُ
وَذَا مُحَالٌ وَحُـدُوثُ الْعَـالَمِ مِنْ حَدَثِ الأَعْرَاضِ مَعْ تَلاَزُمِ

ثانياً : (برهان وجوب القِدَم) برهان وجوب القِدَم له تعالى هو أنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً، ولو كان حادثاً لافتقر إلى مُحْدِث؛ إذ لا يصح أن يكون أحدث نفسه وإلاّ لَزِمَ أن يكون أحد الأمرين المتساويين وهما القدم والحدوث مساوياً لصاحبه راجحاً عليه بلا سبب لما فيه من اجتماع المساواة والرجحان كما تقدم في برهان الوجود، ولو افتقر إلى مُحْدِث للزم أن يفتقر مُحْدِثه أيضاً إلى مُحْدِث لانعقاد المماثلة بينهما، ثم إن تناهَ المُحْدِثُون لزم الدَّوْرُ وهو توقف شيءٍ على شيءٍ يوقَف عليه، كما لو فُرِض أن زيداً أحدث عَمْراً وأن عَمْراً أحدث زيداً، فقد توقف زيدٌ على عمرٍ المتوقف عليه، وهذا مستحيل. وإن لم يتناهَ الْمُحْدِثُون لزم التسلسل وهو تتابع الأشياء واحداً بعد واحدٍ إلى ما لا نهاية له من الزمن الماضي، كما لو فُرِضَ أن زيداً أحدثه عمرٌو، وأن عمراً أحدثه بكر، وأن بكراً أحدثه خالد وهكذا إلى مالانهاية له في الزمن الماضي، وهذا مستحيل أيضاً، وإلى هذا البرهان أشار ابن عاشر بقوله :

لَوْ لَمْ يَكُ الْقِـدَمُ وَصْفَـهُ لَـزِمْ حُدُوثُـهُ دَوْرٌ تَسَلْسُـلٌ حُتِـمْ

ثالثاً : (برهان وجوب البقـاء) برهـان وجـوب البقـاء لـه تعـالى مـا ذكـره الإمـام السَّنوسي بقوله : هو أنه لو أمكن أن يلحقه العَـدَم لانْتَفَـى عنـه القِـدَم لكـون وجـوده حينئذ جائزاً لا واجباً، والجائز لا يكون وجوده إلا حادثاً أي أن الجائز الذي لم يوجـد لا يتصف بالحدوث، كيف وقد سبق قريباً وجوب قِدَمه تعالى، أي كيف يَصِـحُّ انتفـاء البقاء مع ثبوت القِدَم.

وقال الشيخ البيجوري: ويؤخذ من برهان القِدَم، أن كل من وجب قِدَمُه استحال عَدَمه. و لم يتفق العقلاء على مسألة اعتقادية إِلَهِيَّة إلا على هذه القاعدة، وإن كـان قـد أُورِدَ عليها عَدَمُنا الأزَلي فإنه وجـب قِدَمُـه و لم يَسْتحل عَدَمُـه، وأجيـب بـأن القـاعدة مفروضة في الوجودي. وبعضهم منع هذا الإيراد على أساس أن عَدَمنا الأزَلي يسـتحيل عَدَمُه إذ لو عُدِم لوجدنا في الأزل ووجودنا في الأزل محـال لأنـه لا يوجـد فيـه إلا الله وصفاتُه، وفيه أنه إنما يستحيل عَدَمُه في الأزل لما ذكر، وهذا لا ينافي أن وجودنا ينعـدم بتناهي الأزل فيصدُق على عدمنـا أنـه وجـب قِدَمَـهُ و لم يستحل عَدَمُـه وفـق القـاعدة المذكورة.

رابعاً : (برهان وجوب مخالفته تعالى للحوادث) برهـان وجـوب مخالفتـه تعـالى للحوادث هو أنه لو ماثل شيئاً منها بأن اتصف بشيء مما يوجب الحـدوث بـأن يكـون جِرْماً أو عَرَضاً أو نحو ذلك لكان حادثاً مثلها لأن جميع مـا يثبـت لأحـد المثلـين يثبـت للآخر وذلك محال لما تقدم من وجوب قِدَمه تعالى وبقائه.

وإلى هذين البرهانين -برهان وجوب البقاء وبرهان وجوب المخالفـة للحـوادث- أشار ابن عاشر بقوله :

لَوْ أَمْكَنَ الْفَنَاءُ لانْتَفَـى الْقِـدَمْ ‏ ‏ ‏ ‏ لَوْ مَاثَلَ الْخَلْقَ حُدُوثُهُ انْحَتَـمْ

خامساً : (برهان وجوب قيامه تعالى بنفسه) برهان وجوب قيامه تعالى بنفسه قسمان: **(القسم الأول)** عدم احتياجه إلى المحل أي الذات. **(القسم الثاني)** عدم احتياجه إلى المخصِّص أي المُوجِد. فلو احتاج إلى محل أي ذات يقوم بها لكان صفة، والصفة وإن كانت تتصف بالصفات النفسية والسلبية فيقال مثلاً قدرة الله موجودة وقديمة وباقية إلى آخرها، كما يقال إرادة الله موجودة وقديمة وباقية إلى آخرها، إلاَّ أنها لا تتصف بصفات المعاني ولا المعنوية، فلا يقال مثلاً قدرة الله قادرة أو مريدة أو عالمة إلى آخرها، ومولانا جل وعز يجب اتصافه بجميع الصفات سواء منها الصفة النفسية أو الصفات السلبية أو المعاني أو المعنوية كما عرفناه سابقاً، وعليه فهو ليس بصفة، وبالتالي فهو غَنِيٌّ عن المحل.

ولو احتاج إلى مُخَصِّص أي مُوجِد لكان حادثاً، وكيف يَصِحُّ أن يكون حادثاً مع ثبوت القدم والبقاء له. قال الإمام السَّنوسي: وكيف يكون حادثاً وقد قام البرهان على وجوب قِدَمه تعالى وبقائه، وإذاً فهو غَنِيٌّ عن المخصِّص.

سادساً : (برهان وجوب الوحدانية له تعالى) برهان وجوب الوحدانية له تعالى هو ما ذكره الإمام السَّنوسي من أنه لو لم يكن واحداً للزم أن لا يوجد شيء من العالَم للزوم عجزه حينئذ. ومعنى ذلك أنه لو كان متعدداً -إِلَهَيْن فأكثر مثلاً- لأمكن اختلافهما بأن يريد أحدهما وجود شيء والآخر عَدَمَهُ، وفي هذه الحالة يلزم عجزهما معاً لأنه لا يمكن أن ينفذ مُرادهما معاً لما يترتب عليه من اجتماع النقيضين، ولا مُراد أحدهما لما يترتب عليه من عجز الذي لم ينفذ مُراده، والآخر مثله فيلزم عجزه أيضاً، وهذا هو الدائر بين الجمهور.

ويحكى عن ابن رشد إذا قُدِّر نفوذ مُراد أحدهما دون الآخر كان الذي نفذ مُراده هو الإله وتم دليل الوحدانية.

وهذا الدليل هو المشار إليه بقوله عز وجل: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] لأن المراد بالفساد في هذه الآية عدم الوجود على الراجح، وقيل إن المراد به الخراب والخروج عن هذا النظام لما تقرر عادة من فساد المملكة عند تعدد الملوك.

وإلى هذين البرهانين - برهان وجوب قيامه تعالى بنفسه وبرهان وجوب الوحدانية- أشار ابن عاشر بقوله :

لَوْ لَمْ يَجِبْ وَصْفُ الْغِنَى لَهُ افْتَقَرْ   لَوْ لَمْ يَكُنْ بِوَاحِدٍ لَمَا قَدَرْ

والمراد بالغِنَى في هذ البيت (قِيَامُهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ)، وسُمِّيَ بالغِنَى لأنه سبحانه وتعالى غَنِيٌّ عن المحل وعن المخصِّص كما تقدم.

سابعاً: (برهان وجوب اتصافه تعالى بالقدرة والإرادة والعلم والحياة) برهان وجوب هذه الصفات الأربع هو ما ذكره الإمام السَّنوسي في عقيدته بقوله : هو أنه لو انتفى شيءٌ منها لما وجد شيءٌ من الحوادث.

قال الشيخ البيجوري في حاشيته علىهذه العقيدة: إنما جمعت هذه الصفات الأربع في دليل واحد لاتحاد اللازم على نفيها وهو عدم وجود شيء من العالَم. ووجه اللزوم في القدرة أنه إذا انتفت ثبت ضدها وهو العجز وحينئذ لايوجد شيء من العالَم. ووجه اللزوم في الإرادة أنه إذا انتفت ثبت ضدها وهو الكراهة بمعنى عدم الإرادة، وإذا ثبت ضدها بهذا المعنى انتفت القدرة لأنها فرع عن الإرادة في التعقل، وإذا انتفت القدرة ثبت ضدها وهو العجز كما تقدم. ووجه اللزوم في العلم أنه إذا انتفى ثبت ضده وهو الجهل فتنتفي الإرادة لأنه لا يُتعقل إرادة من غير علم، وإذا انتفت الإرادة ثبت ضدها إلى آخر ما تقدم. ووجه اللزوم في الحياة أنه إذا انتفت تنتفي الثلاث التي قبلها وهي

---

(1) الأنبياء : 22 .

القدرة والإرادة والعلم بل جميع الصفات لأنها شرط فيها، وإذا انتفت الثلاث المذكورة ثبت أضدادها وهي العجز والكراهة والجهل كما تقدم وبالتالي لايوجد شيء من العالَم.

قال الشيخ البيجوري : اعتُرِضَ على التلازم بين الصفات الأربع المذكورة بأنه ممنوع لأنه لا يلزم من انتفاء صفات المعاني عدم وجود شيء من الحوادث، بل يجوز انتفاؤها وتوجد الحوادث لاستنادها إلى الصفات المعنوية كما تقول به المعتزلة فإنهم لا يثبتون صفات المعاني وإنما يثبتون الصفات المعنوية فيقولون هو قادر بذاته لا بقدرة زائدة عليها، ومريد بذاته لا بإرادة زائدة عليها، وهكذا إلى آخر الصفات، ولذلك رُتِّبَ في العقيدة الكبرى عدم وجود شيء من الحوادث على انتفاء المعنوية لا على انتفاء المعاني. ولكن أجيب على هذا الاعتراض بأن القول بإثبات الصفات المعنوية دون المعاني -بحيث يكون قادراً بلا قدرة ومريداً بلا إرادة وهكذا- واضح البطلان، فلذلك لم يكترث المصنف به. وبهذا الجواب يندفع الاعتراض أيضاً بمنع الملازمة المذكورة لجواز انتفائها وتوجد الحوادث.

وإلى هذا البرهان -وهو برهان وجوب اتصافه تعالى بالقدرة والإرادة والعلم والحياة- أشار ابن عاشر بقوله :

لَوْ لَمْ يَكُنْ حَياً مُرِيداً عَالِمَا وَقَادِراً لَمَا رَأَيْتَ عَالَمَا

ثامناً : (برهان وجوب السَّمع له تعالى والبصر والكلام) برهان هذه الصفات الثلاث كما ذكر الإمام السَّنوسي قسمان: **(القسم الأول)** سمعي وهو الكتاب والسُّنة والإجماع. **(والقسم الثاني)** عقلي وهو أنه لو لم يتصف بها لزم أن يتصف بأضدادها وهي نقائص، والنقص عليه تعالى محال.

وإنما جمعت هذه الصفات الثلاث في برهان واحد لاتحادها في دليل واحد كما سنعرفه.

قال الشيخ البيجوري عقب ذكر الكتاب والسُّنة والإجماع : أي مع ملاحظة قواعد اللغة حتى يندفع الاعتراض بأن ذلك إنما يدل على أنه سبحانه وتعالى سميع بصير متكلم، وهذا لا يفحم الخصم وهم المعتزلة لأنهم ينكرون ذلك فإنهم يُسَلّمون أن الله تعالى سميع بصير متكلم كما دل عليه الكتاب والسُّنة والإجماع لكن لا بِسَمْع و بصرٍ زَائِدَيْن على الذات ولا بكلام قائم بها. وبيان دفع الاعتراض أن معنى سميع وبصير ومتكلم ذاتٌ ثبت لها السَّمع والبصر والكلام لأن من لم يقم به وصف لا يُشتَق له منه اسم فلا يقال قائم إلا لمن اتصف بالقيام ولا قاعد إلا لمن اتصف بالقعود وهكذا، فإن قال الخصم إن ما ذكرتَه هو مقتضى اللغة، إلا أن الدليل العقلي منع من قيام تلك الأوصاف بالذات لما يلزم عليه من تعدد القدماء، فجوابه إن تعدد القدماء إنما يمنع في الذوات لا في الذوات مع الصفات.

أما الدليل الوارد في ذلك من الكتاب والسُّنة والإجماع فمنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[2] وقوله -ﷺ- : ((اِرْبَعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً وإنما تدعون سميعاً بصيراً))[3] ، ومعنى (ارْبَعوا) أشفقوا، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[4] ، وقد أجمع المسلمون على ذلك.

وأما الدليل العقلي فهو أنه سبحانه وتعالى لو لم يتصف بهذه الصفات الثلاث لزم أن يتصف بأضدادها لأن كلَّ قابل لشيء لا يخلو عنه أو عن ضده، وهو تعالى قابل لتلك الصفات فلو لم يتصف بها لزم أن يتصف بأضدادها وهي الصَّمَم والعَمَى والبَكَم وهذه نقائص، والنقص على الله مستحيل لأنه كامل ولايتصف الكامل إلا بالكمالات.

---

(1) الشورى : 9 .

(2) النساء : 163 .

(3) رواه البخاري.

(4) الأعراف : 54 .

وإلى هذا البرهان - وهو برهان السمع له تعالى والبصر والكلام - أشار ابن عاشر بقوله:

وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلامُ بِالنَّقْلِ مَعْ كَمَالِهِ تُرَامُ

تاسعاً : (برهان كون فعل الممكنات أو تركها جائزاً في حقه تعالى) برهان هذه الصفة كما ذكره الإمام السَّنوسي هو أنه لو وجب عليه تعالى شيء منها عقلاً أو استحال عقلاً لانقلب الممكن واجباً أو مستحيلاً وذلك لا يُعقل. ومعنى ذلك أنه لو وجب عليه سبحانه وتعالى فعل شيء من الممكنات عقلاً أو استحال عقلاً لترتب على ذلك انقلاب الحقائق بحيث يصبح الجائز واجباً أو مستحيلاً وهو لا يصح عقلاً. وفي هذا رَدٌّ على المعتزلة الذين يقولون بوجوب الصلاح والأصلح عليه تعالى، وعلى البراهمة الذين يقولون باستحالة إرسال الرسل، واعترض على هذا البرهان بما ورد من أنه سبحانه وتعالى يصور يوم القيامة الأعمال في صورة حسنة أو قبيحة، فكيف يكون قلب الحقائق مستحيلاً، وأجيب بأن ذلك مختص بقلب الحقائق الثلاث وهي حقيقة الواجب وحقيقة الجائز وحقيقة المستحيل، فيستحيل قلب حقيقة الجائز واجباً أو مستحيلاً وقلب حقيقة الواجب جائزاً أو مستحيلاً وقلب حقيقة المستحيل واجباً أو جائزاً.

وإلى هذا البرهان -برهان الجائز في حقه تعالى- أشار ابن عاشر بقوله :

لَوِ اسْتَحَالَ مُمْكِنٌ أَوْ وَجَبَا قَلْبَ الْحَقَائِقِ لُزُوماً أَوْجَبَا

قِدَمُ أَسْماءِ الله تعالى وصفاتِ ذاتِه :

من الأشياء التي يجب على المسلم اعتقادها قِدَمُ أَسْمَاءِ الله تعالى وصفات ذاته، أي أن أسماء الله تعالى وصفات ذاته قديمة وليست حادثة، وهذا هو رأي أهل الحق خلافاً

للمعتزلة الذين يقولون إن أسماء الله حادثة وأنها من وضع الخلق. والمراد بالأسماء ما دل على الذات بمجردها كالله أو باعتبار الصفة كالعالِم والقادر، والمراد بصفات الذات المعاني السبع وهي القدرة والإرادة ...إلى آخرها أو الثماني على القول بزيادة صفة الإدراك كما تقدم، قال صاحب الجوهرة :

وَعِنْدَنَا أَسْمَاؤُهُ الْعَظِيمَهْ كَذَا صِفَاتُ ذَاتِهِ قَدِيمَهْ

قال الشيخ البيجوري: واستُشكل القولُ الأول بأن الأسماء ألفاظ وهي حادثة قطعاً فتكون الأسماء حادثة قطعاً فكيف توصف الأسماء بالقدم؟ وأجيب عن هذا بأنها قديمة لا باعتبار ذاتها بل باعتبار التسمية بها، وبُحِثَ في هذا الجواب بأن التسمية وضع الاسم للمُسَمَّى، وحيث كان الاسم حادثاً كانت التسمية حادثة. وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة ذكرها الشيخ البيجوري، وأحسنُها ما نقل عن العلامة المَلَّوِي عن سيدي محمد بن عبد الله العربي أن من كلام الله القديم أسماءً له هي المحكوم عليها بالقدم كما أن فيه أمراً ونهياً. وعلى هذا فالمراد بالتسمية القديمة دلالة الكلام أزَلاً على معاني الأسماء من غير تبعيض ولا تجزئة في الكلام، ولا يرد أنهم لم يذكروا من أقسام الكلام الاعتبارية الأسماء القديمة لأن تقسيمهم ليس حاصراً بل قاصراً على الأهَمِّ باعتبار ما ظهر لهم، كيف ومدلوله لا يدخل تحت حصر، وأشار العلامة المَلَّوِي في آخر عبارته إلى أن القِدَم هنا ليس بمعنى عدم الأولية بل بمعنى أنها موضوعة قبل الخلق فهي من وضعه تعالى قبل خلقه ثم ألهمها للنور المحمدي ثم للملائكة ثم للخلق خلافاً للمعتزلة الذين يقولون إنها من وضع البشر، وفي هذا الكلام تسليم بأن الأسماء ليست أزلية. ونقل عن القُرطبى أن من قال الاسم مشتق من السُّمُوِّ وهو العلو يقول لم يزل الله موصوفاً به قبل وجود الخلق وعند وجودهم وبعد فنائهم لأنه لا تأثير لهم في أسمائه. وهذا قول أهل السنة خلافاً للمعتزلة الذين يقولون إن الاسم مشتق من السِّمَةِ وهي العلامة. ويرتبون على ذلك أن الله سبحانه وتعالى كان في الأزل بلا أسماء ولا صفات

فلما خلق الخلق جعلوها له وبعد فنائهم يبقى بدونهـا، قـال الشُّمُنِي: وهـذا أقبـح مـن القول بخلق القرآن.

وعِظَمُ أسمائه تعالى مجمع عليه، واختلف هل بينها تفـاضل أَوْ لاَ. فقيـل لا تفـاضل بينها بل هي متساوية لرجوعها كلها إلى ذات واحد، وإن وقع فيها تفاضل فـإن ذلـك لأمر خارج، وقيل إنها متفاضلة وهو الصحيح وأعظمها لفظ الجلالة وهو (ا لله) الـذي هو الاسم الأعظم.

وخلاصة القول : إن كُلاً من أسمائه تعالى وصفات ذاته قديم، فليست أسمـاؤه مـن وضع خلقه وليست صفاته حادثة لأنها لو كانت حادثة لزم قيام الحوادث بذاتـه تعـالى وهو مستحيل.

ويخرج بصفات الذات صفات الأفعال فليس شيء منها بقديم عند الأشاعرة فهـي عندهم تعلقات القدرة التنجيزيَّة الحادثة خلافاً للماتُرِيدية الذيـن يقولـون بقدمهـا أيضـاً فهي عندهم عين صفة التكوين القديمة.

قال صاحب بدء الأمالي وهو موضوع على مذهب الماتريدية :

صِفَاتُ الذَّاتِ والأَفْعَالِ طُـرّاً   قَدِيمَـاتٌ مَصُونَـاتُ الـزَّوَالِ

أما الصفات السلبية وهي القدم والبقاء إلى آخرها فهي قديمة قطعـاً أو أزليـة علـى الخلاف في القديم والأزلي. والقول المختار عند أهل السنة أن أسماء ا لله تعـالى وصفاتـه توقيفية أي يتوقـف جـواز إطلاقهـا في حـق ا لله عـز وجـل علـى ورودهـا في الكتـاب (القرآن) أو في سنة صحيحة أو حسنة أو إجماع، أما القياس فقيل كالإجماع ما لم يكـن ضعيفاً وعليه فيقاس واهب على وهَّاب، وقيل لا يجوز مطلقاً وهو الظاهر. وعلى جميـع الأقوال فلا يجوز أن نثبت لله اسماً أو صفة إلا إذا ورد بذلك توقيف من الشارع. قـال صاحب الجوهرة :

وَاخْتِـيرَ أَنْ أَسْـمَاهُ تَوْقِيفِيَّـهْ   كَذَا الصِّفَاتُ فَاحْفَظِ السَّمْعِيَّهْ

والمراد بقوله (فاحفظ السَّمعيهْ) في هذا البيت، لا تثبت شيئاً من أسماء ا لله أو صفاته إلا إذا تأكدت من ورودها في الكتاب أو السُّنة الصحيحة أو الإجماع دون القياس لاحتمال إيهام أحد المترادفين دون الآخر كالعالم والعارف والجواد والسَّخي والحليم والعاقل، لأن القياس يجوز إطلاق الصفة الثانية من كل من هذه المترادفات على ا لله عز وجل وهي العارف قياساً على العالِم، والسَّخي قياساً على الجواد، والعاقل قياساً على الحليم مع أن ذلك غير جائز.

أما المعتزلة فإنهم يقولون بجواز إثبات ما كان متصفاً بمعناه و لم يوهم نقصاً وإن لم يرد توقيف من الشارع. وفصَّل الإمام الغزالي فجوَّز إطلاق الصفة وهي مادل على معنى زائد على الذات، ومنع إطلاق الاسم وهو مادل على نفس الذات.

هذا وينبغي عند إطلاق ما أجاز الشرع إطلاقه من الصفات على ا لله عز وجل أن يُفَسَّر ما يُوهِمُ منها بما يليق بعظمته تعالى كالصَّبور والشكور والحليم، فإن الصبور يوهم وصول مشقة له تعالى لأن الصبر حبس النفس على المشاق فيفسَّر في حقه بالذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه، والشكور يوهم وصول الإحسان إليه لأن معناه كثير الشكر لمن أحسن إليه مع أن الإحسان كله من ا لله، فيفسَّر في حقه بالذي يجازي على يسير الطاعات بكثير الدرجات ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة، والحليم يوهم وصول أذىً إليه وهو تعالى لا يصل إليه أحد بأذىً، فيفسَّر في حقه بالذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه، فيرجع لمعنى الصبور، ولا يرد على ذلك قوله -ﷺ- : ((من آذى مسلماً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى ا لله))[1] لأن معناه من يفعل معه فعل المؤذي.

ومن الصفات التي وردت في الكتاب والسُّنة : الصانع والموجود والواجب والقديم.

---

(1) رواه الطبراني عن أنس رضي ا لله عنه - كشف الخفا - 220/2 .

الأسماء الحُسنى

الأسماء الحسنى هي أسماؤه عز وجل، وإنما وصفت بالحسنى لأنها تدل على معان شريفة هي أحسن المعانى، وحسبك أنها تتعلق بذات ا لله وصفاته. وأسماؤه تعالى كثيرة، فقيل ثلاثمائة، وقيل ألف وواحد، وقيل مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً عدد الأنبياء، وقيل ليس لها حد ولا نهاية لها على حسب شؤون ا لله في خلقه. والمشهور أنها تسعة وتسعون اسماً لقوله -ﷺ- : ((إن لله تسعةً وتسعين اسماً. من أحصاها دخل الجنة))[1] ، وفي رواية من حفظها بدل من أحصاها، والإحصاء والحفظ بمعنى واحد، وهو معرفة ألفاظها ومعانيها، وهي المقصودة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[2] ، وقوله: ﴿قُلُ ادْعُواْ اللَّهَ أَوُ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَياًّ مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾[3] ، أي سَمُّوه بأيِّهَا أو نادوه بأن تقولوا ياا لله يارحمن إلى آخرها. فأيُّ اسمٍ من هذه الأسماء دعوتموه فحسَنٌ، وفي ذلك إشارة إلى أن أسماء ا لله توقيفية فلا يجوز لنا أن نُسمِّيه باسم غير وارد في الشرع كما تقدم في الفقرة السابقة. وفيما يلي بيان هذه الأسماء العظيمة ومعانيها :

هو **(ا لله)** هذا اللفظ هو لفظ الجلالة، وهو أعظم الأسماء المذكورة لكونه جامعاً لجميع الأسماء والصفات، كما أنه علَمٌ على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد، ولذا قيل إنه هو اسم ا لله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى، و(الْ) فيه لازمة له فليست للتعريف ولا لغيره. و**(الذي لا إله إلا هو)** نعت

(1) متفق عليه.

(2) الأعراف : 180 .

(3) الإسراء : 109 .

للاسم الجليل، ومعناه الذي لا معبود غيره. و(**الرَّحمَن**) المنعم بجلائل النعم كماً وكيفاً، دُنيويةً وأُخرويةً، ظاهريةً وباطنيةً. و(**الرَّحِيم**) المنعم بدقائق النعم كماً وكيفاً، دُنيويةً وأُخرويةً، ظاهريةً وباطنيةً. والدقائق هي ما تفرعت عن الجلائل كالزيادة في الإيمان والعلم والمعرفة والتوفيق والعافية والسمع والبصر. و(**الْمَلِك**) المتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام وغير ذلك، وتسمية غيره تعالى به مجاز. و(**القُدُّوس**) المنزه عن صفات الحوادث، وأُتِيَ به عقب المِلك لدفع توهم أنهَ يطرأ عليه نقص كالملوك. و(**السَّلام**) المُؤَمِّنُ من المخاوف والمهالك، أو الذي يُسَلِّم على عباده، وقيل هو السالم من المعائب. و(**الْمُؤْمِنُ**) المصدِّق لرسله بالمعجزات ولأوليائه بالكرامات ولعباده المؤمنين على إيمانهم وإخلاصهم، لأنه لا يطلع على الإخلاص نَبِيٌّ مُرسَل ولا مَلَكٌ مقرب وإنما بعلم من الله. و(**المُهَيمِن**) المطَّلِع على خطرات القلوب، أو الرقيب على خلقه والقائم عليهم. و(**العَزيز**) مِنْ عَزَّ بمعنى غلب وقهر، فهو من صفات الجلال أي العظمة، أو مِنْ عَزَّ بمعنى قَلَّ فلم يوجد له مثيل ولا نظير، فهو من صفات السُّلوب. و(**الجبَّار**) المنتقم القهار، فيكون من صفات الجلال أو المصلح للكسر، يقال جبر الطبيب الكسر أصلحه، فهو من صفات الجمال أي اللطف. و(**المُتكبِّر**) من الكبرياء وهو التعالي في العظمة وهي مختصة به تعالى لما في الحديث: «الكبرياء رِدَائِي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»[1]. و(**الخَالِق**) الموجد للمخلوقات من العدم. و(**البارئ**) من برأ بمعنى أوجد، أو المبرئ من الأسقام من أَبْرَأَ، أو المظهر لما في الغيب من بَرِئَ بمعنى أظهر ما كان خفياً فيرجع لمعنى الخالق. و(**المُصَوِّرُ**) المبدع للأشكال على حسب إرادته، فأعطى كل شيء من المخلوقات صورة خاصة وهيئة منفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها. و(**الغفّار**) إمَّا مأخوذ من الغَفْر بمعنى السَّتْر لأنه يَسْتُرُ على عباده قبائحَهُم فيحجِبُها في الدنيا عن الآدميين وفي الآخرة عن الملائكة

---

(1) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة.

ولو كانت موجودة في الصحف، أو من الغَفْر بمعنى المَحْوِ من الصحف، وهو مرادف للغفور والغافر. وقيل إن الغافر هو الذي يغفر بعض الذنوب، والغفور هو الذي يغفر أكثرها، والغفّار هو الذي يغفرها جميعاً، والصحيح الأول لأنه لا مبالغة في أسماء الله، وإن رأى بعض العلماء أن المبالغة في مفعولاته، أو تكون صيغتها صيغة نِسبة كتَمَّارٍ نسبة للتَّمْرِ. و(**القهّار**) ذو البطش الشديد، فهو من صفات الجلال. و(**الوَهَّاب**) ذو الهبات العظيمة لغير غرض ولا علة، فالطاعات لا تزيد في ملكه شيئاً، وإنما رتب الثواب عليها من فضله وكرمه، فهو من صفات الجمال. و(**الرَّزَّاق**) معطي الأرزاق لعباده دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾[1]، وهو بمعنى الرازق. والرزق قسمان: ظاهر، وهو الأقوات من طعام وشراب ونحو ذلك. وباطن، وهو العلوم والأسرار والمعارف. فالأول رزق الأبدان، والثاني رزق الأرواح، وكُلٌّ من عند الله، وهو من صفات الجمال. و(**الفَتَّاح**) ذو الفتح لما كان مغلقاً حِسِّياً أو معنوياً، فهو المسهِّل لكل عسير من خيري الدنيا والآخرة فضلاً منه وإحساناً، وهو من صفات الجمال. و(**العَلِيم**) ذو العلم، وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات تعلق إحاطة وانكشاف لا بوصف ولا بنظر ولا بضرورة ولا بكسب. و(**القَابِض**) ذو القبض ضد البَسْط، فهو عز وجل قابض للأرزاق والأرواح وغير ذلك، فهو من صفات الجلال. و(**البَاسِط**) ذو البَسْط ضد القبض، فهو سبحانه وتعالى باسط الأرزاق في الدنيا والآخرة أي موَسِّعها، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[2]. و(**الخَافِض**) لمن أراد خفضه، فهو خافضُ كلمةِ الكفر وخافض الظالمين والمتكبرين. و(**الرَّافِع**) لأهل الإسلام والعلماء والصديقين والأولياء والسموات والجنة وغير ذلك من الحِسِّي والمعنوي، وهو من صفات الجمال. و(**المُعِزّ**) خالق العز لمن يشاء من خلقه، وهو من صفات الجمال.

---

(1) هود : 6 .

(2) البقرة : 243 .

و(**الْمُذِلُّ**) خالق الذل لمن أراد من عباده، وهو من صفات الجلال. و(**السَّمِيع**) ذو السمع، وهي صفة أزلية تتعلق بجميع الموجودات تعلق إحاطة وانكشاف. و(**الْبَصِير**) ذو البصر، وهي صفة أزلية تتعلق بجميع الموجودات تعلق إحاطة وانكشاف. و(**الحَكَم**) ذو الحُكْم التام. و(**العَدْل**) ذو العدل، أو العادل فلا يظلم مثقال ذرة. فأحكام الله لاجَوْر فيها بل دائرة بين الفضل والعدل، لأن الجَوْر هو التصرف في مُلك الغير بلا إذنه - ولا مُلك لأحد مع الله. وأُردِف الحَكَمُ بالعدل دَفْعاً لتوهُّم أن حُكْم الله تارة يكون بالعدل وتارة يكون بالجَوْر. و(**اللَّطِيف**) العالِم بخفيات الأمور أو معطي الإنسان في صورة الامتحان كإعطاء يوسف الصديق عليه السلام الملك في صورة الابتلاء بمراودة امرأة العزيز عن نفسه وبسجنه بضع سنين، وإعطاء آدم عليه السلام الفوز الأكبر وهو عودته إلى الجنة في أعداد هائلة من ذريته يوم القيامة في صورة ابتلائه بأكله من الشجرة التي نُهِيَ عنها وإخراجه من الجنة، وإعطاء نبينا محمد-ﷺ- النصر على الكفار وفتح مكة في صورة ابتلائه بإخراج المشركين له منها، وهي سُنَّة الله في عباده الصالحين. و(**الخَبِير**) المطلع على خفيات الأشياء، فيرجع لمعنى اللطيف على التفسير الأول، أو القادر على الإخبار بما عجزت عنه المخلوقات. و(**الحَلِيم**) هو الذي لا يَعْجَلُ بالعقوبة على من عصاه وكفر به بل يُمْهِلُهُ، فإن تاب محا عنه خطاياه. فلولا حِلْمه علينا لخَسَف بنا الأرض، فسَعَةُ حِلْمِه بنا من أجلِّ النِّعَم علينا، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ**﴾[1]. قال بعض العارفين: الحمد لله على حِلْمِه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته. و(**العَظِيم**) الذي يصغر عند ذكره كُلُّ شيء، ولا يحيط به إدراك ولا يعلم كُنْهَ حقيقته سواه، ففي الحديث: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[2]، وهو من الصفات الجامعة. و(**الغَفُور**) تقدم معناه عند تفسير اسمه الغفار، وهو إمَّا مأخوذ من الغَفْر بمعنى الستر لأنه يستر على عباده قبائحهم فلا

---

(1) النحل : 61 .

(2) رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

يعلمها أحد غيره، أو مأخوذ من الغفر بمعنى المَحْوِ من الصحف. و(الشَّكُور) الذي يشكر عباده، أي يثني عليهم في الدنيا فيعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، ويرفع ذكرهم في الملإ الأعلى. و(العَلِيُّ) المرتفع المنزَّه عن كل نقص، المتصف بكل كمال، المستغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه. و(الكَبِير) هو والعظيم بمعنى واحد، أو هو ذو الكبرياء، وقد تقدم أن معنى العظيم الذي يصغر عند ذكره كل شيء، ولا يحيط به إدراك ولا يعلم كنه حقيقته سواه. و(الحَفِيظ) الحافظ للعالم العلوي والسُّفلي، دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[1]. و(المُقِيت) خالق الأقوات للأجساد والأرواح دنيا وأخرى، وقوت الأجساد الطعام والشراب ونفعها بذلك وتلذذها به، وقوت الأرواح الإيمان والأسرار والمعارف وانتفاعها بها، والكافر لا قوت لروحه. و(الحَسِيب) الكافي من توكل عليه، أو الشريف الذي كل من دخل حِمَاه تشرف أو المحاسِبُ لعباده جميعاً على كل شيء في قدر نصف يوم من أيام الدنيا أو أقل. و(الجَلِيل) العظيم في الذات والصفات والأفعال، فيرجع لمعنى العظيم والكبير المتقدِّمين، وقيل هو الموصوف بنعوت الجلال. و(الكَرِيم) المُعطِي من غير سؤال، أو الذي عمَّ عطاؤه الطائع والعاصي. و(الرَّقِيب) المراقب الحاضر، المشاهِد لكل مخلوق، المتصرف فيه، فهو أعمُّ من المهيمن لأن المهيمن هو المطلع على خطرات القلوب كما تقدم، والرقيب المطلع على الظاهر والباطن. و(المُجِيب) أي لدعوة الداعي، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[3]، وفي الحديث القدسي: ((أنا عند ظَنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني))[4]. و(الوَاسِع) أي لا أوَّلِيَّة له ولا آخِرِيَّة فهو من صفات السُّلوب، أو أن رحمته وسعت كل شيء فيكون من

(1) هود : 56 .
(2) غافر : 60 .
(3) البقرة :185 .
(4) رواه أحمد عن أنس.

صفات الجمال، أو هو الذي اتسع علمه وكرمه. و(**الحَكيم**) ذو الحكمة وهي الغلم التام والصنع المتقن. و(**الودود**) المحب لعباده الصالحين الراضي عليهم، قال تعالى: **﴿هَلْ جَزَآءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾**[1]، أو المحبوب لأنه محب ومحبوب، فمحبَّته لعباده إنعامه عليهم أو إرادة إنعامه، فترجع لمعنى الرضا، ومحبة عباده له مَيْلهم إليه وشغلهم به عمَّن سواه. و(**المَجيد**) الشريف. و(**البَاعث**) الذي يبعث الأموات أي يحييهم للحساب، ويبعث الرسل لعباده من أجل إقامة الحُجَج عليهم. و(**الشَّهيد**) المطلِع على الظاهر والباطن فيرجع لمعنى الرقيب. و(**الحق**) الثابت الذي لا يقبل الزوال أزلاً ولا أبداً. و(**الوَكيل**) المتولي أمور خلقه دنيا وأخرى. و(**القَوِيُّ**) ذو القدرة التامة التي يُوجِد بها كلَّ شيء ويُعدِمه على طبق مُراده. و(**المَتين**) صاحب القوة العظيمة التي لا تُعارَض ولا يعتريها نقص ولا خلل. و(**الوَلِيُّ**) الموالي والمتابع الإحسان لعبيده، أو المتولي للخير والشر بمعنى صدور الكل منه، فيرجع لمعنى الوكيل، ويشهد للأول قوله تعالى: **﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾**[2]، وللثاني قوله تعالى: **﴿أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾**[3]. و(**الحميد**) المحمود أي المستحق للحمد كله، أو الحامد لعبيده الصالحين ولنفسه بنفسه. و(**المُحصِي**) الضابط لعدد مخلوقاته جليلها وحقيرها، قال تعالى: **﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾**[4]. و(**المُبدِئُ**) بالهمزة المُنْشِئُ من العدم إلى الوجود، وأما (المبدِي) بدون همزة فمعناه المُظْهِرُ وليس مُراداً هنا. و(**المُعِيدُ**) الذي يعيد الخلق بعد انعدامهم، قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾**[5]. و(**المُحْيِي**) المقوِّم للأبدان بالأرواح للخلائق من العدم أي الناقل لهم من حالة العدم لحالة الحياة. و(**المُميت**) الخالق للموت وهو عدم الحياة عما من شأنه

---

(1) الرحمن : 59 .

(2) البقرة : 256 .

(3) الشورى : 7 .

(4) الجن : 28 .

(5) الروم : 26 .

الحياة، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾[1] . و(الحَيُّ) ذو الحياة وهي في حقه تعالى صفة أزلية قائمة بذاته يستلزمها اتصافه بصفات المعاني والصفات المعنوية. و(القيُّوم) القائم بذاته تعالى، المستغني عن غيره، أو المقوِّم لغيره بقدرته، فهو المتصرف في العالم دنيا وأخرى. و(الوَاجِد) من الوِجدان وهو عدم نفاد الشيء أي الغني الذي لو أغنى الخلق جميعاً وأعطاهم سُؤْلهم لم يَنقُص من مُلكه إلا كما ينقص المِخيط إذا أدخل البحر كما في الحديث الشريف. و(المَاجِد) الشريف فهو بمعنى المجيد المتقدم أو واسع الكرم. و(الوَاحِد) الذي لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، أو هو الذي لا يتجزأ ولا يتثنى. و(الصَّمَد) الذي يُقصَد في الحوائج فهو كالدليل للوحدانية. و(القَادِر) ذو القدرة التامة وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالممكنات إيجاداً وإعداماً على وفق الإرادة. و(المُقتَدِر) مبالغة في القدرة أي العظيم القدرة التي لا شبيه لها ولا مثيل ولا نظير، فيرجع لمعنى القوي المتين. و(المُقَدِّمُ) لمن أراد من عباده. و(المؤخِّرُ) لمن أراد تأخيره. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[2] . و(الأَوَّلُ) الذي لا افتتاح لوجوده. و(الآخِرُ) الذي لا انتهاء لوجوده. و(الظَّاهر) الذي ليس فوقه شيء ولا يغلبه شيء، أو الظاهر بآثاره وصنعه قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[3] . و(البَاطِن) الذي ليس أقرب منه شيء أو الذي تَحَجَّب عنا بجلاله وهيبته فلا تراه الأبصار في الدنيا ولا تُدْرَك حقيقته لأحد دنيا وأخرى ،وقد جمعت هذه الأسماء الأربعة في قوله -ﷺ- : ((اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنّا الدَّيْنَ وأغنِنا من الفقر))[4] .

---

(1) الملك : 2 .

(2) آل عمران : 26 .

(3) الرحمن : 27 .

(4) رواه مسلم وأبو داود.

و(**الوَالِي**) المتولي على عباده بالتصرف والقهر والإيجاد والإعدام فيرجع لمعنى المِلك. و(**المُتعالِ**) المنزّه عن صفات الحوادث، فيرجع لمعنى القدوس، وأُتِيَ به عقب الوالي لدفع توهم طرو نقص عليه كالولاة. و(**البَرُّ**) المحسن لعباده الطائعين والعاصين. و(**التّوّاب**) كثير التوبة على عباده المذنبين أي يقبل توبتهم كلما تابوا، أو الذي يخلق التوبة في العبد فتظهر فيه، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[1] ، وقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ**﴾[2] . و(**المُنتقِم**) المرسل للنِّقَم أي المصائب والعذاب على الكفار والجبابرة الذين ماتوا مُصِرِّين على ذلك، فهو من صفات الجلال كالقهّار. و(**العَفُوُّ**) الذي لا يؤاخذ المذنب بالذنوب بل يمحوها ويبدلها حسنات. و(**الرَّؤوف**) من الرأفة وهي شدة الرحمة، ومعناها في حقه تعالى الإنعام أو إرادته. و(**مَالِكُ المُلْكِ**) المتصرف فيه على ما يريد ويختار، قال تعالى: ﴿**لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**﴾[3] . و(**ذو الجلال والإكرام**) صاحب الهيبة والعظمة، والإنعام والإحسان. و(**المُقْسِطُ**) الذي يحكم بالإنصاف بين خلقه، وضده القاسط بمعنى الجائر. و(**الجامع**) لكل كمال أو للخلق يوم القيامة، قال تعالى:﴿**وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ**﴾[4] . و(**الغَنِيُّ**) ذو الغنى المطلق، وهو المستغني عن كل ما سواه، والمفتقِرُ إليه كلُّ ما عداه. و(**المُغْنِي**) المعطي الغِنَى لمن يشاء دنيا وأخرى، قال تعالى:﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى**﴾[5] . و(**المَانِعُ**) الدافع عن عبيده المضار الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾[6]، وقال: ﴿**وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾[7] . و(**الضَّارُّ**) خالق الضُّرِّ ضد النَّفْع وهو إيصال الشَّرِّ لمن شاء من عباده. و(**النّافع**) خالق النفع ضد الضر وهو إيصال الخير لمن

---

(1) التوبة : 119 .
(2) الشورى : 23 .
(3) الرعد : 42 .
(4) الشورى : 27 .
(5) النجم : 47 .
(6) الحج : 36 .
(7) البقرة : 249 .

شاء من عباده دنيا وأخرى. و(النُّور) الظاهر في نفسه المظهر لغيره، أو خالق النور. و(الهَادي) خالق الهُدَى والرشاد الموصل له من أحب من عباده. و(البَديع) المبدِع والمحكم كل شيء صَنَعَهُ أو المخترع الأشياء على غير مثال سابق، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] . و(الباقي) الدائم الذي لا يزول ولا يحول. و(الوارث) الباقي بعد فناء خلقه، أو الذي يرجع إليه كل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ﴾[2] ، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وإِلَيْهِ تُرجَعُونَ﴾[3] ، وقال: ﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[4] . و(الرَّشِيد) صاحب الرشد وهو الذي يضع الشيء في محله أو خالق الرشد في عباده، فيرجع لمعنى الهادي. و(الصَّبور) الذي لا يعجل بالعقوبة على من عصاه فيرجع لمعنى الحليم. وا لله أعلمُ بحقيقة معاني أسمائه وأسرارها. هذه أسماءُ ا لله الحُسْنى ومعانيها، وفيما يلي بيان هذه الأسماء مجردة :

هو ا لله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم المَلِك القدوس السَّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافظ الرافع المعز المذل السميع البصير الحَكَم العَدْل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القَوِي المتين الولي الحميد المُحصي المبدئُ المعيد المُحْيِ المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدِّم المؤخِّر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعال البَرُّ التواب المنتقم العفوُّ الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسِط الجامع الغنِيُّ المُغنِي المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور.

---

(1) البقرة : 116 .
(2) مريم : 39 .
(3) القصص : 88 .
(4) الشورى : 50 .

قال الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين عَقِبَ تفسيره لأسماء الله الحسنى من خلال تفسير الآية الكريمة: ﴿قُلُ ادْعُواْ اللَّهَ أَوُ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَياً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾ من سورة الإسراء : إن للعارفين في استعمال هذه الأسماء طرقاً، فمنهم من يستعملها نثراً، ومنهم من يستعملها نظماً كالشيخ الدمياطي وسيدي مصطفي البكْرِي وغيرهما، وأجل ما تلقيناه منظومة أستاذنا الشيخ أحمد بن محمد الدردير فإنها عديمة النظير لاحتوائها على الدعوات الجامعة والأسرار اللامعة بمظاهر تلك الأسماء، وهي آخر العلوم الإلهية التي ظهرت على لسانه، وقد ألقيت عليه في ليلة واحدة فقام من فراشه وكتبها وكان يقرؤها في كل يوم وليلة ثلاث مرات.

وتتميماً للفائدة ننقل هذه المنظومة المباركة فيما يلي :

منظومة أسماء الله الحسنى

تَبَارَكْتَ يَاأَلـلَّهُ رَبِّـي لَـكَ الثَّنَا ... فَحَمْـداً لِمَوْلاَنَـا وَشُـكْراً لِرَبِّنَـا

بأسمائك الْحُسْنَى وأسرارِها التي ... أقمتَ بهاالأكوانَ من حضرة الفَنَا

فندعوك ياأللّهُ يا مبدعَ الوَرَى ... يقيناً يقينَا الهمَّ والكربَ والعَنَا

ويـاربُّ يـارحْمنُ هبنَـا معارفـاً ... ولطفـاً وإحسـاناً ونـوراً يعُمنـا

وسِرْ يـا رحيـمَ العـالمين بجمعنَـا ... إلى حضرة القرب المقدس واهدِنَا

ويـا مـالكٌ ملّـك جميـعَ عوالِمِـي ... لروحي وأخلِصْ منَ سواك عقولَنَـا

وقَدّس أيا قُدوس نفسي من الهـوَى ... وسَلِّمْ جميعـي يـا سَلام مـن الضنـا

ويا مؤمنٌ هب لي أمانـاً وبَهْجَـةً ... وجَمِّـل جَنـانِي يـا مهيمـن بالمنـا

وجُـدْ لي بِعِـزٍّ يـا عزيـزُ وقـوةٍ ... وباجـبر يـا جبـارُ بَـدِّدْ عَدُوَّنَـا

وكبِّر شـؤوني فيـك يـا مُتَكَبِّرٌ ... ويا خـالقَ الأكـوان بـالفيض عُمنا

ويا بارئ احفظنا من الخلـق كُلِّهِـمْ بفضلك واكشِف يا مصـوِّرُ كَربَنَا

وبـالغفر يـا غفّارُ مَحِّـصْ ذنوبَنـا وبـالقهر يـا قهـارُ اِقْهَـرْ عدوَّنَـا

وهب لي أيَا وهابُ علمـاً وحكمـةً ولـلرِّزق يـاررزاقُ وَسِّعْ وجُـدْ لَنَـا

وبـالفتح يـا فتـاح عَجِّـلْ تكرُّمـاً وبـالعلم نـوِّرْ يـا عليـمُ قلوبَنَـا

ويا قابضُ اقبضنا علي خير حالـةٍ ويا باسـطَ الأرزاق بسْطاً لِرزقِنَـا

وياخافضُ اخفِض لي القلوبَ تحبُّبـاً ويارافعُ ارفع ذكرَنـا واغـلِ قدرَنَا

وبـالزُّهد والتقـوى مُعِـزٌّ أَعِزَّنَـا وذَلِّـلْ بصفـو يـا مُـذِلُّ نفوسَـنَا

ونفـذ بِحـقّ يـا سميـعُ مَقَـالتِي وبَصِّـر فـؤادي يـا بَصِـيرُ بعيبنـا

ويـا حَكَـمٌ يـا عَـدْلُ حَكِّـمْ قلوبَنَـا بِعَدْلـك في الأشيَا وبالرُّشْـدِ قونَـا

وحُـفَّ بلطـف يـا لطيـفُ أَحِبَّتِـي وتَوِّجْهُمُو بالنور كي يُدركواالْمُنَا

وكُـنْ ياخبـيراً كاشـفاً لكُروبِنَـا وبـالحِلْمِ خلِّقْ يـا حَلِيـمُ نفوسَـنا

وبـالعِلم عظِّمْ يـا عظيـمُ شـؤوننا وفي مقعـد الصِّدقِ الأجَـلّ أحِلَّنَـا

غَفُـورٌ شَـكُورٌ لم تَـزَلْ متفضِّـلاً فبالشكر والغفـران مـولاي خُصَّنَـا

عَلِيٌّ كَبِـيرٌ جَـلَّ عن وَهـمِ وَاهِـمٍ فسُبحَانك اللهمَّ عنوصف منجنَـا

وكُنْ لي حفيظاً يا حفيظُ مـن البَلاَ مُقِيـتٌ أقِتْنَـا خَـيْرَ قُـوتٍ وهَنِّنَـا

وأنت غِياثي يا حسِيبُ من الـردَى وأنـت مـلاذي يـا جليـلُ وحَسْـبُنَا

وجُدْ يا كريماً بالعَطا منك والرِّضَـا وتَزكيـةِ الأخـلاق والجود والغِنَـى

رقيـبٌ علينـا فـاعفُ عنـا وعافِنَـا ويَسِّـرْ علينـا يـا مجيـبُ أمُورنـا

وياواسِعُ وَسِّعْ لنـا العِلْـمَ والعَطَـا حكيمـاً أنِلْنَـا حِكْمَـةً منـك تَهْدِنَـا

وَدود فجُدْ بالوُدِّ منك تَكَرُّماً ... علينا وشَرِّفْ يا مجيدُ شُؤونَنا

ويا باعثُ ابعثنا على خيرِ حالةٍ ... شهيدٌ فأشهِدنَا عُلاك بجمعنَا

ويا حقُّ حَقِّقْنَا بسِرٍّ مقدَّسٍ ... وكيلٌ توكلنا عليك بك الغِنَى

قَوِيٌّ متينٌ قَوِّ عَزمي وهِمتي ... وَلِيٌّ حميدٌ ليس إلاَّ لَكَ الثنا

ويا مُحصِيَ الأشياءِ يا مُبْدِئَ الوَرَى ... تَعَطَّفْ علينا بالمسَرَّة والهنَا

أعِدْنا بنور يا معيدُ وأحيِنَا ... على الدين يا مُحْيِ الأنامِ من الفَنَا

مُميتٌ أمِتني مسْلماً ومُوَحِّداً ... وشَرِّفْ بذا قدري كما أنت ربَّنَا

ويا حيُّ يا قيومُ قَوِّمْ أمورَنَا ... ويا واجِدٌ أنت الغَنِيُّ فأغنِنَا

ويا ماجِدٌ شَرِّفْ بمجدك قدرَنا ... ويا واحِدٌ فَرِّجْ كروبي وغمَّنَا

ويا صمدٌ فَوَّضتُ أمري إليك لاَ ... تَكِلنِي لنفسي واهدنا رَبِّ سُبْلَنَا

وَيَا قادرُ اقدِرنا على صدمة العِدَا ... ومقتدرٌ خَلِّصْ من الغير سِرَّنَا

وقَدِّمْ أموري يا مُقَدِّمُ هَيبَةً ... وأخِّرْ عِدانا يا مؤخِّرُ بالعَنَا

ويا أوَّلٌ من غير بَدْءٍ وآخِرٌ ... بغيرِ انتِهاءٍ أنتَ في الكُلِّ حَسْبنَا

ويا ظاهراً في كل شيء شؤونهُ ... ويَا بَاطِناً بالغيب لازلتَ مُحْسِنَا

وَيَا والِياً لَسْنَا لغيرك ننتمي ... فبالنصر يا مُتَعَالياً كُنْ مُعِزَّنا

وَيَا بَرُّ يَا توَّابُ جُدْ لي بتوبَةٍ ... نصوحٍ بها تمحُو عظائمَ جُرْمِنَا

ومُنتَقِمٌ هاكَ انتقِمْ من عدوِّنَا ... عَفُوٌّ رؤوفٌ عافنا وارْأَفنْ بِنَا

ويا مالكَ الملكِ العظيم بِقَهْرِهِ ... وَيَا ذَا الْجَلاَلِ الْطُفْ بنَا في أمُورِنَا

وَيا مُقْسِطٌ بالاِسْتِقَامَةِ قَوِّنَا ... وَيَا جَامِعٌ فاجْمَعْ عَلَيكَ قلوبَنَا

غَنِـيٌّ ومُغْـنٍ أغْنِنَـا بِـكَ سَـيِّدِي وَيَـا مَـانِعُ امْنَـعْ كُـلَّ كَـرب يَهُمُّنَـا

وَيَـا ضَارُّ ضُرَّ المُعْتَدِين بظُلمِهِـم وَيَـا نَـافِعُ انفعنَـا بِـأنوَارِ دِينِنَـا

وَيَـا نُـورُ نَـوِّرْ ظَـاهِرِي وسَـرائِرِي بحُبِّـكَ يَـا هَـادِي وقَـوِّمْ طريقَنَـا

بَدِيـعٌ فَأَتْحِفْنَـا بَدَائِـعَ حِكمَـةٍ وَيَـا بَاقِياً بِـكَ أَبْقِنَـا فِيـكَ أَفْنِنَـا

وَيَـا وَارِثُ وَرِّثْنِي عِلمـاً وحِكمَـةً رَشِـيدٌ فَأَرشِـدنَا إلى طُـرُق الثنَـا

وأَفْرِغْ علينَا الصَّبْرَبالشُّكْرِ والرِّضَا وحُسْـنِ يَقِـينٍ يـا صَبُـورُ وَوَقِّنَـا

بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى دَعَوْنـاكَ سَيِّدِي تَقَبَّـلْ دُعَانَـا رَبَّنَـا واسْـتَجِبْ لَنَـا

بِأَسْرَارِهَا عَمِّرْ فُؤَادِي وَظَـاهِرِي وَحَقِّقْ بِهَـا رُوحِـي لأَظْفَـر بـالْمُنَى

ونَوِّرْ بها سَـمْعِي وشَـمِّي ونَـاظِرِي وقَـوِّ بهـا ذَوْقِـي وَلَمْسِـي وعَقلَنَـا

وَيَسِّرْ بهـا أَمْـرِي وَقَـوِّ عزائِمِـي وَزَكِّ بهـا نَفْسِـي وفَـرِّجْ كُرُوبَنَـا

وَوَسِّعْ بها عِلمِـي وَرِزقِـي وهِمَّتِـي وَحَسِّنْ بها خَلْقِي وخُلْقِي مَعَ الْهَنَا

وَهَـبْ لِـيَ حُبـاً يـا جليـلُ مُجَمِّـلاً وزِدْنِـي بفـرط الحـبّ فيـك تَفَنُّنـاً

وهَـبْ لِي أيـا رَبَّاهُ كَشْفاً مُقَدَّسـاً لأَدْرِي بِـهِ سِرَّ الْبَقَـاءِ مَـعَ الفَنَـا

وَجُدْ لي بِجَمْعِ الجمْعِ فَضْـلاً ومِنَّـةً وَدَاوِبوَصْلِ الوصْلِ رُوحِي من الضَّنَا

وَسِرْ بي على النَّهْجِ القوِيمِ مُوَحِّـداً وفي حضـرة القُـرْب الْمَنِيـعِ أَحِلَّنَـا

ومُـنَّ علينَـا يَـاوَدُودُ بِجَذبَـةٍ بها نلحـقُ الأقـوامَ مَـن سَـار قَبلَنَـا

وَصَلِّ وَسَلِّمْ سيدي كُـلَّ لَمْحَـةٍ عَلَـى المصطفـى خَيْر البرايَـا نَبِيِّنَـا

وَصَلِّ على الأملاكِ والرُّسْلِ كُلِّهِـمْ وآلِهِـمُ والصَّحْـبِ جَمْعـاً وَعُمَّنَـا

وَسَـلِّمْ عليهِـم كُلَّمَـا قَـالَ قَـائِلٌ تَبَـارَكْتَ يَاأَللّهُ رَبِّـي لَـكَ الثَّنَـا

التأويلُ أو التفويضُ في النصوص الموهِمَةِ التّشبيه :

المراد بالنص هنا ما قابل القياس والاستنباط والإجماع، وهو الدليل من الكتاب أو السُّنّة، سواء كان صريحاً أم ظاهراً. والمراد بالموهمة التشبيه الموقعة في الوهم صحة القول به بحسب ظاهره. والمراد بالتأويل حمل النص على خلاف ظاهره مع بيان المعنى المراد كما هي طريقة الخلَف، وهم من كانوا بعد القرن الخامس من ظهور الإسلام، وقيل بعد القرن الثالث. والمراد بالتفويض صرف اللفظ عن ظاهره بعد التأويل الإجمالي كما هي طريقة السَّلَف، وهم من كانوا قبل القرن الخامس على القول الأول أو قبل القرن الثالث على القول الثاني. وطريقة الخلَف أعلم وأحكم لما فيها من مزيد الإيضاح والردِّ على الخصوم وهي الأرجح. وطريقة السَّلَف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى، على أنه يجب في الحالتين أن يكون القصد من استعمال إحدى الطريقتين دون الأخرى تنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به مع تفويض علم المعنى المراد إليه. قال صاحب الجوهرة :

وَكُلُّ نصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا أَوِّلْهُ أَوْ فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيهَا

وخلاصة القول أن السَّلَف والخلَف مُتَّفِقُون على التأويل الإجمالي لأنهم يصرفون النص الموهِمَ عن ظاهره المحال عليه، لكنهم اختلفوا بعد ذلك في تعيين المراد من النص وعدم التعيين، وذلك بناء على ما جاء في سورة آل عمران من قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾**[1].

---

(1) آل عمران : 7 .

فبناء على الوقف على قوله تعالى: ﴿والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ تكون هذه الجملة معطوفة على لفظ الجلالة، ويكون نظم الآية هكذا: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وتكون جملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ...الآية﴾ جملة مستأنفة لبيان التماس التأويل، وهذه طريقة الخلَف.

وبناءً على الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ يكون قوله تعالى: ﴿والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِه...الآية﴾ جملة مستأنفة مقابلة لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ...الآية﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ جملة اعتراضية، ويكون نظم الآية هكذا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ –وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ– وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا...الآية﴾، وهذه طريقة السَّلَف.

والمراد بالذين في قلوبهم زَيْغ (المُجَسِّمَة) وهم قوم بعضهم يقول إن الله سبحانه وتعالى على صورة شيخ كبير، والبعض الآخر يقول إنه على صورة شاب حسن – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والزيغ هو الميل عن الحق.

ومن أمثلة المتشابه في القرآن الذي يجب فيه التأويل أو التفويض قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[1]، فالسَّلَف يقولون فوقيَّة لا نعلمها، والخلَف يقولون المراد بالفوقية التعالي في العظمة. والمعنى: يخافون (أي الملائكة) ربَّهم من أجل تعاليه في العظمة أي ارتفاعه فيها.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2]، فالسَّلَف يقولون استواءً لا نعلمه، والخلَف يقولون المراد به الاستيلاء والمُلك كما قال الشاعر :

---

(1) النحل : 50 .

(2) طه : 4 .

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ   مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

قيل إن رجلاً سأل الإمام مالكاً عن هذه الآية فأطرق رأسه ملياً ثم قال: الاستواء معلوم (أي معناه في اللغة)، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلاّ ضالاً، ثم أمر به فأُخرج.

وروي أن الزمخشري سأل الإمام الغزالي عن هذه الآية فأجابه بقوله :

إذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أينيَّة فكيف يليق بعبوديتك أن تصفه تعالى بأين أو كيف وهو مُقدَّس عن ذلك، ثم جعل يقول :

قُلْ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنِّي مَا أَقُولْ   قَصِّرِ الْقَوْلَ فَذَا شَرْحٌ يَطُولْ

ثَمَّ سِرٌّ غَامِضٌ مِنْ دُونِهِ   قَصُرَتْ وَاللهِ أَعْنَاقُ الْفُحُولْ

أَنْتَ لاَ تَعْرِفُ إِيَّاكَ وَلاَ   تَدْرِي مَنْ أَنْتَ وَلاَ كَيْفَ الْوُصُولْ

لاَ وَلاَ تَدْرِي صِفَاتٍ رُكِّبَتْ   فِيكَ حَارَتْ فِي خَفَايَاهَا الْعُقُولْ

أَيْنَ مِنْكَ الرُّوحُ فِي جَوْهَرِهَا   هَلْ تَرَاهَا فَتَرَى كَيْفَ تَجُولْ

وَكَذَا الأَنْفَاسُ هَلْ تَحْصُرُهَا   لاَ وَلاَ تَدْرِي مَتَى عَنْكَ تَزُولْ

أَيْنَ مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْفَهْمُ إِذَا   غَلَبَ النَّوْمُ فَقُلْ لِي يَا جَهُولْ

أَنْتَ أَكْلُ الْخُبْزِ لاَ تَعْرِفُهُ   كَيْفَ يَجْرِي مِنْكَ أَمْ كَيْفَ تَبُولْ

فَإِذَا كَانَتْ طَوَايَاكَ الَّتِي   بَيْنَ جَنْبَيْكَ كَذَا فِيهَا ضَلُولْ

كَيْفَ تَدْرِي مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى   لاَ تَقُلْ كَيْفَ اسْتَوَى كَيْفَ النُّزُولْ

كَيْفَ تَجَلَّى اللهُ أَمْ كَيْفَ يُرَى   فَلَعَمْرِي لَيْسَ ذَا إِلاَّ فُضُولْ

فَهْوَ لاَ أَيْنَ وَلاَ كَيْفَ لَهُ   وَهْوَ رَبُّ الْكَيْفِ وَالْكَيْفُ يَحُولْ

وَهْوَ فَوْقَ الْفَوْقِ لاَ فَـوْقَ لَـهُ   وَهْوَ فِي كُلِّ النَّوَاحِي لاَ يَـزُولْ
جَـلَّ ذَاتـاً وَصِفَـاتٍ وَسَـمَا   وَتَعَـالَى قَـدْرُهُ عَمَّـا تَقُـولْ

ومما يوهم الجسمية قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[1]، وحديث الصحيحين: «ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ويقول من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأُعطيَه، من يستغفرني فأغفر له»[2]، فالسَّلَف يقولون مجيءٌ ونزول لا نعلمهما، والخلَف يقولون المراد في الآية وجاء عذابُ ربِّك أو أمرُ ربك الشامل للعذاب، والمراد في الحديث ويَنزِل مَلَكُ رَبِّنا فيقول عن الله كذا وكذا مما ذكر.

ومما يوهم الجوارح قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[3]، وقوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[4]، وقوله -ﷺ- : «إن القلوب بين أُصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء»[5]، فالسَّلَف يقولون لله وجه ويد وأصابع لا نعلمها، والخلَف يقولون المراد من الوجه الذات وباليد القدرة، والمراد من قوله بين أصبَعين من أصابع الله بين صفتين من صفاته وهما القدرة والإرادة.

قيل إن الإمام الشعراني سأل شيخه الخواص : لماذا يؤول العلماءُ المُوهِمَ الواقع من الشارع ولا يؤولون المُوهِمَ الواقع من الوَلِيِّ ؟ فقال : لو أنصفوا لأَوَّلوا الواقع من الوَلِيِّ بالأَوْلَى لأنه معذور بضعفه في أحوال الحضرة، بخلاف الشارع فإنه ذو مقام مكين، ثم استدرك فقال : ولكن قد يقال إن الشارع ينبغي المحافظة على الواقع منه ما أمكن لأنه يُقْتَدَى به، وليس كذلك الوَلِيُّ فإنه لا يُحافَظُ على كلامه لأنه لا يُقتدَى به فإذا أوهم أهدر.

---

(1) الفجر : 24 .
(2) رواه الشيخان .
(3) الرحمن : 25 .
(4) الفتح : 10 .
(5) رواه مسلم في صحيحه والبيهقي في الأسماء والصفات.

ولعل الإمام الشعراني يقصد من سؤال شيخه الخواص ماحصل لبعض الأولياء من الوقوع فيما يُوهِمُ وما حَلَّ بهم من العقاب، وقد طرق ذلك الشيخ البيجوري في حاشيته على الجوهرة عند كلامه على الوجود الواجب لله تعالى ووجود المخلوقات فقال : أما الوجود غير الذاتي كوجودنا نحن فهو بفعله تعالى. وبعضهم أي الأولياء لا يشاهد لغير الله وجوداً وهذا يُسَمَّى عندهم وحدة الوجود، وقد غَرِق فيه من غَرِق حتى وقع من بعضهم ما يُوهِمُ الاتحاد والحلول كقول (الحلاّج): أنا الله، وكقول بعضهم: ما في الْجُبَّةِ إلاَّ الله، وهذا اللفظ لايجوز شرعاً لإيهامه، ولكن تارة تغلبهم الأحوال فيُؤَوَّلُ ما يقع منهم بما يناسبه. وممن أفتى بقتل الحلاج حين قال المقالة السابقة (أنا الله) الإمام الجُنيد.

الإيجَادُ والإسعادُ وضدُّهما :

من الجائز في حقه سبحانه وتعالى هذه الأمور الأربعة، وهي: الإيجاد والإسعاد، وضدهما على الترتيب التّركُ والإشقاء. فالإيجاد ضده الترك، والإسعاد ضده الإشقاء. وفيما يلي تفصيل كل أمر منها :

فالإيجاد هو إيجاد الممكنات سواء وجدت بالفعل أم لم توجد، والإيجاد والخلق بمعنى واحد، وهو تعلُّقُ القدرة بوجود المقدور، فإن تعلقت بالحياة سُمِّيَ إحياءً، وبالموت سُمِّيَ إماتةً، وبالمرزوق سُمِّيَ رزقاً وترزيقاً، وهذه التعلقات هي المُسَمَّاة بصفات الأفعال، وهي حادثة كما ترى، لأنها عبارة عن التعلق التنجيزي للقدرة وهو حادث قطعاً. فإن قيل قد تقدم أن تعلق القدرة واجب، فكيف يحكم عليه هنا بالجواز؟ فالجواب: أن الواجب للتعلق الصَّلوحي القديم، أما التنجيزي فجائز، وكل جائز حادث. فإن قيل الخلق والإيجاد من صفاته تعالى، وكيف يتصف سبحانه وتعالى بالحوادث؟ فالجواب: هذه أمور اعتبارية تعرض للقدرة لا وجود لها في الأذهان ولا تحقُّقَ لها في نفسها ككونه قبل العالَم، ومعه، وبعده، فلا يلزم قيام الحوادث به تعالى.

والتَّرْك هو ترك الإيجاد للممكنات سواء وجدت أم لم توجد، والترك والإعدام بمعنى واحد، يعني أنَّ إيجاد كل ممكن أو تركه أمر جائز في حقه تعالى إن شاء فعل وإن شاء ترك، ومن ذلك بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهذا مذهب أهل السُّنَّة خلافاً للبراهمة الذين يقولون باستحالة ذلك، وخلافاً للمعتزلة الذين يقولون بوجوب الصلاح والأصلح.

والإسعاد هو خلق قدرة الطاعة، أو هو خلق الطاعة في العبد ويُسَمَّى بالهداية. والإشقاء هو خلق قدرة الكفر أو هو خلق الكفر في العبد -والعياذ با لله تعالى- ويُسَمَّى الخِذلان أو الإضلال. وقيَّد الأشعري الإسعاد والإشقاء بحالة الموت، فالسعيد من مات على الإيمان، والشَّقي من مات على الكفر، وعند الماتُريدي السعيد هو المؤمن، والشَّقي هو الكافر. فعلى مذهب الأشاعرة السعادة والشقاوة مقدرتان في الأزل أي أنه يحكم بهما باعتبار ما سبق أزلاً في علمه تعالى، والأزل هو عدم الأوَّلِيَّة، أو هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، ولا يتحول كل واحد من السعيد والشَّقي عما سبق أزلاً في علمه تعالى، فالسعيد لا ينقلب شقياً، والشَّقي لا ينقلب سعيداً، وإلا لزم انقلاب العلم جهلاً وهو بديهي الاستحالة. فالسعادة والشقاوة مقدرتان في الأزل لا يتغيران ولا يتبدلان لأن السعادة هي الموت على الإيمان باعتبار تعلق علم ا لله أزلاً بذلك، والشقاوة هي الموت على الكفر بذلك الاعتبار، فالخاتمة تدل على السابقة، فإن خُتم له بالإيمان دل على أنه في الأزل كان من السُّعَداء وإن تقدمه كفر، وإن خُتم له بالكفر دل على أنه في الأزل كان من الأشقياء وإن تقدمه إيمان، كما يدل عليه قوله -ﷺ-: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبِق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))[1] ، فخوف العامة من الخاتمة، وخوف الخاصة من السابقة

---

[1] متفق عليه.

وهو أشد وإن تلازما. وعلى مذهب الماتريدية السعادة هي الإيمان في الحال، والشقاوة هي الكفر في الحال. فالسعيد هو المؤمن في الحال، فإذا مات على الكفر فقد انقلب شقياً بعد أن كان سعيداً، والشّقي هو الكافر في الحال، فإذا مات على الإيمان فقد انقلب سعيداً بعد أن كان شقياً.

ويترتب على الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية أنه يصح أن يقول الشخص أنا مؤمن إن شاء الله على قول الأشاعرة، ولا يصح أن يقول ذلك على قول الماتريدية، ومحل الخلاف ما إذا لم يقصد بذلك الشك في إيمانه، فإن قصده منع بالإجماع، فإن قصد التبرك جاز اتفاقاً، فإن لم يقصد شيئاً لا شكاً ولا تبركاً فقيل بالجواز وقيل بعدمه، ويمنع مطلقاً عند مالك والحنفية، ويجب لدى بعض تابعي الإمام مالك، ويجوز مطلقاً لدى الشافعي. وقد نظم بعضهم هذا الخلاف فقال :

مَنْ قَالَ إِنّي مُؤْمِنٌ يُمْنَعُ مِنْ ... مَقَالِهِ إِنْ شَاءَ رَبِّي يَا فَطِنْ

وَذَا لِمَالِكٍ، وَبَعْضُ تَابِعِهْ ... يُوجِبُ أَنْ تَقُولَ هَذَا يَانَبِيهْ

وَمِثْلُ مَا لِمَالِكٍ لِلْحَنَفِي ... وَالشَّافِعِي جَوَّزَ هَذَا فَاعْرِفِ

وَامْنَعْهُ إِجْمَاعاً إِذَا أَرَادَ بِهْ ... الشَّكَّ فِي إِيمَانِهِ يَا مُنْتَبِهْ

كَعَدَمِ الْمَنْعِ إِذَا بِهِ يُرَادْ ... تَبَرُّكٌ بِذِكْرِ خَالِقِ الْعِبَادْ

فَالْخُلْفُ حَيْثُ لَمْ يُرِدْ شَكاً وَلاَ ... تَبَرُّكاً فَكُنْ بِذَا مُحْتَفِلاَ

ومع هذا فالخلاف بين الأشاعرة والماتُرِيدية لفظيٌّ لأنهم اختلفوا في المراد من لفظ السعادة ولفظ الشقاوة مع الاتفاق في الأحكام.

الجبر والاختيار :

هذه المسألة اختلفت فيها المذاهب الثلاثة، مذهب أهل السُّنَّة ومذهب الجبْرِية ومذهب المعتزلة. فأهل السُّنة يقولون ليس للعبد في أفعاله الاختيارية إلا الكسب، فليس مجبوراً كما تقول الجبرية، وليس خالقاً لأفعاله كما تقول المعتزلة. والجبرية يقولون إن العبد ليس له كسب بل هو مجبور أي مقهور كالريشة المعلقة في الهواء تقلّبها الرياح كيف شاءت. والمعتزلة يقولون إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية بقدرة خلقها ا لله فيه، وبقولهم بقدرة خلقها ا لله فيه لم يكفروا على الأصح. فالجبرية أفرطوا أي تجاوزوا الحد، والمعتزلة فرَّطوا أي قصَّروا، وأهل السنة توسطوا، وخير الأمور أوسطها.

فإن قيل قد قام البرهان على وجوب استقلاله تعالى بالأفعال والمقدور الواحد لا يدخل تحت قدرتين كما يستلزمه إثبات الكسب للعبد، فالجواب أنه لما ثبت بالبرهان أن الخالق هو ا لله سبحانه وتعالى، وبالضرورة أن لقدرة العبد مدخلاً في بعض أفعاله كحركة البطش بغيره مثلاً دون البعض كحركة الارتعاش احتيج للتخلص من هذا المضيق بأن ا لله خالق للفعل لكن العبد له كسب في الاختياري منه، والمقدور الواحد يدخل تحت قدرتين بجهتين مختلفتين: فيدخل تحت قدرة ا لله تعالى بجهة الخلق، وتحت قدرة العبد بجهة الكسب. قال صاحب الجوهرة:

وَعِندَنَا للْعَبْدِ كَسْبٌ كُلِّفَا ... بِهِ وَلَكِنْ لَمْ يُؤَثِّرْ فاعْرِفَا

فَلَيْسَ مَجْبُوراً ولاَ اخْتِيَارَا ... وَلَيْس كُلاً يَفْعَلُ اخْتِيَارَا

وقوله (لا اخْتِيارَا) في آخر الشطر الأول من البيت الثاني تفسير لمعنى (مجبوراً)، فكأنه قال ليس مجبوراً وليس لا اختيار له، بل له بعض الاختيار كما تقدم.

والمراد بالعبد هنا وفيما تقدم من هذه الفقرة كل مخلوق يصدر عنه فعل اختياري فيشمل حنين الجذع له -ﷺ- ومشي الشجر وتسبيح الحصى.

وفي هذا رد على الجبرية في قولهم إن العبد مجبور ولا اختيار له في جميع أفعاله، وقد رد شاعر الجبرية على أهل السنة بقوله :

مَا حِيلَةُ العَبدِ وَالأَقْدَارُ جَارِيَةٌ ... عَلَيهِ فِي كُلِّ حَالٍ أَيُّهَا الرَّائِي

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبتَلَّ بِالمَاءِ

فأجابه بعض أهل السنة بقوله :

إِنْ حَفَّهُ اللُّطفُ لَمْ يَمْسَسْهُ مِنْ بَلَلٍ ... وَلَمْ يُبَالِ بِتَكْتِيفٍ وَإِلْقَاءِ

وَإِنْ يكُنْ قَدَّرَ الْمَولَى بِغَرْقَتِهِ ... فَهْوَ الغَرِيقُ وَلَو أُلْقَى بِصَحْرَاءِ

وأجابه آخر بقوله :

لاَ يُسْأَلُ اللهُ عَنْ أَفْعَالِهِ أَبداً ... فَهْوَ الحَكِيمُ بِحِرمَانٍ وَإِعطَاءِ

يَخُصُّ بِالفَضْلِ أَقوَاماً فَيرحَمُهُمْ ... وَضِدُّ ذَلِكَ لاَ يَخفَى عَلَى الرَّائِي

وقد انتقد الشيخ الأجهوري في أحد تقريراته على حاشية البيجوري على إجابة بعض أهل السنة بقوله : إن حَفَّه اللطف...إلى آخر البيتين، فقال إن هذا الجواب ليس ظاهراً وإنما الظاهر التفرقة بين المكلف المشبه بمن ألقي في اليم مكتوفاً وبين المشبه به وهو الملقى في اليم مكتوفاً مع نهيه عن أن يبتل، فإن المكلف له اختيار ظاهري وكسب وليس كذلك الملقى في اليم مكتوفاً.

وخلاصة القول في مسألة الجبر والاختيار هذه أن الواجب اعتقاده هو أن بعض أفعال العبد صادر باختياره والبعض الآخر باضطراره، لما يجده كل عاقل من الفرق الواضح بين حركة البطش وحركة المرتعش، وأن العبد مجبورٌ باطناً مختارٌ ظاهراً، فإن قيل إذا كان مجبوراً باطناً فلا معنى للاختيار الظاهري لأن الله قد علم أنه لابد من وقوع الفعل، وخلق في العبد القدرة عليه. فالجواب: أنه سبحانه وتعالى: ﴿**لاَ يُسْأَلُ**

﴿عَمَّا يَفعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1]، ولذلك قال سيدي إبراهيم الدسوقي: من نظر للخلق بعين الحقيقة عذرهم، ومن نظر إليهم بعين الشريعة مقتهم.

وسيأتي مزيد من التفصيل في خلق أفعال العباد في الفقرة التالية :

الله هو الخالق للعبد وعمله :

المراد من العبد كل مخلوق يصدر عنه الفعل عاقلاً كان أو غير عاقل خلافاً لبعضهم حيث قَصَره على المكلف، لأن بعض الأدلة التي ذكروها لا تجري في غير فعله، وإنما ذكر العبد مع أنه متفق على خلق الله إياه توصلاً لما بعده واتباعاً لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2] ، فالمقصود هو التأكيد على أن الله هو الخالق لعمل العبد كما هو الخالق للعبد نفسه، وهذا يسمى عند العارفين بوحدة الأفعال، ومنها يعلم بطلان دعوى أن شيئاً يؤثر بطبعه أو بقوة فيه أو بقوة خلقها الله فيه كما زعمه المعتزلة وذكرناه في الفقرة السابقة.

وخلاصة القول أن الناس بعد اتفاقهم على أن الله خالق العباد وخالق أفعالهم الاضطرارية اختلفوا في أفعالهم الاختيارية، فأهل السنة يقولون إن الله خالق لها أيضاً، والمعتزلة يقولون إن العبد هو الخالق لها بقدرة خلقها الله فيه، ونُقِل عن بعض أهل السنة أنها خلقت بالقدرتين قدرته تعالى وقدرة العبد وهو الكسب كما تقدم في الفقرة السابقة، وَرُدَّ عليه بأن القدرة القديمة لاشريك لها ولامعين، وأجيب عن ذلك بأن قدرة العبد أثرت في فعله لوصفها بالطاعة أو المعصية. قال الشيخ البيجوري: ربما هجس لبعض القاصرين أن من حجة العبد أن يقول لله لِمَ تُعذبني والكل فِعْلُك؟ وهذا مردود بأنه لا يَتوجَّه إليه تعالى من غيره سؤال لقوله عز وجل:﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، وكيف يكون للعبد حجة–ولله الحجة البالغة، فلا يسعنا إلا التسليم المحض.

---

(1) الأنبياء : 23 .

(2) الصافات : 96 .

ومع أن العمل خيره وشره من ا لله فمن الأدب معه سبحانه وتعالى أن لا ينسب له إلا الحسن، فينسب الخير لله والشر للنفس كسباً وإن كان منسوباً لله إيجاداً، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ا للهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1] ، أي كسباً كما يفسره قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2] ، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ ا للهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ا للهِ﴾[3] ، فهو رجوع للحقيقة، ولننظر إلى أدب الخِضْر عليه السَّلام حيث قال في قصته مع سيدنا موسى عليه السَّلام عن السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[4] ، وعن الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾[5]، وعن الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[6] ، حيث نَسَبَ فعل الشر وهو إعياب السفينة وقتل الغلام لنفسِهِ، ونَسَبَ فعل الخير وهو بناء الجدار لله سبحانه وتعالى مع أن الجميع منه.

ولننظر كذلك إلى قول سيدنا إبراهيم عليه السَّلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[7]،حيث نَسَبَ الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء لله سبحانه وتعالى، ونسَبَ المرض لنفسِهِ، مع أن الجميع من ا لله.

وإذا كان الخالق للعبد وعمله هو ا لله سبحانه وتعالى فإنه عز وجل هو الموفق لعبده المؤمن المطيع لطاعته، والتوفيق كما فسَّره إمام الحرمين هو سلامة الأسباب والآلات، والمراد من الأسباب الأشياء التي تكون حاملة على الفعل، والمراد من الآلات الأشياء التي تحصل بها الإعانة على الفعل، فالماء الذي يتوضأ به من الأسباب العرفية للصلاة، والأعضاء التي تحاول بها الطاعة آلات لها.

---

(1) النساء : 78 .
(2) الشورى : 28 .
(3) النساء : 77 .
(4) الكهف : 78 .
(5) الكهف : 80 .
(6) الكهف : 81 .
(7) الشعراء : 78 - 80 .

وكما أن الله سبحانه وتعالى موفق لمن أراد أن يصل لرضاه عنه ومحبته له فإنه خاذل لمن أراد بُعده عن رضاه ومحبته. والخذلان هو عدم النصرة والإعانة، وشرعاً خلق المعصية في العبد والداعية إليها.

ويخرج بالعبد المؤمن الكافر، فهو غير موفق مع أن الله خلق فيه قدرة الطاعة، والاقتصار على إخراج الكافر من التوفيق يقتضي أن المؤمن العاصي موفق، وهو الحق، خلافاً لمن قال المُوفَّقُ لا يعصي الله إذ لا قدرة له على المعصية، كما أن المخذول لا يُطِيع إذ لا قدرة له على الطاعة. وقد سُئل الإمام الجُنيد هل يَعْصِي الوَلِيُّ ربَّه؟ فأطرق ثم رفع رأسه وقال: وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً.

ومن كلام ابن الفارض :

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطْ وَمَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَطْ

فأجابه الهاتف بقوله :

مُحَمَّدُ الْهَادِي الَّذِي عَلَيْهِ جِبْرِيلُ هَبَطْ

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الموفّق لمن أراد أن يصل لرضاه عنه ومحبته فإنه هو المُنجز وعْدَهُ أي بالثواب للذي أراد به خيراً ما وعده به على لسان نبيه أو في كتابه، فوعد الله المؤمنين الجنة لا يتخلف قطعاً من الناحية الشرعية لقوله تعالى : ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[2] أي الوعد، فلو تخلف الموعود به لزم الكذب والسَّفَه والخُلف، واللازم باطل فكذا الملزوم، فالخُلف في الوعد نقص يجب تنزيه الله عنه وهو متفق عليه عند الأشاعرة والماتُريدية.
وقد أشار صاحب الجوهرة إلى هذه المسألة فقال :

---

(1) الروم : 5 .
(2) آل عمران : 9 .

فَخَالِقٌ لِعَبْدِهِ وَمَا عَمِلْ مُوَفِّقٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِلْ
وَخَاذِلٌ لِمَنْ أرادَ بُعْدَهُ ومُنجِزٌ لِمَنْ أَرَادَ وَعْدَهُ

أما الوعيد وهو العقاب فقد اختلف فيه الأشاعرة والماتريدية حيث أجاز الأشاعرة الخُلف فيه، ومنعه الماتريدية. وحجة الاشاعرة أن الخُلف فيه لا يُعَدُّ نقصاً بل يُعد كرماً يُمتدَح به كما يشير له قول الشاعر :

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

وقد اعتُرض جواز تخلف الوعيد بلزوم مفاسد كثيرة، منها الكذب في خَبَره تعالى وقد قام الإجماع على تنزه خبره تعالى عن الكذب، ومنها تَبَدُّل القول، وقد قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾[1] ، ومنها تجويز عدم خلود الكفار في النار وهو خلاف ما قامت عليه الأدلة القطعية من خلودهم فيها.

وأُجِيبَ عن الأول بأن الكريم إذا أخبر بالوعيد فاللائق بكرمه أن يبني إخباره على المشيئة وإن لم يصرح بها، فإذا قال لأُعذبنَّ زيداً مثلاً فنيته إن شئت، بخلاف الوعد. فإن اللائق بكرمه أن يبني إخباره على الجزم، قال-ﷺ-: ((مَنْ وعده ا لله على عمل ثواباً فهو منجِزٌ لهُ، ومَنْ أوعده علىعمل عقاباً فهو بالخيار - إن شاء عذبه وإن شاء غفر له)).

وأُجِيبَ عن الثاني بأن الممنوع إنما هو تبديل القول في وعيد الكفّار ومن لم يرد ا لله عنه عفواً، فقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ محمول على ذلك.

وأُجِيبَ عن الثالث بأن جواز تخلف الوعيد فيما إذا كان وارداً فيمن يجوز العفو عنه فلا ينافي خلود الكفار في النار فإنه لا يجوز العفو عنهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ

(1) ق : 29 .

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] ، وهذه الآية مقيدة لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[2] .

أمّا حُجّة الماتُريدية فهي أنه كما يمتنع تخلف الوعد يمتنع تخلف الوعيد، ولا يَرِدُ على ذلك أن الوعيد يتخلف في المؤمن المغفور له؛ لأن الآيات الواردة بعموم الوعيد مُخْرَجٌ منها المؤمنُ المغفورُ له، فلابد من نفوذ الوعيد لما ورد أنه لابد من إنفاذ الوعيد ولو في واحد.

وينبني على الخلاف بين الأشاعرة والماتُريدية أنه يصح على قول الأشاعرة أن يقال: اللهم اغفر لجميع المؤمنين جميع ذنوبهم، ولا يصح أن يقال ذلك على قول الماتريدية.

الغِنَى والفَقر :

من الجائز في حقه تعالى تخصيص بعض عباده بالغِنَى دون بعضهم الآخر، على أن هذا لا يدل على رضا الله عمن أغناه، ولا على غضبه عمن أفقره أو العكس. فليست العبرة في الرضا والغضب بكثرة المال أو قلته، وإنما العبرة بما يترتب على هذا الإعطاء أو الحرمان من صلاح الشخص أو فساده، فمن أحبه الله أغناه حيث يُصلِحه الغنى وأفقره حيث يصلحه الفقر، ومن أبغضه الله أغناه حيث يُفسِده الغِنَى وأفقره حيث يُفسِده الفقر. وإذاً فالواجب على المسلم أن يرضى بقسْم الله، مع شكره في حالة الغِنَى، وصبره في حالة الفقر. فإما أن يكون غنياً شاكراً، وإما أن يكون فقيراً صابراً. وقد عَرَّفَ العلماء الغني الشاكر بأنه هو من لا يُبقِي من المال الحلال إلا ما يحتاج إليه بحيث يستوي فيه مع الفقراء، أو هو من يرصد ماله لمن هو أحوج منه، كما عَرَّفوا الفقير الصابر بأنه هو من يلتذ بفقره كما يلتذ الغني بغناه.

ثم اختلفوا أيهما أفضل، فقال بعضهم الغني الشاكر لأن منفعة ماله تتعدى إلى

---

(1) النساء : 47 .

(2) الزمر : 50 .

غيره من الفقراء وهو قول الجمهور، وقال آخرون الفقير الصابر، ومحل الخلاف فيما إذا قام الغَنِيُّ بجميع وظائف الغِنَى من البذل والإحسان والمواساة وأداء حقوق المال وشكر الملك الديان، وقام الفقير بجميع وظائف الفقر من الرضا والصبر والقناعة، فإذا قَصَّرَ أحدهما في ذلك فالأفضلية يختص بها من لم يقصر.

الثَّواب والعِقاب :

الثواب هو الجزاء على عمل الطاعات بالنعيم، والعقاب هو الجزاء على فعل المعاصي بالعذاب. وبنو آدم مثابون ومعاقبون، أما الجن فقد اتفق العلماء على أن كافرهم معذب في الآخرة، واختُلف في مؤمنهم على أقوال ثلاثة: **(أولها)** أنهم كبني آدم يثابون ويعاقبون. **(الثاني)** أنه لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، ثم يقال لهم كونوا تراباً كالبهائم. **(الثالث)** أنهم يكونون في رَبَض الجنة أي حولها، يراهم بنو آدم من حيث لا يرونهم، عكس ما كانوا عليه في الدنيا. وزاد بعضهم قولاً **(رابعاً)** وهو أنهم يكونون في الأعراف وهو مكان خارج الجنة بينه وبينها سور، يوضع فيه من استوت حسناته وسيآته من بني آدم على بعض الأقوال، وقيل يوضع فيه أولاد الكفار الذين ماتوا صغاراً قبل البلوغ، فيكونون معهم.

وأهل الأعراف جميعاً يعرفون كُلاً من أهل الجنة والنار بعلاماتهم، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادَوْهم سلامٌ عليكم، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. فهم ليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ولكنهم يطمعون في دخول الجنة كما أخبر القرآن الكريم عنهم بقوله تعالى: **﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**[1].

---

[1] الأعراف : 45 – 46 .

قال بعض العلماء : لم يُطْمِعْهم الله في الجنة إلا لكرامة يريدها بهم. وروى الحاكم أنه بينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربهم فقال: قوموا فادخلوا الجنة فقد غفرت لكم.

وإثابة الله تعالى عباده على ما عملوا من الطاعات إنما هي بالفضل المحض. ومعنى الفضل المحض الإعطاء عن اختيار كامل لا عن إيجاب، بحيث يُثيبنا ولا اختيار له في الإثابة أبداً لكونه علةً تنشأ عنها معلولاتها من غير اختيار لها كما يزعم الحكماء، ولا عن وجوب بحيث تصير الإثابة مُستحَقة لازِمة يَقْبُحُ عليه تعالى تركُها بحيث يُثيبنا باختياره لكن مع الوجوب كما تقوله المعتزلة. فمذهب أهل السُّنّة أنَّ إثابته تعالى لنا بالفضل الخالص غير مشوب بإيجاب ولا وجوب. فكونه بالفضل فيه رَدٌّ لكلام الحكماء، وكونه بالفضل الخالص فيه رَدٌّ لكلام المعتزلة. ويؤيد مذهب أهل السُّنّة أن طاعات العبد وإن كثرت لا تَفِي بشكر بعض ما أنعم الله به عليه، فكيف يُتصوَّرُ استحقاقُه عِوضاً عليها.

وكما أن إثابة الله عباده بالفضل المحض على الطاعات فكذلك عذابهم على ما فعلوا من المعاصي فهو بالعدل المحض أي الخالص. ومعنى العدل المحض وضع الشيء في محله من غير اعتراض على الفاعل، وهو ضد الظلم الذي هو وضع الشيء في غير محله مع الاعتراض على فاعله. وإلى هاتين القاعدتين يشير صاحب الجوهرة بقوله :

فَإِنْ يُثِبْنَا فَبِمَحْضِ الفَضْلِ ۞ وَإِنْ يُعَذِّبْ فَبِمَحْضِ الْعَدْلِ

حُكِيَ عن الشيخ عفيف الدين الزاهد أنه بلغه وهو بمصر ما وقع ببغداد من القتل حيث وقع السيف فيها أربعين يوماً فقُتِلَ ألفُ ألفٍ، وعلقت النصارى المصاحفَ في أعناق الكلاب، وجعلوا المساجدَ كنائس، وأَلْقَوْا كتب الأئمة في الدِّجْلَة حتى صارت كالجِسْر تمر الخيل عليها، فأنكر الشيخُ عفيفُ الدين ذلك وقال: يا رب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له؟ فرأى في النوم رجلاً ومعه كتاب فأخذه فإذا فيه:

دَعِ الاعْتِرَاضَ فمَا الأَمْرُ لَـكْ   وَلاَ الْحُكْمُ في حَرَكَاتِ الْفَلَكْ
وَلاَ تَسْــأَلِ ا للهَ عَــنْ فِعْلِــهِ   فَمَنْ خَـاضَ لُجَّـةَ بَحْـرٍ هَلَـكْ

وخلاصة القول أنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، والكل بخلقه. فليست الطاعة مُسْتلزمةً للثواب وليست المعصية مُسْتلزمةً للعقاب، وإنما هما أمارتان تدلان على الثواب لمن أطاع وعلى العقاب لمن عصى، حتى لو عكس دلالتهما بأن قال من أطاعني عذبته ومن عصاني أثبته لكان ذلك منه حسناً فلا حرج عليه ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1]. وهذا كله بحسَب العقل، وأما بحسَب الشرع فلا يجوز خُلْفُ الوعد وهو إثابة الطائع، لأن الخُلف سَفَهٌ، وهو مستحيل على ا لله تعالى. ومعنى هذا أنه لا يجوز شرعاً تعذيب الطائع. وأما الوعيد وهو تعذيب العاصي فيجوز الخُلف فيه وهو عدم تعذيبه، لأن ذلك كرم وفضل، وهو الكريم المتفضل، وقد تقدم تحقيق ذلك في فقرة (ا لله هو الخالق للعبد وعمله) المتقدمة.

الصَّلاحُ والأَصْلَحُ :

هذه المسألة مما تَصدَّى فيها أهل السُّنة للمعتزلة، وهي سبب ترك الإمام أبي الحسن الأشعري لمذهب المعتزلة وانضمامه لمذهب أهل السُّنة كما سنعرفه.

وبيان هذه المسألة أن المعتزلة يقولون بوجوب فعل الصلاح على ا لله تعالى بدلاً من فعل الفساد، وبوجوب فعل الأصلح بدلاً من فعل الصلاح، لأن الصلاح خير من الفساد، والأصلح خير من الصلاح.

ومثال ذلك: **(أولاً)** إذا كان هناك أمران أحدهما صلاح كالإيمان، والآخر فساد كالكفر، فيقول المعتزلة يجب على ا لله أن يفعل الصلاح منهما دون الفساد، فبدل أن يجعل العبد كافراً يجعله مؤمناً.

---

[1] الأنبياء : 23 .

(ثانياً) إذا كان هناك أمران أحدهما صلاح كإدخال العبد في أسفل الجنان، والآخر أصلح منه كإدخال العبد في أعلى الجنان، فيقول المعتزلة يجب على الله تعالى أن يفعل الأصلح منهما دون الصلاح، فبدل أن يُدخِل العبد في أسفل الجنان يُدخله في أعلاها.

وبعد أن اتفق المعتزلة على وجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى على النحو المتقدم اختلفوا فيما بينهم، فذهب معتزلة بغداد إلى أنه يجب على الله مراعاة الصلاح والأصلح لعباده في الدين والدنيا، وذهب معتزلة البصرة إلى أنه يجب ذلك على الله في الدين فقط.

أما مذهب أهل السُّنة في هذه المسألة عموماً فهو أن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه فعل الصلاح ولا فعل الأصلح، وأن قول المعتزلة زور وباطل وإساءة أدب مع الخالق العظيم، لأنه عز وجل ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1].

ومما يدل على فساد مذهبهم ما يصيب الأطفال الذين لا ذنب لهم من الأمراض، وما يصيب العجزة الكبار، وما يقع على الدواب، فإن هؤلاء جميعاً لا نفع لهم في إنزال المصائب. قال صاحب الجوهرة :

وقَوْلُهُمْ إِنَّ الصَّلاَحَ وَاجِبُ ... عَلَيْهِ زُورٌ مَا عَلَيْهِ وَاجِبُ

أَلَمْ يَرَوْا إِيلاَمَهُ الأَطْفَالاَ ... وَشِبْهَهَا فَحَاذِرِ الْمُحَالاَ

وقال صاحب الخريدة :

وَمَنْ يَقُلْ فِعْلُ الصَّلاَحِ وَجَبَا ... عَلَى الإِلَهِ قَدْ أَسَاءَ الأَدَبَا

وأيضاً لو وجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح لعباده لما خلق الكافر الفقير

---

[1] الأنبياء : 23 .

المعذب في الدنيا بالفقر وفي الآخرة بالعذاب الأليم المخلّد لأن الأصلح لـه عـدم خلقـه، وإن خُلِق فالأصلح له إماتته صغيراً أو سَلْبُ عقله قبل التكليف.

حُكِيَ أن الحافظ ابن حجر مر يوماً بالسُّوق في موكب عظيم وهيئة جميلة فخـرج عليه يهودي يبيع الزيت والفلفل الحار، وأثوابـه ملطخـة بـالزيت وهـو في غايـة الرثاثـة والبشاعة، فقبض على لجام بغلته وقـال لـه: يـا شيخ الإسـلام، تزعُـم أنَّ نبيكـم قـال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1] . فأي سجن أنت فيه، وأي جنة أنـا فيهـا؟ فقـال له: أنا بالنسبة لما أعدَّه الله لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في سجن، وأنت بالنسبة لما أعدَّه الله لك في الآخرة من العذاب الأليم كأنك الآن في جنة.

أما سبب ترك الإمام أبي الحسَن الأشعري لمذهب المعتزلة وانضمامـه لمذهـب أهـل السُّنّة -كما ذكرناه في أول هذه الفقـرة- فهـو أن الإمـام أبـا الحسـن الأشـعري سـأل شيخه أبا هاشم الجُبَّائِي في أحد الأيام وهو في الدرس فقال له: ما تقول في ثلاثة إخوة مات أحدهم كبيراً مُطيعاً لله تعالى، ومات الثاني كبيراً عاصياً، ومات الثـالث صغـيراً؟ فقال الجُبَّائِي: الأول يُثاب بالجنة، والثاني يُعاقب بالنار، والثالث لا يُثاب ولا يُعـاقب. فقال الأشعري: فإن قال الثالث يا رب لِمَ أمتَّنِي صغيراً؟ فلو أبقيتني لأطعتـك فتُدخلَني الجنة، ماذا يقول له ربه؟ فقال الجُبَّائِي: يقول له ربه إني أعلم أنك لو كَـبِرت عَصَيْـت فتدخل النار، فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً. فقال الأشـعري: فـإن قـال الثـاني يـا رب لِمَ لَمْ تُمِتْنِي صغيراً حتى لا أدخل النار؟ ماذا يقـول لـه ربـه؟ فبُهِتَ الجُبَّائِي، ولم يتكلم. ورُوِيَ أنه قال للأشعري أبك جنون؟ فقال الأشـعري: لا، ولكـن وقـف حمـار الشيخ في العَقَبَة. فترك الأشعريُّ مذهبـه واشـتغل هـو وأتباعـه بإبطـال مـا ذهبـت إليـه المعتزلة وإثبات ما وردت فيه السُّنة ووافقت عليه الجماعة، فلذلـك سُـمُّوا بـأهل السُّـنَّة والجماعة.

---

[1] رواه مسلم من حديث أبي هريرة وابن ماجه في الزهد.

ويُروَى في سبب تسمية المعتزلة بهذا الاسم أنَّ رئيسهم ويُسَمَّى (واصل بن عطاء) اعتزل عن مجلس الحسن البَصْرِي، وقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، وأثبت المنزلة بين المنزلتين. فقال الحسن: قد اعتزلنا واصل. فسُمِّيَ واصل وجماعته بالمعتزلة.

القَضَاء والقَدَر :

اختلف الأشاعرة والماتريدية في الحقيقة الشرعية لكل من القضاء والقدر. فالقضاء عند الأشاعرة إرادة الله الأشياء في الأزل على ما هي عليه فيما لا يزال، فهو من صفات الذات عندهم. وعند الماتريدية إيجاد الله الأشياء مع زيادة الإحكام والإتقان، فهو من صفات الأفعال عندهم. فالقضاء عند الأشاعرة قديم، وعند الماتريدية حادث.

والقَدَر عند الأشاعرة إيجاد الله الأشياء على قدْرٍ مخصوص ووجه معين أراده الله تعالى، فيرجع عندهم لصفة الفعل لأنه عبارة عن الإيجاد، وهو من صفات الأفعال. وعند الماتريدية تحديد الله أزلاً كل مخلوق بحدِّه الذي يوجد عليه من حُسْنٍ وقُبْحٍ ونفعٍ وضَرٍّ إلى غير ذلك، أي عِلْمِه تعالى أزلاً صفات المخلوقات، فيرجع عندهم لصفة العلم وهي من صفات الذات. فالقَدَر عند الأشاعرة حادث، وعند الماتريدية قديم.

وقد نظم العلامة الأجهوري معنى القضاء والقَدَر وحكى فيه الخلاف على غير هذا الوجه فقال :

إِرَادَةُ اللَّهِ مَعَ التَّعَلُّقِ ... في أَزَلٍ قَضَاؤُهُ فَحَقِّقِ
وَالقَدَرُ الإِيجَادُ لِلأَشْيَا عَلَى ... وَجْهٍ مُعَيَّنٍ أَرَادَهُ عَلاَ
وَبَعْضُهُمْ قَدْ قَالَ مَعْنَى الأَوَّلِ ... الْعِلْمُ مَعْ تَعَلُّقٍ في الأَزَلِ
وَالقَدَرُ الإِيجَادُ لِلأُمُورِ ... عَلَى وِفَاقِ عِلْمِهِ الْمَذْكُورِ

أي أن القضاء هو إرادة ا لله مع التعلق في الأزل، والقَدَر هو الإيجاد للأشياء على وجه معين أراده تعالى. وقيل إن القضاء هو العلم مع التعلق في الأزل، والقَدَر هو الإيجاد للأمور على وفق العلم.

وعلى كلا القولين فالقضاء قديم، والقَدَر حادث.

والدليل على القضاء والقَدَر قسمان: عقلِيٌّ وسَمْعِيٌّ. فالدليل العقلي هو ما تقدم ذكره من تعلقهما بالقدرة والإرادة والعلم. أما الدليل السَّمْعِيُّ فمن الحديث الشريف، ومنه حديث الأربعين النووية الذي أجاب فيه النبي-ﷺ- على أسئلة سيدنا جبريل عليه السَّلام عن الإسلام والإيمان والإحسان حيث قال: ((الإيمان هو أن تؤمنَ با للهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخِرِ وتؤمنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ))[1] .

ومنه ما روي عن الإمام عليٍّ كرم ا لله وجهه أنه قال: قال رسول ا لله-ﷺ-: ((لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربعة: شهادة أن لا إله إلا ا لله، وأني رسول ا لله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقَدَر خيره وشره))[2] .

وبما أن خطر الجهل في هذا الفن عظيم، والدليل السَّمْعِيُّ أسهل للعامة، فقد عوَّل علماء الكلام على الدليل السَّمْعِي في هذه المسألة. قال صاحب الجوهرة:

وَوَاجِبٌ إِيمَانُنَا بِالْقَدَرِ وَبالْقَضَا كَمَا أَتى في الْخَبَرِ

والخبر هنا يراد به الحديث الشريف.

وتعريف القضاء والقَدَر على النحو المتقدم هو مذهب أهل السُّنَّة خلافاً للقَدَرية نِسْبة للقَدَر، لُقِّبُوا بذلك لمبالغتهم في نفي القَدَر. وأصلهم طائفة واحدة ثم انقسموا إلى

---

(1) من حديث جبريل في صحيح مسلم.

(2) رواه الترمذي.

فرقتين: (**الفرقة الأولى**) تنفي القَدَر أصلاً وتزعم أنه تعالى لم يُقَدِّرِ الأمور أزلاً، وتقول إن الأمر يستأنفه الله ويَعْلَمُهُ حال وقوعه، فهي تُنكِر سَبْقَ علمه تعالى بالأشياء قبل وقوعها، وتخوض في القَدَر وتبالغ في نفيه مما يُعَدُّ كفراً والعياذ بالله. وهذه الفرقة انقرضت قبل الإمام الشافعي رضي الله عنه. (**الفرقة الثانية**) تنسب أفعال العباد إلى قدرهم، ومذهب هذه الفرقة وإن كان مذهباً باطلاً أخف من مذهب الفرقة الأولى التي انقرضت.

والإيمان بالقضاء والقَدَر يستلزم الرضا بهما، فيجب الرضا بالقضاء والقَدَر. فإن قيل إنه يلزم على ذلك الرضا بالكفر والمعاصي لأن الله قضى بهما وقدَّرهما على الشخص، مع أن الرضا بالكفر كفر، والرضا بالمعاصي معصية، فالجواب : إنه لا معنى للرضا بالقضاء والقَدَر إلا بالرضا بالمقضيِّ والمقدَّر. والذي حققه الخيَالِي في حاشيته أن الكفر والمعاصي لهما جهتان: جهة كونهما مَقْضِيَّيْن ومُقَدَّرَيْن لله، وجهة كونهما مُكْتَسَبَيْن للعبد. فيجب الرضا بهما من الجهة الأولى لا من الجهة الثانية.

ومع وجوب الإيمان بالقَدَر فإنه لا يجوز الاحتجاج به قبل الوقوع توصُّلاً إلى الفعل، كأنْ يقول الشخص قَدَّرَ الله عَلَيَّ الزنا مثلاً، وغرضه بذلك التوصل إلى الوقوع في الزنا، ولا بعد الوقوع تخلُّصاً من الحد ونحوه، كأن يقول الشخص قدَّر الله عَلَيَّ الزنا، وغرضه بذلك التخلُّص من الحد ونحوه على الزنا الذي وقع فيه، لأنه يقال له من جانب الشرع في الحالتين: ومن أطلعك على الغيب حتى علمتَ أنه مقدر عليك؟ بل إنما فعلت ذلك أو عزمت على فعله لاتباع هوى نفسك والانقياد لشيطانك. وهذا بخلاف ما لو احتَجَّ به بعد الوقوع لدفع اللوم فقط فلا بأس به لما رُوِيَ في الحديث الصحيح أن روح آدم التقت مع روح سيدنا موسى عليهما السَّلام، فقال موسى لآدم: أنت أبو البشر الذي كنت سبباً لإخراج أولادك من الجنة بأكلك من الشجرة. فقال آدم: يا موسى، فأنت الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، تلومني على

أمر قد قَدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين ألف سنة؟ قال-ﷺ-: ((فَحَجَّ آدم موسى))[1] أي غلبه بالحجة.

ونقل الشعراني في اليواقيت عن أبي مدين أنه لما ذُكِرَ أمامه عصيان أبينا آدم عليه السَّلام بأكله من الشجرة التي نُهِيَ عنها، قال: لو كنتُ مكان آدم لأكلتُ الشجرة كلها. فسُئِلَ عن ذلك فقال: لو لم يكن من نتائج هذا الأكل إلا مَجيءُ محمد -ﷺ- من ذرية آدم لكفى آدمَ فخراً.

وخلاصة القول أنه يجب على المسلم أن يؤمن بالقضاء والقَدَر، لأنَّ أي أمرٍ قدَّره الله تعالى أي أبرزه إلى الوجود بسابق علمه وقضائه فلا مفر منه، أي لابد من وقوعه على طبق ما أراده الله وعَلِمه ولا محيص عنه، وما عليه إلا التَّسْليم لما قدَّره العليم الحكيم. قال الشيخ الدردير في الخريدة :

وَكُلُّ أَمْرٍ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرْ	وَكُلُّ مَقْدُورٍ فَمَا عَنْهُ مَفَرْ
فَكُنْ لَهُ مُسَلِّماً كَيْ تَسْلَمَا	وَاتْبَعْ سَبِيلَ النَّاسِكِينَ الْعُلَمَا

ولكن في الوقت نفسه لا يُتَّخَذُ القَدَر وسيلة إلى فعل المعاصي كما ذكرنا.

خَلْق الخير والشر :

من الجائز في حق الله سبحانه وتعالى خلق الخير والشر، فالأول كالإسلام، والثاني كالكفر. ويُعبَّر عن الأول بالحسن، وعن الثاني بالقبيح. واصطلحت المعتزلة على أن القبيح ما يكون مُتعَلَّقَ الذَّمّ في العاجل أي الدنيا والعقاب في الآجل أي الآخرة، فيكون القبيح هو الحرام خاصة، وعلى أنَّ الحسن ما لا يكون مُتَعَلَّقَ الذَّمّ والعقاب، فيشمل الواجب والمندوب والمباح والمكروه، وخلاف الأَوْلَى إن لم ندخله في المكروه، فهذه

---

(1) متفق عليه.

الأمور كلها حسنة عندهم. واصطلح كثير من أهل السُّنَّة على أن المنهي عنه مطلقاً قبيح. والأحسن ما قاله إمام الحرمين وهو أن المكروه ومنه خلاف الأَوْلَى ليس حَسَناً ولاقبيحاً.

ومذهب أهل السُّنَّة أن الله سبحانه وتعالى يجوز في حقه خلق الخير والشر، أو الحسَن والقبيح، وأنه يريد كُلاًّ منهما، ولكنه يريد الخير ويأمر به، ويريد الشر ولا يأمر به، كما تقدم في شرح صفة الإرادة من فقرة (العقائد الواجبة في حقه عزوجل) خلافاً للمعتزلة الذين يقولون إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية، خيراً كانت أم شراً، ووافقت على أن الله يريد الخير وخالفت في أنه يريد الشر فقالت يُمنع عليه تعالى إرادة الشرور والقبائح، وبنوا ذلك على أصلهم الفاسد ومذهبهم الكاسد من التحسين والتقبيح العقليين، فيقولون الله يريد الحسن لذاته ولايريد الشر لذاته. واستدلت المعتزلة على مذهبهم بأن إرادة الشرِّ شَرٌّ، وإرادة القبيح قبيحة، والله تعالى منزه عن الشرور والقبائح. ورُدَّ هذا القول بأنه لا يقبح من الله شيء، غاية الأمر أنه يَخْفَى علينا وجه حُسْنه. واستدلت أيضاً بأن العقاب على ما أراده الله ظلم، والله تعالى منزه عن الظلم. ورُدَّ هذا القول أيضاً بأن عقاب الله تعالى لمن عصاه من عباده لا يُعَدُّ ظلماً، لأنه بذلك يتصرف في خالص ملكه، ومن تصرف فيما يملكه لا يعتبر ظالماً، على أنه سبحانه وتعالى ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1].

يُحْكَى أن إبليس لعنه الله تمثل بين يدي الإمام الشافعي رضي الله عنه وقال له: يا إمام، ما تقول فيمن خلقني لما اختار، واستعملني فيما اختار، وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النار، أعَدَلَ في ذلك أم جار؟ قال الإمام: فنظرتُ في مسألته، فألهمني الله تعالى الجواب، فقلت له: إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن خلقك لما يريد هو، فالله سبحانه وتعالى ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

---

(1) الأنبياء : 23 .

رؤية الله عز وجل :

من الجائز عقلاً في حقه سبحانه وتعالى أن يُرَى، فرؤيته جائزة عقلاً، دنيا وأخرى، لأنه سبحانه وتعالى موجود، وكل موجود يَصِحُّ أن يُرَى، غير أنها لم تقع في الدنيا لغير نبينا محمد -ﷺ-، أما في الأخرى فتقع وجوباً لجميع المؤمنين، وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة، والدليل على ذلك الكتاب والسُّنة والإجماع. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] ، ومعنى(ناضرة) الأولى حَسَنَةٌ، وهي صفة للوجوه، و(ناظرة) الثانية معناها رَائِيَة، خبر المبتدأ الذي هو وُجُوهٌ. وكون ناضرة صفة سوَّغ الابتداء بكلمة وجوه على الرغم من أنها نكرة. ولا يعول على ما قاله الجُبَّائِي وهو أحد شيوخ المعتزلة من حمل النظر في الآية الكريمة على الانتظار، وجعْل (إلى) التي هي حرف الجر اسماً بمعنى النعمة، والمعنى عنده (منتظرة نعمة ربها). وكذلك قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[2] ، فالحُسْنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم، كما قاله جمهور المفسرين. وأيضاً قوله: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾[3]

وأما السُّنَّة فقوله -ﷺ- لما سأله بعض أصحابه عن رؤية الله عز وجل في الآخرة: ((هل تُضَارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا. قال: هل تُضَارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك))[4] ، وقوله : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى هل تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون أَلَمْ تُبَيِّضْ وجوهَنا؟ أَلَمْ تُدخِلنا الجنة وتُنجّنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم))[5] .

---

(1) القيامة : 21 - 22 .

(2) يونس : 26 .

(3) المطففين : 22 - 23 .

(4) رواه الشيخان عن أبي هريرة.

(5) رواه مسلم والترمذي والنسائي.

وأما الإجماع فهو أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا مجمعين على وقوع الرؤية في الآخرة.

هذا وإن الكلام عن الرؤية له جانبان: أحدهما في جوازها، والثاني في وقوعها في الدنيا. فأما الجواز فللعلماء فيه ثلاثة أقوال: (أولها) أنها تكون بالبصر فقط. (الثاني) أنها بجميع الوجوه، لظاهر قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. (الثالث) أنها بكل جزء من أجزاء البدن.

وبما أنه قد يُتَوَهم من القول بأنه سبحانه وتعالى يُرَى بالأبصار أنه يُرَى بكيفية كما في رؤية بعضنا بعضاً، والحقيقة أن رؤية الباري عز وجل تكون بلا تكيف للمَرْئي وهو الله بكيفية من كيفيات الحوادث من مقابلةٍ وجهةٍ وتحيزٍ وغير ذلك. وفي هذا رد على شبهة المعتزلة العقلية التي تمسكوا بها في قولهم باستحالة الرؤية بحجة أنه تعالى لو كان مرئياً لكان مقابلاً للرائي بالضرورة فيكون في جهة وحيز. والجواب: أن قولهم هذا ممنوع لأن الرؤية قوة يجعلها الله في خلقه، لا يشترط فيها مقابلة الرائي ولا كونه في جهة وحيز. وقد انتحت المعتزلة من قول أهل السنة بلا كيف (البلكفة)، فأنشد الزمخشري في الكشاف يهجو أهل السُّنَّة:

لَجَمَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً ... وَجَمَاعَةٌ حُمُرٌ لَعَمْرِي مُؤْكَفَهْ

قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ فَتَخَوَّفُوا ... شُنَعَ الْوَرَى فَتَسَتَّرُوا بِالْبَلْكَفَهْ

فَرَدَّ عليه السَّيد البُلَيْديُّ بقوله :

هَلْ نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى أَوْ أَنْتُمُ ... وَمَنِ الَّذِي مِنَّا حَمِيرٌ مُؤْكَفَهْ

اعْكِسْ تُصِبْ فَالْوَصْفُ فِيكُمْ ظَاهِرٌ ... كَالشَّمْسِ فَارْجِعْ عَنْ مَقَالِ الزَّخْرَفَهْ

يَكْفِيكَ فِي رَدِّي عَلَيْكَ بِأَنَّنَا ... نَحْتَجُّ بِالآيَاتِ لاَ بِالسَّفْسَفَهْ

وَبِنَفْـيِ رُؤْيَتِـهِ فَـأَنْتَ حُرِمْتَهَـا إن لَـمْ تَقُـلْ بِكَـلاَمِ أَهْـلِ الْمَعْرِفَـهْ
فَـنَرَاهُ فِي الأُخْـرَى بِـلاَ كَيْفِيَّـةٍ وَكَـذَاكَ مِـنْ غَـيْرِ ارْتِسَـامٍ لِلصِّفَـهْ

وقال بعضهم في الرد عليه أيضاً :

شَبَّهْتَ جَهْـلاً صَـدْرَ أُمَّـةِ أَحْمَـدٍ وَذَوِي الْبَصَـائِرِ بِالْحَمِيرِ الْمُؤْكَفَـهْ
وَجَبَ الْخَسَارُ عَلَيْكَ فَـانْظُرْ مُنْصِفاً فِي آيَـةِ الأَعْـرَافِ فَهْـيَ الْمُنْصِفَـهْ
أَتُرَى الْكَلِيـمُ أَتَى بِجَهْـلٍ مَـا أَتَـى وَأَتَى شُـيُوخُكَ مَـا أَتَـوْا عَـنْ مَعْرِفَـهْ
إِنَّ الْوُجُـوهَ إِلَيْـهِ نَـاظِرَةٌ بِـذَا جَـاءَ الْكِتَـابُ فَقُلْتُمُـوا هَـذَا سَـفَهْ
نَطَقَ الْكِتَـابُ وَأَنْـتَ تَنْطِقُ بِـالْهَوَى فَهَوَى الْهَوَى بِكَ فِي الْمَهَاوِي الْمُتْلِفَه

قال الشيخ البيجوري : وقد شنعوا عليه في الرد بغير ذلك.

ويقال إنه ترك المعتزلة وانضم إلى أهل السُّنَّة. ويقال إن لـه قصيدة تثبت ما قيل عنه، ومنها:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَـا فِي ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ الْبَهِيمِ الأَلْيَـلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَـا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النُّحَّـلِ
اغْفِـرْ لِعَبْـدٍ تَـابَ مِـنْ فَرَطَاتِـهِ مَـا كَـانَ مِنْـهُ فِي الزَّمَـانِ الأَوَّلِ

ولنرجع إلى متابعة الكلام عن الرؤية فنقول : ولا انحصار للمرئي عند الرائي بحيث يحيط به لاستحالة الحدود والنهايات عليه تعالى، وفي هذا رَدٌّ على المعتزلة عن شبهتهم النقلية التي تمسّكوا بها في قولهم باستحالة الرؤية وهي قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُـهُ الأَبْصَارُ﴾[1] فإنه يدل على أنه تعالى لا يُدْرَك بالبَصَر، والإدراك هو الرؤية. والجواب

[1] الأنعام : 104 .

عن ذلك: أنه لايُسَلَّم أن الإدراك بالبصر هو مطلق الرؤية، بل هو رؤية مخصوصة، وهي التي تكون على وجه الإحاطة بحيث يكون المَرْئِي منحصراً بحدود ونهايات، فالإدراك المنفي في الآية الكريمة أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص الذي هو الإدراك نفي الأعم الذي هو الرؤية.

والرؤية خاصة بالمؤمنين والمؤمنات، ويشمل ذلك مؤمني الأمم السابقة، وكذلك أهل الفترة على القول بنجاتهم، كما يشمل مؤمني الجنّ من ذكور وإناث فتحصل لهم الرؤية في الموقف مع سائر المؤمنين قطعاً، وفي الجنة على الراجح. واختلف في الملائكة فقيل تشملهم الرؤية وهو الأقوى، وقيل لا تشملهم، فالملائكة لا رؤية لهم أصلاً، وقيل إن جبريل عليه السَّلام يرى ربه دون سائر الملائكة.

أما الكفار والمنافقون فلا يرون ربهم على الراجح لقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1] ، ولأنهم ليسوا من أهل الإكرام والتشريف، وقيل إنهم يرونه ثم يحجبون فيكون الحَجْبُ حسْرةً عليهم. ولا يراه سائر الحيوانات غير العقلاء بما فيها الحيوانات التي تدخل الجنة كناقة صالح وكبش إسماعيل.

ومحل الرؤية الجنة بلا خلاف، فيراه أهلها في مثل يوم الجمعة والعيد، ويراه خواصهم كل يوم بكرة وعشِياً، وأمَّا في عرصات القيامة كالموقف فالصحيح وقوعها أيضاً، لأنه ورد في السُّنَّة ما يقتضي وقوعها لهم فيها، ففي الحديث الشريف : ((إذا كان يوم القيامة يُنَادَى لِتَلْزَمْ كُلُّ أمةٍ معبودَها فتقول هذه الأمة هذا مكاننا حتى يأتينا ربُّنا، فيظهر لهم على الوجه الذي لا يعرفونه بأن يُدخِلَ عليهم غَلطاً في كشفهِم، وإلا فهو تعالى منزه عن أن يتصف بما لا يليق به، فيقول أنا ربكم، فيقولون نعوذ با لله منك لست ربنا، فيتجلى لهم تجلياً لائقاً بحال المقام ويكشف عن السَّاق ويقول أنا ربكم،

---

(1) المطففين : 15 .

فيراه المؤمنون كما يعلمون أي على وفق ما يعتقدون، فيَخِرُّونَ سُجَّداً إلا المنافق))[1] ، قيل وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾[2] . وكشف الساق عند الخَلَف بمعنى رفع الحجاب، والسَّلَف يفوِّضون علم ذلك إلى الله تعالى كما هي طريقتهم، هذا ما يتعلق بجواز رؤيته تعالى في الآخرة.

أما ما يتعلق بوقوع هذه الرؤية في الدنيا فإنه ثبت وقوعها لنبينا محمد -ﷺ- في الدنيا ليلة الإسراء والمعراج، والراجح عند أكثر العلماء أنه رأى ربه سبحانه وتعالى بعيني رأسه وهما في محلهما، خلافاً لمن قال حُوِّلَتا لقلبه، لحديث ابن عباس وغيره. وقد نفت السيدة عائشة رضي الله عنها وقوع هذه الرؤية له -ﷺ- لكن قُدِّم عليها ابن عباس لأنه مُثْبِت، والقاعدة أن المُثْبِتَ مُقَدَّمٌ على النافي، حتى قال مَعْمَرُ بن راشد: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس. وكان-ﷺ- يرى ربه في كل مرة من مرات المراجعة بينه وبين سيدنا موسى عليه السَّلام عند فرض الصلوات الخمس، أي أنه رأى ربه في تلك الليلة تسع مرات بعد الرؤية الأولى. ومن كلام ابن وفا: وإنما كان ترجيع موسى عليه السَّلام للنبي -ﷺ- في شأن الصلوات لتكرر مشاهدة أنوار المرات، ثم أنشد :

وَالسِّرُّ فِي قَوْلِ مُوسَى إِذْ يُرَاجِعُهُ ... لِيَجْتَلِي النُّورَ فِيهِ حَيْثُ يَشْهَدُهُ

يَبْدُو سَنَاهُ عَلَى وَجْهِ الرَّسُولِ فَيَا ... لَلَّهِ حُسْنُ رَسُولٍ إِذْ يُرَدِّدُهُ

فالحكمة الظاهرة من المراجعة تخفيف الصلاة، والحكمة الباطنة اقتباس النور من وجهه -ﷺ-. ومن الأدلة على حصول الرؤية له -ﷺ- جوازها عقلاً لأن الله سبحانه وتعالى علَّقها بأمر جائز عقلاً وهو استقرار الجبل حين سأله سيدنا موسى عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ

---

(1) رواه البخاري.

(2) القلم: 42 .

﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾[1]. والاستدلال بالآية من وجهين: (الوجه الأول) أن الرؤية عُلِّقت على أمر ممكن، وكل ما علق على الممكن لا يكون إلا ممكناً، فرؤية البارئ تكون ممكنة. وقد منعت المعتزلة ذلك وقالوا إن المراد من قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ أي حال تحركه وهو مُسْتحيل، فالرؤية معلقة على مستحيل فتكون مستحيلة. وهذا التقوُّل من المعتزلة لا دليل عليه ولا داعيَ يدعو إليه كقولهم إن (لن) في قوله ﴿لَن تَرَانِي﴾ للتأبيد. (الوجه الثاني) لو كانت الرؤية ممتنعة في الدنيا ما سألها موسى عليه السلام لأنه نبي يعلم ما يجب في حق ا لله تعالى وما يستحيل وما يجوز، إذ لا يجوز على أحد من الأنبياء الجهل بشيء من أحكام الألوهية.

واختلف في وقوع الرؤية للأولياء على قولين أرجحهما قول الأشعري وهو المنع، فالحق أنها لم تثبت في الدنيا إلا له -ﷺ-، ومن ادعاها من غيره في الدنيا يقظة فهو ضال باتفاق العلماء ، بل إن بعضهم ذهب إلى تكفيره.

وأما رؤيته تعالى مناماً فقد نُقل عن القاضي عياض أنه لا نزاع في وقوعها وصحتها، فإن الشيطان لا يتمثل به سبحانه وتعالى، كما لا يتمثل بالأنبياء، وقال بعضهم إن الشيطان يتمثل بهم. وقال بعضهم إن الشيطان يتمثل به سبحانه وتعالى دون الأنبياء، والفرق أن النبي بشر فيلزم من التمثل به اللَّبْسُ بخلاف المولى عز وجل فأمره معلوم. وقال بعضهم إن الشيطان لا يتمثل بالملائكة ولا بالشمس ولا بالقمر ولا بالنجوم المضيئة ولا بالسَّحاب الذي فيه الغيم.

وحُكِيَ أنَّ الإمام أحمد رأى المولىسبحانه وتعالى في المنام تسعاً وتسعين مرة، وقال وعزته لو رأيته تمام المائة لأسألنه. فرآه فقال:سيدي ومولاي ما أقرب ما يتقرب به المتقربون إليك؟ قال: تلاوة كلامي. فقال: بفهم أو بغير فهم؟ فقال: يا أحمد بفهم وبغير فهم.

---

(1) الأعراف : 143 .

وحُكِيَ عن بعض الصوفية أنه قال رأيت ربي في المنام. فقيل له كيف رأيتَهُ؟ فقال: انعكس بصري في بصيرتي فصرت كُلّي بصراً، فرأيت من ليس كمثله شيء.

وقال صاحب الشيبانية مشيراً إلى هذه الرؤية :

وَلاَ عَيْـنَ فِي الدُّنْيَـا تَـرَاهُ لِقَوْلِـهِ	سِوَى الْمُصْطَفَى إِذْ كَانَ بِالْقُرْبِ أُفْرِدَا
وَمَـنْ قَـالَ فِي الدُّنْيَـا يَـرَاهُ بِعَيْنِـهِ	فَذَلِـكَ زِنْدِيـقٌ طَغَـى وَتَمَـرَّدَا
وَلَكِـنْ يَـرَاهُ فِي الْجِنَـانِ عِبَـادُهُ	كَمَا صَحَّ فِي الأَخْبَـارِ نَرْوِيـهِ مُسْنَدَا

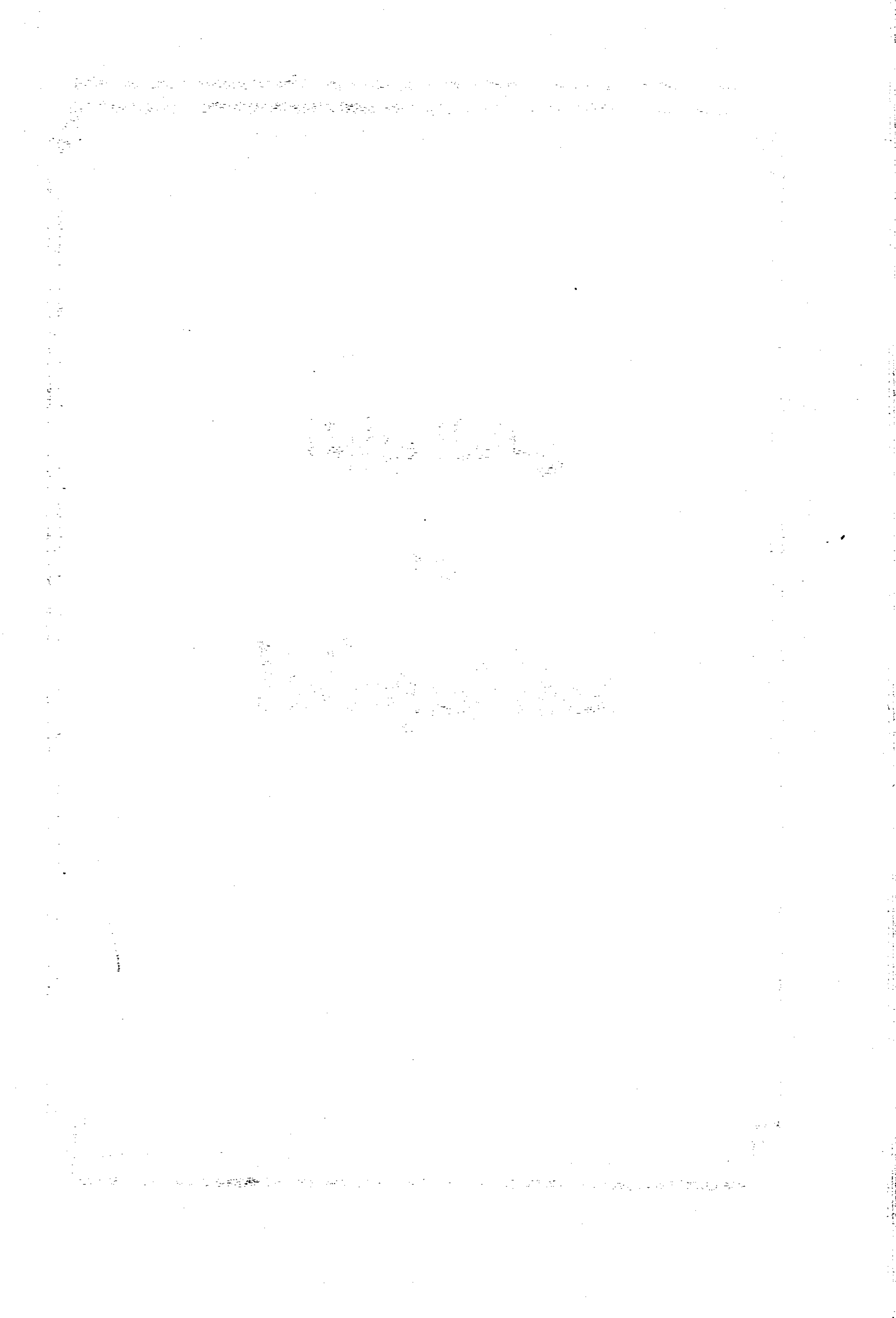




الباب الثاني

في

النُبوات



النبوّات

المراد بالنُّبوَّات العقائد المتعلقة بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وفيما يلي بيان هذه العقائد مفصلة.

الأنبياء والرسل :

الأنبياء جمع نبي(بدون همزة)، مأخوذ من النَّبْوة وهي الرفعة، لأنه مرفوع الرتبة. فما من نبي إلا وهو أفضل من أمته، أو رافع رتبة من اتبعه. (أو بهمزة) مأخوذ من النَّبأ وهو الخبر، لأنه مُخْبِرٌ، يخبرنا بالأحكام عن الله تعالى إن كان نبياً ورسولاً، فإن كان نبياً فقط يخبرنا بأنه نبي ليحترم، أو مُخْبَرٌ لأن جبريل عليه السلام يخبره عن ربه.

ويُعرَّف كل من النبي والرسول بأنه إنسان ذكر حر من بني آدم، سليم من مُنفِر، أُوحِيَ إليه بشرع يَعْمَلُ به، فإن كان قد أُمِرَ بتبليغه فهو الرسول، وإلا فهو النبي. فبينهما عموم وخصوص مطلق؛ لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

ويخرج بالإنسان بقية الحيوانات. ويخرج بالذكر الأنثى، فلا تكوّن نبيئة. والقول بنبوة حواء زوجة أبينا آدم عليه السلام، وسارة وهاجر زوجتي سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويوحانِذ أم سيدنا موسى عليه السلام، وآسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران أم سيدنا عيسى عليه السلام، قول مرجوح. ويخرج بالحر الرقيق فلا يكون نبياً، ولا يرد على ذلك لقمان، لأنه لم يكن نبياً بل كان حكيماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

﴿لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[1]، ويروى أنه تتلمذ على ألفي نبي. ويخرج ببني آدم الجن والملائكة، فلا يكون من الجن ولا الملائكة نبي، ولا يرد على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[2] لأن معناه -والله أعلم- ألم يأتكم رسل من بعضكم وهم الإنس، أو المراد برسل الجن السفراء أي النواب منهم عن الرُّسل، لا رسل من عند الله. كما لا يرد على ذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً﴾[3] لأن المراد بالرسل هنا السفراء بين الله وبين أنبيائه ليبلغوهم الشرائع عن الله تعالى. ويخرج بالسليم من المُنفِر غيره من المصابين بالأمراض المُنفِرة، فمن كان فيه مرض منفر كالبرص والجذام وكذلك العمى فلا يصح أن يكون نبياً، ولا يرد على ذلك بلاء أيوب وعَمَى يعقوب عليهما السلام لأنه أمر ظاهري وليس حقيقياً، وحتى على فرض أنه حقيقي فلا يرد لطُروِّه بعد تقرر النبوة والكلام فيما قارنها.

هذا وقد اختلف في عدد الأنبياء، فقيل مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وقيل مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفاً. واختلف في عدد الرسل منهم، فقيل ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل وأربعة عشر، وقيل وخمسة عشر. والأسلم الإمساك عن ذلك لقوله تعالى لنبيه محمد -ﷺ-: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[4]، باستثناء الخمسة والعشرين المذكورين في القرآن فيجب معرفتهم، وقد تقدم ذكر أسمائهم نثراً ونظماً حسب ترتيبهم الزمني في فقرة (الإيمان) من المقدمة.

هذا وإن العادة المستمرة في معظم الأنبياء أو جميعهم أنهم لا يبعثون إلا على رأس الأربعين سنة كما جزم به كثير من العلماء، وإنما استدلوا بالعادة المستمرة و لم يستدلوا بحديث: «مَا نُبِّئَ نَبِيءٌ إلاَّ عَلَى رَأْسِ الأَرْبَعِينَ» لِعَدِّ ابن الجوزي له في الأحاديث

---

(1) لقمان : 11 .

(2) الأنعام : 131 .

(3) الحج : 73 .

(4) غافر : 77 .

الموضوعة. وذكر العلامة الشيخ الأمير والعلامة الشيخ الشنواني أن هذه السِّنَّ بحسب الغالب فقط، أما في غير الغالب فقد نُبِّئَ عيسى عليه السلام ورفع إلى السماء وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، كما نُبئ يحيى عليه السلام صبياً بناء على أن الحكم الذي أوتيه صبياً والمذكور في قوله تعالى: ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِياً﴾[1] هو النبوة. لكن ذكر في حواشي التفسير نقلاً عن المواهب أن هذا خلاف التحقيق، وقالوا الصحيح أن عيسى ما رفع إلى السماء إلا بعد مضي ثمانين سنة من النبوة، وبعد نزوله من السماء في آخر الزمان يعيش أربعين سنة، ولا يرد على ذلك بالنسبة ليحيى قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِياً﴾ لأن المراد بالحكم العلم والمعرفة لا النبوة، كما لا يرد بالنسبة لعيسى قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً﴾[2] لأن ذلك من التعبير بالماضي عن المستقبل على حد قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[3]، والمعنى جعلني نبياً في علمه.

أما نبينا محمد -ﷺ- فقد أرسله الله تعالى على رأس الأربعين سنة من عمره إرسال تكليف إلى جميع المكلفين من الثقلين الإنس والجن إجماعاً معلوماً من الدين بالضرورة، فيكفر منكره. أما الملائكة فإنه لم يرسل إليهم إرسال تكليف بل إرسال تشريف، لأن طاعتهم جِبِلِّيَّةٌ لا يكلفون بها. ومعنى أنه أرسل على رأس الأربعين سنة أنه بعث عند استكمالها من غير زيادة ولا نقص، وهو الصحيح الذي عليه الجمهور، ولكن هذا لا يتم إلا لو كانت البعثة في شهر الولادة، مع أن المشهور أنه -ﷺ- وُلِد في ربيع الأول وبُعِث في رمضان، ومعنى هذا أن عمره حين البعث أربعون سنة ونصف سنة إن كان البعث في رمضان الواقع بعد السنة المتممة للأربعين، أو تسعة وثلاثون سنة ونصف إن كان البعث في رمضان الواقع في أثناء السنة المتممة للأربعين. فمن قال

---

(1) مريم : 11 .

(2) مريم : 29 .

(3) النحل : 1 .

إن عمره حين البعث أربعون سنة ألغى الكسر على الأول وجبره على الثاني. وقال بعضهم كان ابتداء الوحي بالمنام في ربيع الأول ومكث ستة أشهر كذلك. ومن قال كان ابتداء الوحي في رمضان أراد مجيء جبريل في اليقظة، وعليه فيرجع الخلاف لفظياً، والصحيح أن نُبُوَّتَه -ﷺ- ورسالته مقترنتان. وقال ابن عبد البر وغيره إن الله أرسله حين بلوغه ثلاثاً وأربعين سنة، فكانت النبوة سابقة بنزول: ﴿إِقْرَأْ﴾[1]، وكانت الرسالة بنزول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾[2]، ومعنى هذا أنه في زمن فترة الوحي نبي لا رسول. وأجاب القائلون باقتران النبوة والرسالة بأن سورة المدثر بيان للمراد من سورة (اقرأ) ، والمعنى اقرأ على قومك ما سنبينه لك.

وكان بدء النبي -ﷺ- في الدعوة إلى الله بهدي الناس وإرشادهم عَقِبَ إرساله مباشرة فلم يتأخر عن ذلك لحظة واحدة، ولم يقتصر في إرشاده على من كان حاضراً معه بل تعداه إلى من كان غائباً، وذلك بحرصه دائماً على أن يختم هديه وإرشاده للحاضرين معه بقوله : ((ليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعَى من سامع)).

كما كان إرشاده بالقرآن الكريم والسُّنة المطهرة حتى لمن لم يعرفوا لغة القرآن، فقد روي أنه أرسل إلى كل من كسرى ملك الفرس وهرقل ملك الروم والمقوقس حاكم مصر رسالة يدعوهم فيها إلى الإسلام وقد بدأها بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَنُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3]، ثم ختمها بقوله-ﷺ-: ((أَسْلِمْ تَسْلَمْ)) ونحوها من الحكم والمواعظ الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، عملاً بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ

---

(1) العلق : 1 .

(2) المدثر : 1 - 2 .

(3) آل عمران : 63 .

الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، فإن أجابوا للإسلام فظاهر، وإلا أعلمهم بالتَّهيُّؤ للجهاد. ومعلوم أن الجهاد لم يشرع إلا بعد الهجرة وذلك بنزول قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[2].

إرسال الرسل :

من الجائز العقلي في حقه تعالى إرساله لجميع الرسل من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد-ﷺ-، وهذا مذهب أهل السنة، خلافاً لمن أوجبه وهم المعتزلة والفلاسفة، وخلافاً لمن أحاله وهم السُّمَنِيَّة والبراهِمَة. أما الطائفتان المعتزلة والفلاسفة فقد اتفقوا على الوجوب، وزادت الفلاسفة الإيجاب. وقول المعتزلة مبني على قاعدة وجوب الصلاح والأصلح، فيقولون النظام المؤدي إلى صلاح حال النوع الإنساني على العموم في المعاش والمعاد لا يَتِمُّ إلا ببعثة الرسل، وكل ما هو كذلك فهو واجب على الله تعالى، وقد تقدم هدم هذه القاعدة في فقرة (الصلاح والأصلح) من الباب الأول من هذا الكتاب. أما قول الفلاسفة فهو مبني على قاعدة التعليل أو الطبيعة، فيقولون يلزم من وجود الله وجود العالم بالتعليل أو بالطبع، ويلزم من وجود العالم وجود من يُصلحه، وقد تقدم أنه تعالى فاعل بالاختيار لا بطريق الإجبار. وذكر بعضهم الشيعة بدل الفلاسفة، وذكر بعضهم أن الفلاسفة ينكرون الإرسال لنفيهم كونه تعالى مختاراً.

وأما الطائفتان السُّمَنِيَّة والبراهِمَة فقد زعموا أن إرسال الرسل عَبَثٌ لا يليق بالحكيم، لأن العقل يغني عن الرسل. فإن كان الشيء حسناً عند العقل فعلوه وإن لم تأت به الرسل، وإن كان قبيحاً عند العقل تركوه وإن لم تأت به الرسل، وإن لم يكن

---

[1] النحل : 125 .

[2] الحج : 37 - 39 .

حسناً ولا قبيحاً فإن احتاجوا إليه فعلوه، وإن لم يحتاجوا تركوه، ونعوذ با لله من تلك الاعتقادات الباطلة.

أما أهل السنة فإنهم يقولون إن إرسال الرسل جائز عقلاً بمحض فضله سبحانه وتعالى، أي بإحسانه الخالص. وإلى هذا الاعتقاد الصحيح يشير صاحب الجوهرة بقوله:

وَمِنْهُ إِرْسَالُ جَمِيعِ الرُّسْلِ فَلاَ وُجُوبَ بَلْ بِمَحْضِ الْفَضْلِ

وليس معنى كون إرسال الرسل من الجائز العقلي أن الإيمان بوقوعه ليس واجباً، بل إنه من أهم الواجبات كما هو المطلوب اعتقاده شرعاً، وقد سبق الكلام على ذلك في فقرة (الإيمان) من المقدمة. وإذا كان الأمر كذلك فالواجب على المسلم أن يؤمن به ولا يلتفت إلى أصحاب الاعتقادات الباطلة. قال صاحب الجوهرة :

لَكِنْ بِذَا إِيمَانُنَا قَدْ وَجَبَا فَدَعْ هَوَى قَوْمٍ بِهِمْ قَدْ لَعِبَا

العقائد المتعلقة بالرسل عليهم الصلاة والسلام :

العقائد المتعلقة بالرسل ثلاثة أقسام: قسم واجب، وقسم مستحيل، وقسم جائز. وفيما يلي شرح عقائد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة على الترتيب، مع ذكر برهان كل عقيدة من العقائد الواجبة والجائزة، على أساس أن برهان كل صفة يثبتها، وينفي ضدها من الصفات المستحيلة.

أولاً : العقائد الواجبة في حقهم عليهم الصلاة والسلام وبراهينها

العقائد الواجبة في حقهم أربع صفات وهي: الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة. وفيما يلي شرح كل صفة من هذه الصفات مع البرهان المتعلق بها :

(الصفة الأولى) الصدق، وهو مطابقة خبرهم للواقع ولو بحسب اعتقادهم، كما حصل للنبي -ﷺ- لما سلّم سهواً من ركعتين في صلاة رباعية وسأله أحدُ أصحابه رضي ا لله

عنهم وهو ذو اليدين فقال له: أقصرتِ الصلاة أم نسيتَ يا رسول الله؟ فقال -ﷺ-: «كل ذلك لم يكن»، أي أن الصلاة لم تُقصَر وهو لم يَنس. فقال ذو اليدين: بل بعض ذلك قد كان. فسأل النبي -ﷺ- أصحابه: «أصحيح ما قاله ذو اليدين؟» قالوا: نعم. فقام وأتم الصلاة وسجد بعد السلام[1] . فقوله-ﷺ- (كل ذلك لم يكن) أي حسب اعتقاده. فإن قيل قد ورد أن النبي -ﷺ- مر على جماعة يؤبرون النخل فقال لهم: «لو تركتموها لصلحت» فتركوها فشاصت أي صار ثمرها شيصاً غير صالح للأكل[2]، فالجواب: إن هذا من قبيل الإنشاء، لأن المعنى كان في رجاء صلاحها، والإنشاء لا يتصف بصدق ولا كذب، وعدم وقوع المرتجى لا يعد نقصاً.

وبرهان هذه الصفة هو أنهم لو لم يصدقوا للزم الكذب في خبره تعالى لتصديقه لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله عز وجل: (صَدَقَ عَبْدِي في كُلِّ مَا يُبَلِّغُ عَنِّي)، وهذه العبارة ليست من كتاب الله وإنما قيلت كمثال. والمعنى أن ظهور المعجزة على يد أحد الرسل تعتبر في حكم تصديق الله لهذا الرسول فيما يبلغه عنه، ونظير ذلك ما إذا ادعى شخص لجماعة أنه رسول الملك، وأخبرهم بأنه يأمرهم بكذا وكذا، فقالوا له: ما الدليل على صدقك؟ فيقول: أن يفعل الملك كذا وكذا على خلاف عادته، فيفعل الملك ذلك، فهذا الفعل دليل على صدق المُخبِر لأنه يعتبر في حكم قول الملك صدق ذلك الشخص في دعواه أنه رسولي وفيما أخبره عني. فلو كان الرسل كاذبين لكان تصديقهم من الله كذباً، والكذب محال في حقه تعالى.

لكن هذا البرهان إنما يدل على صدق الرسل في دعوى الرسالة وفي الأحكام الشرعية لأن ذلك هو الذي يبلغونه عن الله تعالى، ولا يدل على صدقهم في الخبر العادي نحو قام زيد وقعد عمرو، فهذا القسم يدل عليه برهان الأمانة كما سيأتي لأنه داخل فيها. فأقسام الصدق ثلاثة: القسم الأول والثاني يدخلان في برهان الصدق،

---

(1) متفق عليه.

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه.

والقسم الثالث يدخل في برهان الأمانة. فإن قيل كل قسم من القسمين الأولين داخل في الأمانة، بل إن التبليغ أيضاً داخل فيها، فلاوجه للتخصيص. فالجواب: إنه لا يُكتفى بالإجمال في التوحيد.

(**الصفة الثانية) الأمانة**، وهي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة أو خلاف الأَوْلَى، فهم محفوظون ظاهراً من الزنا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر، ومحفوظون باطناً من الحسد والكِبْر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن. والمراد بالمنهي عنه ولو صورة، فيشمل ما قبل النبوة ولو في حال الصغر، فلا يقع منهم مكروه ولا خلاف الأَوْلَى، بل ولا مباح على وجه كونه مكروهاً ولا خلاف الأَوْلَى. وإذا وقع ذلك صورة فهو للتشريع فيصير واجباً أو مندوباً في حقهم. فأفعالهم عليهم الصلاة والسلام دائرة بين الواجب والمندوب، بل إن في الأولياء الذين هم من أتباعهم من يصل لمقام تصير فيه حركاته وسكناته العادية طاعة بالنية، وبهذا يندفع ما يقال إنه -ﷺ- بال قائماً وشرب قائماً وتوضأ بغسل أعضائه مرة مرة ومرتين مرتين، لأن ذلك وإن كان مكروهاً إلا أنه يكون في حقه عليه الصلاة والسلام مندوباً لأنه يقصد منه التشريع. وأما المحرم فلم يقع منهم إجماعاً، وما أوهَمَ المعصية فهو مُؤوَّل من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولا يجوز النطق به في غير مورده إلا في مقام التعليم. وما وقع من أبينا آدم عليه السلام حيث أكل من الشجرة المنهي عنها وإن كان معصية في الظاهر إلا أنه مأمور به في الباطن لسرٍّ بينه وبين ربه وإن لم نعلمه.

نقل الشعراني في اليواقيت عن أبي مدين أنه قال: لو كنت مكان آدم لأكلت الشجرة بتمامها. وكذلك ما وقع من إخوة يوسف عليه السلام - على القول بأنهم أنبياء- من إلقاء يوسف في الجب، وقولهم لأبيهم إن الذئب أكله، وبيعه لمن أخرجوه من الجب، كل ذلك يُؤوَّل كما تقدم.

وقال بعضهم إن الأمانة مَلَكَة راسخة في النفس، تمنع صاحبها من ارتكاب المنهيات. وعلى كل فهي ترجع إلى العصمة التي عبر بها بعضهم، فليس المراد منها مجرد كون الرسول أميناً على ما يودع عنده من أمانات عينية كما هو التعريف القاصر للأمانة، وإنما المراد منها المعنى الأعم وهي العصمة كما ذكرنا.

وبرهان هذه الصفة مع القسم الثالث من صفة الصدق وهو الخبر العادي كقام زيد وقعد عمرو، هو أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأَوْلَى لانقلب المحرم أو المكروه أو خلاف الأَوْلَى طاعة في حقهم عليهم الصلاة والسلام، وهذا مستحيل، لأن جميع ما صدر عنهم لا يكون إلا مأموراً به من الله تعالى، وكل مأمور به لا يكون إلا طاعة، لأن الله لا يأمر بالفحشاء، كما أنه سبحانه وتعالى أمرنا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم بما في ذلك تقريراتهم وسكوتهم على الفعل، إذ لا يُقِرُّون على خطأ. ويستثنى من ذلك ما ثبتت خصوصيته بهم كنكاح ما زاد على الأربع. ويعلم من ذلك أنه يجب على المكلف من أمة محمد -ﷺ- أن يتبعه في جميع أقواله وأفعاله إلا ما ثبت أنه من خصوصياته لإطلاق قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾[1]. وقد أجمعت الصحابة على اتِّبَاعه عليه الصلاة والسلام في أقواله وأفعاله من غير توقف باستثناء موقفين: **(أحدهما)** في غزوة الفتح، حيث أمرهم النبي -ﷺ- بالفطر في رمضان فاستمروا على الامتناع فتناول -ﷺ- القدح وشرب فشربوا. **(الثاني)** في غزوة الحديبية، حيث أمرهم -ﷺ- بالنحر والحلق فلم يفعلوا لاستغراقهم في التفكر فيما وقع من الصلح بينه-ﷺ- وبين المشركين، حيث تضمن شروطاً مجحفة حسب اعتقادهم، ومن هذه الشروط أن يرجع المسلمون عن مكة هذا العام ويأتوا إليها في العام القابل، وأن يردوا إليهم من جاءهم مسلماً، وهم لا يردون من جاءهم مرتداً، فقال المسلمون: يا رسول الله، نرد ولا يردون؟ فقال: نعم. أما من

---

(1) آل عمران : 31 .

ذهب منا إليهم فأبعده الله، وأما من جاء منهم إلينا فسيجعل الله له فرجاً ومخرجا. ثم أمرهم بالتحلل وقال لهم قوموا فانحروا واحلقوا، فلم يقم منهم أحد حتى قالها ثلاثاً، فلما لم يفعلوا دخل على أم سلمة وهي إحدى أزواجه وقال: هلك المسلمون، أمرتهم أن يحلقوا وأن ينحروا فلم يفعلوا. فقالت: يا رسول الله، لا تلُمهم فإنه شقَّ عليهم هذا الصلح، اخرج ولا تكلم منهم أحداً حتى تفعل ما أمرتهم به. فخرج -ﷺ- ونحر هديه بيده ودعا حالقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا.

ويستفاد من هذين الموقفين أن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول في التشريع، لأن المكلف قد يعتقد في القول أنه ترخيص فيخالفه، كأن يعيد الصلاة من أولها إذا سها فيها ولا يقتصر على الإصلاح وسجود السهو محتجاً بأنه لولا أنه ترخيص لفعله النبي -ﷺ-، وأما الفعل فلا يمكن فيه ذلك لأنه لا يعدل أحد عن فعله -ﷺ- بعد رؤيته أو ثبوته، إذ لا يفعل -ﷺ- لنفسه إلا الأفضل.

وهذا البرهان وإن كان على صورة الدليل العقلي فهو في الحقيقة دليل شرعي.

(الصفة الثالثة) التبليغ، وهو تبليغ ما أُمِروا بتبليغه للخلق، بخلاف ما أُمِروا بكتمانه وما خُيِّروا فيه، فالأقسام ثلاثة: ما أُمِروا بتبليغه يجب أن يبلغوه ولا يجوز لهم كتمانه. وما أُمِروا بكتمانه يجب أن يكتموه ولا يجوز لهم تبليغه. وما خُيِّروا فيه بين التبليغ والكتمان فيجوز فيه الأمران: التبليغ والكتمان.

وبرهان هذه الصفة هو أنهم لو كتموا شيئاً مما أُمِروا بتبليغه للخلق لكُنّا مأمورين بكتمان العلم لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم، واللازم باطل لأن كاتم العلم ملعون. ولو جاز في حقهم كتمان شيء مما أُمِروا بتبليغه لكتم نبينا محمد -ﷺ- ما جاء في القرآن الكريم من عتاب له على بعض الأمور، ومنها قوله تعالى في حادثة أسرى بدر من سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ

لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وقوله في حادثة عبدا لله بن أم مكتوم من سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَاعَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلاَّ﴾[2]، وقوله في حادثة طلاق زيد بن حارثة زوجته زينب من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[3].

وقد اتفق المفسرون على أن سبب نزول هذه الآية والآيات الثلاث التي بعدها هو ما نُقل عمن يُعوَّل عليه في التفسير عن علي بن الحسين رضي ا لله عنهما أن ا لله تعالى أعلم نبيه -ﷺ- أن زينب زوجة زيد بن حارثة ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيد قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ وأخفى عنه ما أعلمه ا لله به من أنها ستكون زوجة له، ومعلوم أن زيداً هذا كان ابناً بالتبنّي لرسول ا لله-ﷺ-، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي وتخفي عن زيد علمك بأن زينب ستكون زوجة لك، مع أن ا لله سيظهر ذلك بطلاق زيد لها وتزويجك بها.

أما قوله تعالى: ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ فالمقصود منه أن النبي -ﷺ- أخفى ما أعلمه ا لله به من طلاق زيد لزينب وتزويجه -ﷺ- بها خشية أن يقول الناس محمد تزوج زوجة ابنه، وكان عليه أن لا يخشى أحداً من الناس لعُلُوِّ مَقامه، بل يقتصر على خشية ا لله كما هو شأنه دائماً. وبالفعل طلّق زيد بن حارثة زوجته زينب وزوَّجها ا لله بنفسه من نبينا محمد -ﷺ- كما قال جل شأنه : ﴿فَلَمَّا

---

[1] الأنفال : 68 - 69 .

[2] عبس : 1-11 .

[3] الأحزاب : 37 .

قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾[1] . روي أنه عليه الصلاة والسلام دخل بها دون عقد لأن الله عقد له عليها بقوله: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾.

أما الحكمة من هذا الزواج فهو إبطال التبنّي في الإسلام، حيث كان المتبنّي يعتبر المتبنّى ابناً له، فلا يجوز أن يتزوج أحدهما بمن كانت زوجة للآخر، فلما نزلت هذه الآية وتزوج النبي -ﷺ- زينب بطل هذا الحكم، وفُتح الباب لكل من ينطبق عليه هذا الحكم من المؤمنين، ورُفع الحرج عن كل من أراد أن يتزوج ممن كانت زوجة لابنه أو أبيه بالتبنّي كما قال تعالى: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[2] ، ثم أكد سبحانه وتعالى بأنه لا حرج على النبي -ﷺ- أصلاً لأنه فعل شيئاً مأموراً به منه عز وجل فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾[3] .

وما قيل في سبب نزول الآيات المذكورة من أنه -ﷺ- كان قلبه معلقاً بزينب عندما كانت زوجة لزيد وهو ما عاتبه الله على إخفائه فهو قول مردود لا يُلتفت إليه، لأن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا الأمر، فما بالك بأعظم رسول -ﷺ-، وهذا هو ما يجب اعتقاده في حق المؤمن.

(**الصفة الرابعة) الفطانة**، وهي التفطن واليقظة لإلزام الخصوم وإبطال دعاويهم الباطلة.

وبرهان هذه الصفة هو ما ورد في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام من آيات قرآنية ومنها قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن

---

(1) الأحزاب : 37 .
(2) الأحزاب : 37 .
(3) الأحزاب : 38 .

﴿نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1] ، والإشارة عائدة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2] ، وقوله حكاية عن نوح وقومه: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[3] .

أما نبينا محمد -ﷺ- فليس في حاجة إلى إثبات فطنته وذكائه، ويكفيه فطنة وذكاء تَلَقِّيه القرآن الكريم من ربه عز وجل عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام وتبليغه لأمته كما نزل. فإن قيل إن الآيات القرآنية الدالة على فطنة وذكاء بعض الرسل السابقين لنبينا محمد -ﷺ- لا تدل على ثبوت فطنة وذكاء جميع الرسل، فالجواب: إن ما ثبت لبعضهم من الكمال يثبت لجميعهم بما فيهم الأنبياء، إذ أن اللائق بمنصب النبوة أن يكون لدى النبي من الفطنة والذكاء ما يرد به الخصم، على تقدير وقوع جدال منهم. نعم، الواجب للأنبياء مطلق الفطنة، وأما الرسل فالواجب لهم كمال الفطنة.

ثانياً: العقائد المستحيلة في حقهم عليهم الصلاة والسلام

العقائد المستحيلة في حقهم أربع صفات، وهي أضداد الصفات الأربع الواجبة وهي: الكذب والخيانة والكتمان والبلادة. وهذه الصفات لا تحتاج إلى شرح، لأن

---

(1) الأنعام : 84 .

(2) الأنعام : 77-80 .

(3) هود : 32 - 33 .

شرحها يُفهم من شرح الصفات الواجبة المتقدمة. فما قيل في تلك الصفات يقال عكسه في هذه الصفات. فالكذب ضد الصدق، والخيانة ضد الأمانة، والكتمان ضد التبليغ، والبلادة ضد الفطانة.

ومعنى استحالتها عدم قبولها الثبوت لكن بالدليل الشرعي، وهو ما رواه العلماء من كتاب وسنة وإجماع.

ثالثاً : العقيدة الجائزة في حقهم عليهم الصلاة والسلام

العقيدة الجائزة في حقهم ما يحدث لهم من الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية من توابع الصحة التي لا يُستغنَى عنها عادة كالأكل والشرب والنوم ودخول الأسواق. ويخرج بالأعراض البشرية الأعراض المتعلقة بالملائكة فلا تجوز عليهم، خلافاً لجهلة العرب حيث زعموا أن الرسول يكون متصفاً بصفات الملائكة فلا يأكل ولا يشرب ولا يدخل الأسواق، كما حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**﴾[1]، أو التي يُستغنَى عنها كالجماع الحلال للنساء فإنه يُستغنَى عنه بدون حبس النفس حبساً شديداً بناءً على أنه من باب التفكه، أو بحبس النفس حبساً شديداً بناء على أنه من باب القوت، فيجوز لهم سواء بالنكاح الشرعي أو بملك اليمين ولو للأَمَة الكتابية كاليهودية والنصرانية بخلاف المجوسية فلا تحل لهم كالوثنية. وخالف ابن العربي في الأَمَة الكتابية حيث قال بعدم جواز نكاحها في حقهم كالمجوسية ونحوها مُعلّلاً بأن النبي الشريف يجب أن لا يضع نطفته في رَحِم كافرة، وبأنها تكره صحبته، وأما الأَمَة المسلمة بالمُلك فيجوز لهم نكاحها باتفاق. ويجوز لهم الوطء بالنكاح لما عدا الكتابية والمجوسية وما في حكمها كالوثنية وما عدا الأَمَة ولو مسلمة لأنها إنما تنكح لخوف العنت أي الوقوع في الزنا، ولعدم الطَّوْل أي المهر، وكل منهما مُنْتَفٍ في حقهم؛ أما الأول فللعصمة، وأما الثاني

---

(1) الفرقان : 7 .

فلأنهم واجدون للمهر، على أنه يجوز للنبي أن يتزوج بدون مهر. ولا يجوز عليهم الاحتلام، لأنه من الشيطان كما صححه النووي، وليس للشيطان عليهم سبيل. ويستثنى من ذلك خروج المني بسبب فيضان الأوعية من غير تلاعب من الشيطان، فيجوز في حقهم.

ويخرج بالجماع الحلال الجماع الحرام، كالجماع حال الحيض أو النفاس أو الإحرام بحج أو عمرة أو الاعتكاف أو الصيام صوماً مشروعاً كقضاء رمضان أو صيام التطوع المأذون فيه، فلا يجوز لهم جماع حلائلهم في أي من هذه الحالات.

ومن الأعراض البشرية التي تجوز في حقهم المرض الخفيف ومنه الإغماء ولو طال، بخلاف الجنون ولو قل، فلا يجوز لأنه نقص، وكذلك الجذام والبرص والعمى ونحو ذلك من الأمراض المُنفِرة. وما قيل عن شعيب بأنه كان ضريراً لا أساس له من الصحة، وما حصل ليعقوب من بياض عينيه إنما هو حجاب عليهما من تواصل الدموع بسبب بكائه على يوسف، ولذلك لما جاءه البشير بخبر يوسف زال البياض وعاد بصيراً، وما أصاب أيوب من البلاء فإنما كان بين الجلد والعظم ولم يكن منفراً، وما قيل بخلاف ذلك فهو باطل.

ومعنى هذا أن هذه الابتلاءات حتى على فرض صحتها فإنها كانت ظاهرية لا حقيقية، بل وحتى على فرض أنها حقيقية فقد حصلت بعد تقرر النبوة، والعبرة بما قارن النبوة لا بما حصل بعدها.

وأما السهو في حقهم ففيه تفصيل، فإن كان في الأخبار التي يجب عليهم تبليغها كقولهم الجنة أُعِدَّت للمتقين وعذاب القبر واجب فلا يجوز، وكذلك إن كان في الأخبار العادية كقام زيد وقعد عمرو، أما إن كان في الأفعال التي يجب تبليغها أو لا يجب كالسهو في الصلاة للتشريع فيجوز. وقد ورد أن النبي -ﷺ- سها في صلاته أربع

مرات: (**الأولى**) سلَّم من ركعتين. (**الثانية**) سها عن التشهد الأول. (**الثالثة**) سها عن السورة التي بعد الفاتحة. (**الرابعة**) قام لركعة خامسة. وقد نظم بعضهم ذلك فقال:

سَهَا النَّبِيُّ في صَلاةٍ فَاعْلَمَا ... مِنِ اثْنَتَيْـنِ وَقِيَـامِ مِنْهُمَـا

كَذَا إلى خَامِسَةٍ قَـدْ وَقَفَـا ... وَإِنَّـهُ لِسُـورَةٍ قَـدْ حَذَفَـا

وفي جميع هذه الحالات رجع وأصلح الصلاة : ففي (**الأولى**) أحرم وأتى بالركعتين ثم سلَّم وسجد بعد السلام، وهذه الحالة هي المشهورة بحديث ذي اليدين. وفي (**الثانية**) أتم الصلاة وسجد قبل السلام. وفي (**الثالثة**) سجد قبل السلام. وفي (**الرابعة**) رجع فتشهد وسلَّم وسجد بعد السلام. وهذا السهو هو الذي بنيت عليه قاعدة إصلاح الصلاة وحكم السجود القبلي والبعدي.

ولم يكن سهوه عليه الصلاة والسلام ناشئاً عن اشتغاله بالتفكر في الدنيا وإنما كان ناشئاً عن اشتغاله بالتفكر في الله عز وجل، ولذا قال بعض العارفين :

يَاسَائِلِي عَنْ رَسُولِ اللهِ كَيْفَ سَهَا ... وَالسَّهْوُ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهِ

قَدْ غَابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَلْبُـهُ فَسَهَا ... عَمَّـا سِوَى اللهِ فَـالتَّعْظِيمُ لِلَّـهِ

وأما النسيان في حقهم فلا يجوز في الأمور التي يجب عليهم تبليغها قبل التبليغ، سواء كانت قولية كقولهم الجنة أعدت للمتقين، أو فعلية كصلاة الضحى مثلاً إذا أمرهم الله بفعلها ليُقتدَى بهم، فلا يجوز نسيان كل منهما قبل تبليغ الأولى بالقول، والثانية بالفعل. وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ما ذكر من الله تعالى لا من الشيطان، فليس للشيطان عليهم سبيل. وقول يوشع فتى موسى عليهما السلام: ﴿وَمَا أَنسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾[1] تواضع منه، أو قبل نبوته وعلمه بحال نفسه، وإلا فهو من الله بشهادة

---

(1) الكهف : 62 .

قول موسى عليه السلام: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[1] . ووسوسة الشيطان لآدم في الجنة إنما هو حسب الظاهر فقط. والممنوع لعبه ببواطنهم، فيجوز على ظواهرهم ما يجوز على البشر مما لا يؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية كما تقدم، وأما بواطنهم فمنزهة عن ذلك لتعلقها بربهم عز وجل. وفي المنن[2] كان معروف الكرخي -وهو من الأولياء الصالحين- يقول: لي ثلاثون سنة في حضرة الله سبحانه وتعالى ما خرجت عنها، فأنا أكلم الله والناس يظنون أني أكلمهم. فإذا كان هذا حال أحد أتباع الأنبياء من الأولياء فما بالك بالأنبياء أنفسهم، بل وبرئيس الأنبياء والرسل محمد -ﷺ-

والفرق بين السهو والنسيان والغفلة، أن السهو هو الذهول عن الشيء سواء تقدم ذكره أم لا، وهو يقع من الساهي نفسه، تقول سهوت عن الشيء أي ذهلت عنه حتى كان. وأما النسيان فهو الذهول عن الشيء مع تقدم ذكره، وهو يقع من الناسي نفسه، تقول نسيت الشيء الفلاني. وأما الغفلة فهي الذهول عن الشيء حتى يقع، ولا تكون إلا من فعل الغير، تقول غفلت عن هذا الشيء حتى كان.

أما برهان هذه الصفة وهي جواز الأعراض البشرية على الرسل عليهم الصلاة والسلام هو ما ذكره الإمام السنوسي رضي الله عنه بقوله: وأما دليل جواز الأعراض البشرية عليهم فمشاهدة وقوعها بهم، إما لتعظيم أجورهم أو للتشريع أو للتسلّي عن الدنيا أو للتنبيه لِخِسَّةِ قدرها عند الله تعالى وعدم رضاه بها دار جزاء لأنبيائه وأوليائه باعتبار أحوالهم فيها عليهم الصلاة والسلام.

هذا وقد ذكر الإمام السنوسي أربعة أسباب لجواز وقوع الأعراض البشرية على الرسل عليهم الصلاة والسلام، وشرح الشيخ البيجوري هذه الأسباب في حاشيته على السنوسية فقال في (**السبب الأول**) وهو تعظيم أجورهم، والمراد به ما يصيبهم من

---

(1) الكهف : 63 .

(2) كتاب المنن للإمام عبدالوهاب الشعراني.

الأمراض ونحوها، فإنه يترتب عليها تعظيم الأجور، ولهذا قـال-ﷺ- : ((أَشَدُّكُمْ بَلاءً الأَنبِيَاءُ ثُمَّ الأَوْلِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ))[1] . قال الإمـام القشيري: ليس كل أحد أهلاً للبلاء، إذ البلاء للأولياء، وأما غيرهم فيُتجاوَز عنهم ويخلى سبيلهم. وقال في (**السبب الثاني**) وهو التشريع، والمراد به تشريع الأحكام لنا لأجل أن نعلمها كما عَلِمنا أحكام السهو في الصلاة من سهو النبي -ﷺ- فيها. وقال في (**السبب الثالث**) وهو التسَلّي عن الدنيا، والمراد به تسلي غيرهم عنها، وذلك أنه إذا رأى المؤمن مقامات هؤلاء السادة الكرام الذين هم خيرة الله من خلقه وصفوته من عباده مع ما وقع لهم من تلك الأعراض تسلّى وصبر عنها. وقال في (**السبب الرابع**) وهو التنبيه لِخِسَّةِ قدر الدنيا عند الله، أي تنبيه غيرهم لحقارة قدرها عند الله تعالى ولذلك قال-ﷺ- : ((لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناح بعوضة ما سَقَى الكافرَ منها جرعةَ ماء))[2]، وقال مخاطباً ابن عمر رضي الله عنهما والمراد ما يَعُمُّه وغيره: ((كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور))[3] وذلك كناية عن ملاحظة الموت وعدم طول الأمل، وقال : ((ما رفعت قدمي وظننت أني أضعها حتى أقبض، ولا فتحت عيني وظننت أني أغمضها حتى أقبض، ولا لقمت لقمة وظننت أني أسيغها حتى أقبض. والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين))[4].

والذَّمُّ الوارد في الدنيا إنما هو في الدنيا الشاغلة عن الله تعالى، وعليها يُحمَل قوله -ﷺ- : ((الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه))[5] أي التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل. أما الدنيا التي لم تُشغِل عنه فلا ذم فيها بل هي محمودة،

---

[1] رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وكذلك ابن ماجه وابن حبان والحاكم.

[2] رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

[3] في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله-ﷺ- قال: ((كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)) وزاد الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه: ((وعُدَّ نفسك من أهل القبور)).

[4] أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني وأبو نعيم.

[5] رواه ابن ماجه والبيهقي والترمذي وقال حديث حسن.

وعليها يُحمل قوله -ﷺ- : ((نِعْمَتِ الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته))[1] وبذلك يعلم أنها ليست محمودة لذاتها ولا مذمومة لذاتها بل بحسب ما تَجُرُّ إليه من خير أو شر. كما أن المراد بالدنيا التي ينبغي التسلّي عنها الأموال وما يتبعها كالجاه والفخر والراحة واللذة، وبالدنيا التي لا ينبغي أن تكون دار جزاء لأنبياء الله وأوليائه ما بين السماء والأرض أو جملة العالم.

جمع كلمتي التوحيد للعقائد الإيمانية :

المراد بكلمتي التوحيد (**لاَ إِلَهَ إلاّ اللّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ**)، والمراد بالعقائد الإيمانية جميع العقائد التي ترجع إلى الألوهية أو النبوة وجوباً واستحالةً وجوازاً والتي تقدم ذكرها بالتفصيل.

ومعنى الجمع أن كل كلمة من هاتين الكلمتين تدخل تحتها مجموعة من العقائد، أي أن معنى كل كلمة منهما يشمل معنى جميع العقائد التي تدخل تحتها. وتسمى هاتان الكلمتان أيضاً بشهادتي الإسلام. قال صاحب الجوهرة :

وَجَامِعٌ مَعْنَى الَّـذِي تَقَـرَّرَا   شَهَادَتَا الإِسْلامِ فَاطْرَحِ الْمِرَا

والمِرَاء بالهمزة، وإنما حذفت من البيت للوزن وهو الجدال والخصام، والمعنى: اطرح الجدال والخصام في صحة جمعهما لما ذكر.

وبيان ذلك أن الكلمة الأولى وهي (**لاَ إِلَهَ إلاّ اللّهُ**) نفت الألوهية عن غير الله، وأثبتتها له تعالى. وحقيقة الألوهية العبادة بحق، ويلزم منها استغناء الإله عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه. فمعنى (**لاَ إِلَهَ إلاّ اللّهُ**) الحقيقي لا معبود بحق في الواقع إلا الله، ومعناها بطريق اللزوم لا مُستَغنِياً عن كل ما سواه، ومفتقراً إليه كل ما

---

[1] رواه الحاكم وصححه.

عداه إلا الله. فالاستغناء يستلزم وجوب وجوده تعالى وقدمه وبقائه ومخالفته للحوادث وقيامه بنفسه وتنزهه عن النقائص، ويدخل في ذلك السمع والبصر والكلام ولوازمها وهي كونه تعالى سميعاً وبصيراً ومتكلماً بناءً على القول بالأحوال، إذ لو لم تجب له هذه الصفات لكان محتاجاً إلى المحدث أو المحل أو من يدفع عنه النقائص. فهذه إحدى عشرة عقيدة من الواجبات. وإذا وجبت له هذه الصفات استحالت عليه أضدادها وهي العدم والحدوث والفناء والمماثلة للحوادث والاحتياج وعدم تَنَزُّهِهِ عن النقائص، ويدخل في ذلك الصمم والعمى والبكم ولوازمها وهي كونه تعالى أصم وأعمى وأبكم، فهذه إحدى عشرة عقيدة من المستحيلات. ويستلزم أيضاً نفي وجوب فعل شيء من الممكنات أو تركه، وإلاَّ لزم افتقاره إلى فعل ذلك الشيء أو تركه ليكمل به. فهذه عقيدة الجائز. فجملة ما استلزمه الاستغناء ثلاث وعشرون عقيدة، وأما الافتقار فيستلزم وجوب القدرة والإرادة والعلم والحياة ولوازمها وهي كونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً وحياً، ويستلزم أيضاً الوحدانية، فهذه تسع من العقائد الواجبات. وإذا وجبت له هذه الصفات استحالت عليه أضدادها وهي العجز والكراهة والجهل والممات ولوازمها وهي كونه تعالى عاجزاً وكارهاً وجاهلاً وميتاً، كما استحال التعدد. فجملة ما استلزمه الافتقار ثماني عشرة عقيدة، فإذا ضُمت للثلاث والعشرين السابقة كان المجموع (إحدى وأربعين عقيدة) الواجب له تعالى منها عشرون، والمستحيل عليه عشرون، والجائز واحدة. وبهذا اشتملت الكلمة الأولى (**لاَ إِلَـهَ إلاَّ اللَّـهُ**) على أقسام الحكم العقلي الثلاثة : الواجب والمستحيل والجائز الراجعة له تعالى.

أما الكلمة الثانية وهي(**مُحَمَّدٌ رَسُولُ ا للهِ**) فقد أثبتت الإقرار برسالة محمد-ﷺ-، ويلزم من ذلك تصديقه في كل ما جاء به، ويندرج تحتها العقائد الأربع الواجبة في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام وهي: الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة، ويندرج تحتها أيضاً العقائد الأربع المستحيلة في حقهم وهي أضداد العقائد الواجبة وهي: الكذب والخيانة والكتمان والبلادة، ويندرج تحتها كذلك جواز الأعراض البشرية التي لا تؤدي

إلى نقص في مراتبهم العلية، فهذه تسع عقائد، وهي جملة أقسام الحكم العقلي الثلاثة: الواجب والمستحيل والجائز المتعلقة بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

فجملة العقائد المندرجة تحت كلمتي التوحيد **(لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ا للهِ)** خمسون عقيدة: إحدى وأربعون منها في حق ا لله سبحانه وتعالى، وتسع في حق رسله عليهم الصلاة والسلام.

ويضاف إليها خمس عقائد أخرى في حق مولانا عز وجل وهي متعلقة بما يجب له تعالى وهي: نفي الغرض، ونفي وجوب الفعل، ونفي التأثير بالقوة أو بالطبع أو بالعلة، وأضدادها وهي خمس كذلك وهي: ثبوت الغرض، وثبوت وجوب الفعل، وثبوت التأثير بالقوة أو بالطبع أو بالعلة، وهي متعلقة بما يستحيل في حقه تعالى. وبإضافتها إلى الخمسين المتقدمة تكون جملة العقائد ستين عقيدة. وإذا أضفنا إليها أركان الإيمان الستة وهي الإيمان با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره تكون الجملة (ستاً وستين عقيدة).

هذا وقد نص العلماء على أنه لابد للمكلف من فهم معنى كلمتي التوحيد **(لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ا للهِ)** ولو إجمالاً، وإلا لم ينتفع الناطق بهما. وقال بعضهم الأوسع للذاكر أن يلاحظ أخذهما من القرآن ليثاب عليهما مطلقاً.

وقد اختلف العلماء هل الأفضل في النطق بهما المَدُّ أو القَصْرُ؟ فمنهم من اختار المد ليستشعر المتلفظ بهما نفي الألوهية عن كل موجود سواه تعالى، ومنهم من اختار القصر لئلا تخترمه المنية قبل التلفظ باسم الجلالة (ا لله). وفصَّل بعضهم بين أن يكون أول كلامه بهما فيقصر وإلا فيمد. وأما الوقوف على هاء إلهَ في قوله **(لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ)** فهو أشد خطراً من القصر المتقدم لأنه نفي لِلإِلَهِ دون إثبات، وقد تخترمه المنية لحظة هذا الوقوف، غير أنه لو اخترمته المنية في الحالتين فلا يخشى عليه من سوء الخاتمة لأنه غير قاصد لما وقع.

عدم اكتساب النبوّة :

النبوّة هي اختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي، سواء أُمِر بتبليغه أم لا. أما الرسالة فيشترط فيها أن يؤمر بالتبليغ كما تقدم في فقرة (الأنبياء والرسل) أول هذا الكتاب، فهي خصوصية لا يكتسبها العبد بما يتهيأ له من عبادة خاصة كملازمة الخلوة والإكثار من العبادة وتناول الحلال كما زعمت الفلاسفة، فالذي ذهب إليه المسلمون جميعاً أن النبوة خصوصية من الله تعالى لا يبلغ العبد أن يكتسبها ولو فعل أشق العبادات، وإنما هي عطية من الله عز وجل يتفضل بها على من يشاء من عباده ، كما قال صاحب الجوهرة :

وَلَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ مُكْتَسَبَهْ وَلَوْ رَقَى فِي الْخَيْرِ أعْلَى عَقَبَهْ
بَلْ ذَاكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ لِمَنْ يَشَاءُ جَلَّ اللهُ وَاهِبُ الْمِنَنْ

أما الفلاسفة فقد زعموا أن النبوة مكتسبة يحصل عليها العبد بمباشرة أسباب خاصة يفسرونها بأنها صفاء وتجل للنفس يحدث لها من الرياضات بالتخلي عن الأمور الذميمة والتخلق بالأخلاق الحميدة، وهذا الزعم من الفلاسفة هو أقوى الأسباب التي كفروا بها وإن لم تكن من المسائل المذكورة في النظم المشهور والذي تقدم في فقرة (العقائد الواجبة في حقه عزوجل) من الباب الأول من هذا الكتاب أثناء الكلام على الصفة التاسعة العلم، ويلزم على قولهم باكتسابها تجويز خروج نبي بعد سيدنا محمد -ﷺ- أو معه، وذلك يستلزم تكذيب القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1]، وقال-ﷺ-: «لاَ نَبِيَّ بَعْدِي»[2] . وقد أجمعت الأمة على إبقائه على ظاهره.

---

(1) الأحزاب : 40 .

(2) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

أما الولاية ففيها طريقتان أي قولان: قول بأنها مكتسبة، وقول بأنها غير مكتسبة. والأظهر التفصيل، فمنها ماهو مكتسب كامتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وتسمى الولاية العامة، ومنها ما هو غير مكتسب وهي العطايا الربانية كالعلم اللَّدُنِّي وهو الموهوب من عند الله سبحانه وتعالى ورؤية اللوح المحفوظ، وغير ذلك من الأمور التي يخص بها المولى من أحبه من عباده.

أفضلية نبينا محمد (ﷺ) على جميع الخلق :

يتفاوت الخلق من البشر والجن والملائكة في الأفضلية، ولا جدال في أن أفضل المخلوقات على العموم الشامل للعالم العلوي والسفلي من البشر والجن والملائكة في الدنيا والآخرة في سائر الخير وأوصاف الكمال نبينا محمد-ﷺ-. قال صاحب الجوهرة:

وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الإِطْلاقِ   نَبِيُّنَا فَمِلْ عَنِ الشِّقَاقِ

والإضافة في (نَبِيِّنا) الواردة في هذا البيت لتشريف المضاف إليه وهم أمة محمد -ﷺ- إن جُعِلَ الضمير فيه راجعاً لها، فإن جُعِل راجعاً لما يشمل هذه الأمة وغيرها كان عامًّا مطابقاً لما سيأتي من عموم بعثته -ﷺ-. وأفضليته عليه الصلاة والسلام على جميع الخلق مما أجمع عليه المسلمون حتى المعتزلة فهو مستثنى من الخلاف في التفضيل بين الملائكة والبشر، ولا يُلتفت لما زعمه الزمخشري أحد أئمة المعتزلة من تفضيل جبريل عليه السلام على نبينا محمد-ﷺ- مُستَدلاً بقولهِ تعالى في وصف جبريل:﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[1]، وقوله عن محمد: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[2]، حيث عَدَّ في جبريل عليه السلام ستة أوصاف كريمة،

---

[1] التكوير : 19-21 .

[2] التكوير : 22 .

واقتصر في محمد عليه الصلاة والسلام على صفة واحدة وهي نفي الجنون عنه. وقد خرق الزمخشري بذلك إجماع المسلمين، ولا دلالة في الآية لما ادعاه لأن المقصود منها نفي قول الكفار: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[1] أي لا مَلَكٌ، وقولهم: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾[2] ، وليس المقصود المفاضلة بين محمد وجبريل عليهما الصلاة والسلام، وإنما هو شيء اقتضاه الحال للرد على الكفار بأن إجراء تلك الصفات على جبريل في هذا المقام دال على بلوغ الغاية في تعظيم محمد-ﷺ- حيث جعل السفير بينه وبين الله هذا المَلَك الموصوف بتلك الصفات. أما فضل المصطفى فهو مصرح به في هذا الكتاب وفي سائر الكتب السماوية كالشمس في رابعة النهار، ولا عبرة بما يُتوهَّم من تفضيل جبريل عليه لكونه كان يعلمه -ﷺ-، فكم من مُعَلَّمٍ أفضل من مُعَلِّم.

وما ورد من نهيه -ﷺ- عن تفضيله على بعض الأنبياء كقوله: ((لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ))[3] ، وقوله: ((لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى))[4] ، وقوله: ((لا تخيروني على موسى))[5] ونحو ذلك فهو محمول على التفضيل الذي يؤدي إلى تنقيص غيره من الأنبياء، أو أنه قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل منهم، ويحتمل أنه قال ذلك تأدباً وتواضعاً. وقيل إن معنى (لا تفضلوني على يونس بن متى) لا تعتقدوا أني أقرب إلى الله من يونس عليه السلام في الحِسِّ، حيث ناجيت الله فوق السموات السبع، وهو ناجى ربه في بطن الحوت في قاع البحر، لتنزهه تعالى عن الجهة والمكان، فيستوي في حقه من فوق السموات السبع ومن في قاع البحر. وعدم التفضيل بهذا الاعتبار لا ينافي أنه -ﷺ- أفضل الجميع، فقد قال عليه الصلاة والسلام: ((أنا أكرم الأولين

---

(1) النحل : 103 .

(2) سبأ : 8 .

(3) رواه الشيخان.

(4) رواه الشيخان.

(5) رواه الشيخان.

والآخرين على الله ولا فخر»[1] أي ولا فخر أعظم من ذلك، أو لا أقول ذلك فخراً بل تحدثاً بنعمة الله.

واختلف هل أفضليته -ﷺ- لمزاياه التي اختص بها، أو بتفضيل من الله تعالى. والتحقيق أنه بتفضيل من الله تعالى، مع اعتقادنا أنه -ﷺ- له مزايا ولكنها لا تقتضي التفضيل، ولذلك يقولون يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل، فللسَّيد أن يفضل من شاء على من شاء.

أفضلية الأنبياء والرسل على غيرهم من الخلق :

أفضلية الأنبياء والرسل على غيرهم من الخلق تأتي في المرتبة الثانية بعد نبينا محمد -ﷺ- كما قال صاحب الجوهرة :

(وَالأنبيَا يَلُونَه في الفَضلِ)

أي أن الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام يتبعون نبينا محمداً -ﷺ- في الفضل، فمرتبتهم بعد مرتبته عليه الصلاة والسلام وإن تفاوتوا فيها، فيليه سيدنا إبراهيم، فسيدنا موسى، فسيدنا عيسى، فسيدنا نوح، وهؤلاء مع نبينا محمد -ﷺ- هم أولوا العزم أي الصبر وتحمل المشاق، والمقصودون بقوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2] ، وليس فيهم آدم لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[3] ، وقيل إن معنى الآية ولم نجد له عزماً أي إصراراً على المعصية. وقد نظم بعضهم أولي العزم على هذا الترتيب فقال:

مُحَمَّدُ إبْرَاهِيمُ مُوسَى كَلِيمُهُ فَعِيسَى فَنُوحٌ هُمْ أُولُوا الْعَزْمِ فَاعْلَمِ

(1) رواه مسلم والترمذي.
(2) الأحقاف : 34 .
(3) طه : 112 .

كما أنهم هم أهل الشرائع، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[1]. ويلي أولي العزم في الأفضلية بقية الرسل، ثم الأنبياء غير الرسل مع تفاوت مراتبهم عند الله تعالى. فالواجب اعتقاد أفضلية الأفضل على طبق ما ورد به الحكم تفصيلاً في التفصيلي وإجمالاً في الإجمالي، ويمتنع الهجوم فيما لم يرد فيه توقيف.

أفضلية الملائكة :

تأتي أفضلية الملائكة في المرتبة الثالثة بعد نبينا محمد -ﷺ- وبعد بقية الأنبياء والرسل، كما قال صاحب الجوهرة :

(وَبَعدَهمْ مَلاَئِكَةْ ذِي الفَضلِ)

أي وبعد الأنبياء تأتي أفضلية ملائكة صاحب الفضل وهو الله سبحانه وتعالى.

وأفضل الملائكة جبريل، فميكائيل، فإسرافيل، فعزرائيل، وهؤلاء الأربعة هم رؤساء الملائكة. وقد اتفق العلماء على أن جبريل وميكائيل أفضل من جميع الملائكة، ثم اختلفوا في الأفضل منهما، فقيل إن جبريل أفضل وهو المشهور، وقيل ميكائيل أفضل، وبعدهم في الأفضلية بقية الملائكة.

وما ذكر من أن الملائكة -رؤساء وغيرهم- يَلُونَ الأنبياء في الأفضلية هي طريقة جمهور الأشاعرة وهي مرجوحة، والراجحة هي طريقة الماتريدية وهي التفضيل، حيث فصَّلوا في الأفضلية بين رؤساء الملائكة وعامتهم وعامة البشر، فقالوا الأنبياء أفضل من رؤساء الملائكة كجبريل وميكائيل، ورؤساء الملائكة أفضل من عامة البشر وهم الأولياء كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعامة البشر أفضل من عامة الملائكة

---

[1] الشورى : 11 .

كحملة العرش والكروبيين وهم ملائكة حافُّون بالعرش طائفون به، وبقية الملائكة أفضل من بقية البشر. وإلى هذه الطريقة أشار صاحب الجوهرة بقوله :

هَذَا وَقَوْمٌ فَصَّلُوا إِذْ فَضَّلُوا   وَبَعْضُ كُلٍّ بَعْضَهُ قَدْ يَفْضُلُ

فإن قيل إن هذه الطريقة يلزم عليها تفضيل غير المعصوم وهم الأولياء من البشر على المعصوم وهم عامة الملائكة، فالجواب: إن العصمة لا دخل لها في التفضيل، فلا ينظر لها فيه وإنما ينظر للأكثرية في الثواب على العبادة، فالأولياء من البشر أكثر ثواباً من عامة الملائكة لحصول المشقة للأولياء من البشر في عبادتهم، بخلاف عامة الملائكة فإن الطاعة جِبلّتهم فلا يحصل لهم فيها مشقة.

وقال غير هذين الفريقين: إن الملائكة أفضل من الأنبياء إلا نبينا محمداً -ﷺ- لما تقدم من أنه مستثنى من الخلاف، مُعلّلين ذلك بتجردهم من الشهوات، ووافقهم المعتزلة على ذلك. ورُدَّ هذا القول بأن وجود الشهوات مع قمعها أتم، فقد قال-ﷺ-: ((الأجر على قدر النَّصب))[1] . وقال بعضهم: ليس تفضيل الملائكة عن البشر مما يجب اعتقاده، بل إن السلامة في السكوت عن التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على الله تعالى وهم البشر والملائكة.

تفاضل البشر فيما بينهم :

يؤخذ مما تقدم من الأفضليات أن نبينا محمداً -ﷺ- أفضل البشر لأنه أفضل الخلق على الإطلاق، ويليه أولوا العزم من الرسل وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ونوح، ثم بقية الرسل، ثم الأنبياء غير الرسل، ثم الأولياء وعلى رأسهم أبوبكر وعمر، ثم عامة البشر، وهم متفاوتون في الأفضلية فيما بينهم عند الله تعالى بحسب أعمالهم. ويدخل في الأولياء العلماء ، بل إنهم في مقدمتهم لما روي عنه -ﷺ- من قوله: ((العُلَمَاءُ وَرَثَةُ

---

[1] رواه الشيخان.

الأَنبِيَاءِ»[1]، وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : «إِنْ لَمْ يَكُنِ الْعُلَمَاءُ أَوْلِيَاءَ فَلَيْسَ لِلَّهِ وَلِيٌّ».

معجزات الأنبياء وعصمتهم وكذا عصمة الملائكة :

المعجزة لغة : مأخوذة من العَجز ضد القدرة، لأنها تُعجز المنكرين عن الإتيان بمثلها. وعُرفاً : أمرٌ خارقٌ للعادة مقرون بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة. وقال بعضهم هي أمر يظهر بخلاف العادة على يد مُدَّعي النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله. وقد اعتبر المحققون فيها سبعة قيود: **(أولها)** أن تكون قولاً أو فعلاً أو تركاً. فالأول كالقرآن، والثاني كنبع الماء من بين أصابعه -ﷺ-، والثالث كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم. **(الثاني)** أن تكون خارقة للعادة، وهي ما اعتاده الناس واستمروا عليه مرة بعد أخرى. **(الثالث)** أن تكون على يد مُدَّعي النبوة أو الرسالة. **(الرابع)** أن تكون مقرونة بدعوى النبوة أو الرسالة حقيقة أو حكماً بأن تأخرت بزمن يسير. **(الخامس)** أن تكون موافقة للدعوى. **(السادس)** أن لا تكون مُكذِّبة لِمُدَّعي النبوة أو الرسالة. **(السابع)** أن تتعذر معارضة مُدَّعي النبوة أو الرسالة. وزاد بعضهم قيداً ثامناً وهو أن لا تكون في زمن نقض العادة. وإذا توفرت هذه القيود اعتبر الأمر الخارق للعادة معجزة. قال صاحب الجوهرة :

(بِالْمُعْجِزَاتِ أُيِّدُوا تَكَرُّمَا)

أي أن الأنبياء أيَّدهم الله تعالى بالمعجزات حيث أظهرها على أيديهم تصديقاً لهم في دعوى النبوة والرسالة وفيما بلغوه عن الله تعالى لأنها بمنزلة قوله عز وجل: (صدق عبدي في كل ما يبلغ عني)، وهذا التأييد كان تفضلاً منه وإحساناً من غير إيجاب ولا

---

(1) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي.

وجوب. وفي ذلك إشارة إلى الرد على من أوجب عليه تعالى المعجزة كما أوجب عليه الإرسال وإلا لبطلت فائدة الإرسال، وذلك مبني على قولهم بوجوب الصلاح والأصلح المبني على قاعدتهم الباطلة وهي قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، فالحق أنه لا يجب على الله شيء لأحد من خلقه، والمردود عليهم في هذه المسألة هم المعتزلة كما تقدم في فقرة (الصلاح والأصلح) من الباب الأول من هذا الكتاب.

فإن ظهر أحد الأمور الخارقة للعادة لمن ادعى النبوة أو الرسالة ولكن قبل أن يدعي ذلك بالفعل كما حصل لنبينا محمد -ﷺ- من إظلال الغمامة له قبل البعثة فهو إرهاص، وإن ظهر لمن ادعى الولاية فهي كرامة، وإن ظهر لأحد من العامة فهي إعانة، وإن ظهر لفاسق فإن كان وفق مراده فهو استدراج، وإن كان عكس مراده كما وقع لمسيلمة الكذاب -فإنه تَفَلَ في عين أعور لتبرأ فعميت عينه الصحيحة- فإهانة. وقد نظم بعضهم الأمور الخارقة للعادة حسب تقسيمها المتقدم فقال :

إذَا مَا رَأيْتَ الأمْرَ يَخْرِقُ عَادَةً	فَمُعْجِزَةٌ إنْ مِنْ نَبِيٍّ لَنَا صَدَرْ
وَإنْ بَانَ مِنْهُ قَبْلَ وَصْفِ نُبُوَّةٍ	فالارهاصَ سَمِّهْ تَتْبَعِ الْقَوْمَ في الأثَرْ
وَإنْ جَاءَيَوْماً مِنْ وَلِيٍّ فَإنَّهُ الْـ	كَرَامَةُفي التَّحْقِيقِ عِنْدَ ذَوِي النَّظَرْ
وَإنْ كَانَ مِنْ بَعْضِ الْعَوَامِ صُدُورُهُ	فَكَنُّوهُ حَقاً بِالْمَعُونَةِ وَاشْتَهَرْ
وَمِنْ فَاسِقٍ إنْ كَانَ وَفْقَ مُرَادِهِ	يُسَمَّى بِالاِسْتِدْرَاجِ فِيمَا قَدِ اسْتَقَرْ
وَإلاَّ فَيُدْعَى بِالإهَانَةِ عِنْدَهُمْ	وَقَدْ تَمَّتِ الأقْسَامُ عِنْدَالَّذِي اعْتَبَرْ

وزاد بعضهم السِّحر، والتحقيق أنه ليس من خوارق العادات لأنه معتاد عند تعاطي أسبابه.

وإذا خالف الأمر الخارق للعادة أحد القيود السبعة المتقدمة فلا يُطلَق عليه شيء من الأسماء المذكورة، كما لو ادعى شخص النبوة أو الرسالة أو الولاية أو نحو ذلك

وذكر علامة ليست قولاً ولا فعلاً ولا تركاً على صدقه، كأن قال آية صدقي أن الله متصف بصفة كذا من صفاته القديمة، أو كان الأمر غير خارق للعادة، كما لو قال علامة صدقي طلوع الشمس من حيث تطلع، وغروبها من حيث تغرب، أو كان خارقاً للعادة ولكنه مخالف لما قاله، كأن يقول آية صدقي انفلاق البحر فانفلق الجبل، أو كان خارقاً للعادة ولكنه مكذب لما قاله، كأن يقول آية صدقي هذا الجماد فنطق الجماد بأنه مفتر كذاب، بخلاف ما لو قال آية صدقي نطق هذا الإنسان الميت وإحياؤه فأُحْيِيَ ونطق بأنه مفتر كذاب، فيعتبر ذلك الأمر الخارق للعادة وهو إحياء الميت ونطقه دليلاً على صدقه ولو كذّبه. والفرق بين الجماد والإنسان في هذه المسألة أن الجماد لا اختيار له فاعتبر تكذيبه لأنه أمر إلهي، أما الإنسان فهو مختار فلا يعتبر تكذيبه لأنه ربما اختار الكفر على الإيمان، وكذلك لو كان الأمر في زمن نقض العادة كزمن الدجال وطلوع الشمس من مغربها.

وخرج بذلك السحر لأنه ليس من خوارق العادات كما تقدم، ومنه خفة اليد كما يقع من الحُوَاة، حيث يُرَى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها وتسمى الشعوذة.

ويجب على المؤمن أن يعتقد عصمة الباري عز وجل لكل من الأنبياء والملائكة. قال صاحب الجوهرة :

(وَعِصْمَةُ البَارِي لِكُلٍّ حُتِّمَا)

والعصمة لغة : مطلق الحفظ. واصطلاحاً : حفظ الله للمكلفين من الذنب مع استحالة وقوعه. ولا يجوز سؤال العصمة بهذا المعنى من الله عزوجل كأن يقال اللهم إنا نسألك العصمة، إلا أن يراد المعنى اللغوي وهو مطلق الحفظ كما تقدم فيجوز سؤالها. ومعنى (لِكُلٍّ حُتِّمَا) أن عصمة الباري لكل واحد من الأنبياء والملائكة متحتمة وواجبة بحيث لا تنفك عنهم ولا تقبل الانتفاء.

فإن قيل إن الكلام على عصمة الأنبياء قد تقدم عند الكلام على الصفة الثانية من الصفات الواجبة في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام وهي الأمانة، إذ أن الأمانة هي العصمة كما تقدم، فالجواب: إن المراد من ذلك هو الجمع بين الملائكة والرسل في حكمها والاتصاف بها.

والمشهور عصمة جميع الملائكة. ولا يرد على ذلك قولهم للباري عز وجل عندما أخبرهم بخلق آدم عليه السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1] لأن هذا القول ليس غيبة في بني آدم ولا اعتراضاً على الله سبحانه وتعالى وإنما هو مجرد استفهام. وما نُقل في قصة هاروت وماروت من المؤرخين لم يصح فيه شيء من الأخبار، وإنما هو من افتراء اليهود وكذبهم وتَبِعَهُم المؤرخون في ذلك.

والصحيح من قصتهما هو ما ذكره القرآن الكريم في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾[2]، قال صاحب تفسير الجلالين: أي ما أُلهِمَاه من السِّحر، وبابل بلد بالعراق. قال ابن عباس: هما ساحران كانا يعلمان السحر. وقيل مَلَكان من الملائكة أُنزِلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾[3] أي فلا تتعلمه فتكفر. وقال الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين: والمعنى أن الشياطين يُعَلِّمُونَ الناس السحر، ويُعلِّمون ما أُنزل على الملكين هاروت وماروت، فهو وإن كان سحراً إلا أنه من نوع آخر غير متعارف عليه بين الناس. وقُرِئَ المَلِكين (بكسر اللام) قراءة شاذة، وفيها دليل لمن يقول إنهما ليسا ملكين حقيقيين من الملائكة وإنما هما رجلان صالحان، وسُمِّيا بالملَكين (بفتح اللام) لحُسنهما وصلاحهما على حد ما قيل في يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[4].

---

(1) البقرة : 29 .
(2) البقرة : 101 .
(3) البقرة : 101 .
(4) يوسف : 31 .

وخلاصة هذه القصة أن الواقعة صحيحة ولكن الخلاف في الملَكين المذكورين فيها فقيل إنهما ملكان حقيقيان من الملائكة أُنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس و لم يخرجا عن مهمتهما وهي تعليم السحر مع إبداء نصحهما لكل من يريد أن يتعلمه منهما بأنهما فتنة وأن تعلم السحر كفر وعليه أن لا يتعلمه فيكفر، كما أنهما لم يعصيا الله تعالى، وقيل إنهما رجلان صالحان من بني آدم، وسُمِّيا بالملَكين لصلاحهما وحسنهما، وقد قاما بتعليم السحر طبقاً لما تقدم. قال الشيخ الصاوي: اختار الحافظ ابن حجر كونهما رجلين، واختار البيضاوي ومن تبعه كونهما ملَكين، وعلى كلا القولين فعصمة الملائكة محفوظة لم تتأثر.

أما ما قيل من أن الملَكين ارتكبا معاصي مختلفة من زنا وشرب خمر وقتل وغير ذلك من المحرمات فلا يلتفت إليه، لأنه من افتراء اليهود وكذبهم كما نص عليه بعض المحققين.



السِّحر

السِّحْرُ كلام مؤلف يُعَظِّمُ به غير الله وتُنسَب له المقادير. وعلى هذا التعريف فتعلُّمه كُفر في شرعنا، كما هو كُفر في شرع من قبلنا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾[1]. وقيل في شرعنا فيه تفصيل، فتعلُّمه مع اعتقاد صحته وتأثيره بنفسه كُفر والعياذ بالله، وتعلُّمه لسِحْرِ الناس دون اعتقاد ما ذكر حرام، وتعلُّمه لمجرد المعرفة مكروه، وتعلمه لإبطال السِّحر جائز.

ووجود السِّحر ثابت بنص القرآن، والآيات الواردة فيه أكثر من أن تُحصَى. وقد سُحِرَ نبيُّنا محمد -ﷺ- من قِبَل اليهود، وكان سحره سبباً لنزول سورتي (الفلق والناس). قال صاحب تفسير الجلالين في تفسير سورة الفلق: نزلت هذه السورة والتي بعدها لمَّا سَحَرَ لَبِيدُ بن الأعْصَم اليهودي النبيَّ -ﷺ- في وَتَر أي وتر قوس به إحدى عشر عقدة، وكانت بنات لبيد يَعقِدنَ الخيط ويَنفُثْنَ في كل عُقدة أي ينفخن فيها بشيء يَقُلْنَه من غير ريق حتى عقدن إحدى عشرة عُقدة كما قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[2]، وقد أثَّر السحر في جسده-ﷺ-ولم يؤثر في عقله. وأما ما ورد في قصة السحر من أنه كان يخيل إليه أنه كان يأتي أهله وهو لم يأتهم، فمعناه أنه كان يظهر له من نشاطه وسابق عادته القدرة على الوطء فإذا دنا من زوجته فتر عن ذلك مما هو شأن المعقود، وتُسَمِّيه العامة المربوط، لما ورد أنه-ﷺ-حُبِسَ عن الوطء سنة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مَرِضَ وحُبِس عن النساء والطعام والشراب، وفي

---

(1) البقرة : 101 .

(2) الفلق : 4 .

ذلك دليل على أن السحر إنما تسلط على ظاهر جسده لا على عقله، ثم أعلمه الله بذلك وبمحله فأُحضر بين يديه وأُمِرَ بالتعوذ بالسورتين الفلق والناس، فكان كلما قرأ آية منهما انحلّت عُقدةٌ ووجد خفة حتى انحلت العقد كلها، وقام وكأنما نَشِط من عقال.

وكانت هذه الحادثة كما نقلها الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين بعد رجوعه -ﷺ- من الحديبية وفراغه من وقعة خيبر في شهر المحرم سنة سبع من الهجرة، حيث طلب رؤساء اليهود من الساحر اليهودي لَبِيدَ بْنِ الأعصم أن يسحره عليه الصلاة والسلام مقابل مبلغ من المال فاحتال الساحر على أن يحصل على مُشَاطة رأسه عليه الصلاة والسلام وعلى عدة أسنان من مشطه وأضاف إليها وَتَرَ قَوْس عقد فيه إحدى عشرة عُقدة فسحره في ذلك، وكانت مدة سحره عاماً كاملاً على المعتمد كما قاله ابن حجر، وقيل ستة أشهر، وقيل أربعين يوماً.

فإن قيل كيف يؤثر السحر فيه-ﷺ- مع أنه معصوم بنص الآية: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[1]، فالجواب: إن المعصوم منه ما أدّى لخَبَل في عقله أو لضياع شرعه أو لموته، وأما ما عدا ذلك فهو من الأعراض البشرية الجائزة في حقه، كما أن جرْحه وكسْر رُباعيته أي سِنّه في غزوة أحد لا تقدح في عصمته.

وهذا ما يعتقده أهل السنة خلافاً للمعتزلة الذين أنكروا حديث السحر زاعمين أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها وما أدى لذلك فهو باطل، بالإضافة إلى زعمهم بأن تجويز السحر على الأنبياء يؤدي لعدم الثقة بما أتوا به من الشرائع، إذ يحتمل أن يخيل إليه أن جبريل يكلمه وهو ليس كذلك، وهذا كله مردود لقيام الدليل على ثبوت السحر بإجماع الصحابة، وعلى ثبوت عصمته -ﷺ- وجميع الأنبياء وصدقهم جميعاً فيما يبلغونه عن الله تعالى، وأما ما كان متعلقاً بأمور الدنيا فهو كسائر البشر تعتريه الأعراض كالصحة والسَّقم والنوم واليقظة والتألُّم والسِّحر ونحو ذلك.

---

(1) المائدة : 69 .

والحق أن السحر من الأسباب العادية التي توجد الأشياء عندهـا لا بهـا، فيؤثـر في القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم. ولا يُلتفَت إلى قول الفلاسفة والمنجمين والصابئة وهم فرقة من النصارى أو اليهود من أن المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم.

وأنواع السحر كما ذكرها ابن كثير في تفسيره نقلاً عن أبي عبد الله الرازي في معنى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَاتَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[1] ثمانية أنواع: (**النوع الأول**) سحر بابل، وكانوا يعبدون الكواكب السَّبع السَّيارة ويعتقدون أنها مدبرة العالَم وأنها تأتي بالخير والشر، وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام لإبطال مقالتهم ورد مذهبهم. (**النوع الثاني**) سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، والأوهام هي التخيلات، لأن لها تاثيراً بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجذع الموضوع على وجه الأرض ولا يمكنه أن يمشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه، ويدخل في ذلك الإصابة بالعين وهي أن ينظر الإنسان إلى شيء يعجبه فيقول ما أجمل هذا الشيء أو ما أحسنه أو نحو ذلك فيصاب هذا الشيء بمكروه كما حصل لأحد الرجلين صاحب كِلْتَي الجنتين المذكورة قصتهما في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً﴾[2] إلى آخر القصة، وفي أحد الأيام دخل الرجل إحدى الجنتين فأعجبته فقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾[3] فلامه صاحبه على ذلك وقال: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ﴾[4] فلم يكترث بقول صاحبه. وفي أحد

---

(1) البقرة : 101 .

(2) الكهف : 32 .

(3) الكهف : 34 .

(4) الكهف : 38 .

الأيام دخل جنته فوجدها خاوية على عروشها، فندم حيث لا ينفعه الندم. وهذا جزاء من لم يَرُدَّ الفضل إلى الله. وفي الحديث الشريف: « مَنْ أُعْطِيَ خَيْراً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ (مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ) لَمْ يَرَ فيه مكروهاً »[1]. وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق، ودليل ذلك ما ثبت في الصحيح أن رسول -ﷺ- قال: «العَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»[2]. ولا فرق في الإصابة بالعين بين أن يكون المصاب هو صاحب العين نفسه كما في القصة السابقة أو غيره كما لو كانت الجنة لشخص آخر. (**النوع الثالث**) الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن وخاصة الكفار منهم كالشياطين. (**النوع الرابع**) التخيلات والأخذ بالعيون والشعوذة ومنه عمل سحرة فرعون، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾[3]، وقال: ﴿**فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ**﴾[4]، والضمير في (إليه) يعود إلى موسى عليه السلام، أي يخيل إلى موسى أنها تمشي مع أنها ليست كذلك. (**النوع الخامس**) الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة على النِّسَب الهندسية كفارس على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد. (**النوع السادس**) الاستعانة بخواص الأدوية في الأطعمة والدهانات، ويدخل في هذا القبيل من يُتَخَيَّلُ على جهلة الناس بهذه الخواص مدعياً أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسْك الحيَّات إلى غير ذلك من المحالات. (**النوع السابع**) التعليق للقلب وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون إليه في أكثر الأمور مما يجعل السامع إن كان ضعيف العقل قليل التمييز أن معتقداته حق وتعلق قلبه بذلك

---

(1) أخرجه الحافظ أبويعلى الموصلي في مسنده عن أنس.

(2) رواه مسلم.

(3) الأعراف : 115 .

(4) طه : 65 .

وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة وحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء.

(النوع الثامن) السَّعي بالنميمة وهي نقل الكلام بين الناس على وجه التحريش بينهم وتفريق قلوبهم.

وخلاصة القول في السحر أنه حق وواقع ولكنه لا يضر أحداً إلا بإذن الله كما قال تعالى في حق السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] وإن كانوا قد تعلموا منه: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾[2].

ويجوز لمن وقع عليه السحر أن يسعى في التخلص منه. قال ابن كثير : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفي الحديث: ((لم يتعوَّذ المتعوِّذ بمثلهما))[3] ، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مُطرِدة للشيطان – نعوذ بالله منه ومن أتباعه.



(1) البقرة : 101 .

(2) البقرة : 101 .

(3) رواه أبو داود.

خصائص نبينا محمد (ﷺ)

خصائص نبينا محمد -ﷺ- أربعة أنواع: النوع الأول الفضائل. النوع الثاني الواجبات، وهي قسمان: القسم الأول واجب عليه، والقسم الثاني واجب له علينا. النوع الثالث المحرمات، وهي قسمان أيضاً: القسم الأول محرم عليه، والقسم الثاني محرم علينا في حقه. النوع الرابع المباحات. وفيما يلي تفصيل كل نوع منها على الترتيب :

(النوع الأول) الفضائل، من الفضائل التي اختص بها نبينا محمد -ﷺ- أنه هو العاقبَ لجميع الرسل. والعاقب هو الذي يأتي في الأخير، وفسَّره العلماء بأنه الذي يُحْشر الناسُ على قدمه أي طريقه وشرعه، فقد روي عنه -ﷺ- أنه قال : ((أنا العاقب فلا نبيَّ بعدي))[1] ، وهذا لا ينافي نزول سيدنا عيسى عليه السلام في آخر الزمان لأنه سيحكم بشريعة محمد -ﷺ-، كما لا ينافي وجود إلياس الآن لأن رسالته منتهية، ولا وجود الخِضْرِ للخلاف في نبوته، وإنما كان النبي -ﷺ- هو العاقب لأن شرعه جاء ناسِخاً لشرائع غيره من المرسلين لا العكس، ولأنه الثمرة العظمى إذ أنه هو المقصود من هذا العالم، والثمرة في الأشياء تأتي في آخرها.

ومنها أن أسماءه عليه الصلاة والسلام توقيفية، أي أنه لا يثبت له اسم إلا إذا ورد بذلك توقيف من الشارع وهذا باتفاق العلماء. وأشرف أسمائه -ﷺ- **(مُحَمَّدٌ)** وهو عَلَم منقول من اسم مفعول الفعل المضعَّف أي المكرَّر العين، والمسمِّي له بهذا الاسم جده عبد المطلب على الصحيح وقيل أمه، وجمع بعضهم بين القولين بأن أمه أشارت

---

(1) رواه الشيخان.

على جده بتسميته محمداً بسبب ما رأته من أن شخصاً يقول لها إذا ولدته فسَمِّهِ محمداً، فلما أخبرت جده بذلك سمّاه محمداً. روي أنه قيل لعبد المطلب لِمَ سمّيته محمداً وهو ليس من أسماء قومك؟ فقال لأني أرجو أن يُحْمَد في السماء والأرض. وقد حقق الله رجاءه كما سبق في علمه عز وجل. والمسمِّي له بهذا الاسم في الحقيقة هو الله لأنه أظهر اسمه قبل ولادته في الكتب السماوية وأُلْهِمَ جده بذلك فهو بتوقيف شرعي. ومن أسمائه -ﷺ- التي أظهرها الله في الكتب السماوية (**أَحْمَدُ**) قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾[1] وهو اسم يفيد المبالغة في الحمد بحسب أصله لأنه كان أفعلَ تفضيل، فهو -ﷺ- أجَلُّ مَنْ حُمِدَ (بالبناء للمفعول) وأعظم من حَمِدَ (بالبناء للفاعل). ومن أسمائه التوقيفية (**مَحْمُود**) وهو يفيد المبالغة في المحمودية. وقيل إن له -ﷺ- أسماءً كثيرة تصل إلى ألف اسم كما نقله الشيخ البيجوري في حاشيته على الجوهرة، وقد ذُكِر منها في دلائل الخيرات نحو (مائتي اسم) ويكفي منها معرفة (محمد وأحمد).

ومن الفضائل التي اختص بها نبينا محمد-ﷺ- أن النكاح في حقه عبادة بخلافه في حقنا فإنه مباح، وأن نساءه أفضل النساء وثوابهن وعقابهن مضاعف، قال تعالى: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً**﴾[2]، وهن أمهات المؤمنين، قال تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾[3]، وتحريم سؤالهن إلاّ من وراء حجاب، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾[4].

---

(1) الصف : 6 .
(2) الأحزاب : 30-31 .
(3) الأحزاب : 6 .
(4) الأحزاب : 53 .

وهو سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ أجمعين، وأول من تنشقُّ الأرض عنه يوم البعث، وأول من يَقْرَعُ باب الجنة، وأول شافع وأول مُشَفَّعٍ أي مقبول الشفاعة، وأمته خير الأمم كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، وشريعته مؤبَّدة ناسخة لغيرها من الشرائع، ومعجزته باقية وهي القرآن، وجعلت له الأرض مسجداً وتربتها طهوراً فتصح الصلاة في بقاع الأرض كافةً ويجوز التيمم بترابها في شريعته خاصة، وقد أُرسِل إلى الإنس والجن إرسال تكليف، وإلى الملائكة إرسال تشريف، وهو أكثر الأنبياء أتْبَاعاً، وإذا نام فقلبه لا ينام، ويرى من خلفه كما يرى من أمامه، ويرى في الليل والظلمة كما يرى بالنهار والضوء، وكان إذا مشى مع الطويل طاله، وإذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين، ولا تبطل صلاة من خاطبه بالسلام، ويجب على المسلمين إجابته في الصلاة ولا تبطل بهذه الإجابة ولو فعلاً كثيراً، ومن رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بصورته، وإذا مشى في الشمس أو القمر لا يظهر له ظل لأن نور جسمه أقوى من ضوء الشمس والقمر، وعرقه أطيب من المسك، ولا يقع عليه الذباب، ولا يمتص دمه البعوض، وتُسَنُّ الصلاة عليه في التشهد الأخير من الصلاة، ولا يتثاءب، وتبتلع الأرض ما يخرج منه، وغيرها كثير.

(النوع الثاني) الواجبات: (القسم الأول) الواجب عليه دون أُمته سبعة أمور: **(أولها)** الأُضحية، فهي واجبة عليه، ومحل وجوبها عليه إذا كان غير حَاجٍّ وإلاَّ كان مساوياً لغيره من أمته في وجوب الهدي وعدم وجوبه. **(الثاني)** صلاة الضحى، فهي واجبة عليه، وأقل الواجب عليه منها ركعتان وهو قول ضعيف، والصحيح عند الجمهور أنها مستحبة فقط. **(الثالث)** صلاة التهجد وهي صلاة الليل، فتجب عليه لقوله تعالى مخاطباً له عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾[2] أي زيادة لك في الافتراض على الفرائض الخمس وهو أحد قولين. والقول الثاني لا يجب عليه التهجُّد

---

(1) آل عمران : 110 .

(2) الإسراء : 79 .

وإنما يندب، وعلى هذا القول تكون النافلة على بابها، ويكون معنى نافلة لك فضيلة أي زيادة لك في الفضائل. ويَرِدُ على هذا القول أنه لا خصوصية للنبي -ﷺ- بذلك لأنه مندوب لأمته كذلك، ويجاب عن هذا الإيراد بأن التهجُّد له علوُّ درجات وشكرٌ لله على نعمائه لما في الحديث : أنه-ﷺ- «كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟»[1]، ولغيره من الأمة تكفيرٌ لذنوبه. واختُلِف هل المراد من التهجُّد هو ما بعد النوم، أو أن صلاة الليل تسمى تهجُّداً سواء كانت بعد نوم أو قبله قولان. **(الرابع)** صلاة الوتر، فهي واجبة عليه، ومحل وجوب الأمور الثلاثة الضحى والتهجُّد والوتر إذا كان حاضراً، فإن كان مسافراً فلا يجب عليه شيءٌ منها. **(الخامس)** السِّواك، فيجب عليه السِّواك لكل صلاة حضرية أو سفرية، ويندب على أمته، وقد روي عنه -ﷺ- أنه قال : «لولا أن أشُقَّ على أمتي لأمرتهم بالسِّواك عند كل صلاة»[2]، واختلف هل المراد بها صلاة الفريضة خاصة أو الفريضة والنافلة قولان. **(السادس)** تخيير نسائه فيه، فقد أوجب عليه أن يُخيِّرَهُنَّ في البقاء على عصمته طلباً للآخرة أو مفارقته طلباً للدنيا كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ قُل لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾**[3]، فمن اختارت الدنيا بانت منه بمجرد الاختيار، والحق أنه لم يثبت أن واحدة من نساء الرسول -ﷺ- اختارت الدنيا بل كلهن اخترن اللَّهَ ورسولَه والدارَ الآخرة. وآية التخيير هذه نزلت وفي عصمته النساء التسع اللاتي تُوُفِّيَ عنهن. **(السابع)** المشاورة، فقد أوجب عليه أن يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بالحروب تطييباً لخواطرهم وتأليفاً

---

(1) متفق عليه.

(2) متفق عليه.

(3) الأحزاب : 28-29 .

لهم، لا ليستفيد منهم علماً أو حكماً، لأنه سيد العالمين وقدوة العارفين، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[1] .

(القسم الثاني) الواجب له على أمته ثلاثة أمور: (أولها) طلاق مرغوبته من النساء، أي يجب له عليهم إذا رَغِبَ في زوجة أحدهم أن يطلقها ليتزوج بها -ﷺ- لو وقع، ولكن ذلك لم يقع منه أبداً، أي أنه لم يقع منه أنه رَغِبَ في امرأة رجل من أمته، وأما تَزَوُّجُهُ -ﷺ- من مطلقة غيره فقد حصل منه وهو أمر عادي جائز لجميع الأمة فلا يختص به -ﷺ-، باستثناء تزوجه من زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة وكان بأمر الله تعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾[2] ، والحكمة من ذلك إبطال حكم التبنّي كما تقدم في شرح الصفة الثالثة من الصفات الواجبة للرسل وهي التبليغ. (الثاني) إِجَابَةُ المصلّي له عليه الصلاة والسلام إذا دعاه حال الصلاة ولو كانت فرضاً، فيجب عليه ذلك سواء يجيبه بنعم يارسول الله، أو بنحو ما فعلتُ الشيءَ الفلاني يا رسول الله جواباً لقوله هل فعلته. واختلف هل تبطل صلاته بذلك أم لا (قولان)، الأظهر منهما عدم البطلان لأن إجابته عليه الصلاة والسلام إجابة لله، وإجابة الله لا تبطل بها الصلاة. (الثالث) مصابرة العدو معه في الحرب وعدم توليهم الأدبار إذا لم يزد العدو على الضِّعف كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3] .

أما الواجب عليه لأمته فهو أربعة أمور: (أولها) قضاء دين الميت منهم أو الحي المُعْسِر، فيجب عليه قضاء دينهما من ماله الخاص، وقد روي عنه -ﷺ- أنه قال: «مَنْ تَرَكَ دَيْناً أَوْ ضِيَاعاً فَعَلَيَّ أَوْ إِلَيَّ»[4] أي فعليَّ قضاء الدين وإليَّ كفالة عياله. وهذا

---

(1) آل عمران : 159 .

(2) الأحزاب : 37 .

(3) الأنفال : 67 .

(4) رواه الشيخان.

الحكم كان في صدر الإسلام قبل الفتوحات ثم نُسِخ ذلك بوجوب قضائه من بيت المال. **(الثاني)** الثبات على عمله، فيجب عليه أن يثبت أي يداوم على العمل الذي يبدؤه ولا يجوز له أن يقطعه رأساً، وهذا لا ينافي أنه قد يترك بعض العمل في بعض الأحيان لأنه ليس بواجب أو لغرض من الأغراض الشرعية. **(الثالث)** تغيير المنكر بيده أو بلسانه لا بقلبه فقط، فيجب عليه تغيير المنكر بيده إن أمكن وإلا فبلسانه، ولا يجوز له التغيير بالقلب فقط لأنه سكوت، وسكوته -ﷺ- عن أي فعل يعتبر إقراراً له وهو يدل على جوازه فيلزم انقلابُ المحرم جائزاً، بخلاف أمته فإنه يجوز لهم تغيير المنكر بالقلب عند عدم استطاعتهم التغيير باللسان لقوله -ﷺ- : ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[1]. **(الرابع)** مصابرة العدو الكثير في الحرب، فيجب عليه أن يصبر على مقاتلة العدو الكثير ولو اجتمع عليه أهل الأرض كلهم فلا ينهزم أمامهم، إذ أن منصبه الشريف يَجِلُّ عن أن ينهزم، ولأن الله تعالى وعده بالعصمة من الناس، قال عز وجل: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[2] أي يحفظك من أن يقتلوك، وهذا لا ينافي ما حصل له عليه الصلاة والسلام في غزوة أحد من شج وجهه وكسر رَبَاعِيَته. ولم يحدث أن انهزم -ﷺ- أمام عدوه مهما كثر العدو، ودليلُ ذلك ثباتُه-ﷺ-مع قلة من أصحابه في غزوة أحد، أما أمته فلا يجب عليهم المصابرة على الحرب إلا إذا لم يزد العدو على الضعف كما تقدم تقريباً.

(النوع الثالث) المُحرَّمات : **(القسم الأول)** المحرم عليه دون أمته عشرة أمور: **(أولها)** تحريم الصدقتين، فيحرم عليه قبول الصدقة الواجبة كالزكاة والكفارات والمندوبة وكذلك على آله وهم بنو هاشم فقط ولو من بعضهم بعضاً، وذلك صوناً لمنصبه الشريف من الإذلال، والمعتمد عدم حرمة الصدقة المندوبة على آله. ومحل تحريم

---

(1) رواه مسلم.

(2) المائدة : 69 .

الصدقة الواجبة على آله إن أُعْطُوا من الفيء ما يستحقونه وإلا جاز لهم أخذها إن أضر الفقر بهم. **(الثاني)** أكل ما فيه رائحة كريهة، فيحرم عليه أكل الثوم والبصل والكُراث والفجل ونحوها. **(الثالث)** أكله متكئاً، فيحرم عليه أن يأكل مائلاً على شِقٍّ لما فيه من الإخلال بالشكر. **(الرابع)** إمساك كارهته، فيحرم عليه أن يمسك في عصمته الزوجة الكارهه له كالعائذة منه أي القائلة له أعوذ با لله منك بل يجب عليه طلاقها، فقد روي أن أميمة بنت النعمان قالت له -ﷺ- لما دخل عليها حجرتها لأول مرة أعوذ با لله منك. فقال لها : «لقد عُذْتِ بعظيم، الحقي بأهلِكِ»[1]. وقيل إنها لم تكن كارهة له -ﷺ- وإنما خُدِعَت لغفلتها وغِيرَةِ أمهاتِ المؤمنين منها اللاَّتي سألتهن قبل أن يدخل عليها ماذا يعجبه؟ فقلن أن يقال له أعوذ با لله منك. فلما دخل حجرتها قالت له ذلك فطلقها. **(الخامس)** نكاح الكتابية الحرة، فيحرم عليه ذلك، ومن باب أولى نكاح الكتابية الأمَة، إلا أن هذا ليس من خصوصياته بل هو عام لجميع الأمة. **(السادس)** نكاح الأمَة المسلمة، فيحرم عليه ذلك لانتفاء شرطي جواز نكاحها بالنسبة له -ﷺ- وهما خشية العَنَت (الزنا)، وعدم وجود الطَّوْل المهر للحرة لأنه معصوم وله أن يتزوج بغير مَهر. ومنع نكاحها في حق أمته ليس أبدياً وإنما عند فقد الشرطين، بمعنى أنه لا يجوز للمسلم أن يتزوج من الأمَة المسلمة إلا إذا فقد الشرطين معاً وهما الصبر والمهر، فإذا فقد الصبر عن الزواج بأن خشي العَنَت أي الزنا و لم يجد المهر للحرة جاز له أن يتزوج من الأمَة المسلمة، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَنْ يَّنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾[2]، وقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾[3]. أما من فقد شرطاً واحداً منهما كمن لم يجد

---

(1) رواه البخاري.

(2) النساء : 25 .

(3) النساء : 25 .

المهر ولكنه يستطيع الصبر أي لم يخش العنت، أو العكس كمن لا يستطيع الصبر ولكنه وجد المهر فلا يجوز له نكاح الأمَة المسلمة.

أما وَطؤه -ﷺ- الأمَة المسلمة بالمِلك فجائز كما هو جائز في حق أمته. واختلف في وَطء الأمة الكتابية بالمِلك بالنسبة له عليه الصلاة والسلام فقيل جائز وقيل حرام، أما في حق أمته فجائز. **(السابع)** تحريم زوجته -ﷺ- التي طلّقها بعد الدخول بها على غيره، وكذلك التي توفي عنها ولو لم يدخل بها، فلا يجوز لغيره أن يتزوج بها لأن كل من مات عنها تحرم على غيره بنى بها أم لا. وأما التي طلقها فإن كان قد وطئها حرمت على غيره، وإن لم يكن وطئها لا تحرم على غيره لا في حال حياته ولا بعد وفاته كالعائذة المتقدمة، فإنه طلقها عليه الصلاة والسلام قبل البناء كما تقدم وتزوجت بعد وفاته بالأشعث بن قيس. وقيل إن مدخولته التي طلقها لا تحرم على غيره. وقال بعضهم إن هذا محمول على التي اختلى بها و لم يمسها كالعائذة، وأما من مسَّها فلا خلاف في حرمتها على غيره. **(الثامن)** حرمة نزع لأْمتهِ (بالهمزة الساكنة) وهي آلة الحرب من سيف أو غيره، فيحرم عليه نزعها إذا لبسها حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين عدوه بأن يصالحه على شيء يؤخذ من العدو كل سنة كالجزية أو يحكم الله بهزم العدو. **(التاسع)** حرمة المَنِّ وهو العطاء ليستكثر، فيحرم عليه إعطاء شيء ليطلب أكثر مما أعطي لإخلال ذلك بمنصبه الشريف المقتضي للزهد والإعراض عن عرض الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[1]، وقيل معناه لا تستكثر ما تعطيه، أي ولو كان كثيراً. **(العاشر)** حرمة خائنة الأعْيُن وهي إظهار خلاف ما يُضمِر، فيحرم عليه ذلك ولكن في غير الحرب، أما فيها فيباحِ له أن يُوَرِّي كما لو أراد السفر لغزو في جهة معينة فيَسأل عن الطريق التي تؤدي إلى غير الجهة التي يريدها.

---

(1) المدثر : 6.

(**القسم الثاني**) المحرم علينا في حقه أربعة أمور: (**أولها**) الحكم بينه وبين محاربه، فيحرم علينا أن نحكم بينه وبين عدوه لأنه من التقدم بين يديه المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[1] ، وحاصله أنه إذا كان -ﷺ- بينه وبين غيره خصومة فلا يجوز لأحد من الأمة أن يدخل بينهما ولو بالصلح، بحيث يحكم على أحدهما بشيء أو يصلح بينهما من غير حكم بشيء على أحد منهما، لأن الشأن في الذي يسعى في الصلح بين اثنين يكون له شأن عليهما. (**الثاني**) حرمة رفع الصوت عليه، فيحرم علينا أن نرفع أصواتنا على صوته عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَتَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾[2] . كما يحرم رفع الصوت عند قراءة حديثه، وكذلك عند قبره بعد وفاته تأدباً معه عليه الصلاة والسلام. (**الثالث**) حرمة ندائه من وراء حجراته، فيحرم علينا أن ننادي رسول الله-ﷺ- من المحل الذي يحتجب عن الناس فيه بحائط ونحوه لما فيه من سوء الأدب. (**الرابع**) حرمة ندائه باسمه، فيحرم علينا أن نناديه باسمه كأن نقول (يا محمد) في حياته وكذلك بعد وفاته، إلا إذا اقترن بما يفيد التعظيم من صلاة عليه أو سلام.

(**النوع الرابع**) **المباحات**، يباح لنبينا محمد -ﷺ- دون أمته خمسة عشر مباحاً: (**أولها**) الوصال وهو متابعة الصيام ليلاً ونهاراً من غير إفطار بأكل أو شرب يباح له ذلك دون أمته. وقد روي أنه -ﷺ- سئل عن ذلك فقال: «لست كأحدكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[3]، وقوله (عند ربي) يقصد بها عندية المكانة لا المكان، والفرق بينهما أن عندية المكان تدل على مكان معين ومحدد وهو مستحيل على الله تعالى، أما عندية المكانة فهي كناية عن رفعة الشأن وعظمة القدر. واختلف هل قوله -ﷺ- (ربي يطعمني ويسقيني) معناه أنه يأكل ويشرب حقيقة أو أن ذلك كناية عن إعطاء القوة،

---

[1] الحجرات : 1 .
[2] الحجرات : 2 .
[3] رواه أحمد والشيخان.

وعلى القول الأول أنه يُطعَم من طعام الجنة ويُسقَى من مائها. (**الثاني**) دخول مكة بلا إحرام ومن غير عذر، فيباح له ذلك بخلاف أمته فلا يجوز لهم دخولها بلا إحرام إلا لعذر. (**الثالث**) دخول مكة مقاتلاً، فيباح له ذلك، سواء فَجَأَهُ العدو فيها أم لا، أما غيره من أمته فلا يجوز له دخولها مقاتلاً إلا إذا فَجَأَهُ العدو فيها ولو كان ملكاً أو حاكماً. (**الرابع**) الاختيار من المغنم، فيباح له أن يختار من المغنم ما يريده قبل القَسْم. وقد روي أنه -ﷺ- اختار لنفسه من سَبْي خيبر صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النظير فأعتقها وتزوجها وجعل صداقها عتقها، وهي إحدى زوجاته التسع اللاتي توفي عنهن. (**الخامس**) اختصاصه بِخُمس الخُمس من المغنم، فيباح له ذلك دون أمته. (**السادس**) التزوج ممن يريد من النساء، فيباح له ذلك ولو لم تَرضَ الزوجة أو لم يرض وليها، وفي هذه الحال يتولى -ﷺ- الطرفين في العقد، أي يقوم مقا م الولي أيضاً، بحيث يقول (تزوجت فلانة) فهذه العبارة تقوم مقام الإيجاب من ولي الزوجة والقبول من ولي الزوج. (**السابع**) تزويج من يشاء، فيباح له أن يزوج من شاء ممن يشاء ، أي من شاء من الرجال ممن يشاء من النساء بغير إذن من أحدهما أو كليهما، وله أن يتولى الطرفين في العقد كما تقدم بحيث يقول (زوجت فلانة لفلان) فتقوم هذه العبارة مقام الإيجاب والقبول بين الطرفين. (**الثامن**) التزوج بلفظ الهبة، فيباح له أن يزوج نفسه أو غيره بلفظ الهبة من غير ذكر مهر، بأن يقول -ﷺ-: «يا فلانة وهبتك لنفسي أولفلان» قاصداً بذلك إنكاحه إياها من غير صداق ابتداءً ولا انتهاءً ، قال تعالى: ﴿**وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَّهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيءِ إِنْ أَرَادَ النَّبِيءُ أَنْ يَّسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]. وقد روي أن النساء اللاتي وهبن أنفسهن للنبي -ﷺ- أربع وهن: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم. (**التاسع**) نكاح الزائد على الأربع، فيباح له أن يتزوج

---

(1) الأحزاب : 50 .

بأكثر من أربع زوجات لنفسه فقط دون غيره من أمته، فلا يجوز لهم أكثر من أربع، قال تعالى: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾[1] . وقد روي أنه -ﷺ- اجتمع في عصمته إحدى عشرة زوجة، طلّق منهن اثنتين قبل وفاته وتوفي عن تسع. (العاشر) النكاح بلا مهر ولا ولي ولا شهود، فيباح له أن يتزوج بلا هذه الثلاثة دون أمته، فلا يجوز لهم ذلك. (الحادي عشر) النكاح حالة إحرامه أو إحرام من أراد نكاحها بحج أو عمرة، فيباح له أن يتزوج وهو محرم بحج أو بعمرة، وكذلك المرأة التي يعقد عليها فيباح الزواج بينهما في حال إحرامه أو إحرامها أو إحرامهما معاً. (الثاني عشر) عدم القَسْم بين زوجاته، فيباح له أن يُفضّل من شاء منهن على غيرها في المبيت والنفقة والكسوة. (الثالث عشر) الحكم لنفسه وولده بحق على الغير، فيباح له أن يحكم لنفسه أو لولده بحق على غيره ولو كان ذلك الغير عدواً، لأنه -ﷺ- معصوم من الجور فلا يخشى وقوع الجور منه على المحكوم عليه ولو كان عدواً له، بخلاف غيره من قضاة أمته فإنه إذا كان له أو لولده حق عند إنسان فإنه لا يحكم به لنفسه ولا لولده وحكمه باطل ولابد من رفع الدعوى عند قاضٍ آخر. (الرابع عشر) حِمَى الأرض الموات لنفسه، فيباح له ذلك بخلاف غيره من الأئمة، فلا يجوز له أن يحمي لنفسه وإنما يحمي القليل المحتاج إليه لدواب الجهاد. وقد ثبت أنه -ﷺ- حَمَى البقيع وحَمَى ثلاثة أميال من الرَّبَذَة للقاحه وهما مكانان معروفان بالمدينة. (الخامس عشر) عدم إرثه، فلا يورث، وكذلك غيره من الأنبياء لقوله-ﷺ-: ((نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة))[2] لأن نسبة المؤمنين له واحدة، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[3] ، ويكون ما تركه صدقة لعموم فقرائهم، وقيل لئلا يتمنى وارثه موته فيهلك. وقيل لأن الأنبياء لا مِلك

---

(1) النساء : 3 .

(2) رواه الشيخان والترمذي.

(3) الأحزاب : 6 .

لهم مع الله، إلا أنه يجوز لهم الوصية بجميع مالهم. ومفهوم القول بأن النبي لا يورث أنه يرث وهو الراجح، وقد ثبت أنه -ﷺ- ورث من أبيه أم أيمن بركة الحبشية وبعضاً من الغنم. وقيل إن الأنبياء كما أنهم لا يورَثون لا يَرِثون، لئلا يستشعر مُوَرِّثهم أنهم يحبون موته فيكرههم فيهلك.

رسالة خاتمة وبعثة عامة وشرع يَنْسَخُ ولا يُنْسَخُ :

هذه ثلاثة أمور متلازمة: **(أولها)** رسالة خاتمة، فرسالته -ﷺ- رسالة خاتمة أي ختم الله بها رسالات جميع الأنبياء، قال تعالى: ﴿**مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ**﴾[1]. ويلزم من ختم النبيئين ختم المرسلين، لأنه يلزم من ختم الأعم ختم الأخص، والأعم هي النبوة، والأخص هي الرسالة. ولا يَرِدُ على هذا نزول سيدنا عيسى عليه السلام في آخر الزمان لأنه إنما ينزل حاكماً بشريعة نبينا عليه الصلاة والسلام، ولا ينافي ذلك حكمه برفع الجزية عن أهل الكتاب بحيث لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف كما نقل عن أهل العلم، لأن أخذ الجزية من أهل الكتاب كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام غايته نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وإذاً فحكمه بذلك إنما هو حكم بشريعة نبينا -ﷺ-.

(الثاني) بعثة عامة، فبعثته -ﷺ- بعثة عامة، فقد أرسله الله إلى جميع المكلفين ممن حضروا زمانه ومن بعدهم إلى قيام الساعة من الثقلين الإنس والجن إرسال تكليف باتفاق، وإلى الملائكة إرسال تشريف على الأصح، وقيل إرسال تكليف هم أيضاً. وأهل هذا القول وَجَّهُوه إلى ما يليق بالملائكة فإن منهم الراكع والساجد إلى يوم القيامة. وما يكلف به الإنس تفصيلاً وإجمالاً يكلف به الجن. ويدخل في الإنس يأجوج ومأجوج وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام. كما أنه -ﷺ- مرسل لجميع

---

[1] الأحزاب : 40 .

المرسلين والأمم السابقة على زمانه ولكن باعتبار عالم الأرواح، فإن روحه عليه الصلاة والسلام خلقت قبل جميع الأرواح وأرسلها الله لهم فبلغت الجميع. والأنبياء نُوَّابُه في عالم الأجسام كل في زمنه، فهو مرسل لجميع الناس من لدن آدم إلى يوم القيامة حتى إلى نفسه، لدخول الجميع تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[1]، وقوله -ﷺ-: ((بُعِثْتُ إلى الناس عامة))[2]. فمن يَنْفِ عموم بعثته فهو كافر. وفي هذا رد على العيسَوِيَّة وهم فرقة من اليهود زعموا تخصيص رسالته بالعرب. ولا يرد على ذلك بعثة سيدنا نوح عليه السلام فإنه كان مبعوثاً لجميع من في الأرض بعد الطوفان، لأن تعميم بعثة نوح ليس من أصل البعثة وإنما هو أمر اتفاقي حيث لم يسلم من الهلاك إلا من كان معه في السفينة. وأما تعميم بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام فهو من أصل البعثة. وحتى على القول بأن بعثة نوح كانت عامة قبل الطوفان فإن التعميم خاص بزمنه فقط، وتعميم رسالة نبينا -ﷺ- لزمنه وللزمن الذي بعده والذي قبله كما تقدم، فأين التعميم الخاص من التعميم العام. كما أن نوحاً عليه السلام لم يُرسَل إلى الجن، بل ولا غيره من الرسل، باستثناء نبينا عليه الصلاة والسلام. وأما تسخير الجن لسليمان عليه السلام فهو تسخير سلطنة وملك لا تسخير نبوَّة.

(الثالث) شرع يَنْسَخ ولا يُنسَخ، أي شرع يُزيل غيره ولا يُزيلُه غيره. والشرع لغة: البيان، واصطلاحاً: الأحكام الشرعية. والنسخ لغة: الإزالة والنقل، ومنه نَسَخَتِ الشمس الظل أي أزالته، ونُسِخَ الكتاب أي نُقِل. واصطلاحاً: رفع حكم شرعي بدليل شرعي. والمراد برفع الحكم الشرعي انقطاع تعلقه بالمكلفين لأنه خطاب الله تعالى وهو يستحيل رفعه لأنه قديم بخلاف التعلق فلا يستحيل رفعه لأنه حادث.

أما نَسخُ شرع نبينا عليه الصلاة والسلام لشرع غيره من الرسل فقد وقع بالفعل،

---

[1] سبأ : 28 .

[2] رواه الشيخان عن جابر من حديث طويل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1] . والأحاديث في ذلك كثيرة بلغت جملتها مبلغ التواتر ، فنسخ شرعه -ﷺ- لشرع غيره من الأنبياء واقع سماعاً بإجماع المسلمين، خلافاً لليهود والنصارى الذين زعموا أن شرع نبينا -ﷺ- لم ينسخ شرع أحد من الأنبياء ، توصُّلاً للقول بنفي نبوته عليه الصلاة والسلام، واحتجوا على ذلك بأنه يلزم على القول بالنسخ ظهور مصلحة كانت خفية على الله تعالى. ورُدَّ هذا القول بأن المصلحة تختلف باختلاف الأزمنة، فالمصلحة زمن الأمم السابقة اقتضت تكليفهم بشرائعهم، والمصلحة في زماننا اقتضت تكليفنا بشريعتنا.

وأما نسخ بعض شرع نبينا عليه الصلاة والسلام بالبعض الآخر فهو جائز الوقوع لأن ذلك وقع بالفعل. نَعَم! وجوب معرفته تعالى وتحريم الكفر نَسخُه غير واقع وإن كان جائزاً كما هو مذهب أهل الحق، خلافاً لمن قال إن المعرفة حَسَنٌ عقلي والكفر قَبيحٌ عقلي، فوجوب المعرفة وتحريم الكفر لايجوز نسخهما. وأهل الحق يقولون الحسن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الشرع. فلو جعلت المعرفة من القبيح والكفر من الحسن فلا حرج في النسخ. وشمل البعض المنسوخ البعض القرآني خلافاً لمن منعه كأبي مسلم الأصفهاني محتجاً بقوله تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾[2] فلو نسخ بعضه لتطرق إليه البطلان. وأجاب الأولون بأن الضمير في (لا يأتيه) عائد لمجموع القرآن، وهو لا يُنسخ اتفاقاً. وخرج بالتقييد بالبعض نسخ الجميع كما تقدم، فهو وإن كان جائزاً لكنه غير واقع. فالكلام في النسخ له مقامان: مقام جواز، ومقام وقوع. فمن حيث الجواز يجوز نسخ الشريعة كلاً أو بعضاً، وأما من حيث الوقوع فلا يجوز النسخ جوازاً وقوعياً للجميع.

---

(1) آل عمران : 84 .

(2) فصلت : 41 .

وشمل ما ذكر نسخ الكتاب بالكتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ﴾[1] فإنه نُسِخَ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[2] لتأخره نزولاً وإن تقدم تلاوة. ونَسخُ السُّنة بالسُّنة كما في قوله -ﷺ-: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها»[3] ، فإنه نسخ النهي الذي وقع منه -ﷺ- أولاً بالأمر في هذا الحديث. ونَسخُ السنة بالكتاب كما في استقبال بيت المقدس في الصلاة الثابت بالسنة الفعلية، فإنه نُسِخَ باستقبال الكعبة الثابت بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[4]. ونَسْخُ الكتاب بالسُّنة كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[5] فإنه نُسِخَ بقوله-ﷺ-: «لا وصية لوارث»[6]. وشمل أيضاً نسخ التلاوة والحكم جميعاً كما في نحو : (عَشْرُ رضَعات معلومات يُحَرِّمْنَ)، فإنه كان مما يُتْلَى، فنُسِخَ بِخَمْسٍ معلومات يُحَرِّمْنَ، ثم نُسِخَ هذا الناسخ عند البعض تلاوة لا حكماً، وعند البعض الآخر تلاوة وحكماً. وشمل كذلك نسخ التلاوة دون الحكم كما في نحو: (الشَّيخُ والشَّيخَةُ إذا زَنَيَا فَارجُمُوهُمَا البَتَّة نَكَالاً مِنَ ا الله وا اللهُ عَزيزٌ حَكيمٌ)، فإنه كان مما يُتْلَى فنُسِخَ تلاوة لا حكماً. وشمل نَسْخَ الحكم دون التلاوة كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ﴾[7] فإنه نُسِخَ حكماً بقوله تعالى:

---

(1) البقرة : 238 .

(2) البقرة : 232 .

(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(4) البقرة : 148 .

(5) البقرة : 179 .

(6) رواه الترمذي في حديث طويل.

(7) البقرة : 238 .

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[1]
وبقي تلاوة.

قال الشيخ البيجوري: والحق أن النسخ لا يكون إلا إلى بدل، كما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه، خلافاً لمن قال تارة يكون إلى بدل كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3]، فإن الآية الثانية وهي الناسخة جاءت بدلاً عن الآية الأولى المنسوخة. وتارة يكون إلى غير بدل كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4]، فإن تقديم الصدقة وجوباً على مناجاة الرسول نُسِخَ بلا بدل. وعلى القول الأول بُدِّل هذا الوجوب بجواز التصدُّق أو استحبابه كما في الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[5] فتكون الآية الثانية ناسخة للآية الأولى، وهو قول الجمهور. وقيل إن الناسخ هو آية الزكاة. وعلى كلا القولين فالنسخ لم يقع بلا بدل أصلاً.

وإلى الأمور الثلاثة أشار صاحب الجوهرة بقوله :

---

(1) البقرة : 232 .
(2) الأنفال : 66 .
(3) الأنفال : 67 .
(4) المجادلة : 12 .
(5) المجادلة : 13 .

وَخُصَّ خَيْرُ الْخَلْقِ أَنْ قَدْتَمَّمَا	بِـهِ الْجَمِيـعَ رَبُّنَـا وَعَمَّمَـا
بِعْثَتَــهُ فَشَــرْعُهُ لاَ يُنْسَــخُ	بِغَيْرِهِ حَتَّـى الزَّمَـانِ يُنْسَـخُ
وَنَسْـخُهُ لِشَرْعِ غَـيْرِهِ وَقَـعْ	حَتْمـاً أَذَلَّ اللَّـهُ مَـنْ لَـهُ مَنَـعْ
وَنَسْخُ بَعْـضِ شَـرْعِهِ بِالْبَعْضِ	أَجِزْ وَمَـا فِي ذَا لَـهُ مِـنْ غَـضٍّ

وقوله في آخر البيت الثاني (حتى الزَّمانِ يُنْسَخُ) معناه أن شرعه -ﷺ- لا يُنسَخُ بغيره إلى أن يُزَالَ الزمان، أي بقيام الساعة لقوله -ﷺ-: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[1] (يعني قيام الساعة) ، والمراد قرب قيامها، لأن المؤمنين يموتون قبل قيام الساعة بريح لينة.



(1) رواه الشيخان.

معجزات نبينا محمد (ﷺ)

تقدم في فقرة (معجزات الأنبياء) من هذا الباب أن الله سبحانه وتعالى أيَّد أنبياءه بصفة عامة بالمعجزات، وهي الأمور الخارقة للعادة والتي هي بمنزلة قوله عز وجل: (صدق عبدي في كل ما يبلغ عني)، حتى يتمكنوا من دعوة الناس إلى الله. وفي هذه الفقرة نتكلم عن المعجزات الخاصة بنبينا محمد -ﷺ-، وفي مقدمتها معجزة القرآن الكريم.

معجزة القرآن الكريم :

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المُنزَّل على نبينا محمد -ﷺ-، المتعبَّد بتلاوته، والْمُتَحَدَّى بأقصر سورة منه. وهو أعظم معجزة على الإطلاق، وأفضل جميع المعجزات وأدْوَمُها لبقائه إلى يوم القيامة، ولا يخرج عنه شيء من معجزاته-ﷺ- غالباً، وما لم يُذكر فيه منها صراحة ذُكِر ضمناً، كما قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1] . وإنما كان أعظم معجزة لأنه أعجز البشر الذين تصدَّى بعضهم له ووصفوا من جاءهم به وهو محمد -ﷺ- بالجنون والسحر والكذب، وغير ذلك من الأوصاف التي لا تنطبق إلا على قائلها، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[2]، وقال: ﴿وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[3] ، وقال: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[4]. وقد رد عليهم من أنزل القرآن

---

(1) الأنعام : 39 .

(2) الحجر : 6 .

(3) القمر : 2 .

(4) ص : 3 .

بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[1] فعجزوا، فقال: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾[2] فعجزوا، فقال مخاطباً نبيه -ﷺ-: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[3]، وإنما خص بالتعجيز الإنس والجن مع أن جميع المخلوقات بمن فيهم الملائكة لا يستطيعون الإتيان بمثله لأن الإنس والجن هم الذين يُتصوَّر منهم المعارضة دون غيرهم.

ولا خلاف في أن القرآن بجملته مُعْجِزٌ، وإنما الخلاف في أقل ما يقع به الإعجاز، وقد اختار أهل التحقيق القول بأن أقل ما يقع به الإعجاز سورة كما قال تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أو ثلاث آيات، لأن أقصر سورة منه ثلاث آيات وهي سورة الكوثر. ويقوم مقام السورة أو الثلاث آيات الآية الطويلة كآية الكرسي على المعتمد. واختلف في وجه إعجازه فقيل لأن الله صرف الناس عن الإتيان بمثله مع كونهم قادرين على ذلك ويسمى هذا القول قول الصرفة وهو قول بعض المعتزلة كالنظّام، والذي ذهب إليه الجمهور أن وجه إعجازه كونه في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة، مع اشتماله على الأخبار والمغيبات ودقائق العلوم وأحوال المبدأ والمعاد، وغير ذلك مما لا يحصى، وهذا هو الصحيح في وجه الإعجاز. وإلىذلك يشير صاحب الجوهرة بقوله:

وَمُعْجِزَاتُـهُ كَثِيرَةٌ غُـرَرْ مِنْهَا كَلاَمُ اللهِ مُعْجِزُ الْبَشَرْ

وله -ﷺ- معجزات أخرى كثيرة وأشهرها معجزة الإسراء والمعراج، وهي تتلخص فيما يلي :

---

[1] هود : 13 .

[2] يونس : 38 .

[3] الإسراء : 88 .

مُعجزة الإِسراء والمِعراج :

الإِسْراء هو سَيْره -ﷺ- ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى على وجه خارق للعادة. والمعراج هو صعوده -ﷺ- إلى السموات السبع إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء الله على وجه خارق للعادة كذلك. والإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، فالكتاب قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]، والسنة إخبار النبي -ﷺ- أمته بأنه أُسْرِيَ به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقد أجمع المسلمون على ذلك، فمن أنكره فهو كافر لأنه جحد ما علم من الدين بالضرورة وكذّب القرآن. أما المعراج وهو صعوده -ﷺ- إلى السموات السبع فهو ثابت بالأحاديث المشهورة، وأما عروجه من السموات السبع إلى الجنة ثم منها إلى المُسْتوى أو العرش على الخلاف في ذلك، فهو ثابت بخبر الواحد قال-ﷺ-: ((عُرِجَ بي حتى ظهرت بمسْتوىً سَمِعتُ فيه صَرِيف الأقلام))[2] فمن أنكره فليس بكافر ولكنه فاسق. والتحقيق أنه وصل إلى المُسْتوى لا إلى العرش.

وقد أجمع المسلمون على أن الإسراء والمعراج بالنبي -ﷺ- كان يقظة بالروح والجسد، خلافاً لمن قال إنه كان مناماً ولمن قال إنه كان يقظة ولكنه بالروح فقط لا بالجسد والروح. فالأقوال ثلاثة : بالروح والجسد يقظة وهو ما أجمع عليه المسلمون، ووقوع ذلك مناماً، ووقوعه بالروح فقط يقظة. فإن قيل ما الفرق بين كونه مناماً وبين كونه بالروح؟ فالجواب: كونه مناماً وقوعه حالة النوم كالحُلم، وكونه بالروح ذهاب الروح إلى الأمكنة المخصوصة ويكون الجسد في هذه الحالة كالغافل.

---

(1) الإسراء : 1 .

(2) رواه الشيخان.

هذا حكم معجزة الإسراء والمعراج من حيث الوقوع والكيفية، أما قصته فتتلخص فيما يلي:

في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب قبل الهجرة بنحو سنة، وبينما هو -ﷺ- نائم في حجر سيدنا إسماعيل عليه السلام عند الكعبة إذ أتاه جبريل وميكائيل ومعهما ملك ثالث فاحتملوه حتى جاءوا به بئر زمزم، ثم تولاّه منهم جبريل عليه السلام فشق صدره الشريف واستخرج قلبه فأزال منه حظ الشيطان، ثم غسله وملأه علماً وحلماً ويقيناً وإيماناً، ثم أطبقه وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ، ثم أُتِيَ بالبراق وهو كما وصفه -ﷺ- دابة دون البغل وفوق الحمار يضع رجله عند منتهى بصره فركبه -ﷺ- وانطلق به ومعه جبريل وميكائيل حتى وصل المسجد الأقصى فنزل عنه ودخل المسجد فصلّىٰ به ركعتين ، ولم يلبث إلا يسيراً حتى اجتمع خلق كثير، ثم أذّن مؤذن وأقيمت الصلاة، فأخذ جبريل بيده -ﷺ- وقدّمه فصلّى بهم ركعتين. فلما سلّم قال له جبريل: أتدري من صلّى خلفك يامحمد؟ قال: لا. قال: كل نبي بعثه الله تعالى. ثم أخذه وعرج به إلى السموات السبع، فرأى في الأولى آدم، وفي الثانية عيسى ابن مريم ويحيى ابن زكريا، وفي الثالثة يوسف الصديق، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ولم يمر -ﷺ- على واحد من هؤلاء الرسل إلاّ سلّم عليه ورحب به ودعا له بخير، ثم رُفِع إلى سدرة المنتهى التي ينتهي إليها علم الملائكة ولا يجاوزها أحد منهم، وهي كما وصفها -ﷺ- ورقها كآذان الفيلة وثمرها كالقِلال، فإذا غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما يستطيع أحد من خلق الله أن ينعتها من حُسْنِها، ثم رُفِع إلى مُستوىً سَمِعَ فيه صريف الأقلام، وهنا وقف جبريل عليه السلام ولم يَسِر معه، فقال له -ﷺ-: أههنا يترك الخليل خليله؟ فقال جبريل : هذا مقامي، ولو جاوزته لأحرقني النور . ثم زُجَّ به -ﷺ- حتى وصل إلى مكان تحت العرش فرأى ربه بِعَيْنَي رأسه، بقوة أودعها الله

فيهما، رؤية تليق بجنابه عز وجل، وكلّمه ربه وناجاه، وفي الختام فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة. فلما نزل مَرَّ بموسى عليه السلام، قال -ﷺ-: ((ونعم الصاحب كان لكم))، فقال له: ما فرض ربك عليك وعلى أمتك؟ قال: خمسين صلاة في اليوم والليلة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد خَبِرتُ الناس قبلك وبلوت بني اسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه. فرجع -ﷺ- إلى ربه وطلب التخفيف، فحط عنه خمساً. فنزل على موسى وقال: حط عني خمساً. فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجع فحط عنه خمساً أخرى. ولم يزل -ﷺ- يرجع بين موسى وربه ويحط عنه خمساً خمساً حتى قال الله تعالى: يا محمد، هُنَّ خمس صلوات في اليوم والليلة، كل صلاة بعشر فتلك خمسون صلاة، لا يبدل القول لدي ولا يُنسَخ كتابي، ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشراً، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزل على موسى وقال: إن الله جعلها خمس صلوات. فقال : ارجع إلى ربك فاسْأله التخفيف. فقال -ﷺ-: قد راجعت ربي حتى استحييت منه، ولكن أَرضَى وأُسلِّم. ثم هبط ورجع إلى مكة قبيل الصبح. فلما أصبح أخبر قومه بما حدث، فقال: قد أُسْرِيَ بي الليلة. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فمن بين مُصفِّق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً، وعَمُّوا وصَمُّوا وأعظموا ذلك وقالوا له: نحن نضرب أكباد الإبل مُصعداً شهراً ومنحدراً شهراً، وتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة، واللات والعزَّى لا نصدقك. فقال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: أنا أشهد أنك صادق. وصدّقه المسلمون كذلك. فقال المشركون: صِفْ لنا بيت المقدس. فصار يصفه لهم -ولم يكن قد رآه من قبل- وأبوبكر يقول: صَدَقت، صَدَقت، حتى أتم الوصف. فقالوا له: كم للمسجد من باب؟ ولم يكن قد عدَّها، فجيء بالمسجد الأقصى معجزةً

له -ﷺ- حتى وُضِعَ عند دار عقيل، فصار ينظر إليها ويَعُدُّها ويُعْلِمُهم. فقالوا: أما النعت فوا لله لقد أصاب، وأما هو فساحر عظيم.

وهكذا كانت معجزة الإسراء والمعراج اختباراً للمؤمنين والمشركين، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، ويزداد المشركون كفراً وعناداً، قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُرْشِداً﴾[1].

ولنختم هذه القصة بمناقشة أعظم حدث وقع فيها، ألا وهي رؤية نبينا محمد-ﷺ- رَبَّه عز وجل.

رؤية نبينا محمد (ﷺ) ربه عز وجل ليلة الإسراء والمعراج :

ورد عن بعض المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[2] أن محمداً -ﷺ- كلّمه ربه كذلك، وإنما لم يشتهر عليه الصلاة والسلام بالكلام لأنه حاز منصباً أشرف من المكالمة وهي رؤية ربه عز وجل ليلة الإسراء والمعراج، وإليها يشير قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[3] وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾[4]. وفي ذلك يقول بعض العارفين :

وَإِنْ ذَكَرُوا نَجِيَّ الطُّورِ فَاذْكُرْ ... نَجِيَّ الْعَرْشِ مُفْتَقِراً لِتَغْنَى
فَإِنَّ الله كَلَّمَ ذَاكَ وَحْياً ... وَكَلَّمَ ذَا مُشَافَهَةً وَأَدْنَى
وَإِنْ قَابَلْتَ لَفْظَةَ لَنْ تَرَانِي ... بِمَا كَذَبَ الْفُؤَادُ فَهِمْتَ مَعْنَى
فَمُوسَى خَرَّ مَغْشِياً عَلَيْهِ ... وَأَحْمَدُ لَمْ يَكُنْ لِيَزِيغَ ذِهْنَا

---

(1) الكهف : 17 .
(2) النساء : 163 .
(3) النجم : 11 .
(4) النجم : 18 .

ويشير العارف بقوله (وإن قابلت لفظة لن تراني) إلى ما جاء في الرد على سيدنا موسى عليه السلام حينما طلب الرؤية من الله عز وجل، وبقوله (بما كذب الفؤاد) إلى ثبوت الرؤية لنبينا محمد -ﷺ-، وبقوله (فموسى خر مغشياً عليه) إلى ما حدث لسيدنا موسى عليه السلام حينما تجلّى ربه للجبل، وبقوله (وأحمدُ لم يكن ليزيغ ذهناً) إلى ثبات نبينا محمد -ﷺ- حين الرؤية. وإلى موقف سيدنا موسى عليه السلام في هذه الحادثة يشير القرآن الكريم بقوله عز وجل: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنُ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾[1]، وهذا يدل على أن موسى لم ير ربه عز وجل. أما موقف نبينا محمد -ﷺ- فقد أشار إليه القرآن الكريم بقوله عز وجل: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[2]، وقوله: ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾[3] وأي آية أكبر من رؤية الله عز وجل. وفي هذا دليل قاطع على ثبوت الرؤية لنبينا محمد -ﷺ- وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين، حيث قالوا إن المراد من ذلك أن محمداً -ﷺ- رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج، وقد استدلوا على ذلك بوجوه منها: أن رؤيته سبحانه وتعالى جائزة وليست مستحيلة، فلو كانت مستحيلة لما سألها موسى عليه السلام حين قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ إذ لا يُعقَل أن يسأل نبي شيئاً مستحيلاً. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى قال لموسى: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ و لم يقل له (لَنْ أُرَى). ومنها: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أتعجبون أن تكون الخُلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد؟ فراجعه ابن عمر في ذلك وقال: هل رأى محمدٌ ربه؟

---

(1) الأعراف : 143-144 .

(2) النجم : 11 .

(3) النجم : 18 .

فقال: إنه رآه. ومنها : ما روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: قال رسول الله-ﷺ-: ((رأيت ربي عز وجل))[1]، ولا يقدح في ذلك ما جاء في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها من نفي رؤيته -ﷺ- ربه عز وجل وصرفها إلى رؤيته جبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عليها، لأن السيدة عائشة لم تذكر في حديثها أنها سمعت النبي -ﷺ- يقول لم أر ربي، وإنما نفت الرؤية مستندة إلى قوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾[3]. وليس في هاتين الآيتين ما يدل على نفي الرؤية، لأن الآية الأولى تنفي الإدراك، والإدراك هو الإحاطة بالشيء، ولا يلزم من نفي الإحاطة نفي الرؤية أصلاً. والآية الثانية تنفي الكلام إلا بالوحي أو من وراء حجاب، ولا يلزم من نفي الكلام نفي الرؤية، إذ يجوز أن تكون الرؤية في غير وقت الكلام. وبذلك تثبت الرؤية لنبينا محمد-ﷺ-. وإلى ذلك يشير صاحب الشيبانية بقوله:

وَكُلُّ نَبِيٍّ خَصَّهُ بِفَضِيلَةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ وَخَصَّ بِرُؤْيَاهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدَا

معجزات أخرى لنبينا محمد (ﷺ):

هناك معجزات ظهرت لنبينا عليه الصلاة والسلام، وأشهرها انشقاق القمر وتسليم الحجر والشجر وتسبيح الحصى وحنين الجذع وشهادة الضب ورد عين قتادة.

فأما انشقاق القمر، فقد رواه ابن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: بينما نحن مع رسول الله -ﷺ- إذ انشق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه. فقال لنا

---

[1] رواه الإمام أحمد عن ابن عباس.

[2] الأنعام : 104 .

[3] الشورى : 48 .

رسول الله -ﷺ-: اشهدوا. وقال كفار قريش: هـذا سحر. فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا هل رأوا مثل هذا أم لا، فأخبر أهل الآفاق بأنهم رأوه منشقاً[1]. فقال كفار قريش كما أخبر القرآن عنهم هذا سحر مستمر، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[2]. والتحقيق أن انشقاقه كان وهو في السماء، ونزوله منها إلى الجبل كان توهماً.

وأما تسليم الحجر والشجر عليه -ﷺ- فقد رواه الإمام علي كرم الله وجهه، حيث قال: خرجت مع النبي -ﷺ- من مكة إلى بعض نواحيها فما استقبلنا حجر ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله[3].

وأما تسبيح الحصى في كفه عليه الصلاة والسلام، فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: كنا جلوساً مع رسول الله -ﷺ- فأخذ كفاً من حصى فسَبَّحنَ في يده حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن في يد أبي بكر فسَبَّحنَ، ثم في يد عمر فسَبَّحنَ، ثم في يد عثمان فسَبَّحنَ، ثم صبهن في أيدينا فما سَبَّحن[4].

وأما حنين الجذع وهو ساق النخلة الذي كان النبي -ﷺ- يخطب عنده، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام كان قبل أن يُصنَع له المنبر يخطب عند جذع نخلة، فلما صُنِعَ المنبر انتقل إليه، فسمع له كل من كان في المسجد حنينا وصوتاً عظيماً حتى كاد أن ينشق أسفاً على فراقه، فضمه -ﷺ- إليه فصار يئن أنين الصبي الذي تضمه أمه إليها وتسكته عن بكائه، ثم قال له -ﷺ-: إن شئت أرُدُّك إلى الحائط أي البستان الذي كنت فيه فتنبُت لك عروقك ويكمل لك خلقك ويتحدد لك خوص وثمر، وإن شئت غرستك في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك، ثم أصغى إليه فسَمِعَه يقول بصوت

---

(1) رواه الشيخان عن ابن مسعود.

(2) القمر: 1-2.

(3) رواه الترمذي وغيره عن الإمام علي كرم الله وجهه.

(4) رواه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل.

يسمعه من يليه: بل تغرسني في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمري وأكون في مكان لا بلاء فيه. فقال: قد فعلت. ثم قال -ﷺ-: اختار دار البقاء على دار الفناء. وأمر به فدفن تحت المنبر. وهو حديث مشهور متواتر[1]. وكان الحسن البصري رضي الله عنه إذا حدَّث بهذا الحديث بكى وقال: يا عباد الله، الخشبة تَحِنُّ إلى رسول الله -ﷺ- لمكانه من الله، فأنتم أحق بأن تشتاقوا إلى لقائه.

وأما شهادة الضب، فقد روي أن رسول الله -ﷺ- كان في محفل من أصحابه، إذ جاءه أعرابي وقد صاد ضباً، فقال الأعرابي: من هذا؟ قالوا: نبي الله. فقال: واللات والعزى لا أومن به إلا أن يؤمن هذا الضب، ووضعه بين يديه -ﷺ-. فقال: يا ضَبُّ! فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعاً: لبَّيك وسعديك يا زين من وافى القيامة. قال: من تعبد؟ قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه. قال: فمن أنا؟ قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدَّقك، وخاب من كذَّبك. فأسلم الأعرابي[2].

وأما رد عين قتادة، فقد روي أنه رضي الله عنه كان يتقي بوجهه السِّهام عن رسول الله -ﷺ- في غزوة أحد فأصاب عينه سهم فسالت على خده، فأخذها بيده واتجه بها إلى رسول الله -ﷺ-، فلما رآها عليه الصلاة والسلام دمعت عيناه وقال له: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت رددتها ودعوت الله لك فلم تفقد منها شيئاً. فقال: يارسول الله، إن الجنة لجزاء جميل، وعطاء جليل، ولكني رجل مبتلى بحب النساء، وأخاف أن يقلن أعور ، فلا يُرِدْنَنِي، ولكن تردها وتسأل الله لي الجنة. فردها -ﷺ- في موضعها وقال: اللهم قِ قتادة كما وَقَى وجه نبيك، فاجعلها أحسن عينيه وأَحَدَّهُمَا نظراً، وكانت كذلك حتى أنها لا ترمد إذا رمدت الأخرى[3].

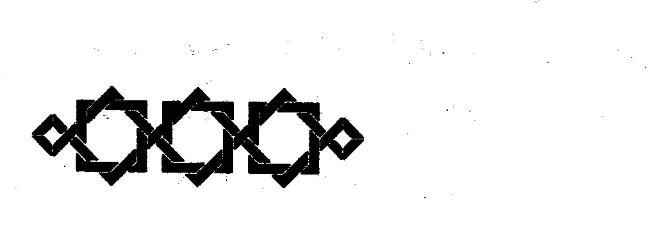
---

(1) رواه البخاري والطبراني في الأوسط وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل وأحمد والترمذي وابن ماجه.

(2) رواه البيهقي وأبو نعيم في الدلائل.

(3) رواه أبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة.

وأما الإرهاصات وهي خوارق العادات التي ظهرت له عليه الصلاة والسلام قبل النبوة فأشهرها ما ظهرعند ولادته عليه الصلاة والسلام ومنها خروج النور الذي أضاء مكة وما حولها إلى قصور الشام، وتصدع إيوان كسرى وسريره، وخمود نار فارس، وذهاب ماء بحيرة ساوة، وفيضان وادي سماوة، وزيادة حفظ السماء بِرَدِّ المردة من الشياطين ومنعهم من الوصول إليها، ورجم النُّجوم النيِّرات كل شيْطان يحاول أن يَرقَى إليها. وقد قال بعض العلماء إنها تزيد على مائة إرهاص.



الكتب السماوية

الكتب السماوية هي الكتب الأربعة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على أربعة من رسله. فيجب على كل مكلف أن يعتقد نزول هذه الكتب على هؤلاء الرسل، لأن هذا الاعتقاد هو أحد أركان الإيمان. وهي حسب ترتيب النزول: التوراة على سيدنا موسى، والزبور على سيدنا داوُد، والإنجيل على سيدنا عيسى، والفرقان على سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾[2]، وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ﴾[3]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[4].

وقال الشيخ المرزوقي في عقيدة العوام :

أَرْبَعَةٌ مِنْ كُتُبٍ تَفْصِيلُهَا ... تَوْرَاةُ مُوسَى بِالْهُدَى تَنْزِيلُهَا

زَبُورُ دَاوُدَ وَإِنْجِيلٌ عَلَى ... عِيسَى وَفُرْقَانٌ عَلَى خَيْرِ الْمَلاَ

والتوراة مأخوذ من (وَرِيَ الزَّند) أي خرج ناره، والزَّند هو ما يُقدَح به النار، لأنه نورٌ وضياءٌ ، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾[5]. والزَّبور مأخوذ من الزَّبر وهو الكتابة، وبضم الزاي المكتوب لأنه كذلك. والإنجيل مأخوذ من النَّجْل وهو

---

(1) المؤمنون : 50 .

(2) الإسراء : 55 .

(3) المائدة : 48 .

(4) الفرقان : 1 .

(5) المائدة : 46 .

استخراج خُلاصة الشيء، وسمّي بذلك لاستخلاصه خُلاصة نور التوراة، ومنه قيل للولد نجل أبيه لاستخلاصه منه. والفرقان سُمِّيَ بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، كما سُمِّي بالقرآن لأنه كلام يُقرأ، قال تعالى:﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[1] أي قراءته.

كما يجب على كل مكلف أن يعتقد أن الله تعالى أنزل صُحُفاً على كل من سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى قبل التوراة ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[2]. وقال الشيخ المرزوقي :

وَصُحُفُ الْخَلِيلِ وَالْكَلِيمِ فِيهَا كَلاَمُ الْحَكَمِ الْعَلِيمِ

وقد ورد أن صحف إبراهيم ثلاثون، وصحف موسى عشرة. كما ورد أنه أنزل على شيث بن آدم ستون صحيفة، وعليه فيكون مجموع الصحف مائة، ومجموع الكتب أربعة. وقيل إن مجموع الصحف أكثر من ذلك. والتحقيق الإمساك عن حصرها في عدد معين، فيجب اعتقاد أن الله أنزل صحفاً من غير الكتب الأربعة على إبراهيم وموسى وعلى بعض رسله الآخرين دون حصرها في عدد معين. أما الكتب فيجب اعتقادها كما تقدم في أول هذه الفقرة.

معجزات الرسل الآخرين عليهم الصلاة والسلام :

معجزات الرسل الآخرين من غير نبينا عليه الصلاة والسلام تضمنها القرآن الكريم، فقد تكرر قَصَصُها في كثير من سوره، وخصوصاً معجزات نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وأيوب وشعيب وهارون وموسى وداود وسليمان ويونس وزكريا ويحيى وعيسى، فمن يقرأ القرآن يطّلِع على هذه المعجزات.

---

(1) القيامة : 16 .

(2) الأعلى : 18-19 .

كرامات الأولياء

الكرامات جمع كرامة، وهي أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح، ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعة، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، عَلِمَ بها أو لم يَعلَم. والأولياء جمع وَلِيّ، وهو العارف با لله تعالى وبصفاته حسب الإمكان، المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي، قال تعالى: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ا للهِ لاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ا للهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[1].

وليس المراد أن الولي هو من لا تقع منه معصية، إذ أنه ليس معصوماً كالنبي، وإنما المراد أنه كلما وقعت منه معصية تاب. وقولهم (إن الولي لا يكذب) معناه لا يُظهر خلاف ما يبطن، وإلى جانب مواظبته على الطاعات واجتناب المعاصي يكون مُعرِضاً عن الانهماك في اللّذات والشّهوات المباحة. وأما أصل التناول فلا مانع منه لاسِيَّما إذا كان بقصد التقوّي على العبادة. وسُمِّيَ ولياً لأن ا لله تولى أمره فلم يَكِلْهُ إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة واحدة، أو لأنه يتولى عبادة ا لله على الدوام من غير أن يتخللها عصيان. وكلا المعنيين يجب تحققه في الولي حتى يكون وليًّا في نفس الأمر.

وليست الولاية قاصرة على الرجال بل تشترك فيها النساء كذلك. وقد قيل بولاية أربع من النساء وهن: مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام، وخديجة بنت خويلد زوج رسول ا لله -ﷺ-، وفاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ففي الحديث الشريف: «كَمُلَ من الرجال كثير، و لم يكمل من النساء

---

(1) يونس : 63-64 .

إلا أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))[1] .

ومن الواجب اعتقاد ثبوت الكرامة للأولياء ، بمعنى جواز وقوعها لهم في الحياة وبعد الموت كما ذهب إليه جمهور أهل السُّنة. وليس في مذهب من المذاهب الأربعة قول بنفيها بعد الموت، بل ظهورها حينئذ أولى لأن النفس بعد الموت تخلو من الشوائب والأكدار، ولذا قيل من لم تظهر كرامته بعد موته كما كانت في حياته فليس بصادق.

والأدلة على وقوع الكرامات من الأولياء كثيرة من القرآن ومن غير القرآن، فالتي من القرآن: **(أولاً)** قصة مريم بنت عمران، فعندما كانت صغيرة أنشأها ا لله إنشاءً حسناً فسوَّى خلقها وجعلها تنبت في اليوم نبات المولود في العام، وكفَّلها زكريا أي أمره برعايتها، وكان لا يدخل عليها غيره، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فيسألها عن ذلك فتقول هو من عند ا لله، قال تعالى: **﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّاءُ الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ا للهِ إِنَّ ا للهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**[2] .

وعندما ولدت عيسى عليه السلام من غير أب وسألها قومها عن ذلك فأشارت إلى المولود فنطق وقال إني عبد ا لله، وقبل ذلك أمرها ا لله بهز جذع نخلة يابس فهزَّته فنبت واخضرَّ وأثمرَ ونضج وأكلت من رُطَبه في وقت واحد، وفي ذلك يقول ا لله تعالى: **﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً * قَالَ إِنِّي عَبْدُا للهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً﴾**[3] إلى آخره ، ويقول: **﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَّاقَطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً﴾**[4] إلى آخره.

---

[1] رواه الشيخان وأحمد في المسند والترمذي وابن ماجه.
[2] آل عمران : 37 .
[3] مريم : 28-29 .
[4] مريم : 24 .

(ثانياً) قصة أصحاب الكهف، وهم سبعة من أشراف الروم خافوا بعد عيسى عليه السلام على إيمانهم من ملكهم فخرجوا من البلد ودخلوا غاراً فألقى الله عليهم النوم فناموا ثلاثمائة وتسع سنين، ثم استيقظوا بعد هذه المدة الطويلة واعتقدوا أنهم لم يناموا إلا يوماً أو بعض يوم. وقد حكى القرآن الكريم هذه القصة في قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[1]، وقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾[2]، وقال: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعاً﴾[4]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْبَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[5]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُواْ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ابْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾[6]، وقال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[7]. والرقيم: لوح كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم، والوصيد: فناء الكهف.

---

(1) الكهف: 9-10.
(2) الكهف: 13-14.
(3) الكهف: 18.
(4) الكهف: 25.
(5) الكهف: 19.
(6) الكهف: 21.
(7) الكهف: 22.

(ثالثاً) قصة عُزير، وهو من بني إسرائيل، مر على قرية قيل إنها بيت المقدس فوجدها خراباً وكان يركب حماراً ويحمل معه سلة تين وقدحاً من عصير، فقال: كيف يحي الله أهل هذه القرية؟ فأماته الله مائة عام كما أمات حماره، ثم أحياه وسأله عن المدة التي لبثها فقال: يوماً أو بعض يوم. ثم أراه حماره فإذا هو عظام بيضاء وقد بدأ اللحم يكسوها، وكلما كُسِيَ عضو من أعضائه تحرك حتى قام ونهق، وفي الوقت نفسه أراه طعامه فإذا هو لم يتغير مع طول الزمان، فعلم علم مشاهدة أن الله قادر على كل شيء.

ويخبرنا القرآن الكريم بهذه القصة الواقعية بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وقد اختلف في هذا المار فقيل عُزير، والراجح أنه كان نبياً، وقال بعض العلماء بولايته. وقيل كان المار رجلاً منكراً للبعث فهداه الله إلى الإيمان، كما في تفسير الصاوي.

(رابعاً) قصة آصَف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام، حينما أراد سليمان إحضار عرش بلقيس ملكة سبأ إلى مقر سليمان في بيت المقدس، وبين سبأ وبيت المقدس مسيرة شهرين، وكان سليمان قد طلب من بلقيس الحضور إليه في مَلَئها مُنقادين طائعين، ويريد أن يصل إليه العرش قبل وصولها، فخاطب ملأه قائلاً: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[2]، ومقامه هو مجلس قضائه، ووقته من الصباح

---

(1) البقرة : 258 .

(2) النمل : 39 –40 .

إلى نصف النهار. فقال سليمان أريد أسرع من هذا. فقال آصَفُ ما حكاه عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[1] أي قبل غمضة عين، ثم قال له انظر إلى السماء، فنظر إليها ثم رد بصره فوجد العرش أمامه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[2]. قيل إن آصَفَ هذا كان يَعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وهو المراد بعلم الكتاب. ويقال إنه حينما نظر سليمان إلى السماء دعا آصَفُ بالاسم الأعظم أن يأتي الله به، فحصل بأن جرى تحت الأرض حتى نبع تحت كرسي سليمان.

أما الكرامات التي من غير القرآن فمنها ما وقع من عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع سارية وهو أحد قواده أثناء إحدى المعارك: فقد روي أن عمر رضي الله عنه رأى العدو من مسافة شهر فقال: يا سَارِيَةُ، الجبلَ الجبلَ. فسَمِعَ ساريةُ صوتَه فانحاز بالناس إلى الجبل وقاتلوا العدو فنصرهم الله تعالى.

ومنها ما روي أن عبدالله الشقيق وهو ممن اشتهروا بالصلاح كان إذا مرت عليه سحابة يقول لها أَقْسَمْتُ عليك بالله إلاَّ أمطرتِ، فتمطر في الحال.

وإذا كان من الواجب اعتقاد ثبوت الكرامة للأولياء كما تقدم، فلا يجوز قبول كلام من نفاها وقال بعدم جوازها كأبي عبدالله الحُلَيْمي من أهل السُّنَّة وجمهور المعتزلة. قال صاحب الجوهرة :

وَأَثْبِتَنْ لِلأَوْلِيَا الْكَرَامَهْ ... وَمَنْ نَفَاهَا فَانْبِذَنْ كَلاَمَهْ

وحجة القائلين بعدم جواز الكرامة للأولياء أنه لو ظهرت الخوارق من الأولياء لاَلْتَبَسَ النبيُّ بغيره، لأن الخارق إنما هي المعجزة، وأنه لو ظهرت على أيديهم لكثرت

---

(1) النمل : 41 .

(2) النمل : 41 .

بكثرتهم وخرجت عن كونها خارقة للعادة والفرض أنها كذلك. والرد على القول الأول وهو التباس النبي بغيره، أنه ليس في وقوعها التباس النبي بغيره للفرق بين المعجزة والكرامة، لأن النبي يدَّعي النبوة والولي يدعي الولاية. أما الرد على القول الثاني وهو أنه لو ظهرت على أيديهم لخرجت عن كونها خارقة للعادة، إننا لا نُسلِّم بأنها تخرج بكثرتها عن كونها خارقة للعادة، بل غاية الأمر استمرار خرق العادة، وذلك لا يوجب كونه عادةً مهما كثر.

الدُّعاء والتَّوسُّل :

الدعاء هو الطلب على سبيل التضرع. وقيل هو رفع الحاجات إلى رافع الدرجات. وهو ينفع مما نزل ومما لم ينزل، قال -ﷺ- : «إن البلاء لينزل ويتلقاه الدعاء فيتعالجان إلى يوم القيامة»[1]. كما ينفع في القضاء المعلق أي المؤجل، والقضاء المبرم أي المعجل. أما المعلق فلأنه لا استحالة في رفع ما عُلِّقَ رفعه منه بالدعاء ولا في نزول ما عُلِّقَ نزوله منه بالدعاء، وأما المبرم فإنه وإن لم يُرفع بالدعاء فإن الله تعالى يُنزل لُطفه بالداعي، كما لو قضى على شخص قضاءً مبرماً بأن تنزل عليه صخرة، فإذا دعا الله وسأله اللطف في القضاء أنزل عليه الصخرة متفتتة كالرمل فلا يضره شيء منها. ومن الدعاء المأثور: «اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه».

وانقسام القضاء إلى مُبرَم ومعلق ظاهر بحسب اللوح المحفوظ، وأمّا بحسب علم الله فجميع الأشياء مُبْرَمة، لأنه إن علم الله حصول المعلق عليه حصل المعلق قطعاً، وإن علم عدم حصوله لم يحصل قطعاً. لكنه لا ينبغي أن يترك الشخص الدعاء اتكالاً على ذلك، كما لا يترك الأكل اتكالاً على إبرام الله الأمر في الشِّبع.

والدعاء ينفع الأحياء والأموات إن دُعِيَ لهم، ويضرهم إن دُعِيَ عليهم ولو صدر

---

(1) رواه البزار والطبراني والحاكم وصححه.

من كافر على الراجح، لقوله -ﷺ-: ((دعوة المظلوم -وإن كان كافراً- ليس دونها حجاب))[1]. ولا يَرِدُ على هذا الحديث قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾[2] لأن معنى هذه الآية أن الكفار لا يُستجاب لهم في خصوص الدعاء بتخفيف عذاب جهنم عنهم يوم القيامة.

والدليل على استجابة الدعاء من الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3] وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[4]. وأما السنة ففعل النبي -ﷺ-، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام دعا ربه في مواطن كثيرة كيوم بدر وغيره من المواقف التي تستوجب الدعاء، وقد أجمع عليه المسلمون سَلَفاً وخَلَفاً. قال صاحب الجوهرة :

وَعِنْدَنَا أَنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ   كَمَا مِنَ الْقُرْآنِ وَعْداً يُسْمَعُ

وهذا هو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون إن الدعاء لا ينفع، وإنما لم يكفروا بهذا القول لأنهم تأولوا القرآن فأولوا الدعاء في قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بالعبادة والإجابة بالثواب.

هذا وللدعاء شروط وآداب، فمن شروطه أكل الحلال، وأن يكون الداعي موقناً بالإجابة، وأن لا يكون قلبه غافلاً عند الدعاء، وأن لا يدعو بما فيه إثم أو قطيعة رحم أو إضاعة حق المسلمين، وأن لا يدعو بمحال ولو عادة لأن الدعاء يشبه التحكم على القدرة القاضية بدوامها وذلك إساءة أدب مع الله تعالى.

ومن آدابه أن يتحرى الأوقات الفاضلة كأن يدعو في السجود وعند الأذان وإقامة

---

[1] رواه الإمام أحمد.
[2] غافر : 50 .
[3] غافر : 60 .
[4] البقرة : 185 .

الصلاة، ومنها تقديم الوضوء والصلاة، واستقبال القبلة ورفع الأيادي إلى جهة السماء، وتقديم التوبة والاعتراف بالذنب والإخلاص، وافتتاح الدعاء بالحمد والصلاة على النبي -ﷺ-، وختمه بها. فإذا توفرت هذه الشروط والآداب يصح للعبد أن ينتظر الإجابة، أما إذا اختل شرط منها كأن يكون الداعي مِمَّن يأكلون الحرام ويتعاملون بالحرام فكيف ينتظر الإجابة؟ روي أن النبي -ﷺ- حدَّث أصحابه حديثاً، ثم ذكر الرجل يطيل السفر في حج أو جهاد مثلاً، أشعث أغبر يَمُدُّ يديه إلى السماء يَارَبُّ يَارَبُّ، ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذِّي بالحرام، فَأَنَّى يستجاب له؟[1]

وليس معنى الإجابة أن الله سبحانه وتعالى يستجيب لعبده كما يريد العبد، كأن يقول العبد: يا رب ارزُقني مالاً أو ولداً أو غير ذلك، فإذا أعطاه ما طلب فقد استجاب له، وإلا فلا استجابة، وإنما الإجابة تتنوع، فتارةً يُعطَى المطلوب بعينه على الفور، وتارةً يُعطَى ولكنه يتأخر لحكمة، وتارةً تقع الإجابة بغير المطلوب حيث لا يكون في المطلوب مصلحة ناجزة وفي هذا الواقع مصلحة ناجزة، أو يكون في المطلوب مصلحة وفي الواقع مصلحة خير منها. ومع هذا كله فالإجابة مقيدة بمشيئة الله تعالى، فإن شاء استجاب، وإن شاء لم يستجب ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[2]. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾[3]، فهذه الآية مقيدة لإطلاق الآيتين السابقتين، ويكون المعنى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إن شئتُ، و﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ إن شئتُ.

أما التَّوسُّل فهو التشفع، أي طلب الشفاعة عند الله عن طريق المقربين إليه كالأنبياء والأولياء. وهي جائزة شرعاً ولا إشراك فيها كما يزعمه البعض، سواء في

---

(1) رواه مسلم وأحمد والترمذي.

(2) الأنبياء : 23 .

(3) الأنعام : 42 .

الأمور الدنيوية أم الأخروية. ولا فرق بين أن يكون المتوسَّل به حياً أو ميتاً، بل في حال الموت يكون أقرب إلى الله لأن العلاقة بالروح لا بالجسد، والميت تكون روحه صافية من الشوائب والأكدار.

قال الشيخ العدوي في كتابه مشارق الأنوار في أول كلامه على زيارة قبر نبينا محمد -ﷺ-، نقلاً عن الإمام مالك رحمه الله في رواية ابن وهب: إذا سلّم الزائر على النبي -ﷺ- يقف للدعاء ووجهه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة. وسأل الخليفة المنصور مالكاً فقال: يا أبا عبدا لله، أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله-ﷺ-؟ فقال مالك: ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه الصلاة والسلام إلى يوم القيامة؟[1] وقال الإمام الزرقاني مشيراً إلى قول مالك (ولم تصرف وجهك عنه) أي عن مقابلته -ﷺ- ومواجهته حال الدعاء. وقوله (وهو وسيلتك) أي السبب المتوسل به إلى إجابة الدعاء . وكنّى بآدم عن جميع الناس، أي وهو الشفيع المشفع المتوسل به إلى يوم القيامة، وهذه إشارة إلى حديث الشفاعة العظمى في الآخرة.

وقد ورد أن الداعي إذا قال: اللهم إني استشفع إليك بنبيك، يا نبي الرحمة اشفع لي عند ربك ، استجيب له. وهذا يدل على جواز التوسل بنبينا محمد -ﷺ- وغيره من الأنبياء والأولياء، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً**﴾[2] .

ولا يَرِدُ على هذه الآية أن ذلك في حياته -ﷺ-، بل هي عامة لجميع المسلمين إلى يوم القيامة، لأن العلاقة بالروح لا بالجسد، والنبي -ﷺ- حي في قبره حياة برزخية، ويدل على ذلك قوله -ﷺ-: ((حياتي خيرٌ لكم تُحَدِّثون ويُحَدَّثُ لكم، فإذا مِتُّ كانت وفاتي خيراً لكم، تُعْرَضُ عليَّ أعمالُكم فإن رأيتُ خيراً حمدتُ الله، وإن رأيتُ

---

[1] وروى هذه القصة الإمام عياض في كتابه الشفا بإسناده إلى مالك. وحديث توسل آدم عليه السلام رواه الحاكم وصححه والبيهقي في دلائل النبوة.

[2] النساء : 63 .

شراً استغفرتُ لكم))[1] ، وقوله: ((مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَمَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي في حَيَاتِي))[2]، وقوله: ((مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي[3] حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ))[4].

قال الشيخ العدوي: ويُكْرَهُ تقبيل الأعتاب عند الدخول لزيارة الأولياء إلا إذا قصَدَ به التبرك فلا يُكْره ، قياساً على من عجز عن تقبيل الحجر الأسود فيُسَنُّ له أن يشير إليه بعصاً ويُقبِّلها. وبالتالي فإن تقبيل القبر الشريف أولى بالجواز، وقد روي ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل، لأنه لا يقصد منه إلا التبرك، ولا يقول أحد بكفر من فعل ذلك لعدم قصد العبادة والسجود للمخلوق، وإنما هي من شدة التعلق بمحبة أعتابهم، وهو في الحقيقة تعلق بمحبة ساكني هذه الأعتاب، كما قال الشاعر العربي :

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى ... أُقَبِّلُ ذَا الْجِدَارَ وَذَا الْجِدَارَا
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ... وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

وما يقع من بعض العوام من قولهم يا سيدي فلان -مثلاً- إن قضيت لي كذا، أو شفيت لي مريضي فلك عَلَيَّ كذا، فهو من الجهل بالسُّنة وكيفية الطلب، ولكن لا يُعَدُّ كفراً لأنهم لا يقصدون بذلك الإيجاد من الولي، وإنما يجعلونه في نياتهم وسيلة إلى مولاهم، حيث كان المتوسل به من أهل القرب والمحبة للخالق، ومما يدل على ذلك قول بعض العوام: ياصاحب النفس الطاهرة عند ربك أطلب مولاك أن يفعل لي كذا وكذا، فإن ذلك دليل منهم على انفراد الله بالفعل، وأنه لا شيء للولي إلا مجرد التسبب، وأنه لا يُرَدُّ المُتوسَّل به لأن القريب المحبوب لا يُرَد فيما طلب، فهو من باب

---

[1] رواه البزار بإسناد جوَّده العراقي، وصححه الهيثمي والسيوطي والقسطلاني، ورواه القاضي إسماعيل في كتاب الصلاة بإسنادين صحح أحدهما الحافظ ابن عبدالهادي.

[2] رواه البيهقي وابن عساكر عن حاطب وهو أجود أسانيده (كشف الخفا : 250/2).

[3] أي ردَّ عليَّ نطقي، لأنه -ﷺ- حي دائماً وروحه لا تفارقه لأن الأنبياء أحياء في قبورهم.

[4] رواه أحمد وأبو داود.

قوله-ﷺ-: ((كَم مِنْ أشعثَ أغبر ذي طِمْرَين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرَّه))[1].

و(طمرين) مثنى طِمْرٍ وهو الثوب الخَلِق، وقوله: فيما يرويه عن ربه عز وجل: ((ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه))[2].

ومن هنا تظهر كرامات الأولياء بقضاء حوائج المتوسلين بهم.

وذكر بعض العارفين أن الولي بعد موته أشد كرامة منه حال حياته لانقطاع تعلقه بالمخلوق وتجرد روحه للخالق فيكرمه الله بقضاء حاجة المتوسلين به. كما أن الاستغاثة به -ﷺ- وبغيره من الصالحين ليس لها معنى في قلوب المسلمين إلا التوسل إلى الله تعالى بهذا المتوسَّل به لعلو قدره ومكانته وجاهه وكرامته على مولاه، وأنه لا يُخَيِّبُ السائل به والمتوسِّل بجاهه، فهو مستغاث به في الحقيقة، والغوث منه خلقاً وإيجاداً.

وسئل شيخ الإسلام الرَّملي عما يقع من العامة عند الشدائد من قولهم يا شيخ فلان ونحو ذلك، فهل للمشائخ إغاثة بعد موتهم؟ فأجاب بأن الاستغاثة بالأولياء والأنبياء والصالحين والعلماء جائزة ، فإن لهم إغاثة بعد موتهم كحياتهم، فإن معجزات الأنبياء كرامات الأولياء.

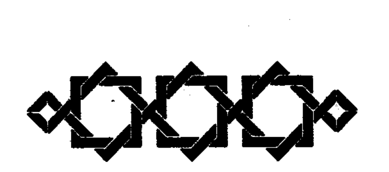
قال الشيخ العدوي: لا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظه أو بلفظ الاستغاثة أو التشفع أو التوجه لأنها كلها من الجاه والوجاهة ومعناهما علو القدر والمنزلة، وكل منها ثابت للنبي -ﷺ- قبل خلقه وبعده مدة حياته في الدنيا وبعد موته في البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة. فأما التي قبل خلقه فهي استشفاع آدم به لما أُخرِج من الجنة، وقول الله تعالى لنبيه آدم لو تَشفَّعتَ إلينا بمحمد -ﷺ- في أهل السموات

---

(1) رواه الترمذي وقال حديث حسن، ورواه البخاري ومسلم بلفظ مقارب.

(2) رواه الشيخان.

والأرض لشَفّعناك فيهم. وأما التي بعد خلقه مدة حياته في الدنيا فمنها الاستغاثة به عند القحط وعدم الأمطار وعند الجوع وعند جميع المُلِمَّات كمقاتلة الأعداء في الجهاد. وأما التي بعد موته وفي حياته البرزخية فمنها ما قام عليه الإجماع وتواترت الأخبار. وأما التي بعد البعث وفي عرصات القيامة فأبرزها (الشفاعة العظمى) وسيأتي الكلام عليها في محلها إن شاء الله.



الأسرة المحمدية الشريفة

المراد بالأسرة أبو النبي -ﷺ- وأمه وأجداده وأعمامه وأزواجه وأولاده. وفيما يلي بيانهم بالتفصيل حسب الترتيب :

أبو النبي (ﷺ) وأمه :

أبو النبي هو عبدا لله بن عبدالمطلب، ويُلقّب بالذبيح، وذلك لأن والده عبدالمطلب أراد حفر بئر زمزم فمنعته قريش منه وآذاه بعض سفهائهم، و لم يكن له من الأولاد إلا واحد وهو الحارث، فنذر لئن جاء له عشرة من البنين وصاروا له أعواناً ليَذبَحَنَّ أحدهم قرباناً لله تعالى عند الكعبة. ومرت الأيام وحفر عبدالمطلب زمزم هو وابنه الحارث فكانت له فخراً وعزاً، وكَمُلَ بنوه عشرة أصغرهم عبدا لله، وكان يحبه حباً شديداً. وفي إحدى الليالي رأى في منامه قائلاً يقول له: يا أبا الحارث، يا عبدالمطلب، أَوْفِ بنذرك لدَى هذا البيت. فاستيقظ مرعوباً وأمر بذبح كبش وأطعمه للفقراء والمساكين. وفي الليلة التالية قال له القائل في المنام: قَرِّب ما هو أكبر من ذلك. فأمر بذبح ثور. وفي الليلة التالية قال له: قَرِّب ما هو أكبر من ذلك. فأمر بذبح جمل. وفي الليلة التالية قال له: قَرِّب ما هو أكبر من ذلك. فقال: ما هو الأكبر من ذلك؟ قال: قَرِّب أحد أولادك الذي نذرته. فاغتم غماً شديداً، وجمع أولاده وأخبرهم بذلك، وطلب منهم الوفاء بالنذر. فقالوا: إنا نطيعك، فمن تريد أن تذبح منا. فقال: ليأخذ كل واحد منكم قِدْحاً، أي سهماً ويكتب اسمه عليه. ففعلوا، وأخذ عبدالمطلب القِدَاح ودفعها إلى القيم، وقال: اللهم إني نذرت لك نحر أحدهم، وإني أقرع بينهم، فأصب

بذلك من شئت. فخرجت القرعة علـى عبـدا لله. فـأخذه عبدالمطلب، وأخـذ الشـفرة وتوجه به إلى المكان الذي تذبح فيه القرابين. فقام إليه سادة قريش وقالوا له: ما تريـد أن تصنع؟ فقال: أوفي بنذري. فقالوا: لا ندعك تذبحه حتى تعذر فيـه إلى ربـك، ولئـن فعلت فما يزال الرجل منا يأتي بابنه فيذبحه وتكون سُنّة. وانطلقوا به إلى كاهنة معروفة عندهم وقص عبدالمطلب القصة عليها، فقالت: كم الديـة عندكـم؟ قـالوا: عشـرة مـن الإبل. فقالت: ارجعوا وقَرِّبـوا صـاحبكم وعشـرة مـن الإبـل، واضربـوا عليـه وعليهـا القداح، فإن خرجت القرعة على صـاحبكم فزيـدوا في الإبـل عشـرة أخـرى، وهكـذا حتى يرضى ربكم ويُخلِّص صاحبكم، فإذا خرجت علـى الإبـل فانحروهـا فقـد رضـي ربكم بنجاة صاحبكم. فرجعوا وقَرَّبوا عبدا لله وعشـرة مـن الإبـل، ودعـا عبدالمطلب فخرجت القرعة على عبدا لله، فاسـتمر يزيـد عشـرة عشـرة حتـى بلغـت الإبـل مائـة، فخرجت القرعة على الإبل فنُحِرت وتُرِكت لا يُصد عنها إنسـان ولا طـائر ولا سـبع. ولهذا لُقِّبَ عبدا لله بالذبيح، كما لقب بذلك اسماعيل بن إبراهيم عليهما السـلام، ولـذا كان النبي -ﷺ- يقول : ((أنا ابن الذبيحين))[1].

ولما بلغ عبدا لله مبلغ الرجال زوَّجه أبوه عبدالمطلب من آمنة بنت وهب سـيد بـني زُهرة من قريش، ودخل بها وحملت بمحمـد -ﷺ-. ولمـا تم مـن حَملـه شـهران سـافر عبدا لله مع بني قومه إلى غزَّة للتجارة، ولما رجعوا مَرَّ على أخـوال أبيـه مـن بـني عـدي بالمدينة فمرض، فتركه رفقاؤه عندهم وواصلوا سـيرهم راجعين إلى مكـة. ولمـا سـألهم عبد المطلب عنه قالوا خلَّفناه مريضـاً عنـد أخوالـه بالمدينـة، فبعـث إليـه أخـاه الحـارث فوجده مُتوفّى، فحزن عليه عبدالمطلب حزناً شديداً. ومكثت آمنة في بيتها تحت رعايـة عبدالمطلب إلى أن وضعت مولودها محمداً -ﷺ-، فَسُرَّ به عبدالمطلب سـروراً عظيمـاً، وأرضعته أمه أياماً ثم أرضعته ثويبة الأسلمية، وكانت قد أرضعت قبله عمـه حمـزة بـن

---

[1] رواه الحاكم في المناقب من مستدركه وصححه.

عبد المطلب، ثم أعطاه جده لحليمة السعدية وبقي رضيعاً عندها حتى انتهت مدة رضاعه، ثم ردته إلى أمه وبقي في حضانتها ورعاية جده عبدالمطلب. ولما بلغ -ﷺ- أربع سنين خرجت به أمه إلى المدينة لزيارة أخوال جده عبدالمطلب بني عدي الذين توفي عندهم أبوه عبدا لله، فأقامت به عندهم شهراً ثم رجعت إلى مكة فوافتها المنية في أثناء الطريق بين مكة والمدينة بمكان يسمى الأبْوَاء أو شِعْبَ الحَجُون ودفنت بذلك المكان. وبوفاة أمه -ﷺ- صار يتيم الأبوين. قيل إن الملائكة قالت: إلهنا وسيدنا، بقي نبيك يتيماً. فقال تعالى: أنا له حافظ ونصير. قال بعضهم: إن الحكمة من ذلك لينظر النبي -ﷺ- إذا وصل إلى مدارج عِزِّه إلى أوائل أمره ويعلم أن العزيز من أعزه ا لله، وأن قُوَّته ليست من الآباء والأمهات ولا من المال، بل قُوَّته من ا لله تعالى، وأيضاً ليرحم الفقراء والأيتام، ولذا قال -ﷺ-: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما»[1].

وبعد وفاة أمه -ﷺ- قامت بحضانته أم أيمن بَرَكَة الحبشية وهي معتقة لأبيه عبدا لله، وقيل بل هو -ﷺ- الذي أعتقها، وقيل كانت لأمه عليه الصلاة والسلام. واستمر في كفالة جده عبدالمطلب إلى أن توفي فكفله عمه أبو طالب واسمه عبدمناف وكان يحبه حباً شديداً ويقدِّمه على أولاده في كل شيء. ولما بلغ -ﷺ- خمساً وعشرين سنة تزوج من خديجة بنت خويلد، وكانت ثيباً وعمرها أربعون سنة، وكانت له نعم الزوجة. ولما أتم الأربعين سنة أرسله ا لله رحمة للعالمين.

أجداده (ﷺ) من جهة أبيه وأمه :

أجداده عشرون جدًّا وهم : عبدالمطلب بن هَاشِمٍ بن عبد مَنَافٍ بن قُصَيٍّ بن كِلَابٍ بن مُرَّةَ بن كَعْبٍ بن لُؤَيٍ بن غَالِبٍ بن فِهْرٍ بن مَالِكٍ بن النَّضْرِ بن كِنَانَةَ بن خُزَيْمَةَ بن مُدْرِكَة بن إلْيَاسَ بن مُضَرَ بن نِزَارٍ بن مَعَدٍّ بن عَدنَان، وهذا من جهة أبيه.

---

[1] رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

وأما من جهة أمه فهم ثلاثة فقط ؛ لأن الثالث منهم هو الخامس من جهة أبيه وهم: وهب بن عَبدُ مَنافٍ بن زُهْرَةَ بن كِلاَبٍ. وقد نظم بعضهم هذا النسب الشريف فقال:

عِشْرُونَ جَدًّا مِنْ جُدُودِ الْمُصْطَفَى ... يَجِبْ عَلَيْنَا حِفْظُهُمْ بِلاَ خَفَا

خُذْهُمْ عَلَى التَّرتِيبِ عَبدُالْمُطَّلِبْ ... فَهَاشِمٌ عَبدُ مَنَافِ اِفْهَمْ تُصِبْ

قُصَيٌّ مَعْ كِلاَبٍ ثُمَّ مُرَّةْ ... كَعبٌ لُؤيٌّ غَالِبٌ ذُو مِرَّةْ

فِهرٌ يَلِيهِ مَالِكٌ فَالنَّضِرُ ... كِنَانَةٌ خُزَيْمَةٌ مُشْتَهَرُ

مُدْرِكَةٌ إِلْيَاسُ مِنْهُم مَعْ مُضَرْ ... نِزَارُ مَعْ مَعَدٌّ جَاءَ فِي الْخَبَرْ

وَضِفْ لَهُمْ عَدنَانَ يَا فَصِيحُ ... كَيْمَا يَتِمَّ النَّسَبُ الصَّحِيحُ

مِنْ جِهَةِ الآبَا وَأيضاً نِسْبَتُهْ ... مِنْ جِهَةِ الأُمِّ تَجِبْ مَعْرِفَتُهْ

أُمُّ النَّبِيِّ صَاحِبِ الْمَفَاخِرِ ... آمِنَةٌ بِنْتٌ لِوَهْبِ الطَّاهِرِ

اِبنٌ لِعَبدِ مَنَافِ عَالِي القَدْرِ ... اِبنٌ لِزُهْرَةَ مَعَ كِلاَبٍ فَادْرِ

فَأُمُّ طَهَ مَعْ أَبِيهِ تَجْتَمِعْ ... فِي جَدِّهِ كِلاَبٍ يَاهَذا اسْتَمِعْ

أعمَامُه وعمَّاتُه (ﷺ) :

أعمامه اثنا عشر، ثلاثة أشقاء أبيه وهم: أبو طالب والزبير وعبد الكعبة، وأمهم فاطمة بنت عمرو بن عايذ، وأربعة أشقاء وهم: حمزة وجَحْل والمقوَّم والغيداق، وأمهم هالة بنت أُهَيب، وقيل أم الغيداق هي ممنعة بنت عمرو، واثنان شقيقان وهما: العباس وضِرار، وأمهم نتلة بنت خباب، واثنان شقيقان وهما: الحارث وقُثَم، وأمهم صفية بنت جندب، وواحد فردي وهو أبو لهب، وأمه لبنى بنت هاجر.

فإن قيل كيف يكون أعمام النبي -ﷺ- اثني عشر وقد تقدم في الفقرة السابقة أن عبد المطلب له عشرة من البنين، وأن عبد الله والد النبي كان أصغرهم، ومقتضى هذا أن يكون الأعمام تسعة؟ فالجواب: إن عبد الله كان أصغرهم عند الاقتراع على الذبيح ويجوز أن يكون قد وُلِدَ لعبد المطلب بعد ذلك ثلاثة آخرون.

أما علاقتهم بالإسلام فمنهم خمسة لم يدركوا الإسلام وهم: الحارث والزبير وجَحْل وعبد الكعبة وقُثَم، وثلاثة أدركوا الإسلام و لم يُسْلِموا وهم: ضِرار والمُقوَّم والغيداق، وأما الأربعة الباقون وهم: حمزة والعباس وأبو طالب وأبو لهب فقد أدركوا الإسلام ولهم مواقف مختلفة معه، وفيما يلي بيان موقف كل منهم :

أما حمزة فإلى جانب كونه أحد أعمام النبي -ﷺ- فهو أخوه من الرضاع، فقد رضع من ثُويبَة الأسلميَّة التي رضع منها عليه الصلاة والسلام بعده لأنه أكبر من النبي بأربع سنين وقيل بسنتين. وكان من أوائل المسلمين دخولاً في الإسلام، وقد لقب بأسد الله وأسد رسوله، وممن شهد بدراً وأُحداً واستشهد بها على يد وحشي. وقد وجدوا في جسمه بضعاً وثمانين جرحاً، ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورجعة سهم، وأطلق عليه لقب سيِّد الشُّهداء . وقال عنه النبي -ﷺ-: ((خير أعمامي حمزة))[1] .

وأما العباس فكان أصغر أعمامه -ﷺ-، حضر بدراً مع المشركين مُكرهاً، وأُسِر مع من أُسِر، وفَدَى نفسه ورجع إلى مكة. أسلم سراً قبل فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة، وكان يكتم إسلامه إلى يوم فتح مكة، وقيل أسلم قبل يوم بدر وكان يكتم ذلك، وحضر يوم حنين في السنة الثامنة للهجرة، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة، وهو ابن ثمان وثمانين سنة.

وأما أبو طالب واسمه عبد مناف فالصحيح أنه مات كافراً و لم يدخل في الإسلام، ولكنه رغم ذلك كان يحب النبي -ﷺ- حباً شديداً، وكان يدافع عنه دفاعاً عظيماً منذ

---

(1) أخرجه الديلمي في الفردوس عن عابس بن ربيعة بلفظ: ((خير إخوتي عَلِي، وخير أعمامي حمزة)) الجامع الصغير 10/2.

تولي كفالته بعد موت عبد المطلب وإلى أن مات هو في السنة العاشرة من النبوة. روي أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي-ﷺ-وقال له:يا عم، قل لا إله الا ا لله، كلمة استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. فقال له: يا ابن أخي، لولا مخافة أن تقول قريش إني ما قلتها إلا جزعاًمن الموت لقلتها، لا لشيء إلا لأسُرَّك بها. ثم قال:

وَدَعَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحِي ... وَلَقَد صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا
وَعَرَضْتَ دِيناً لاَ مَحَالَةَ أَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلاَ الْمَلاَمَةُ أَوْ حَذَارِيَ سُبَّةً ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا

ونُقِل عن الإمام الشيخ عبدالوهاب الشعراني أن الإمام السُّبكي قال إن عم النبي أبا طالب بعد أن تُوفِيَ على الكفر أحياه ا لله تعالى وآمن به عليه الصلاة والسلام. ولما عَلِمَ بذلك الشيخ العلامة السُّجيني قال إن هذا هو اللائق بحبه-ﷺ-، وهو الذي اعتقده وألقى ا لله به[1].

وأنا أقول إن هذا هو اللائق بمن قال لقريش لما عرضوا عليه أن يُعطِيَهم محمداً ليقتلوه ويأخذ بدله عمارة بن الوليد: وا لله لبئس ما تَسُومونني، أتعطونني ابنكم أُطعِمه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا وا لله مما لا يكون أبداً حتى تروح الإبل، فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته لكم. ثم قال لمحمد -ﷺ-:

فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَابْشِرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنكَ عُيونَا
وَا للهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا

وأما أبو لهب واسمه عبدالعزى، وكُنِّيَ بأبي لهب لأنه كان يلتهب حُسناً. وهو كافر بنص القرآن، وفيه نزلت سورة المسد، وهي قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

---

(1) انظر شرح عقيدة العوام للمرزوقي، تأليف محمد نووي الشافعي.

وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾. قيل إن أخاه العباس رآه في النوم بعد موته بسنة فقال له: ما حالك؟ فقال: في النار، إلاَّ أنه خفف عني كل ليلة اثنين، وأمُصُّ من بين أصبُعَيَّ هاتين ماءً ، وأشار برأس أصبعه إلى النقرة التي تحت إبهامه، وذلك لإعتاقي ثُويبة حين بشَّرتني بولادة النبي -ﷺ- وبأمري لها بإرضاعه.

ويروى في سبب نزول السورة المذكورة أنه لما أُمِرَ -ﷺ- بإنذار عشيرته بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[1] خرج عليه الصلاة والسلام حتى صَعِدَ على الصفا ودعا قومه المؤمنين والكافرين فقال: يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني فلان إلى آخرهم، فاجتمعوا إليه، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقي؟ قالوا : ما جرَّبنا عليك كذباً. قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب : تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت السورة. فلما سَمِعَت امرأته وهي أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله -ﷺ- وفي يدها فِهر من حجارة، والفِهْرُ هو الحجر الطويل، وقيل الأملس، وقيل الصغير الذي يملأ الكف، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها فلم تَرَ إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك يهجوني، والله لو وجدته لضربته بهذا الفِهر، والله إني لقائلة: مُذمَّماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قَلَيْنا، ثم انصرفت. وتقصد بالمذمَّم رسول الله-ﷺ-لأن قريشاً تسميه بذلك. ومعنى المذمَّم ذو ذِمَّة وعهد صادق. وبعد ذلك أخذت تجمع الحطب والسَّعدان وهو نبت له شوك وتضمه بحبل من الليف وتجعل الحبل في عنقها ثم تحمله وتلقيه في طريقه -ﷺ-.

ومعنى السورة : التّبُّ هو الهلاك والخسران، وقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ المراد به هلك وخَسِرَ، وعبر باليدين مجازاً لأن أكثر الأفعال تزاول بهما، وهما

---

[1] الشعراء : 214 .

جملتان دُعائيتان كقولهم أهلكه الله وقد هلك. وقوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ معناه أن جميع ما كسب من مال وولد لا يستطيع رَدَّ الهلاك عنه. وقوله: ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ معناه سيحترق بعد موته بنار ملتهبة، فهي مآل ما كُنِّيَ به من تَلهُّب وجهه إشراقاً وحمرة. وقوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ هي أم جميل. وقوله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ معناه في رقبتها حبل من الليف، وهو الذي تحزم به الحطب كما تقدم، أي أنه سيكون آلة لتعذيبها في الآخرة في صورة سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعاً، وقيل إن هذا حصل لها في الدنيا لما رُوِيَ أنه بينما هي ذات يوم حاملة حزمة الحطب فقعدت على حجر لتستريح إذ أتاها ملَك فجذبها من خلفها بالحبل فماتت مخنوقة بحبلها. ويمكن الجمع بين القولين بأن ذلك حصل لها في الدنيا وسيحصل لها ما ذكر في الآخرة.

أما أبو لهب فقد مات كافراً بعد وقعة بدر بسبع ليال بداء يُسَمَّى العدسة، وهي قرحة تخرج بالبدن فتقتل صاحبها، وله ثلاثة أولاد عتبة ومعتب وقد أسلما، وعتيبة وقد مات كافراً.

أما عمات النبي -ﷺ- فستة: إحداهن صفية وهي أم الزبير بن العوام، وأمها هالة بنت أهيب أم حمزة، وقد توفيت بالمدينة في خلافة عمر بن الخطاب في سنة عشرين للهجرة ولها ثلاث وسبعون سنة ودفنت بالبقيع. والثانية أَرْوَى، والثالثة عاتكة، والرابعة أم حكيم وهي البيضاء، والخامسة برة، والسادسة أُميمة. ولا خلاف في إسلام صفية كما تقدم، واختلف في إسلام أروى وعاتكة. أما أم حكيم وبَرَّة وأُمَيمة فلا خلاف في عدم إسلامهن. وكلهن شقيقات عبدالله إلا صفية فهي شقيقة حمزة.

وأما أخواله -ﷺ- فهم أَسْوَدُ وعُمَيرٌ وعبدُ يغوث. وأما خالاته فهن: فريضة وفاختة لا غير. وجميعهم ماتوا قبل البعثة.

أزواجه (ﷺ):

قال عليه الصلاة والسلام: ما تَزوَّجت واحدة من نسائي ولا زَوَّجت واحدة من بناتي إلا بوحي جاءني به جبريل من ربه عز وجل. وطاعةً لله تعالى فقد عقد -ﷺ- على خمس عشرة امرأة، إحدى عشرة منهن بأَصْدِقَة تتراوح ما بين اثنتي عشرة أوقية من الذهب أو الفضة أو منهما معاً وأربعمائة درهم، وأربع وهبن له أنفسهن وهن: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت خزيمة الهلالية الملقبة بأم المساكين، وأم شريك، وخولة بنت حكيم. ومعلوم أن هبة الزوجة نفسها لزوجها هي إحدى خصائصه عليه الصلاة والسلام ولا تجوز لغيره كما تقدم قال تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. دخل بإحدى عشرة منهن ست قرشيات، وهن: خديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وأم سلمة هند بنت أمية، وسودة بنت زمعة. وأربع عربيات من حلفاء قريش، وهن: زينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة، وجويرية بنت الحارث. وواحدة إسرائيلية مسلمة، وهي: صفية بنت حُيَي بن أخطب من بني النضير. توفيت اثنتان منهن في عصمته وهما: خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة أم المساكين. وتوفي هو عن تسع، وهن: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وسودة بنت زمعة، وميمونة بنت الحارث، وأم سلمة هند بنت أمية، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وصفية بنت حُيَي بن أخطب، وهن اللاتي اخترنه عليه الصلاة والسلام لمَّا خيَّرهن الله سبحانه وتعالى بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ

(1) الأحزاب : 50 .

﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾[1] فقلن جميعاً: نريد الله ورسوله والدار الآخرة. قال الشيخ أحمد المرزوقي في عقيدة العوام:

عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ وَفَاةُ الْمُصْطَفَى	خُيِّرْنَ فَاخْتَرْنَ النَّبِيَّ الْمُقْتَفَى
عَائِشَةُ وَحَفْصَةٌ وَسَوْدَةْ	صَفِيَّةٌ مَيْمُونَةٌ وَرَمْلَةْ
هِنْدٌ وَزَيْنَبٌ كَذَا جُوَيْرِيَةْ	لِلْمُؤْمِنِينَ أُمَّهَاتٌ مُرْضِيَةْ

وفيما يلي نبذة مختصرة عن كل واحدة ممن دخل بهن وتُوُفِّينَ في عصمته أو تُوُفِّيَ عنهن :

(الأولى) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو الجد الرابع له -ﷺ-. تزوج بها قبل البعثة بخمس عشرة سنة، وعمرها أربعون سنة، وعمره -ﷺ- خمس وعشرون سنة، ولم يتزوج عليها حتى توفيت. وجميع أولاده من ذكور وإناث منها إلا إبراهيم فمن جاريته مارية القبطية التي أهداها له المقوقس حاكم مصر. وخديجة هي أول من آمن به -ﷺ- من النساء، كما أنها من خيرة نساء قريش حسباً ونسباً، ومن أغناهن. وقد ساندته في أداء رسالته التي أسعدت الناس جميعاً مساندة عظيمة بكل ما تملك من قوة ومال. ومن أهم المواقف التي أثبتت فيها خديجة صدقها مع النبي -ﷺ- وإخلاصها ومحبتها له موقفها عقب نزول الوحي عليه لأول مرة، قال أهل السير: لما نزل الوحي على النبي -ﷺ- لأول مرة في غار حراء الذي اعتاد أن يتعبد فيه، وقال له جبريل: يا محمد، ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] ثم غاب عنه، فانطلق إلى خديجة يرجف فؤاده وأخبرها الخبر وقال خشيت على نفسي، فقالت له كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ وتَصدُقُ الحَدِيثَ

---

(1) الأحزاب : 28-29 .

(2) العلق 1-5 .

وتَحْمِلُ الكَلَّ وتُقْرِي الضَّيف وتُعِينُ على نوائب الحق. وما زالت تتلطف به حتى سكن قلبه. وهكذا كانت معه طول عشرتهما التي دامت خمساً وعشرين سنة. توفيت رضي الله عنها في السنة العاشرة للبعثة، وقد حزن لوفاتها حزناً شديداً. روي أنه لما تزوج بعدها بعائشة رضي الله عنها قالت له: قد رزقك الله خيراً من خديجة. فقال: «والله ما رزقني الله خيراً منها، أحبتني حين كرهني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس، ورُزقت منها الأولاد». ولم تَرْوِ خديجة عنه -ﷺ- إلا حديثاً واحداً.

(الثانية) عائشة بنت أبي بكر الصديق، عقد عليها قبل الهجرة بسنتين، ودخل بها وعمرها تسع سنوات، أي في السنة الأولى للهجرة. ولم يتزوج -ﷺ- بكراً سواها، فسائر أزواجه ثيبات. وكانت أحبَّ نسائه إليه بعد خديجة. وروت عنه -ﷺ- ألفي حديث ومائتي حديث وعشرة أحاديث، وبرَّأها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم من التهمة التي أشاعها المنافقون عنها والمعروفة (بحديث الإفك) وسنتكلم عن هذه التهمة الباطلة وسنعرض بعض ما ورد فيها من الآيات الكريمة في إحدى الفقرات الآتية إن شاء الله. توفيت سنة ثمان أو تسع وخمسين للهجرة.

(الثالثة) حفصة بنت عمر بن الخطاب، تزوجها -ﷺ- في السنة الثالثة للهجرة وعمرها إحدى وعشرون سنة، وطلَّقها -ﷺ- لأنها أفشت أمراً أسَرَّه إليها لعائشة وكان بينهما مصادقة ومصافاة، فنزل عليه جبريل وقال له راجع حفصة فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة فراجعها. وسنتكلم عن هذه الحادثة في إحدى الفقرات الآتية إن شاء الله. روت ستين حديثاً، وتوفيت سنة خمس وأربعين للهجرة.

(الرابعة) سودة بنت زمعة، تزوجها -ﷺ- في السنة العاشرة للبعثة وعمرها ثلاثون سنة، ولما كبرت أراد عليه الصلاة والسلام أن يطلقها فقالت له لا تطلقني وأنت في حل من شأني، وإنما أريد أن أحشر مع نسائك، وإني قد وهبت يومي لعائشة، فأمسكها -ﷺ- ولم يطلقها. توفيت سنة أربع وخمسين للهجرة.

(**الخامسة**) زينب بنت خزيمة الهلالية، تزوجها -ﷺ- في السنة الثالثة للهجرة وعمرها ثلاثون سنة ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة، وقيل ثمانية أشهر ثم توفيت في نفس السنة التي تزوجها فيها.

(**السادسة**) أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة، تزوجها -ﷺ- في السنة الرابعة للهجرة وعمرها أربعون سنة، وولي العقد عليها ولدها من زوجها الأول، واستدل بذلك على أنه يجوز للابن أن يَلِيَ عقد أمه، وهو قول المالكية خلافاً للشافعية. روت ثلاثمائة وثمانية وعشرين حديثاً، وتوفيت سنة تسع وخمسين للهجرة.

(**السابعة**) زينب بنت جحش بن رئاب، تزوجها -ﷺ- في السنة الخامسة للهجرة وعمرها خمس وثلاثون سنة، وذلك بعد أن طلقها زيد بن حارثة إبطالاً لحكم التبنّي في الإسلام، وهي المقصودة بقوله تعالى: **﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾**[1]. روي أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة دخل بها رسول الله-ﷺ-بدون عقد استناداً لقوله تعالى: **﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾**، ومن زوَّجها الله بنفسه لا تحتاج إلى عقد. وقد تقدمت قصتُها بالتفصيل في فقرة (الواجب في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام) من هذا الباب عند الكلام على التبليغ. وكانت زينب تفتخر على أزواجه -ﷺ- فتقول زوَّجكن آباءكن، وأنا زوَّجني ربي من فوق سبع سموات. روت عشرة أحاديث، وتوفيت سنة عشرين للهجرة.

(**الثامنة**) جويرية بنت الحارث الخزاعية، تزوجها الرسول-ﷺ- في السنة السادسة للهجرة وعمرها عشرون سنة، وكان عليه الصلاة والسلام قد أدى عنها كتابتها لثابت بن قيس لأنها وقعت في سهمه بشرط أن يتزوجها. روت سبعة أحاديث، وتوفيت سنة ست وخمسين للهجرة.

---

(1) الأحزاب : 37 .

(التاسعة) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، تزوجها -ﷺ- في السنة السابعة للهجرة وعمرها ثلاثون سنة بواسطة النجاشي ملك الحبشة، وذلك لأنها هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة وكان مسلماً ثم تنصر وثبتت هي على الإسلام، فعَلِمَ بذلك رسول الله -ﷺ- فأرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فزوَّجه إياها وأمهرها النجاشي نيابة عنه -ﷺ- أربعمائة دينار، ووَلِيَ عقد نكاحها ابن عم أبيها خالد بن سعيد بن العاص وأرسلها النجاشي إلى النبي -ﷺ-. ويروى أنه لما جاءها أبوها أبو سفيان بالمدينة قبل فتح مكة بقليل وقبل أن يُسْلِم وأراد أن يجلس على فراش النبي -ﷺ- منعته من ذلك وقالت: لا يجلس على فراش رسول الله مشرك. توفيت سنة أربع وأربعين للهجرة.

(العاشرة) صفية بنت حُيَيّ بن أخطب سيد بني النضير منسبط هارون بن عمران عليه السلام. قُتِل أبوها مع بني قريظة، وقد اختارها -ﷺ- لنفسه من سَبْي خيبر ثم أعتقها وأسلمت، فتزوجها-ﷺ-وجعل عتقها صداقها، وذلك في السنة السادسة للهجرة وعمرها سبع عشرة سنة. روي أنه دخل عليها رسول الله-ﷺ- فوجدها تبكي فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: إن عائشة وحفصة تقولان نحن خير من صفية، نحن بنات عم النبي وأزواجه. فقال: ألا قلت لهن كيف تَكُنَّ خيراً مِنّي وأبي هارون، وعمي موسى، وزوجي محمد. فسُرَّت بذلك. روت عشرة أحاديث، وتوفيت سنة خمسين للهجرة.

(الحادية عشرة) ميمونة بنت الحارث الهلالية، وكان اسمها بَرَّة، فسماها -ﷺ-ميمونة، تزوجها عليه الصلاة والسلام في السنة السابعة للهجرة وهو مُحرِم بعمرة القضاء، وعمرها عشرون سنة. وعقد الزواج في حالة الإحرام بحج أو عمرة جائز بالنسبة له عليه الصلاة والسلام، وهذا من خصائصه كما تقدم. وهي آخر زوجة تزوجها الرسول -ﷺ-، وآخر من توفي من أزواجه. روت ستة وسبعين حديثاً. توفيت سنة إحدى وستين للهجرة.

هؤلاء هُنَّ أزواج النبي -ﷺ- اللاتي دخل بهن و لم يفارقهن حتى توفين في عصمته أو توفي عنهن، أما غيرهن ممن وهبت نفسها له أو خطبها و لم يعقد عليها أو عقد عليها و لم يدخل بها لموت أو طلاق فنحو ثلاثين امرأة.

وأفضل أزواج النبي -ﷺ- خديجة بنت خويلد، لما روي أنه لما قالت له عائشة عندما تزوجها: قد رزقك الله خيراً من خديجة. قال لها : ((لا والله ما رزقني خيراً منها، آمنت بي حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس، ورُزِقت منها الأولاد))، ثم عائشة بنت أبي بكر الصديق، ثم زينب بنت جحش، ثم باقي أزواجه، فهن في درجة واحدة في الأفضلية.

سراريه (ﷺ):

السَّراري جمع سُرِّية بضم السين على غير قياس منسوبة للسِّر وهو الجماع، وهذا من تغيير النِّسَب كما في القاموس، والقياس هو كسر السين. وقال في المصباح: السُرِّية مأخوذة من السِّر وهو النكاح. فالضم على غير قياس فرقاً بينها وبين الحرة إذا نكحت سِراً فإنه يقال لها سِرِّية بكسر السين على القياس. وقيل مأخوذة من السُرِّ بضم السين بمعنى السرور لأن مالكها يُسَرُّ بها فهو على القياس.

وكان له -ﷺ- أربع جَوارٍ: **(الأولى والثانية)** مارية القبطية وأختها سيرين، أهداهما له المقوقس حاكم مصر. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: ((ستفتح لكم مصر، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم رَحِماً وصِهراً))[1]. قيل إن المراد بالرَّحِم هاجر أم إسماعيل جدِّه عليه الصلاة والسلام وجَدِّ العرب كلهم، فإنها كانت قِبطية. والمراد بالصِّهر مارية القبطية فإنها أم ولده إبراهيم. وقد وطئها -ﷺ- بملك اليمين بعد أن

---

[1] رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر مرفوعاً، وكذلك الطبراني وابن يونس في تاريخ مصر عن كعب بن مالك مرفوعاً.

أسلمت، ولما أنجبت ابنها إبراهيم قال عليه الصلاة والسلام: «أعتقها ولدها»[1]. أما سيرين فأهداها لحسان بن ثابت رضي الله عنه.

(الثالثة) ريحانة بنت يزيد، إسرائيلية مُسلِمة من بني النضير، اختارها -ﷺ- لنفسه وخيَّرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام، فاتخذها عليه الصلاة والسلام موطوءة له بملك اليمين، ولهذا لم يَعُدَّها أكثر أهل السِّيَر من زوجاته. وقيل إنها كانت إحدى زوجاته، وأنه بعد أن اختارت الإسلام أعتقها وتزوجها وذلك في السنة السادسة للهجرة، ثم طلَّقها لشدة غيرتها عليه فأكثرت البكاء فراجعها، ولم تزل عنده حتى توفيت عند رجوعه -ﷺ- من حجة الوداع. **(الرابعة)** جارية اسمها نفيسة، وهبتها إياه زوجه زينب بنت جحش.

حديث الإفك :

الإفك: هو أسوأ الكذب وأقبحه. وخلاصة هذا الحديث أن النبي -ﷺ- كان من عادته إذا أراد أن يسافر أن يُقرِع بين أزواجه أيتهن التي تسافر معه. فلما أراد عليه الصلاة والسلام أن يتوجه لغزوة بني المصطلق وتسمى غزوة المُرَيْسِيع، وهو اسم ماء من مياههم أقرع بين أزواجه، فجاءت القرعة على عائشة رضي الله عنها فتوجهت معه. ولما رجعوا من الغزوة توقفوا في أثناء الطريق للراحة، فخرجت عائشة رضي الله عنها من مكان الرحل لقضاء بعض شأنها، ولما رجعت وجدت أن عقدها قد انقطع وسقط منها، فذهبت إلى المكان الذي ظنت أنه سقط فيه فوجدته وعادت إلى الرحل. وفي أثناء غيابها آذن الرحل بالمسير وحملوا هودجها على بعيرها يحسبونها فيه. ولما لم تجدهم جلست في نفس المكان، وظنت أن القوم سيفقدونها فيرجعون إليها، وهذا من كمال عقلها وحُسن رأيها؛ فإن من آداب السفر أن الإنسان إذا ضل عن رفقته وعَلِم

---

[1] رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي في السنن عن ابن عباس بلفظ: «أعتق أم إبراهيم ولدها».

أنهم سيبحثون عنه جلس في المكان الذي تركوه فيه ولا ينتقل منه فربما رجعوا إليه. ولما طال انتظارها غلبتها عيناها فنامت. وكان صَفوَان بن المُعطَّل أحد المسلمين المشتركين في الغزوة من عادته أن يتخلف عن الرحل ليلتقط ما يسقط من المتاع، ولما وصل إلى مكان الرحل رأى سواد إنسان نائم، فعرف أنها عائشة رضي الله عنها، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. وأخذ يكرر هذه الجملة حتى استيقظت، فقامت وغطت وجهها بملاءتها، فأناخ راحلته ولم تسمع منه كلمة غير الاسترجاع، فركبتها وانطلق يقود بها حتى لحقا بالقوم. وكان في القوم كبير المنافقين عبدالله بن أُبَي بن سَلُول، فأشاع هو وأتباعه من المنافقين فعل الفاحشة بين عائشة رضي الله عنها وصفوان، وصدَّق هذه الإشاعة المنافقون وضعفاء المسلمين، فشق ذلك على النبي -ﷺ- فجمع الصحابة وقال: يا معشر المسلمين، من يَعذُرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمتِ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا لي رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً. فقال سعد بن معاذ سيد الأوس: أنا أعذرك منه يارسول الله، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقال سعد بن عبادة سيد الخزرج: كذبت يا ابن معاذ، فوالله ما تقدر على ذلك. وهَمَّ الأوس والخزرج بالقتال، ولكن النبي -ﷺ- أمرهم بالإعراض عن ذلك. وبَقِيَ الحال على ما هو عليه مدة شهر أو يزيد.

قالت عائشة رضي الله عنها : بقيت شهراً اشتكي لا أدري مما يفيضون من قول أصحاب الإفك، ويُريبني أني لا أرى من رسول الله -ﷺ- اللطف الذي كنت أراه منه حين أمرض حتى شُفيت من مرضي، ثم خرجت مع أم مسطح قِبَل المناصع ليلاً فعَثَرتْ في مرطها فقالت: تعس مسطح. فقلت: تسبين رجلاً من أهل بدر؟ فحَدَّثتها بما قال في الإفك، فزاد مرضي، ولما رجعت إلى بيتي قلت لرسول الله: ائذن لي في الذهاب إلى أبوي. فأذن لي. فلما جئت لأهلي قلت لأمي: ما هذا الذي يتحدث به الناس. فقالت: يا بنيتي هوِّني على نفسك. فَبِتُّ تلك الليلة لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم

حتى مرّت عليَّ ليلتان ويوم، فأصبح عندي أبواي، وبينما هما جالسان معي وأنا أبكي استأذنت امرأة من الأنصار فأذِنت لها فجلست تبكي معي.

فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله -ﷺ- فجلس و لم يجلس عندي من يوم قيل فِيَّ ما قيل، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، فتشهد ثم قال: يا عائشة، إنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيُبرئُك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه. فلما أتم رسول الله -ﷺ- كلامه قَلَصَ دمعي وقلت لأبي: أجب عني رسول الله. فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. قالت: وكنت جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني برئية -والله يعلم أني بريئة- لا تصدقونني في ذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله يعلم أني برئية- لَتُصدِّقُنّني. والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف حين قال: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** ﴾[1] ، ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا أرجو أن الله مبرئي، ولكن ما ظننت أن ينزل في شأني وحي، وأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فِيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يُبرِئُني الله بها، فوالله ما كاد يقوم من مجلسه حتى نزل عليه الوحي، فلما سُرِّيَ عنه كان أول كلمة تكلم بها: يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برّأك، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسِبُوهُ شَراً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾[2] إلى قوله: ﴿ **أُوْلَئِكَ**

(1) يوسف : 18 .

(2) النور :11 .

﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1] ، ست عشرة آية من سورة النور. قالت عائشة رضي الله عنها: فقالت أمي: قومي لرسول الله -ﷺ-. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله الذي برّأني. قال الشيخ البيجوري في حاشيته على الجوهرة: لم يكن قول عائشة رضي الله عنها عن رسول الله (والله لا أقوم إليه) لشيء كان في نفسها من رسول الله، فإن مقامها يجل عن ذلك، وإنما استغرقت في مقام الشهود حتى أنها لم تشاهد إلا الله. وكانت هذه الحادثة في السنة الرابعة للهجرة[2].

هذه خلاصة حديث الإفك. أما الآثار التي ترتبت عليه فهي كما يلي:

(أولاً) البحث عن الخائضين فيه ومعاقبتهم، وبالبحث عنهم تبين أنهم لا يزيدون عن الأربعين ولا ينقصون عن العشرة لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ والعصبة لا تزيد عن العدد الأول ولا تنقص عن العدد الثاني. ولكن المعروفين منهم بأسمائهم أربعة فقط: **(الأول)** عبدالله بن أُبي بن سَلُول، وهو الذي تَولّى مُعظمه فبدأ بالخوض فيه وأشاعه. **(الثاني)** حسّان بن ثابت. **(الثالث)** مسطح بن أثاثة، قريب أبي بكر الصديق رضي الله عنه. **(الرابع)** امرأة وهي حَمنة بنت جحش. وقد أقيم عليهم حد القذف فجُلِدوا ثمانين جلدة إلا عبدالله بن أبي بن‌سلول تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾[3] ، وقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾[4] أي جزاء ما اقترف من الإثم. أما كبيرهم وهو عبدالله ابن أُبي فجزاؤه أعظم من الجلد وهو الخِزيُ في الدنيا والخلود في النار، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[5] .

---

(1) النور :26 .

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) النور : 4 .

(4) النور : 11 .

(5) النور : 11 .

(ثانياً) زجرهم وتوبيخهم، وهو ما اشتملت عليه الآيات التي وردت في أصل براءة عائشة رضي الله عنها وهي الإحدى عشرة آية الأولى التي تبدأ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَآءُواْ بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أول الآية الحادية عشرة من سورة النور، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَّشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ آخر الآية الواحدة والعشرين من السورة المذكورة.

وقد اشتملت هذه الآيات على تسع زواجر للخائضين في الإفك: (أولها) قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (الثاني) قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾. (الثالث) قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. (الرابع) قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾. (الخامس) قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾. (السادس) قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. (السابع) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾. (الثامن) قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. (التاسع) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

(ثالثاً) النهي عن قطع الصدقة عن الفقراء الذن خاضوا في الإفك، وهو ما اشتملت عليه الآية الثانية والعشرون من السورة وهي قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُواْ أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَّغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فقد روي أنه لما نزلت الآيات السابقة لها والمتعلقة ببراءة عائشة رضي الله عنها قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه وكان يُنفق على قريبه مسطح بن أثاثة: والله لا أنفق على مسطح بشيء أبداً بعد

أن قال ما قال في عائشة. فنزلت الآية فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله إني لأحب أن يغفر الله لي. ورجع إلى الإنفاق على مسطح. وكذلك فعل من كان مثله مُقابلةً للسيئة بالحسنة.

(رابعاً) تأكيد براءة عائشة رضي الله عنها، وهو ما اشتملت عليه الآيات الأربع التي تبدأ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أول الآية الثالثة والعشرين من السورة إلى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ آخر الآية السادسة والعشرين.

أما إبراء عائشة رضي الله عنها مما أشاعه المنافقون فقد صار عقيدة من جملة عقائد التوحيد، فمن جحدها أو شك فيها فهو كافر لتكذيبه القرآن الكريم.

أولاده (ﷺ) :

أولاده عليه الصلاة والسلام سبعة، ثلاثة ذكور وهم: القاسم وعبدالله وإبراهيم، وأربع إناث وهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وكلهم من خديجة إلا إبراهيم فمن مارية القبطية. قال الشيخ أحمد المرزوقي في عقيدة العوام :

وَسَبْعَةٌ أَوْلاَدُهُ فَمِنْهُمُ	ثَلاثَةٌ مِّنَ الذُّكُورِ يُفهَمُ
قَاسِمْ وَعَبْدُا للهِ وَهوَالطَّيِّبُ	وَطَاهرٌ بِذَيْنِ ذَا يُلَقَّبُ
أَتَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِن سُرِّيَّهْ	فَأُمُّهُ مَارِيَةُ القِبْطِيَّهْ
وَغَيْرُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ خَدِيجَهْ	هُمْ سِتَّةٌ فَخُذْ بِهِمْ وَلِيجَهْ
وَأَرْبَعٌ مِنَ الإِنَاثِ تُذْكَرُ	رِضْوانُ رَبِّي لِلجَمِيعِ يُذكَرُ
فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ بَعْلُهَا عَلِي	وَابْنَاهُمَا السِّبْطَانِ فَضْلُهُمْ جَلِي
فَزَيْنَبٌ وَبَعْدَهَا رُقَيَّهْ	وَأُمُّ كُلْثُومٍ زَكَتْ رَضِيَّهْ

وفيما يلي بيانهم بالتفصيل :

(أ) **الذكور:** (**الأول**) القاسم، ويُكَنَّى به -ﷺ-، فيقال محمد أبو القاسم. وقد وُلِدَ وتُوُفِّيَ بمكة صغيراً قبل الهجرة و لم يتجاوز عمره العامين.

(**الثاني**) عبدا لله، ويلقب بلقبين الطاهر والطيب، فيقال عبدا لله الطاهر أو عبدا لله الطيب. وقد وُلِدَ وتُوُفِّيَ بمكة صغيراً قبل الهجرة أيضاً و لم يتجاوز عمره العامين. روي أنه لما تُوُفِّيَ عبدا لله قال العاص بن وائل: انقطع ولد محمد فهو أبتر. فأنزل ا لله قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾[1]، والخطاب له -ﷺ-. والكوثر هو الخير الكثير من النبوة والقرآن والشفاعة والحكمة وكثرة الأتباع والأمة وغير ذلك مما لا يُحصَى. وقيل هو نهر في الجنة، أو هو حوضه الذي تَرِدُ عليه أمته. وشانئك هو مُبغِضُك، والأبتر المنقطع من كل خير، وهو العاص بن وائل.

(**الثالث**) إبراهيم وقد وُلِدَ بالمدينة في ذي الحجة سنة ثمان للهجرة، وتُوُفِّيَ بها في شوال سنة عَشْرٍ للهجرة قبل وفاة رسول ا لله-ﷺ- بخمسة أشهر تقريباً، وعاش سنة وعشرة أشهر تقريباً، ودفن بالبقيع. روي أنه لما تُوُفِّيَ إبراهيم بكى رسول ا لله -ﷺ- وذرفت عيناه. فقال له عبدالرحمن بن عوف: تبكي يا رسول ا لله! أو لم تنه عن البكاء؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ((نهيت عن النوح والغناء، عن صوتين أحمقين فاجرين، وعن خمش الوجوه وشق الجيوب ورَنَّة الشيطان، ولكن هذه رحمة جعلها ا لله في قلوب الرحماء، ومن لا يَرحَم لا يُرحَم))، ثم قال: ((القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول ما يُسْخِطُ الرب تعالى وتقدس))، ثم قال: ((إنا لِفِراقِك يا إبراهيم لمحزونون، وَإِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ))[2].

---

[1] الكوثر : 1 - 3 .

[2] رواه البخاري.

(ب) الإناث: (الأولى) زينب، وُلِدَت قبل البعثة بإحدى عشرة سنة، وأدركت الإسلام وأسلمت، وتزوجها ابن خالتها أبو العاصي بن الربيع، وأمه هالة بنت خويلد.

هاجرت زينب إلى الحبشة دون زوجها لأنه لم يكن مسلماً آنذاك، فلما أسلم جمع بينهما -ﷺ-. قال بعضهم وإنما لم يفرق بينهما رسول الله -ﷺ- من أول البعثة لأن تحريم نكاح المشرك للمسلمة إنما كان بعد الهجرة. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان الإسلام قد فرَّق بين زينب وبين أبي العاصي، إلا أن رسول الله -ﷺ- لم يقدر أن يُفرِّق بينهما لأنه كان مغلوباً بمكة. وَلَدَت زينب لأبي العاصي ولداً سمَّاه علياً، وبنتاً سمَّاها أُمَامَة. فأما عَلِيٌّ فمات مُراهِقاً أي مقارباً للبلوغ ، وأما أُمَامَة فكان يُحِبُّها -ﷺ- حباً شديداً إلى درجة أنه كان يحملها في الصلاة على عاتقه، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها إلى عاتقه. تزوجها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بعد وفاة خالتها فاطمة بنت رسول الله -ﷺ- بوصية من فاطمة. وتزوجها بعد عَلِيٍّ أي بعد وفاته المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بوصية من عَلِيٍّ. وتوفيت زينب سنة ثمان من الهجرة، وكان عمرها اثنتين وثلاثين سنة.

(الثانية) رُقَيَّة، وُلِدَت قبل البعثة بتسع سنوات تقريباً، تزوجها عتبة بن أبي لهب، وتزوج عُتيبَة أخوه أختها أم كلثوم و لم يدخلا بهما، فلما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أمرهما أبو لهب بمفارقتهما ففارقاهما قبل الدخول. ثم تزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه رُقَيَّة بمكة بوحي من الله تعالى نزل على رسول الله-ﷺ-، وهاجر بها الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة. ووَلَدَت لعثمان ولداً سماه عبدالله، وكان يُكنَى به فيقال أبو عبدالله عثمان. تُوُفِّيَ وعمره ست سنوات، ثم تُوُفِّيَت رُقَيَّة في السنة الثانية للهجرة عند غزوة بدر. وقد تخلف عثمان رضي الله عنه عن الغزوة بأمر رسول الله -ﷺ- لأجلها. قيل إن خبر انتصار المسلمين في بدر وصل المدينة وعثمان رضي الله عنه لازال واقفاً على قبرها يسوي التراب، وكان عمرها أربعاً وعشرين سنة.

(**الثالثة**) أم كلثوم، ولا يعرف لها اسم غيره. وُلِدَت قبل البعثة بسبع سنوات، وتقدم أنه عقد عليها عُتيبَة بن أبي لهب و لم يدخل بها، وتزوجها عثمان بن عفان رضي ا لله عنـه بوحي من ا لله تعالى نزل على رسول ا لله -ﷺ- بعـد وفـاة أختهـا رُقيـة، ولـذا سُمِّيَ عثمان رضي ا لله عنه بذي النورين. روي أنه لما تُوفِّيت رقيـة بنـت رسـول ا لله -ﷺ- وتُوفِّي في الوقت نفسه زوج حفصـة بنـت عمـر بـن الخطـاب رضـي ا لله عنـه خطـب عثمان حفصة من عمر، فبلغ ذلك رسول ا لله -ﷺ-، فلما جاءه عمر قال له: يا عمر، ألا أدلك على خير لك من عثمان، وأدل عثمان على خير له منك؟ قال: نعم، يارسول ا لله. قال: زوجني جفصة، وأُزوِّج عثمـان أم كلثـوم. تُوفِّيـت سـنة تسـع مـن الهجـرة، وكان زواجها مـن عثمـان في السـنة الثانيـة للهجـرة أي أن مـدة رفقتهـا لعثمـان سـبع سنوات، وكان عمرها تسعاً وعشـرين سـنة. روي أنـه -ﷺ- قـال بعـد وفـاة ابنتـه أم كلثوم: زَوِّجوا عثمان، فلو كان لي ثالثة زوجتها له.

(**الرابعة**) فاطمة، وُلِدَت قبل البعثة بخمـس سـنوات، وهـي أصغـر بناتـه-ﷺ-، وكـان يحبها حباً شديداً. تزوجها عَلِي بن أبي طالب كرم ا لله وجهه بوحي مـن ا لله تعـالى في شهر رمضان مـن السـنة الثانيـة للهجـرة، ودخـل بهـا في شـهر ذي الحجـة مـن السـنة المذكورة. فعن أنس رضي ا لله عنه قال: كنت عند رسول ا لله -ﷺ- فغشـيه الوحـي، فلما أفاق قال لي: يا أنس، أتدري ما جاءني به جبريل عليه السلام من صاحب العـرش عز وجل؟ قال، قلت: بأبي أنت وأمي، ما الذي جاءك به جـبريل عليـه السـلام؟ قـال: قال لي إن ا لله تبارك وتعـالى يـأمرك أن تُـزوِّج فاطمـة لِعَلِـي. فـانطلق وادع لي أبـابكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار. قـال: فـانطلقت فدعوتهـم. فلمـا أخذوا مجالسهم، قال رسول ا لله -ﷺ-: «الحمد لله المحمود بنعمتـه، المعهـود بقدرتـه، المطاع سلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسمائه، الذي خلق الخلـق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد-ﷺ-. إن ا لله عزوجـل

جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، وحكماً عادلاً، وخيراً جامعاً، وشَجَّ به الأرحام، وألزمها الأنام، فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾[1]، وأمر الله تعالى يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[2]. ثم إن الله تعالى أمرني أن أُزَوِّجَ فاطمة من عَلِيٍّ، وأُشهدكم أني زوَّجت فاطمة من عَلِي على أربعمائة مثقال من الفضة إن رَضِيَ بذلك، على السُّنة القائمة والفريضة الواجبة. فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة، وأمن الأمة. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم)). وكان عَلِيٌّ كرم الله وجهه غائباً في حاجة لرسول الله-ﷺ-، فلما رجع تبسم إليه رسول الله-ﷺ- وقال: يا عَلِي إن الله أمرني أن أُزوِّجك فاطمة، وإني قد زوجتكها. فقال عَلِي: رضيت يارسول الله. وخَرَّ ساجداً شكراً لله. فلما رفع رأسه قال له رسول الله -ﷺ-: بارك الله لكما وعليكما، وأَسْعد جَدَّكما (أي حظكما)، وأخرج منكما الكثير الطيب. قال أنس: والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب، رضي الله عنهما وأرضاهما.

وأنجبت فاطمة من عَلِيٍّ ستة من الأولاد، ثلاثة ذكور وهم: الحَسَن والحُسَين والمُحْسِن، وثلاث من الإناث وهن: أم كلثوم وزينب ورقية. فأما الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب فعاشوا وكبروا وتزوَّجوا وتناسلوا، وأما المحسن-ورقية فقد ماتا صغيرين.

تُوُفِّيَت فاطمة رضي الله عنها في شهر رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة، أي بعد وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام بستة أشهر، وكان عمرها إحدى وثلاثين سنة تقريباً.

---

(1) الفرقان : 54 .

(2) الرعد : 40 .

روي أن فاطمة رضي الله عنها دخلت على أبيها رسول الله -ﷺ- ذات يوم فقال لها: مرحباً بابنتي. ثم أجلسها عن يمينه وأسرَّ لها حديثاً فبكت، ثم أسرَّ لها حديثاً آخر فضحكت. فسألتها عائشة رضي الله عنها عما قاله لها، فقالت: ما كنت لأُفْشِيَ سِرَّ رسول الله -ﷺ-. فلما تُوُفِّيَ عليه الصلاة والسلام أعادت عليها السؤال، فقالت: قال لي في المرة الأولى إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرة واحدة، وفي هذا العام عارضني مرتين، ولا أراه إلا قد حضر أجلي، وأنك أول أهل بيتي لحوقاً بي فبكيت. أما في المرة الثانية فقال لي: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء العالمين، فضحكت[1].

أصحَابُ النبي (ﷺ) :

الأصحَابُ والصَّحبُ جمع صاحب وهو لغة : من طالت عشرتك به. والمراد هنا الصَّحَابِيُّ وهو من اجتمع بنبينا محمد -ﷺ- مؤمناً به بعد البعثة في محل التعارف بأن يكون على وجه الأرض وإن لم يَرَهُ أو لم يَرْوِ عنه شيئاً أو لم يُمَيِّز كالأطفال على الصحيح. قال ابن حجر في الإصابة: وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي -ﷺ- مؤمناً به ومات على الإسلام، فإن ارتدَّ -والعياذ بالله- فليس بصحابي كعبدالله بن خَطَل، وأما من عاد إلى الإيمان كعبد الله بن سعد بن أبي السرح فتعود له الصحبة لكن مجردة عن الثواب عند الشافعية خلافاً للمالكية فالمشهور عندهم عدم عودها. وعندهم قول آخر بالتردد بين العَوْد وعَدمِه، وعليه فلا مانع من الرجوع في ذلك لمذهب الشافعية. وفائدة العَوْد التسمية والكفاءة ، فيُسمَّى صحابياً ويكون كفؤاً لبنت الصحابي. ويدخل في الصحابي الأعمى كعبد الله بن أم مكتوم، وكُنيَت أمه به لكتم بصره، كما يدخل عيسى وإلياس والخِضر عليهم الصلاة والسلام،

---

(1) رواه البخاري.

وتدخل الملائكة الذين اجتمعوا به في الأرض على القول بأنه مبعوث للملائكة وهو الذي رجحه السُّبكي، فعيسى عليه السلام آخر الصحابة من البشر. ويخرج النجاشي ملك الحبشة فليس بصحابي وإن كان مسلماً لعدم اجتماعه برسول الله -ﷺ- ، فقد أسلم ولكنه لم يهاجر حتى يجتمع برسول الله عليه الصلاة والسلام.

ومما يُذكر مع الصَّحْب دائماً (الآل) وأصله الأهل، بدليل تصغيره على أُهَيْل. وله معان باعتبار المقامات. ففي مقام الدعاء كل مؤمن ولو عاصياً، لأن العاصي أشد احتياجاً للدعاء من غيره. وفي مقام المدح كل مؤمن تَقِي، أخذاً بما ورد في قوله عليه الصلاة والسلام: ((آل محمد كل تقيٍّ))[1] . وفي مقام الزكاة عند المالكية والحنابلة بنو هاشم فقط، وعند الشافعية بنو هاشم وبنو المطلب، وعند الحنفية خمس فرق: آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل كوكيل، وآل العباس، وآل الحارث.

أما الحزب فهو الجماعة الذين أمرهم واحد في خير أو شر، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2] ، وأما قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾[3] فالمراد به أتباعه، وقوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ﴾[4] المراد به من يتبعون أوامره ويجتنبون نواهيه. والمراد به في هذا المقام على الظاهر من غلبت ملازمته له -ﷺ- ، فهو خاص الخاص لأنهم أخص من الصحب الذين هم أخص من الآل، ويحتمل أن يُراد به أتباعه مطلقاً سواء أكانوا في عصره أم لا، وهو أولى لما فيه من التعميم، ولا يغني عنه الآل لتخصيص بعضهم بالأتقياء.

وأصحاب النبي -ﷺ- هم أفضل القرون المتأخرة والمتقدمة ما عدا الأنبياء والرسل

---

(1) قال السيوطي رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أنس، وقال العجلوني رواه الديلمي وتمام بأسانيد ضعيفة ولكن له شواهد من معناه (كشف الخفا ، 18/1).

(2) المؤمنون : 54 .

(3) المجادلة : 19 .

(4) المجادلة : 22 .

لقوله -ﷺ-: ((إن الله اختار أصحابي عن العالمين سِوى النبيين والمرسلين))[1]، وقوله: ((الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم عَرَضاً من بعدي. فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه))[2] أي نصفه. ولا يخفى ترجيح رتبة من لازمه عليه الصلاة والسلام وقاتل معه وقُتِلَ تحت رايته على من لم يكن كذلك، وإن كان شرف الصحبة حاصلاً للجميع.

والقرون جمع قَرْن، ومعناه أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة كالصحابة فإنهم اشتركوا في الصحبة، وهكذا مَنْ بعدهم. وقيل معناه الزمان الذي اشترك أهله في الأمر المذكور. وسُمِّيَ قرناً لأنه يقرن بين أُمةٍ وأُمةٍ في آخر عهد الأولى وأول عهد الثانية. وفي مختار الصحاح القرن ثمانون سنة، وقيل ثلاثون سنة، والمتعارف عليه الآن (مائة سنة).

ويلي الصحابة في الرتبة التابعون لهم. والتابعي هو من اجتمع بالصحابي اجتماعاً متعارفاً، ولا يشترط فيه طول الاجتماع كما في الصحابي مع النبي-ﷺ- وهو المعتمد، كما لا يشترط فيه التمييز على المعتمد عند الشافعية خلافاً لغيرهم ممن يشترط ذلك. قال الشيخ البيجوري: وأفضل التابعين أُوَيْسٌ القَرني، وأفضل التابعيات حفصة بنت سيرين. ويلي التابعين في الرتبة تابعو التابعين، وقياساً على التّابعي مع الصحابي فيكون تابع التّابعي هو من اجتمع مع التابعي اجتماعاً متعارفاً، ولا يشترط فيه طول الاجتماع ولا التمييز كما تقدم في التابعي.

والأصل في الترتيب المتقدم قوله-ﷺ-: ((خَيرُكم قَرْنِي، ثم الذين يَلُونَهُم، ثم الذين يَلُونَهم))[3]. وظاهر هذا الحديث أن ما بعد القرون الثلاثة يَستَوون في الفضل. وقيل إن ما بعد ذلك من القرون يتفاوتون في الفضل كمن سبقهم، فكل قرن أفضل من الذي

---

(1) رواه الترمذي.

(2) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل، انظر تخريج العراقي 93/1 .

(3) رواه الشيخان عن عمران بن حصين.

بعده إلى يوم لقيامة، ودليل ذلك قوله-ﷺ-: ((ما من عام إلا والذي بعده شَرٌّ منه، حتى تلقوا ربكم))[1]. وقيل إنهم يتفاوتون في الفضل لكن ليس على أساس الأسبقية في الزمن بل على أساس توفيق ا لله، فقد يكون بعض القرون المتأخرة أفضل من بعض القرون المتقدمة أو العكس، ودليل ذلك قوله -ﷺ-: ((مَثَلُ أُمتي مَثَلُ المطر، لا يُدْرَى أوَّله خيرٌ أو آخره))[2].

خِيْرَةُ أصحابه (ﷺ) :

خِيرة أصحابه عليه الصلاة والسلام ستة أصناف على الترتيب: الخلفاء الأربعة، ثم الستة باقي العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل أُحُد، ثم أهل بيعة الرِّضوان، ثم السابقون إلى الإسلام. وفيما يلي بيان كل صنف من هذه الأصناف:

(الصنف الأول) الخلفاء الأربعة، وهم الذين تولوا الخلافة العظمى وهي النيابة عن رسول ا لله -ﷺ- في عموم مصالح المسلمين بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وقد قَدَّر -ﷺ- مدتها بثلاثين سنة، حيث قال: ((الخلافة بعدي ثلاثون (أي سنة)، ثم تصير مُلكاً عضوضاً))[3] أي ذا عَضٍّ وتضييق لأن الملوك يضُرُّون بالرعية حتى كأنهم يعضُّون عضاً.

فأول من تولى الخلافة العظمى أبوبكر الصديق رضي ا لله عنه، ومدته (عامان وثلاثة أشهر وعشرة أيام)، بعد وفاته -ﷺ-، ثم تولاها عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه، ومدته (عشرة أعوام وستة أشهر وثمانية أيام) بعد وفاة أبي بكر الصديق، ثم تولاها عثمان بن عفان رضيا لله عنه، ومدته (أحد عشر عاماً وأحد عشر شهراً وتسعة أيام) بعد وفاة عمر بن الخطاب، ثم تولاها علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه، ومدته

---

(1) رواه البخاري والترمذي عن أنس بن مالك.

(2) رواه الترمذي.

(3) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

(أربعة أعوام وتسعة أشهر وسبعة أيام) بعد وفاة عثمان بن عفان. المجموع (تسعة وعشرون عاماً وستة أشهر وأربعة أيام) فلم تكمل المدة التي قدَّرها رسول الله -ﷺ- إلا بأيام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما التي تولى الخلافة فيها بعد وفاة والده، وهي نحو ستة أشهر، ثم تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان. ولذا قال معاوية: أنا أول الملوك. يقصد قوله -ﷺ- : ((ثم تصير مُلكاً عضوضاً)).

وترتيب الأفضلية بين هؤلاء الأربعة عند أهل السنة حسب ترتيبهم في الخلافة؛ فأفضلهم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين. وخالفت الشِّيْعَةُ، وهم فرقة من المبتدعة يتغالون في حب سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقالوا بأفضلية عَلِيٍّ كرم الله وجهه على سائر الصحابة، وخالف بعض أهل السُّنة وجمهور المعتزلة فقالوا بأفضلية عَلِيٍّ كرم اللهوجهه على عثمان رضي الله عنه فقط.

(**الصنف الثاني**) السِّتَّة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة، وهم: طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة عامر بن الجراح. ولم يَرِدْ نص بتفاوت بعضهم على بعض في الأفضلية. وفي ترتيب هذه الأفضلية يقول صاحب الجوهرة:

وَصَحْبُهُ خَيْرُ القُرُونِ فَاسْتَمِعْ ... فَتَابِعِي فَتَابِعٌ لِمَنْ تَبِعْ
وَخَيْرُهُمْ مَنْ وَلِيَ الخِلاَفَةْ ... وَأَمْرُهُمْ فِي الفَضْلِ كَالخِلاَفَةْ
يَلِيهِمُ قَوْمٌ كِرَامٌ بَرَرَةْ ... عِدَّتُهُمْ سِتٌّ تَمَامُ العَشَرَةْ

(**الصنف الثالث**) أهل بدر، والمراد بهم من اشتركوا في غزوة بدر الكبرى والتي كانت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وعددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً على المشهور. ولا فرق بين من استشهد منهم فيها وعددهم أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، وبين من لم يُستَشْهَد. وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة

المشركين بعد أن قُتِلَ من أشرافهم سبعون رجلاً منهم أبو جهل وأُميَّة بن خلف وعُتبَة ابن ربيعة وأُسِرَ سبعون. وقد اشترك في القتال مع المسلمين خمسة آلاف من الملائكة كما أخبر القرآن الكريم بذلك. والحِكمة من قتال الملائكة وحضورهم مع المسلمين، مع أن المَلَكَ الواحد منهم كجبريل عليه السلام يقدر أن يقتلع الأرض بالمشركين ويَقلِبَها عليهم في لحظة أو أقل كما فعل بِقُرَى قوم لوط، أن تكون الملائكة عدداً ومدداً لجيش المسلمين على عادة مدد الجيوش، مراعاة لصورة الأسباب التي أجراها الله بين عباده. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، ولكنها تحضر في كل قتال يحصل بين المسلمين والكفار إلى يوم القيامة، لتكثير عدد المسلمين.

(**الصنف الرابع**) أهل أُحُد، والمراد بهم من اشتركوا في غزوة أُحُد، والتي كانت في السنة الثالثة للهجرة، وعددهم ألف رجل، منهم ثلاثمائة من المنافقين رجع بهم رئيسهم عبد الله بن أُبَي بن سَلُول أثناء المعركة، وسبعمائة ثبتوا مع رسول الله-ﷺ-. ولا فرق بين من استُشهِد منهم وعددهم سبعون رجلاً من بينهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي-ﷺ- وبين من لم يُستَشهَد. وقبل بَدء القتال جعل النبي-ﷺ- عبد الله بن جبير أميراً على الرماة بالنَّبْل وقال لهم: احموا ظهورنا واثبتوا مكانكم. فلما التحم القتال وشرع المسلمون في أخذ الغنائم ترك الرماة مكانهم وحملوا كلامه-ﷺ- على أن المراد ما دامت الحرب قائمة. فلما اشتغل الرماة بالغنائم انثنى عليهم المشركون، وأُشِيعَ أن رسول الله-ﷺ- قُتِل، ولكن الأمر انجلى وتبين أنه-ﷺ- لم يُقتَل بل هو صامد مع الثابتين معه في القتال، فانضم إليه المسلمون وأعملوا سيوفهم في رقاب المشركين فقتلوا منهم سبعين رجلاً. وكان طلحة بن عبيد الله يدافع عن النبي-ﷺ- حتى أُصِيب ببضع وسبعين جرحاً. وشُجَّ وجه رسول الله-ﷺ-، ورماه عُتبة بن أبي وقاص -لعنه الله- بحجر فكسر رَبَاعِيَته، أي سِنَّهُ التي بين الثنية والناب، وانهزم المشركون، وتم النصر للمسلمين.

وقد نزل في هذه الغزوة عدة آيات من القرآن الكريم في سورة آل عمران، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1]، وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾[3].

ولقد امتحن الله المسلمين في هذه الغزوة حتى تبين الصادقون منهم والمنافقون، كما امتحنهم في غزوة حنين ليعلموا أن العِبرة ليست بالكثرة وإنما بالإخلاص والإيمان. وحُنَين اسم وادٍ بين مكة والطائف تُقِيم به هَوَازن، وهي قبيلة حَلِيمَة السَّعدية مُرضِعة النبي -ﷺ-. وكانت هذه الغزوة في شوال من السنة الثامنة للهجرة عقب فتح مكة مباشرة، وكان عدد المسلمين اثني عشر ألفاً، وعدد المشركين أربعة آلاف، فَظنَّ المسلمون أنهم منتصرون لامحالة وتهاونوا في القتال، ولم يبق منهم مع رسول الله-ﷺ- إلا نحو مائتي مقاتل، والباقون وَلَّوا الأدبار حتى ناداهم العباس بن عبد المطلب وكان هو وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بجانب رسول الله-ﷺ- في المعركة، فاطمأنوا ورجعوا وحملوا على المشركين، وأنزل الله أعداداً كبيرة من الملائكة، قيل خمسة آلاف وقيل أكثر، ولم يقاتلوا كما فعلوا في غزوة بدر لأنهم في هذه المرة إنما نزلوا لتقوية المسلمين، فانهزم المشركون وغَنِمَ المسلمون منهم غنائم لم يسبق لهم مثلها، ولكنهم رَدُّوها إكراماً لأخت رسول الله مِن الرَّضَاع التي وُجِدَت في السَّبْي، وكان ذلك باعثاً لإسلام القبيلة كلها.

---

(1) آل عمران: 155 .

(2) آل عمران: 153 .

(3) آل عمران : 139-140 .

وفي هذه الغزوة يقول القرآن الكريم في سورة التوبة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

(الصنف الخامس) أهل بيعة الرِّضوان، وهي التي بايع فيها رسول الله -ﷺ- ألف وأربعمائة رجل من أصحابه على حرب قريش حتى النصر أو الاستشهاد، وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة عندما خرج هو وأصحابه إلى مكة لزيارة البيت والاعتمار به ولم يكن معهم سلاح إلا السيوف، ولما وصلوا إلى الحُدَيْبِيَة، وهو مكان معروف قرب مكة، منعهم المشركون من دخول مكة. فأرسل النبي -ﷺ- إلى أشرافهم عثمان ابن عفان رضي الله عنه بكتاب يُعلِمهم فيه أنه إنما قدم معتمراً لا مقاتلاً، فأصروا على منعه واحتبسوا عثمان رضي الله عنه عندهم، وأُشِيعَ أنهم قتلوه. فقال عليه الصلاة والسلام عند ذلك: لا نبرح حتى نناجزهم الحرب. ودعا أصحابه عند شجرة هناك للبيعة على النصر أو الاستشهاد فبايعوه على ذلك، ووضع -ﷺ- شماله في يمينه وقال: هذه عن يد عثمان. وفي هذا إشارة إلى علمه -ﷺ- بحياة عثمان رضي الله عنه.

وإلى هذه البيعة يشير القرآن الكريم بقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[2]. ولما علمت قريش بهذه المبايعة أطلقوا عثمان رضي الله عنه وجاء وفد منهم إلى النبي-ﷺ- وعقدوا معه صلحاً سُمِّيَ بصلح الحديبية. ومن شروط

---

(1) التوبة : 25- 27 .

(2) الفتح : 18 .

هذا الصلح أن يرجع المسلمون هذا العام ويأتوا للعمرة وزيارة البيت في العام القابل. وسميت هذه البيعة بيعة الرِّضوان لقوله تعالى:﴿لَقَدْ رَضِيَ ا للهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وإلى هذه الغزوات الثلاث : بدر وأحد وبيعة الرضوان، يشير صاحب الجوهرة بقوله :

فَأَهْلُ بَدْرِ الْعَظِيمِ الشَّانِ فَأُحُدٍ فَبَيْعَةُ الرِّضْوَانِ

ومن الغزوات التي حضرت فيها الملائكة مع رسول ا لله -ﷺ- وأصحابه غزوة الأحزاب، وتسمى أيضاً غزوة الخندق، وكانت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة. وسببها أنه لما وقع إجلاء يهود بني النضير من المدينة ذهب كُبرَاؤُهم إلى قريش واتفقوا معهم على حرب المسلمين، ثم ذهبوا إلى قبيلة غطفان وبني فزازه وبني مرة وكلهم من قيس عيلان. وهؤلاء الثلاثة مع قريش واليهود هم الأحزاب، لأنهم تحزَّبوا جميعاً ضد المسلمين. ولما علم رسول ا لله -ﷺ- من وفد بني خزاعة بهذا التحزب أمر المسلمين بإشارة من سلمان الفارسي رضي ا لله عنه بأن يحفروا حول المدينة خندقاً، ففعلوا ذلك. ولما جاء الأحزاب وعددهم اثنا عشر ألفاً نزلوا حول المدينة خارج الخندق، ونزل رسول ا لله -ﷺ- ومعه المسلمون وعددهم ثلاثة آلاف رجل قبالتهم داخل الخندق. ولما رأى المسلمون كثرة الأحزاب حيث جاءوهم من كل جهة، من أعلى الوادي وأسفله من المشرق والمغرب، اشتد خوفهم وظن المنافقون منهم أن وعد ا لله ورسوله بالنصر ما هو إلاَّ وعد باطل. وقبل البدء في الحرب حصل خلاف بين الأحزاب أدى إلى تأخير البدء فيها. وبينما الأحزاب على هذه الحال من الخلاف، والمنافقون وبعض الضعفاء من المسلمين في حالة خوف وفزع، أرسل ا لله تعالى إلى الأحزاب ريحاً عاصفة في ليلة شديدة البرد والظلمة فقلعت بيوتهم وقطعت أطنابهم وكفأت قدورهم، وصارت ترفع الرجل وتلقيه على الأرض. كما أرسل ألفاً من الملائكة لِبَث الرعب في قلوبهم دون أن تقاتلهم فانهزموا جميعاً ورجعوا خائبين. وفي

ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً﴾[2].

حرب الصَّحابة رضي الله عنهم فيما بينهم:

والمراد بها الحرب التي وقعت بين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عندما تولى الإمام عَلِيٌّ الخلافة بعد استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه. وسبب هذه الحرب أنه في آخر عهد عثمان جاء وفد من المصريين إلى المدينة يشكون من عامله عبدالله بن سعد بن أبي السرح، ويدَّعون أنه قتل واحداً منهم بغير ذنب، ويطلبون استبداله بغيره ، فلم يجبهم عثمان رضي الله عنه إلى ذلك، فذهبوا إلى المسجد فوجدوا الإمام علياً كرم الله وجهه فذهب معهم إلى عثمان رضي الله عنه وقال له إن القوم يدَّعون على عاملك ويسألونك استبداله فأنصفهم، فإن وجب عليه الحق فاعزله عنهم. فقال لهم عثمان رضي الله عنه: اختاروا رجلاً. فاختاروا محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فولاَّه عليهم فانصرفوا راضين. ولما توجه ابن أبي بكر ومن معه إلى مصر لِتَسَلُّمِ عمله مَرُّوا على رجل في أثناء الطريق يمشي مسرعاً فسألوه، فقال إني مرسل إلى عامل مصر، ففتشوه فوجدوا معه كتاباً من عثمان رضي الله عنه إلى ابن أبي السرح يقول فيه إذا جاءك محمد بن أبي

(1) الأحزاب : 9 - 12 .
(2) الأحزاب : 25 .

بكر وفلان وفلان فاحتل على قتلهم وأبطِل كتابه وابقَ في عملك حتى يأتيك أمري. فلما قرأوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة وجمعوا أكابر الصحابة وأطلعوهم على الكتاب. فلما رأى عَلِيٌّ ذلك دخل على عثمان رضي الله عنه ومعه الكتاب والغلام، فقال له: هذا غلامك؟ قال: نعم. قال: أفأنت من كتب هذا الكتاب؟ قال: لا. وحلف بالله على أنه ما كتب الكتاب، ولا أمر به، ولا عَلِمَ به، ولا وجَّه الغلام إلى مصر. فصدَّقه القوم لأنهم يعلمون أنه لا يحلف على باطل، ثم تأملوا الخط، فإذا خط مروان ابن الحكم أحد كُتَّابه، فسألوه أن يدفعه إليهم، وكان معه في الدار، فأبى خشية أن يقتلوه. فخرجوا من عنده غضاباً وحاصروا داره ومنعوه الماء. فعلم بذلك عَلِي كرم الله وجهه فبعث إليه بثلاث قِرَب من الماء، ثم عَلِمَ أنهم يريدون قتله، فأمر وَلَدَيه الحسن والحسين بحراسته وعدم تمكين أحد من دخول بيته. ولكن جماعة محمد بن أبي بكر تسوروا عليه الدار وقتلوه، وكان ذلك في أوائل شهر ذي الحجة من السنة الخامسة والثلاثين للهجرة وعمره نحو ثلاث وثمانين سنة. فلما استشهد عثمان رضي الله عنه جاء الناس إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقالوا له: لابد للناس من خليفة، ولا نعلم أحداً أحق بها منك. فامتنع من ذلك، ولكنهم أصروا عليه حتى قَبِل، ولكن بشرط أن تكون المبايعة عَلَنِيَّة في المسجد، فبايعه الناس إلا القليل. وكان من بين من بايعه النعمان بن بشير، فأخذ قميص عثمان رضي الله عنه الذي استشهد فيه وهو مُلطَّخ بالدم وهرب إلى معاوية بن أبي سفيان عامل عثمان في الشام وهو من بني أمية قبيلة عثمان، ثم إن علياً فرَّق عُمَّاله إلى البلدان، وكتب إلى معاوية يستقدمه فلم يجبه مدة ثلاثة أشهر من استشهاد عثمان رضي الله عنه، ظناً منه أن علياً له يد في قتله. ثم دعا رجلاً ودفع له طوماراً مختوماً من غير كتابة ليس في باطنه شيء، عنوانه من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب، وأمره أن يذهب إلى المدينة ويُسَلِّم الطومار إلى عَلِي. والطومار خرقة بالية من ورق أو نحوه. فلما وصل الطومار إلى عَلِي عَلِم أن معاوية يرفض المبايعة، فأصر على حربه، وجهز جيشاً كبيراً وتوجه إلى الشام

فوجد معاوية قد جهز جيشه كذلك، والتحم الجيشان وبدت علامة النصر تلوح لجيش عَلِي. فقال عمرو بن العاص وهو من جماعة معاوية إن من حُسْن التصرف في هذه الحالة الخداع، وذلك برفع المصاحف على الرماح إشارة إلى تحكيم القرآن. ولما عرض هذه الخدعة على معاوية وافق عليها، فرفع أتباع معاوية المصاحف على الرماح وقالوا لأتباع عَلِي: هذا كتاب الله يحكم بيننا وبينكم. فوافق أتباع عَلِي على ذلك. وبعد الأخذ والرد اتفق الطرفان على تحكيم رجلين أحدهما عن جيش عَلِي وهو أبو موسى الأشعري، والآخر عن جيش معاوية وهو عمرو بن العاص. فاجتمع الرجلان واتفقا على خلع عَلِي ومعاوية وترك الأمر شورى للمسلمين يولون من يرونه أهلاً لذلك، ثم أقبلا على الناس، فقال عمرو: تكلم يا أبا موسى وأخبر القوم بأن رأْيَنا اتفق. فقال أبو موسى: أيها الناس إن رأيَنا اتفق على أن نخلع علياً ومعاوية، ونترك الأمر شورى للمسلمين يولون من يرونه أهلاً لذلك. ثم تنحى وقام عمرو بن العاص فقال: وأنا أيضاً خلعت صاحبه علياً وأَثْبَتُّ صاحبي معاوية على الخلافة، فإنه وَلِيُّ عثمان والمطالِب بدمه. فعارض أتباع عَلِي هذه الخدعة وأخذوا يتأهبون للقتال، ولكن الجيش تفرق حِيث أن الصحابة افترقوا ثلاث فرق: فرقة اجتهدت فظهر لها أن الحق مع عَلِيٍّ فثبتت معه، وفرقة اجتهدت فظهر لها أن الحق مع معاوية فثبتت معه، وفرقة توقفت فبقيت على الحياد. ولم تُحْسَم الحرب بين عَلِيٍّ ومعاوية وانصرف أهل الشام إلى معاوية وهَنَّؤوه بالخلافة، وذهب أتباع عَلِي إلى الكوفة بالعراق فأمرهم بالتأهب للمسير إلى الشام لاستئناف الحرب مع معاوية، ولكنه قبل أن يخرج إلى الشام بعث كتاباً إلى الخوارج يأمرهم فيه بأن يلحقوا به من أجل مواصلة الحرب إلا أنهم رفضوا أمره، فذهب إليهم بجيشه قبل أن يخرج لقتال معاوية فانتصر عليهم ولم يبق إلا عدد قليل تشتتوا في البلدان. والخوارج فرقة خرجوا عن طاعة عَلِيٍّ لما وافق على تحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقالوا: لا حُكْمَ إلا لِلّه. فقال الإمام عَلِي كرم الله وجهه: كلمةُ حقٍّ يُراد بها باطل. ويقال لهم الحرورية نسبة إلى

حروراء ، وهي أرض نزلوا بها لما خرجوا عن الإمام عَلِي، و لم يتمكن الإمام علي رضي الله عنه من المسير إلى الشام لاستئناف قتال معاوية لأن ابن مُلجم -لعنه الله- عجَّل بقتله، حيث ضربه بالسيف وهو خارج لصلاة الفجر، وذلك في اليوم العاشر من رمضان سنة أربعين للهجرة، وكان عمره خمساً وستين سنة. وقيل ثلاثاً وستين كالنبي -ﷺ- وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهو كما قال الواقدي من عجيب الاتفاق، وهو المثبت.

هذه خلاصة حرب الصحابة التي قال عنها العلماء إن الصحابة فيها مجتهدون، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر واحد، والقاتل والمقتول في الجنة. وعليه فلا يجوز سوء الظن بهم، كيف وقد شَهِدَ لهم الله ورسوله بالعدالة، بل يجب أن يُؤَوَّل ما وقع بينهم من تشاجر وذلك بأن يُصرف إلى مَحمل حَسن. ولا يضر الجهل به، لأنه ليس من العقائد الدينية ولا من القواعد الكلامية، وليس مما يُنتَفع به في الدين، بل ربما ضرَّ في اليقين. كما أنه لا يجوز الخوض فيما جرى بينهم إلا للرد على المتعصبين أو للتعليم كتدريس الكتب التي تشتمل على الآثار المتعلقة بذلك. ومع هذا فليحذر من خاض فيه أن يجره الحسَد إلى الميل مع أحد الطرفين على وجه غير مَرْضِيٍّ ، وقد قال -ﷺ-: ((الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم عرضاً من بعدي))[1] ، وقال :((لا تسبوا أصحابي، فمن سَبَّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً))[2] ، والصرف هو الفرض، والعدل هو النفل، وقيل بالعكس. وهذا إذا كان مع اعتقاد استحلال ذلك أي السَّب، لأن استحلال الحرام قد يجر إلى الكفر والعياذ بالله. و إلى هذه الحرب يشير صاحب الجوهرة بقوله :

وَأَوِّلِ التَّشَاجُرَ الَّذِي وَرَدْ إِنْ خُضْتَ فِيهِ وَاجْتَنِبْ دَاءَ الْحَسَدْ

---

(1) أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن مغفل، (انظر تخريج العراقي، 93/1).

(2) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد (كشف الخفا ، 352/2).

وقال صاحب الشيبانية :

وَنسكُتُ عَنْ حَرْبِ الصَّحَابَةِ فَالَّذِي جَرَى بَيْنَهُمْ كَانَ اجْتِهَاداً مُجَرَّدَا

وَقَدْ صَحَّ فِي الأَخْبَارِ أَنَّ قَتِيلَهُمْ وَقَاتِلَهُمْ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ خُلَّدَا

ولما استُشهِد الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عَمَدَ أهل العراق إلى ابنه الحسن رضي الله عنه وكان عمره آنذاك سبعاً وثلاثين سنة، لأنه ولد في السنة الثالثة للهجرة ووالده توفي في سنة أربعين كما تقدم، وبايعوه على الخلافة ثم أشاروا عليه بالمسير إلى الشام لمواصلة حرب معاوية التي توقفت بعد استشهاد علي رضي الله عنه فوافق على ذلك. ولما وصلوا الشام وجدوا أن معاوية قد أعد جيشه لحربهم، فلما تقارب الجيشان عَلِم الحسن أنه لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى، فرأى أن المصلحة في جمع الكلمة، وكتب إلى معاوية أنه متنازل عن الخلافة بشروط ذكرها له، ومن أهمها أن يكون هو ولي العهد من بعده ، وأن يُمكّنه من أخذ حاجته من بيت المال، وأن لا يطالب أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان في أيام أبيه، وأن يعفو عن كل من وقف ضده معه أو مع أبيه ولا يتعرض له بسوء ، فوافق معاوية على ذلك كله والتزم به. وعندئذ خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الأمر إلى معاوية تورعاً منه وقطعاً للنزاع بين المسلمين، ودخل معاوية الكوفة التي كانت عاصمة الخلافة في عهد الإمام علي كرم الله وجهه وارتحل الحسن منها إلى المدينة وأقام بها، وكان نزوله عن الخلافة في أواخر شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين للهجرة. وبالنظر إلى الفرق بين استشهاد الامام علي كرم الله وجهه والذي كان في العاشر من رمضان سنة أربعين للهجرة كما تقدم وبين نزول الحسن عن الخلافة يوجد أنه ستة أشهر تقريباً، وهذه مدة خلافته رضي الله عنه، وبها تتم مدة الخلافة في الإسلام وهي ثلاثون سنة كما أخبر بذلك الصادق الأمين -ﷺ- بقوله: ((الخلافة ثلاثون سنة...)) إلى آخر الحديث المتقدم في فقرة (خيرة أصحابه-ﷺ-) من هذا الباب.

وبذلك انطفأت الفتنة بين المسلمين مصداقاً لقوله-ﷺ- في حق الحسن : ((إن ابني هذا سَيِّد، وسيُصلِح بين فئتين عظيمتين من المسلمين))[1] . توفي الحسن رضي الله عنه في أوائل شهر ربيع الأول سنة خمسين للهجرة وبلغ عمره سبعاً وأربعين سنة.

وعندما تُوُفِّيَ الإمام الحسن رضي الله عنه كانت الخلافة لا تزال بيد معاوية إلى أن تُوُفِّيَ في أول شهر رجب سنة إحدى وستين للهجرة فآلت لابنه يزيد. وبعد أن تولى يزيد الخلافة طلب من الوليد بن عتبة أن يأخذ البيعة على أهل المدينة، فأرسل الوليد إلى الحسين بن علي بن أبي طالب وإلى عبدا لله بن الزبير وجيء بهما إليه فأمرهما ببيعة يزيد بن معاوية خليفة على المسلمين، فقالا له: مِثلنا لا يبايع سراً وإنما يبايع جهراً على رؤوس الأشهاد. ثم رجعا إلى بيوتهما وتوجها بعد ذلك إلى مكة وبقيا فيها نحو أربعة أشهر. ولما علم شيعة الكوفة بذلك كتبوا للإمام الحسين كتاباً يدعونه فيه ليبايعوه على الخلافة، والشِّيْعَة طائفة تبالغ في حب عَلِيٍّ وأولاده، فبعث إليهم ابن عمه مسلم ابن عقيل ووعدهم بأنه سيقدم عليهم في أثره. ولما وصلهم مسلم اجتمعوا وأخذ عليهم البيعة للحسين بن علي رضي الله عنهما، فبلغ ذلك عامل الكوفة النعمان بن بشير فكتب في ذلك إلى يزيد بن معاوية، فجهز يزيد على الفور عبيد الله بن زياد ووجهه إلى الكوفة، ولما قرب منها تنكر ودخلها ليلاً وأوهم الناس أنه الحسين بن علي، فصار كلما اجتاز جماعة قاموا له وهم يظنون أنه الحسين ويقولون مرحباً بابن رسول الله -ﷺ-، ولما رأى ابن زياد تباشر الناس بالحسين ساءه ذلك وانكشفت له أحوالهم، ثم جاء إلى قصر الإمارة وبات فيه، ولما أصبح صال وجال وقتل جماعة من أهل الكوفة وتحيّل بعد ذلك حتى ظفر بمسلم بن عقيل فقبض عليه وقتله. ولم يلبث الحسين رضي الله عنه بعد مسير ابن عمه مُسْلم بمكة إلا قليلاً حتى تجهز للمسير في أثره إلى الكوفة، فنصحه أهل مكة بعدم الذهاب إلى الكوفة ولكنه أصر على ذلك ولم يتردد، وكان

---

(1) رواه البخاري.

خروجه من مكة إلى الكوفة يوم التروية الثامن من ذي الحجة سنة ستين للهجرة ومعه اثنان وثمانون من أهل بيته وشيعته ومواليه، وكان كل من يلتقي به في الطريق يسأله عن أهل الكوفة فينصحه بالرجوع عنها. وممن نصحه بذلك الفرزدق -الشاعر المعروف- حيث قال له لما سأله عن أهل الكوفة: يا ابن رسول الله! قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية. يقصد يزيد بن معاوية. وبينما هو في الطريق جاءه خبر قتل ابن عمه مسلم فازداد إصراراً على المسير، حيث قال لن أرجع وسأبقى صابراً محتسباً إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. واستمر في السير إلى أن وصل إلى أرض فسأل عنها فقيل له إنها كَرَبَلاء فقال رضي الله عنه: كربلاء موضع كرب وبلاء. هذا مَناخ رِكابنا ومَحَط رحالنا ومقتل رجالنا. ولما علم ابن زياد بنزول الحسين بأرض كربلاء كتب إليه كتاباً يقول فيه إن يزيد بن معاوية كتب إليَّ أن أقول لك إما أن ترجع إلى حكمه أو يقتلك. فلما قرأ الحسين الكتاب ألقاه من يده وقال للرسول ماله عندي جواب. فلما رجع الرسول إلى ابن زياد وأخبره، اشتد غضبه وجمع الجموع وجهز العساكر ثم ساروا جميعاً حتى نزلوا بشاطئ الفرات، فحالوا بين جماعة الحسين وبين الماء فضاق الأمر على الحسين وأحدق به جيش ابن زياد وأعملوا السيوف في جماعته إلى أن قتلوهم جميعاً ولم يَبْقَ إلا الحسين ومن كان معه من النساء، فلم يزل يقاتلهم إلى أن أُثخِن بالجراح فسقط من فوق حصانه إلى الأرض، فنزلوا وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد بن معاوية. واستُشهد الحسين رضي الله عنه في العاشر من المحرّم سنة إحدى وستين للهجرة وقد بلغ عمره سبعاً وخمسين سنة لأنه وُلِدَ في السنة الرابعة للهجرة بعد ولادة أخيه الحسن بعام واحد.



وبعد انتهاء المعركة سيق حريم الإمام الحسين رضي الله عنه والنساء والأطفال إلى عامل الكوفة النعمان بن بشير الذي أمر بأن يُكلَّف رجل أمين من أهل الشام بتسييرهم ورفقتهم إلى المدينة. أما الرأس الشريف فقيل إنه أولاً دفن بعسقلان، ولما تغلب عليها

الإفرنج افتداه وزير الفاطميين الصالح طلائع بمال جزيل وبُنِيَ عليه المشهد الحسيني المعروف بالقاهرة وهو أصح الأقوال. وقيل دفن بالبقيع مقبرة المدينة المنورة، وقيل أعيد إلى الجثة ودفن معها بكربلاء حيث استشهد.

(**الصنف السادس**) السَّابقون الأولون، والمراد بهم المتقدمون الأوَّلون لدخول الإسلام سواء من المهاجرين أو الأنصار، قال تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ ا للهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾[1]. وقد اختلف في تعيينهم فقال أبو موسى الأشعري وغيره هم الذين صَلَّوا إلى القبلتين قبلة بيت المقدس والكعبة، قال البيجوري وهو قول الأكثر وهو الأصح. وقيل هم أهل بدر، وقيل هم أهل بيعة الرضوان.

ثم إن التفضيل تارة يكون باعتبار الأفراد كتفضيل أبي بكر على عمر، وتارة يكون باعتبار الأصناف كتفضيل الخلفاء الأربعة على الستة الباقين من العشرة. وبعض هذه المراتب ربما دخل في بعضها وربما دخل في الجميع، فقد يكون الصحابي من السابقين الأولين وأحد الخلفاء الأربعة ومن حضروا بدراً ومن أهل بيعة الرضوان كالخلفاء الأربعة.

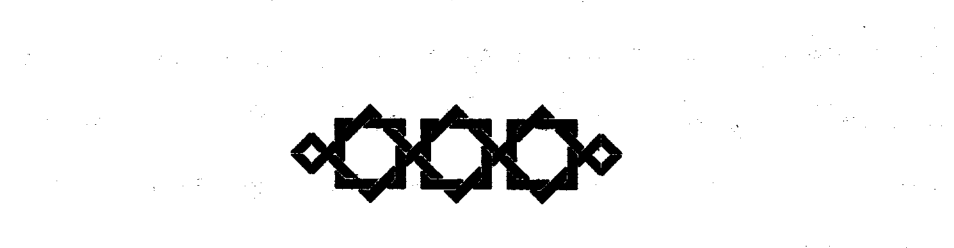
قُضاة رسول ا لله (ﷺ) وكُتَّاب وحيه وخُدَّامه :

قضاته عليه الصلاة والسلام : علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري. وقد وَلِيَ كل منهم القضاء في اليمن. أما كُتَّاب وحيه فهُم: الخلفاء الأربعة، وأُبَي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وخالد بن سعيد بن العاص،

(1) التوبة : 101 .

وإبَّان بن سعد، والعلاء بن الحضرمي، وحنظلة بن الربيع، وعبدا لله بن سعد بن أبي السرح. وهؤلاء كلهم كتاب الوحي، وقد أوصلهم الحافظ العراقي إلى أربعين كاتباً. والمداوم على الكتابة منهم زيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان.

وأما خُدَّامه فأشهرهم أنس بن مالك الأنصاري، وعبدا لله بن مسعود.



الجــن

الجنُّ أجسام نارية أي مخلوقون من النار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[1]، والمارج هو اللهب الخالص من الدخان، قادرون على التشكل بالصور الشريفة كالآدمي، والخسيسة كالثعبان، تحكم عليهم الصورة أي أنهم لو تصوروا بأي صورة ثم أعدمت هذه الصورة لمات الجِنّيُّ المتشكل بها، بخلاف الملائكة فإنهم لا يتشكلون إلا بالصور الشريفة كالآدمي، ولا تحكم عليهم الصورة ، فلو تصور أحدهم بصورة آدمي ثم أعدمت هذه الصورة لم يمت الملك. والجن يأكلون ويشربون وينامون ويتناكحون ويتوالدون، منهم ذكور ومنهم إناث، ومنهم مسلم ومنهم كافر، ومنهم طائع ومنهم عاص. ويموتون كما يموت البشر، ويُبعَثون ويُحاسَبون ويُثابون ويُعاقَبون، ولا يُبعَث منهم الرسل وإنما تشملهم رسالة الأنبياء من البشر.

وقد ثبت في القرآن الكريم إيمان بعضهم بسيدنا موسى وبسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام، فقد روي أنه لما رجع -ﷺ- من الطائف نزل بمكان يسمى (بطن نخلة) يبعد عن مكة مسيرة يوم، صرف الله إليه سبعة من جن (نَصِيبِيْن) وهي مدينة بالشام، فلما وصلوا المكان الذي نزل فيه عليه الصلاة والسلام سمعوه يقرأ القرآن، فقال بعضهم لبعض أنصتوا. فلما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بذلك، كما أخبروهم بأنهم آمنوا بالقرآن والتزموا بأن لا يُشرِكوا بالله شيئاً، وعرضوا عليهم الإيمان كما آمنوا وحذروهم من الكفر والعصيان. وقد سجَّل القرآن الكريم هذه الحادثة في سورة

---

[1] الرحمن : 12-13 .

الأحقاف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وقد أعلم الله نبينا محمداً -ﷺ- باستماع هؤلاء النفر قراءته عليه الصلاة والسلام في سورة الجن، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُواْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾[2] إلى آخر السورة. والمعنى: قل يا محمد أخبرني جبريل أن نفراً من الجن استمعوا إلى قراءتي للقرآن... إلى آخره. وظاهر الآية أن النبي -ﷺ- لم يشعر بهم ولا باستماعهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته، وقيل إنه عليه الصلاة والسلام رآهم وعَلِم بهم. ويُجَاب عن الآية بأن مَصَبَّ الإيحاء قصة الجن مع قومهم حين رجعوا إليهم بعد استماعهم القرآن من رسول الله -ﷺ-.

ويؤخذ من الآيات السابقة أن الجن يعيشون مُدَداً طويلة قد تصل إلى ألف سنة أو أكثر، ويفهم هذا من قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[3] لأن الجن الذين استمعوا إلى قراءة القرآن من نبينا محمد -ﷺ- هم نفس الجن الذين استمعوا إلى قراءة التوراة من سيدنا موسى عليه السلام، ومعلوم أن بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام أكثر من ألف سنة.

---

(1) الأحقاف : 28-31 .

(2) الجن : 1-2 .

(3) الأحقاف : 29 .

واختلِف في أصل الجن، فقيل هم ذرية إبليس كما أن الإنس ذرية آدم، غير أن المتمرد من الجن يُسمَّى شيطاناً وهذا القول هو الراجح. وعليه فمن آمن من الجن فقد انقطعت نِسْبَته من أبيه إبليس والتحق بآدم، ومن كفر من الإنس فقد انقطعت نِسْبَته من أبيه آدم والتحق بإبليس. وقيل إن الجن هم أولاد الجان والشياطين هم أولاد إبليس، وعلى هذا القول فتكون الأصول ثلاثة: آدم وهو أصل الإنس، والجان هو أصل الجن، وإبليس هو أصل الشياطين. وعلى القولين فإن الشياطين يموتون بالنفخة الأولى مع إبليس.

والجن يعيشون في الأرض مع البشر، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُواْ لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾[1]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2].

والجن لا يعلمون الغيب، قال تعالى في قصة الجن مع سيدنا سليمان: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَآبَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ الْمُهِينِ﴾[3]، وخاصة بعد بعثة نبينا محمد-ﷺ-، قال تعالى حكاية عن الجن: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً * وَإِنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾[4].

---

(1) الرحمن : 31 .

(2) الأنعام : 129 .

(3) سبأ : 14 .

(4) الجن : 8-10 .

قال الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين: كان الشياطين أولاً يَسْتَرِقون السَّمع من السماء إلى أن وُلِدَ عيسى عليه السلام فمُنِعوا من ثلاث سموات بغير شُهُب، فلما وُلِدَ -ﷺ- مُنِعوا من السموات كلها بالشهب، فلما بُعِثَ عليه الصلاة والسلام ازداد تساقط الشُّهب حتى ملأ الفضاء وصارت لا تخطئهم، فمُنِعوا من الصعود بالكلية، لكن مازالوا يتوجهون إلى الصعود فتعاجلهم الشهب.ا.هـ.

ولا يَحكُم في الجن إلا خالقهم سبحانه وتعالى، ومن يدَّعي أنه يحكم فيهم أو أنهم يُنفِّذون ما يأمرهم به فهو كمن يدَّعي أنه يحكم في الريح وهو مستحيل، فهذان شيئان لم يتحكم فيهما أحد غير الله سبحانه وتعالى، ولم يُحكِّم فيهما أحداً في الماضي ولا في المستقبل إلا سيدنا سليمان عليه السلام كمعجزة له واستجابة لدعوته، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ *وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ*هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] . ومعنى ﴿لاَ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ أي لا يملكه أحد من المخلوقين بعدي. ومعنى ذلك أن الشياطين الذين هم الجن وكذلك الريح لا يتحكم فيهما أحد من المخلوقين بعد سليمان عليه السلام.

وما يُقَال من أن فلاناً متزوج بِجِنِّيَّة أو العكس فهو كلام غير صحيح، والدليل على ذلك: **(أولاً)** أن زواج الآدمي بالجنية أو العكس حتى على فرض حصوله غير صحيح شرعاً لاختلاف الجنس بينهما. ومعلوم أن من أهم أركان النكاح أن يكون الزوج رجلاً آدمياً وتكون الزوجة امرأة آدمية. **(ثانياً)** أن الله تعالى يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[2] ،

---

(1) ص : 34-38 .

(2) الروم : 20 .

والمخاطب هنا الإنس، ومعلوم أن الجن ليس من نفس الإنس. (**ثالثاً**) تقدم أن الجن يرون البشر والبشر لا يرونهم، وكيف يمكن الزواج بين شخصين لا يرى أحدهما الآخر. (**رابعاً**) أن المقصود الأسمى من الزواج هو التناسل لقوله -ﷺ-: ((تناكحوا تناسلوا))[1] ولا يمكن التناسل بين ذكر وأنثى مختلفين في الجنس.

وما يُشاع بين الناس في بعض الأحيان من أن فلاناً تَلَبَّس به الجن فهو غير صحيح، وإنما الذي يحدث هو أن يحصل له مَسٌّ من الجن عندما يكون الجسد في حالة غيبوبة بسبب من الأسباب، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾[2]، وفي هذه الحالة يجوز أن يُتعوَّذ له با لله من الشيطان الرجيم، ويُقرأ عليه بعض آيات من القرآن الكريم كآية الكرسي والإخلاص والمعوذتين. كما يجوز التّعوذ بالقرآن الكريم عند دخول الأماكن المخيفة. وكان أهل الجاهلية عندما ينزل أحدهم بمكان مُخيف يقول أعوذ بِسَيِّد هذا المكان من شر سفهائه، فيزيد ذلك الجن طغياناً ويقولون سُدْنا الجن والإنس، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً**﴾[3]، أي طغياناً وتمرداً.



---

(1) رواه عبد الرزاق والبيهقي عن سعيد بن أبي هلال مُرسلاً، ورواه أحمد وسعيد بن منصور والطبراني في الأوسط، (كشف الخفا : 318/1).

(2) البقرة : 274 .

(3) الجن : 6 .

الملائكة الكرام

الملائكة جمع مَلَك، وهم أجسام نورانية أي مخلوقون من النور، قادرون على التشكل بالصور الشريفة فقط كالآدمي، ولا تَحَكُّمَ عليهم أي أنهم لو تصور أحدهم بصورة رجل ثم قُتِلَ هذا الرجل فإن الملك لا يموت. لا يأكلون ولايشربون، فأكلهم وشربهم التسبيح قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾[1]، ولا ينامون ولا يتناكحون ولا يتوالدون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. خلقهم الله سبحانه وتعالى من غير واسطة أب ولا أم، وليسوا ذكوراً ولا إناثاً ولا خَنَاثَى، فمن اعتقد أنوثتهم فهو كافر بالإجماع، لأن هذا الاعتقاد من جملة ما أشرك به الكفار، كما قال تعالى في حقهم: ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾[2]، وأولى بالكفر من اعتقد خنوثتهم لمزيد التنقيص لهم. ومن اعتقد ذكورتهم فهو فاسق وليس بكافر لأن الذكورة أشرف من الأنوثة. ومسكنهم السموات غالباً، ومنهم من يسكنون الأرض، ولا تكتب أعمالهم لأنهم الكُتَّاب، ولا يُحاسَبون لأنهم الحُسَّاب، ولا توزن أعمالهم لأنهم لا سيئات لهم، ويموتون بالنفخة الأولى إلا حملة العرش والرؤساء الأربعة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل فإنهم يموتون بعدها، وأما قبلها فلا يموت منهم أحد، وهم بالغون في الكثرة إلى حد لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[3]، ويحشرون مع الإنس والجن، ويَشفعون في عصاة بني آدم. يدخلون الجنة ويتنعمون فيها بما شاء الله ويراهم المؤمنون في الجنة.

---

(1) الأنبياء : 20 .

(2) الزخرف : 18 .

(3) المدثر : 31 .

ويجب الإيمان بالملائكة إجمالاً إلا من ورد تعيينهم بأسمائهم فيجب على المكلف معرفتهم وعددهم عشرة، وقد تقدم ذكر أسمائهم نثراً ونظماً في فقرة (الإيمان) من المقدمة.

والملائكة أربعة أصناف: (**الصنف الأول**) المتصرفون، وهم الرؤساء الأربعة، ولكل منهم أعوان لايعلم عددهم إلا الله، وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل. فجبريل مُوكَّل بالوحي الذي يأتي من عند الله للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. وميكائيل مُوكَّل بتقسيم الأرزاق وتوزيع الأمطار، وكيل البحار والأنهار، وتصوير الأجنة في الأرحام. وإسرافيل مُوكَّل باللوح المحفوظ والنفخ في الصور وهو قرن من نور وفيه ثقوب على عدد الأرواح فينفخ فيه نفختين؛ النفخة الأولى نفخة الصعق وبها تفنى جميع المخلوقات إلا ما شاء الله، والنفخة الثانية نفخة البعث وبها تُبعث جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾[1]. وعزرائيل مُوكَّل بقبض الأرواح أي بإخراج أرواح كل من له روح ولو بعوضة أو برغوثاً وهو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون إن عزرائيل لا يقبض أرواح البهائم ولا غيرها وإنما يقبض أرواح الثقلين فقط وهم الإنس والجن، وخلافاً للمبتدعة الذين يقولون إن أرواح البهائم يقبضها أعوانه من الملائكة. وعزرائيل مَلك عظيم هائل المنظر رأسه في السماء العليا ورجلاه في منتهى الأرض السفلى ووجهه مقابل اللوح المحفوظ والخلق بين عينيه، وله أعوان بعدد من يموت، يترفق بالمؤمن ويأتيه في صورة حسنة دون غيره.

(**الصنف الثاني**) وهو قسمان:(**القسم الأول**) الحافظون، وهم الذين وكَّلهم الله تعالى بحفظ كل عبد من إنس أو جن من المضار، وهم المُعَقِّبات الذين جاء ذكرهم في سورة

---

[1] الزمر : 65 .

الرعد في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[1]، أي بأمره، فمِنْ بمعنى الباء. وقيل إن مِنْ على حقيقتها، وعليه فيكون الحفظ من أمر الله أي من الجن والحوادث وغير ذلك، وهم يلازمون العبد ولايفارقونه أبداً. وعددهم كما روي عنه-ﷺ- عشرة بالليل وعشرة بالنهار، قال-ﷺ-: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ومحلهم من العبد واحد عن يمينه وآخر عن شماله، واثنان بين يديه ومن خلفه، واثنان على جنبيه، وآخر قابض على ناصيته فإن تواضع رفعه وإن تكبر وضعه، واثنان على شفتيه، والعاشر على فِيهِ يَحْرُسُه من أن تدخله الحية إذا نام))[2]. وهذا الحفظ إنما هو من القضاء المعلّق وهو الذي لم يَحِنْ وقته، أما القضاء المبرم وهو الذي حان وقته فلابد من إنفاذه ولا يمكنهم دفعه فيَبعُدون عنه حتى ينفذ.

(القسم الثاني) الكاتبون، وهما ملكان كل منهما يُسمَّى رقيباً وعتيداً أي حافظاً وحاضراً، لاكما قد يتوهم من أن أحدهما رقيب والآخر عتيد. وهما لا يتغيران. وقيل لكل يوم ملكان ولكل ليلة ملكان، أي أنهم أربعة، ويتعاقبون عند صلاة العصر وصلاة الفجر. وعلى كلا القولين فإنهم يكتبون ما يصدر من العبد من قول أو فعل أو اعتقاد، خيراً كان أو شراً، ويُجعَل لهم أمارة على الاعتقاد فليست الكتابة خاصة بالأقوال كما يُفهَم من قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[3]. وهما لا يتغيران مادام العبد حياً، فإذا مات يقومان علىقبره، فإن كان مؤمناً يُسبِّحان ويُهلِّلان ويُكبِّران ويكتبان ثوابه له إلى يوم القيامة. وإن كان كافراً يلعنانه إلى يوم القيامة. ويؤرخون ما يكتبون من أعمال العبد بالإيام والجمع والشهور والأعوام والأماكن. ومَلَك الحسنات من ناحية اليمين ومَلَك السيئات من ناحية اليسار. والأول أمين أي رئيس على الثاني، فإذا فعل العبد حسنة بادر مَلَك اليمين إلى كَتْبها، وإذا فعل سيئة قال مَلَك اليسار لِمَلَك

---

(1) الرعد : 12 .

(2) رواه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه، (كشف الخفا : 398/2).

(3) ق : 18 .

اليمين هل أكتبها؟ فيقول لا، لعله يستغفر أو يتوب. فإذا مضت ست ساعات فلكية ولم يتب قال له اكتبها أراحنا الله منه. وهذا دعاء عليه بالموت ليتحولا عن مشاهدة هذه المعصية لأنهما يتأذيان منه بذلك. وهذه الكتابة إنما هي لغير المباحات، أما هي فقيل بعدم كتابتها وهو المعتمد، وقيل بكتابتها، وعلى هذا القول يكتبها صاحب السيئات. وهذه الكتابة يجب الإيمان بها فمن أنكرها يكفر لمعارضته القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1] لكنها ليست لحاجة دعت إليها، وإنما فائدتها أن العبد إذا علم بها ربما يستحي ويترك المعصية.

واختلف في نوع الكتابة، فقيل حقيقة أي بقلم وقرطاس ومداد يعلمها الله تعالى حملاً للنصوص على ظواهرها، خلافاً لمن قال إنها كناية عن الحفظ والعلم. وفي بعض الأحاديث أن لسان العبد قلمها وريقه مدادها[2]، والتفويض في مثل هذه الأمور أولى وأسلم. كما اختلف في محل الملكين من الشخص، فقيل عاتقاه أي كتفاه، وقيل إن قعد كان أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وإن مشي كان أحدهما أمامه والآخر وراءه، وإن رقد كان أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله، وقيل غير ذلك، والأسلم هو الوقف في مثل ذلك.

وهما يلازمان العبد كالحفظة ولايفارقانه إلا في ثلاث حالات: عند قضاء الحاجة، وعند الجماع، وعند الغُسْل. ولا يمنع ذلك من كَتْب مايصدر منه في هذه الأحوال لأن الله يجعل لهم علامة على ذلك كما في الاعتقاد المتقدم ذكره مع القول والفعل. ولذا نص العلماء على عدم جواز الكلام في هذه الحالات الثلاث وخاصة بذكر الله تعالى.

ثم إذا كان يوم الإثنين ويوم الخميس عُرِضَ قوله وعمله فأُقِرَّ منه ما كان خيراً أو شراً، وألقي ما عداه وهو المباح والمكروه. وظواهر الآثار أن الحسنات تكتب مميزة عن

---

(1) الانفطار : 10-12 .

(2) أخرجه الديلمي من حديث عَلِيٍّ، ويروى أيضاً عن معاذ بن جبل رضي الله عنهما.

السيئات، وأن سيئات المؤمن تكون في أول كتابه وآخره هذه ذنوبك قد سترتها وغفرتها، وأن حسنات الكافر تكون في أول كتابه وآخره هذه حسناتك قد رددتها عليك وما قبلتها. وهذا كله من حيث النهاية، أما من حيث البداية فلا يُهمَل شيء بلا كتابة، ولو كان في حال غفلة أو نسيان، أو كان لا معنى له كالأنين في المرض. قال صاحب الجوهرة :

بِكُلِّ عَبْدٍ حَافِظُونَ وُكِّلُوا وَكَاتِبُونَ خِيرَةٌ لَنْ يُهْمِلُوا

مِنْ أَمْرِهِ شَيْئاً فَعَلْ وَلَوْ ذَهَلْ حَتَّى الأَنِينَ فِي الْمَرَضْ كَمَا نُقِلْ

(**الصنف الثالث**) الفاتنون، وهما اثنان مُنكَرٌ ونَكير، وهما مَلَكان عظيمان مُوكَّلان على سؤال الإنس والجن من أمة الدعوة المؤمنين والمنافقين والكافرين. ووقت السؤال بعد تمام الدفن وانصراف الناس، فيعيد الله تعالى الروح إلى جميع البدن -كما ذهب إليه الجمهور، وقيل إلى نصفه الأعلى- ولا صحة لكلام من يقول يُسأل البدن بلا روح، أو تُسأل الروح بلا بدن، لكن وإن عادت له الروح لا تنتفي عنه صفة الموت لأن حياته ليست حياة كاملة بل أمر متوسط بين الموت والحياة كتوسط النوم بينهما. ويُرَدُّ إليه من الحواس والعقل والعلم ما يتوقف عليه فهم الخطاب ويتحصل معه رد الجواب حين يُسأل. ويُجمع من تفرقت أجزاؤه أو أكلته السباع أو أُحرِق بالنار. وقبل توجيه السؤال إلى الميت يقعدانه ويُرفِقَان بالمؤمن ويَنهران المنافق والكافر، ويكون السؤال لكل إنسان بِلُغَتِهِ. أما كيفية السؤال فهي مختلفة، فمنهم من يُسأل عن جميع اعتقاداته، فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وما قبلتك؟ ومن إخوانك؟ وما إمامك؟ وما منهاجك؟ وما عملك؟ ...إلى آخره. فمن وفّقه الله تعالى وثبّته بالقول الثابت قال لهما: ومن وكلكما عَلَيَّ؟ ومن أرسلكما إِلَيَّ؟ وهذا لا يقوله إلا العلماء الأخيار. فيقول أحدهما للآخر: صدق وقد كُفِيَ شرنا. والمؤمن يقول لهما:

الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نَبِـيٌّ، والكعبة قبلتي، والمسلمون إخواني، والقرآن إمامي، والسنة منهاجي. أما الكافر والمنافق فيحصل لهما خوف ورعب فيقولان: لا أدري. ومنهم من يُسأل عن بعضها.

وذكر بعضهم أن مَلَكي المؤمن يقال لهما مُبَشِّرٌ وبَشِير، ومَلَكي الكافر والمنافق يقال لهما مُنكَر ونَكير. وأن أحوال المسؤولين مختلفة، فمنهم من يسأله الملكان جميعاً تشديداً عليه، ومنهم من يسأله أحدهما تخفيفاً عليه.

وإذا مات جماعة في وقت واحد ولو بأماكن مختلفة فإنهم يُسألون جميعاً في ذلك الوقت، وهذا على القول بأن منكراً ونكيراً اثنان فقط. ولا مانع من ذلك إذ يجوز أن تعظم جثة كل منهما ويخاطبا الخلق الكثير مخاطبة واحدة. وقال السيوطي يحتمل تعدد الملائكة (أي الذين هم بصفة منكر ونكير) كتعدد الحفظة. وعلى كلا القولين فالسَّائلان هما منكر ونكير. قال صاحب الشيبانية :

وَمُنكَرُهُمْ ثُمَّ النَّكِيرُ بِصُحْبَةٍ هُمَا يَسْأَلانِ العَبْدَ في القَبرِ مُقْعَدَا

والسؤال مخصوص بمن كان مكلفاً من الإنس أو الجن فقط لا غيرهم من المخلوقين كالملائكة. ويستثنى من المكلفين الأنبياء والصِّدِّيقون والشهداء، وكذلك من يواظب كل ليلة على قراءة سورة السَّجدة أو سورة المُلك، ومن قرأ سورة الإخلاص في مرضه الذي مات فيه، ومن مات ليلة الجمعة أو يومها.

وسُمِّيَ هذان الملكان بمنكر ونكير لأن خلقتهما تختلف عن خلقة الملائكة والآدميين والجن وغيرهم من المخلوقات.

أما ما قيل من أنه يجيء قبلهما ملك يسمى رومان ويقول للعبد اكتب عملك في الدنيا من خير أو شر فقد قال الشيخ الأمير إن حديثه موضوع، أي غير صحيح. قال الشيخ الغمراوي :

- (**الصنف الرابع**) الخازنون، وهما اثنان: مالك خـازن النـار، ورضـوان خـازن الجنـة. وكل منهما له أعوان من الملائكة لا يعلم عددهم إلا ا لله. فأعوان خازن النـار يُسـمّون الزبانية وعددهم تسعة عشر، قال تعالى في وصف جهنم -أعاذنا ا لله منهـا: ﴿**لاَ تُبْقِـي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾[1]. وقد اختلف في هذا العدد، فقيل إنه عدد النقباء أي الرؤساء، وقيل عدد الألوف أي تسـعة عشـر ألفـاً، والقـول الثـاني هـو الموافق لقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُـوَ**﴾[2]. أمـا وصفهـم فكمـا قـال ا لله تعالى: ﴿**عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ**﴾[3]. وأما قوّتهـم فـإن أحدهـم يستطيع أن يدفـع سبعين ألفاً مرة واحدة فيرميهم حيث شاء مـن جهنـم، يمشـون في وسـطها ولا يتـألمون منها، بل هم فيها كخزنة الجنة في الجنة.

وأما أعوان خازن الجنة فيُسمَّون بالغِلمان والوِلْدان، قال تعالى: ﴿**وَيَطُوفُ عَلَيْهِـمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ**﴾[4]، وقال: ﴿**وَيَطُـوفُ عَلَيْهِـمْ وِلْـدَانٌ مُّخَلَّـدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنْثُوراً**﴾[5].

ومما يجب الإيمان بمعرفتهم بنوعهم من الملائكة حَمَلَةُ العَرش، وهم في الدنيا أربعـة، وفي الآخرة ثمانية، قال تعالى: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾[6].

هذا ويجب اعتقاد عِصمَة جميع الملائكة، ولا يَـرِدُ علـى ذلـك قولـه تعالى حكايـة عنهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَكَ**﴾[7] وذلك لما قال ا لله لهم: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[8] وهو آدم، لأن هـذا

---

(1) المدثر : 28 - 30 .
(2) المدثر : 31 .
(3) التحريم : 6 .
(4) الطور : 22 .
(5) الإنسان : 19 .
(6) الحاقة : 16 .
(7) البقرة : 29 .
(8) البقرة : 29 .

لا يعتبر غيبة في آدم ولا اعتراضاً على الله سبحانه وتعالى، بل هو بمجرد استفهام. وما نُقِلَ عن المؤرخين في قصة هاروت وماروت على أنهما مَلَكان من الملائكة لم يصح فيه شيء من الأخبار بل هو افتراء من اليهود وتَبِعَهم المؤرخون في ذكر ذلك. والصحيح أنهما رجلان صالحان، وسُمِّيا مَلَكين تشبيهاً لهما بالملائكة، وقد تقدم الكلام عليهما في فقرة (معجزات الأنبياء وعصمتهم وكذا عصمة الملائكة).

الوِلْدان والحُورُ العِين :

مما يجب على المكلف معرفته أن لله مَخلُوقِينَ في الجنة يُسَمَّون بالوِلْدَانِ جمع وليد، كصبيان جمع صبي، لا آباء لهم ولا أمهات، وهم خلق جميل، في رؤيتهم سُرور، لأنهم كاللؤلؤ المنثور، مُرْدٌ لا شَعر لهم في وجوههم، على صورة أولاد الدنيا، فلا يَشِيبون ولا يَموتون، وهم خدم أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾[1]، وقال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[2].

ومما يجب على المكلف معرفته أيضاً أن لله مخلوقات في الجنة تُسمَّى الحُورُ العِين، والحور جمع حَوْراء، وهو مأخوذ من الحَوَر، وهو شدة بياض العين في شدة سوادها، لأن عيونهن كذلك، وهذا يدل على شدة الجمال. قال الشاعر العربي:

إِنَّ العُيُونَ الَّتي في طَرْفِهَا حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلاَنَا

والعِينُ جمع عَيْنَاءَ، وهي المرأة الواسعة العينين، لأنهن كذلك. وهن نساء خُلِقْنَ في الجنة من النور، لا آباء لهن ولا أمهات، يتزوجهن المؤمنون في الجنة. خلقهن الله أبكاراً عُرُباً أتراباً. والأبكار جمع بِكْرٍ وهي العذراء التي لم تُفَضَّ بكارتها، ويَكُنَّ كذلك دائماً

---

(1) الإنسان : 19 .

(2) الواقعة : 19-20 .

كُلّمَا جاءهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً. والعُرُب جمع عَروب وهي المـرأة المتحببـة إلى زوجها عشقاً له. والأتراب هن المستويات في السِّن وسِنُّهُنَّ (ثلاث وثلاثون سنة). قال تعـالى: ﴿حُـورٌ مَّقْصُـورَاتٌ فِي الْخِيَـامِ﴾[1]، وقـال: ﴿لَـمْ يَطْمِثْهُـنَّ إِنْـسٌ قَبْلَهُـمْ وَلاَ جَآنٌ﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّـا أَنْشَـأْنَاهُنَّ إِنْشَـآءً فَجَعَلْنَـاهُنَّ أَبْكَـاراً عُرُبـاً أَتْرَابـاً لِّأَصْحَـابِ الْيَمِينِ﴾[3].

وهذا بالإضافة إلى أزواجهـم في الدنيـا، فيجمعـون بـين أزواجهـم في الدنيـا وبـين الحُور العِين. والمراد بأزواجهم في الدنيـا الذيـن تُوُفُّـوا عنهـن أو تُوُفِّـينَ عنهـم. ويخـرج بذلك المطلقات فلا يعتبرن من الأزواج.

أما الغِلمانُ المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَـأَنَّهُمْ لُؤْلُـؤٌ مَّكْنُونٌ﴾[4] فقيل هم الوِلدان الذين يخلقهم ا لله في الجنة والذين تقدم ذكرهم، وقيل هم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل البلوغ فيكونون خدماً لأهل الجنة، وهذا على سبيل زيادة التنعم في الآخرة، وإلا فالجنة لا تعب فيها، فلا تحتاج إلى خدم.



---

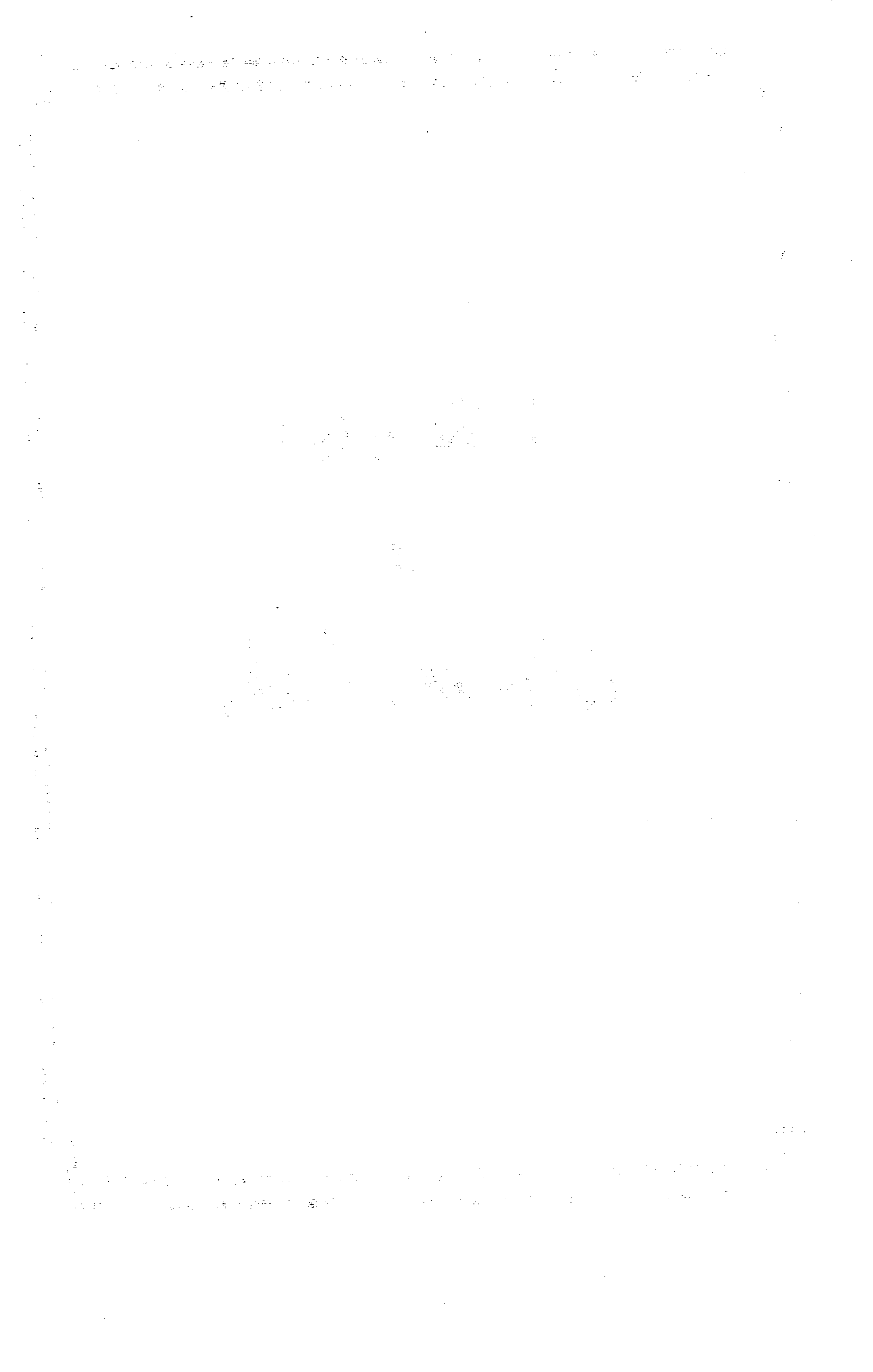
(1) الرحمن : 71 .
(2) الرحمن : 73 .
(3) الواقعة : 40 .
(4) الطور : 22 .



الباب الثالث

في

السّمعيّات



السمعيّات

المراد بالسَّمعيَّات الأمور التي يجب الإيمان بها عن طريق سماعها من نبينا محمد -ﷺ- استناداً إلى الكتاب والسُّنة، وأغلبها يتعلق بالموت والقبر والقيامة والبعث والحشر والحساب والعقاب والثواب والنار والجنة، وغير ذلك مما يتعلق بأمور الآخرة. وفيما يلي بيان هذه الأمور مفصَّلة :

حقيقة الموت:

اختلف العلماء في الموت هل هو وُجودي أو عَدَمي. وذهب الأشعري إلى القول الأول، وعَرَّفه بأنه صفة وجودية تُضَادُّ الحياة، فالتقابل بينهما تقابل التضاد. وذهب الإسفرايني والزمخشري إلى القول الثاني، وعرّفاه بأنه عدم الحياة عمَّا مِنْ شأنه أن يكون حياً ، فالتقابل بينهما تقابل العدم والمَلَكَة. ودليل القول الأول قوله تعالى:﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ**﴾[1]. أما دليل القول الثاني فتأويل الخلق بالتقدير، فمعنى الذي خلق الموت الذي قدَّر الموت، وهو خلاف الظاهر. وجاء عن ابن عباس ومقاتل والكلبي أن الله خلق الموت في صورة كَبْشٍ لا يَمُرُّ بشيء إلا مات. وخلق الحياة في صورة فَرَسٍ لا تَمُرُّ بشيء إلا حَيِيَ. وهذا إنما هو على سبيل التمثيل، وإلاّ فالموت صفة للميت كما أن الحياة صفة للحي. والأَوْلَى التفويض في مثل هذه المقامات مع الإيمان

---

(1) الملك : 2 .

والتصديق بالموت وبفناء الخلق كلهم إلا من شاء الله، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً - ﷺ -: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾[3]، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4]. ويستثنى من هذه القاعدة بعض المخلوقات التي وردت الأحاديث النبوية بعدم موتها ومنها الرُّوح وعَجْبُ الذَّنبِ وأجساد الأنبياء والشهداء والعرش والكرسي والجنة والنار والحور العين، وغير ذلك ممن شاء الله. وقد نظم الجلال السّيوطي ثمانية منها بقوله :

ثَمَانِيَةٌ حُكْمُ البَقَاءِ يَعُمُّهَا ... مِنَ الخَلْقِ وَالبَاقُونَ فِي حَيِّزِ العَدَمْ
هِيَ العَرْشُ وَالكُرْسِيُّ نَارٌ وَجَنَّةٌ ... وَعَجْبٌ وَأَرْوَاحٌ كَذَا اللَّوحُ وَالقَلَمْ

قال الشيخ البيجوري في توضيحه لما جاء في الجوهرة من قول الناظم :

وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ قَدْ خَصَّصُوا ... عُمُومَه فَاطْلُبْ لِمَا قَدْ لَخَّصُوا

أشار المصنف إلى الجواب عما يرد عليه كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾، إذ مقتضاه أن كل ما سواه تعالى محكوم عليه بالهلاك. وحاصل الجواب أن العلماء قصروا عموم ذلك على غير الأمور التي وردت الأحاديث باستثنائها، وعلى هذا فتكون الآية من قبيل العام المخصوص. والعام لفظ يَستغرق الصالح له بغير حصر، والتخصيص قَصْرُ العام على بعض أفراده. وهذا الجواب لجماعة كابن عباس رضي الله عنهما. وذهب محققو المتأخرين إلى أنه لا استثناء ولا تخصيص، وقالوا إن معنى هالك قابل للهلاك كما هو معنى فَانٍ. أ.هـ.

---

(1) الزمر : 29 .
(2) العنكبوت : 57 .
(3) الرحمن : 24-25 .
(4) القصص : 88 .

وما تقدم من أنه يجب الإيمان والتصديق بالموت وبفناء الخلق كلهم إلاّ من شاء الله هو الحق وهو مذهب أهل السنة، خلافاً للدُّهرية الذين يقولون: إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع. وقد أخبر القرآن عنهم بقوله تعالى: **﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّحَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾**[1]، وقوله: **﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾**[2].

ومما يجب اعتقاده أن الموت يأتي على الوجه المعهود شرعاً من فراغ الآجال المقدرة في علم الله خلافاً للحكماء الذين يقولون إنه يأتي بمجرد اختلال نظام الطبيعة. وهذا الخلاف إنما هو بالنسبة للسَّبب، أما بالنسبة لأصل وقوع الموت فلا حاجة للنص عليه، إذ لا يشك فيه عاقل لكونه مشاهداً صباحاً ومساءً.

وإذا كان الموت يأتي بانتهاء الأجل كما تقدم فإن من يُقتَل يكون قد مات بانتهاء أجله، وهذا هو مذهب أهل السنة. فالأجل عندهم لا يقبل الزيادة أو النقصان، قال تعالى: **﴿فَإِذَا جَا أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾**[3]. وقد دلت الأحاديث على أن كل هالك يستوفي أجله من غير تقدم عليه ولا تأخر عنه. ولا يعارض هذه القواطع ما ورد أن بعض الطاعات كصلة الرحم يزيد في العمر لأنه خبر آحاد، أو أن الزيادة فيه بحسب الخير والبركة، أو بالنسبة لما ثبت في صحف الملائكة، فقد يثبت الشيء فيها مطلقاً وهو في علم الله تعالى مقيد، كأن يكون في صحف الملائكة أن عُمرَ زيد خمسون سنة مثلاً مطلقاً، وهو في علم الله مقيّد بأن لا يفعل كذا من الطاعات وإن فعلها فيكون عمره ستين سنة. فإن سبق في علمه تعالى أن يفعلها فلا يتخلف عن فعلها ويكون عمره ستين سنة. فالزيادة بحسب الظاهر على ما في صحف الملائكة، وإلا فلا بد من تحقق ما في علمه تعالى، كما يشير له قوله عز وجل: **﴿يَمْحُواْ**

---

(1) الجاثية : 23 .

(2) الأنعام : 30 .

(3) الأعراف : 32 .

﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1] أي أصل اللوح المحفوظ، وهو علمه تعالى الذي لا محو فيه ولا إثبات. وأما اللوح المحفوظ فالتحقيق قبول ما فيه للمحو والإثبات كصحف الملائكة. وبعضهم فسَّر أم الكتاب باللوح المحفوظ لأنه ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه، والقول الأول هو الراجح، وعليه فمختار أهل السنة أن كل من يُقتَل فهو ميت بانقضاء عمره وحضور أجله في الوقت الذي عَلِم الله حصول موته فيه أزلاً بِخَلْقِهِ تعالى من غير دخل للقاتل فيه، وإنما وجبت العقوبة على القاتل شرعاً نظراً للكسب فقط، كمن يُقدِم على فعل معصية من المعاصي. وإن لم يُقتَل جاز أن يموت في ذلك الوقت أو لا يموت لأنه لا اطلاع لنا على ما في علم الله. فيحتمل أنه لو لم يُقتَل أن يموت في ذلك الوقت إن لم يكن عمره في علم الله أكثر من ذلك، ويحتمل أن لا يموت فيه إن كان عمره في علم الله أكثر من ذلك. وهذا التجويز ذاتي لا قطعي، بل على فرض عدم قتله كما هو ظاهر، وإلا فقد بان بقتله أن الله علم موته في ذلك الوقت فلا يتخلف. وهذا هو الاعتقاد الصحيح، أما غيره مما ذهب إليه المخالفون لأهل السنة فهو باطل أي غير مطابق للواقع فلا يقبل عند العقلاء والمتمسكين بالحق. قال صاحب الجوهرة:

وَمَيِّتٌ بِعُمْرِهِ مَنْ يُقْتَلُ وَغَيْرُ هَذَا بَاطِلٌ لاَ يُقْبَلُ

والمخالفون لأهل السنة في هذه القضية هم المعتزلة ، فلهم فيها ثلاثة مذاهب : **(أولها)** مذهب (الكَعْبي) وهو أن المقتول ليس بميت لأن القتل فعل العبد والموت فعله تعالى، واستُدِل على ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾[2]، فإن العطف يقتضي المغايرة. فعند (الكعبي) أن المقتول له أجلان: أجل بالقتل وأجل بالموت، فلو لم يُقتَل لعاش إلى أجله بالموت. وردَّ عليه أهل السنة بأن المعنى ولئن مِتُّم بغير سبب أو

(1) الرعد : 40 .
(2) آل عمران : 158 .

قُتِلتم بأن مِتُّم بسبب. (الثاني) مذهب جمهورهم وهو أن القاتل قطع على المقتول أجله. فعندهم أن المقتول له أجل واحد وهو الوقت الذي علم الله موته فيه لولا القتل، فلو لم يُقتَل لعاش إليه قطعاً . (الثالث) مذهب (أبي الهُذَيل) من المعتزلة، وهو أن المقتول أجله في ذلك الوقت. فعنده أن المقتول له أجل واحد وهو الوقت الذي قُتِلَ فيه، فلو لم يُقتَل لمات بدل القتل قطعاً.

هذا وقد تقدم في فقرة (الملائكة الكرام) من الباب الثاني عند الكلام على الصنف الأول من الملائكة أن قبض الأرواح أي إخراجها من جسدها مُوكَّل به سيدنا عزرائيل عليه السلام وأعوانه من الملائكة وهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾[2]، ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[3] لأن الله عز وجل هو القابض الحقيقي، وقبض الملائكة بأمره سبحانه وتعالى. قال صاحب الجوهرة :

وَوَاجِبٌ إِيمَانُنَا بِالْمَوْتِ   وَيَقْبِضُ الرُّوحَ رَسُولُ الْمَوتِ

وأما كيفية القبض فقيل إن ملك الموت يأمر أعوانه من الملائكة بإخراجها من الجسد، وهم نوعان: ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فمنهم من يجذب الروح جذباً، ومنهم من ينزعها نزعاً، ومنهم من يُنشِطها نَشْطاً. فإذا بلغت الحلقوم يأخذها مَلَك الموت، فإن كان صاحبها من أهل السعادة نادى ملائكة الرحمة، وإن كان من أهل الشقاوة نادى ملائكة العذاب.

وقد يتساءل البعض هل يُحِسُّ الميت بخروجه من الدنيا؟ أجاب بعض الباحثين عن هذا التساؤل بقوله إن الميت لا يُحِس بخروجه من الدنيا. ورد عليه بعضهم بقوله لَستُ

---

(1) السجدة : 11 .

(2) الأنعام : 62 .

(3) الزمر : 39 .

أدري على ما استند هذا الباحث. ولكن الذي يحدث عادة عند الموت وتعطل حواس الجسد أن الروح التي تنطلق منه تستطيع أن ترى وتسمع وتشم وتتذوق وتحس وذلك أن الحواس من خواص الروح. ومن هنا يمكن القول بأن الروح ترى وتسمع وتتحدث تماماً كما يحدث للإنسان الذي جسده في حالة نوم وروحه منطلقة، فإن هذا الإنسان حين يحلم لا يحس أنه نائم أو أن جسده مُعطّل تماماً، بل يُحِس أنه حَيٌّ.

وفي خلال انطلاق روحه في عالمها تتم أشياء غريبة لا يستطيع الجسد أن يؤديها في اليقظة، وفي خلال هذا الحلم لا يحس الإنسان أنه نائم، إنه يضحك ويبكي ويتألم وينفعل ويغضب ويفرح تماماً كما يحدث له في اليقظة، وأحياناً يأكل ويحس بطعم الأكل وإن لم يدخل شيء في جوفه المادي أي مَعِدته وذلك لأنه نائم، ولكنه يحس بكل إحساسات الإنسان اليقظ بما في ذلك إحساسه بالطعام يدخل جوفه. ومع أن الجسد في حالة سكون وعدم حركة فإن النائم حين يَحْلُمُ يُحِس أنه في كامل حركته وقوته، كما أنه يحس بالألم أحياناً مع أنه لا شيء في الحقيقة آلمه. ومن هنا فقد يكون هذا تفسيراً لعدم إحساس الميت بخروجه من الدنيا، فالنائم لا يحس أنه في حالة نوم إلا إذا استيقظ.

وقد وردت آيات كثيرة تدل على عدم إحساس النائم أو الميت بالزمن، ومن هذه الآيات قوله تعالى في حق أهل الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْبَعْضَ يَوْمٍ﴾[1]، وقال مثل هذه الإجابة عزير الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، قال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾[2]، وقال تعالى في حق الكفار الذين سيسألهم بعد البعث عن المدة التي لبثوها أمواتاً في الأرض وهي ألوف أو ملايين السنين: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي

---

(1) الكهف : 19 .

(2) البقرة : 258 .

﴿الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[1]، ويؤخذ من هذا أن الميت لا يحس بخروجه من الدنيا ولا بالمدة التي يقضيها منذ وفاته إلى أن يُبعث.

حقيقة الرُّوح :

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[2]. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً سألوا النبي -ﷺ- بإيعاز من اليهود عن ثلاثة أشياء : عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح. فنزل قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾[3]...إلى آخر قصتهم. كما نزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾[4]... إلى آخر القصة. أما عن الروح فنزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي﴾، وإنما أمر النبي-ﷺ- بالإمساك عن حقيقة الروح ليعلم اليهود الذين أوعزوا لقريش بالأسئلة الثلاثة بصدق النبي -ﷺ- في قوله إني رسول الله، لأنه يوجد في كتبهم أن من علامات نبوة محمد -ﷺ- أن يجيب المشركين عن السؤالين المتعلقين بأصحاب الكهف وذي القرنين ويُمسِك عن الإجابة بالنسبة للسؤال المتعلق بالروح.

قال الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين: المراد بذلك حقيقة الروح التي بها حياة البدن وهو الأصح، ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي﴾ أن حقيقة الروح مما استأثر الله بعلمه وهذا هو الصحيح. وفي الآية اقتصار على وصف الروح كما اقتصر موسى عليه السلام في جواب قول فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[5]، على

---

(1) المؤمنون : 113-114.
(2) الإسراء : 85 .
(3) الكهف : 9 .
(4) الكهف : 82 .
(5) الشعراء : 22 .

ذكر صفاته حيث قال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[1]، لأن إدراكه عز وجل بالكُنْهِ على ما هو عليه لا يعلمه إلا هو، وكذلك كل ما استأثر الله بعلمه. قال صاحب الجوهرة :

وَلاَ تَخُضْ فِي الرُّوحِ إِذْ مَا وَرَدَا | نَصٌ عَنِ الشَّارِعِ لَكِنْ وُجِدَا
لِمَالِكٍ هِيَ صُورَةٌ كَالْجَسَدِ | فَحَسْبُكَ النَّصُ بِهَذَا السَّنَدِ

قال الشيخ البيجوري في شرح هذين البيتين : حَمَلَ الشَّارِحُ (أي ناظم الجوهرة نفسه) النَّهيَ عن الخوض في حقيقة الروح على الكراهة حيث قال: الروح استأثر الله بعلمها فلم يُطلع عليها أحداً، فالخوض في بيان حقيقتها مكروه لعدم التوقيف في ذلك. لكن كلام الإمام الجنيد يدل على الحرمة حيث قال: الروح استأثر الله بعلمها فلا يجوز لعباده البحث عنها بأكثر من أنها موجودة. وفي ذلك إظهار لعجز المرء حيث لم يعلم حقيقة نفسه التي بين جنبيه مع القطع بوجودها. ولكنَّ النبي -ﷺ- لم يخرج من الدنيا حتى أطلعه الله تعالى على حقيقة الروح وعلى جميع ما أبهم عنه منها ومن غيرها مما يمكن علم البشر به، لا على جميع معلوماته تعالى، وإلاَّ لزم مساواة الحادث للقديم. وما خالف ذلك من نحو: ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾[2]، محمول على أنه كان قبل أن يُكشَف له عن ذلك. ومع هذا فعدم الخوض في الروح هو القول المختار.

والمشهور عدم تعدد الروح في كل جسد. وصرَّح (العِزُّ بن عبد السَّلام) بأن في كل جسد روحين: إحداهما روح اليقظة التي أجرى الله العادة بأنها إذا كانت في الجسد كان الإنسان مستيقظاً، فإذا خرجت نام، وهي الروح التي ترى الأحلام. والأخرى روح الحياة التي أجرى الله العادة بأنها إذا كانت في الجسد كان الإنسان

---

(1) الشعراء : 23 .
(2) الأنعام : 51 .

حياً، فإذا فارقته مات. وهاتان الروحان في باطن الإنسان لا يعرف مقرهما إلا من أطلعه الله على ذلك.

والصحيح أن الأرواح خُلِقت قبل الأجساد بآلاف السنين لما في الحديث الشريف: «إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام، فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف»[1] . والأعوام هنا ليست الأعوام الأرضية التي نحسبها ولكنها أعوام الزمن عند الله التي قال عنها: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[2] ، وقال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[3] . ومن هنا فإن عدد الأعوام لا يُعد. والأصح أن يقال إنها منذ بدء الخليقة أو من يوم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُم؟). قال الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾[4] إن الله جمع أرواح بني آدم في عالم الذر وقال لهم: اعلموا أنه لا إله غيري، وأنا ربكم لا رب لكم غيري، فلا تشركوا بي شيئاً، فإني سأنتقم ممن أشرك ولم يؤمن، وإني مرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي، ومنزل عليكم كتاباً. فتكلموا جميعاً وقالوا: شهدنا أنك ربنا لارب لنا غيرك. فأخذ بذلك مواثيقهم.

ومع أن الإمساك عن الخوض في حقيقة الروح هو المطلوب كما تقدم، فقد وُجِدَ نص لعلماء مذهب الإمام مالك رواه ابن القاسم عن عبد الرحيم بن خالد يقول: إن الروح جسم كصورة الجسد في الشكل والهيئة ذو يدين ورجلين وعينين ورأس تُسَلُّ من الجسد سَلاً.

---

(1) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبوداود وأبو يعلى والطبراني في الكبير.

(2) الحج : 45 .

(3) المعارج : 4 .

(4) الأعراف : 171 .

وقال النووي: إن أصح ما قيل في الروح هو ما قاله إمام الحرمين من أنها جسم لطيف شفّاف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود الأخضر فتكون سارية في جميع البدن. وقيل مقرها البطن، وقيل القلب أو بقربه، والصواب ما قاله إمام الحرمين. وهذا في حالة الحياة، وأما بعد الموت فأرواح السُّعداء تكون بأفنية القبور على الصحيح، وقيل في السماء الدنيا عند آدم عليه السلام لكن لا دائماً، لأنها منطلقة تسرح حيث شاءت، وأما أرواح الكفار فتكون في سجِّين وهو في الأرض السابعة السفلى، وقيل غير ذلك. وا لله أعلم بالحقيقة.

فإن قيل يَرِدُ على القول بأن الروح جسم كصورة الجسد أنه إذا قطع عضو من أعضاء الجسد لزم قطع نظيره من الروح. فالجواب: إن لطافة الروح وشفافيتها تقتضي سرعة انجذابها وانضمامها من ذلك العضو المقطوع قبل انفصاله ، أو سرعة التحامها بعد القطع. والقول بسرعة انجذابها دون انقطاعها ثم التحامها هو الصحيح، لأن الأصل عدم الانقطاع.

والصحيح الوقف عن البحث في حقيقتها، وهو الذي رجَّحه أغلب العلماء .

هذا بالنسبة لحال الروح في الحياة، أما بعد الموت فإنها تتحول إلى جسد شفّاف لا تؤثر فيه المؤثرات الكونية، ولا تسري عليه قوانين الطبيعة التي كانت تسري على الجسد في حال الحياة، وبذلك تكون هناك نشأة أخرى وهي حياة البرزخ. وقد أكرم ا لله أجساد الأنبياء والأولياء وغيرهم لكمالها فلا تأكلها الأرض، والموت بالنسبة لهم غَشَيَان وإفاقة[1] . فالنّشآت ثلاث: **(الأولى)** نشأة الجنين في بطن أمه. **(الثانية)** نشأة المولود بعد الولادة وإلى أن تنتهي حياته في الدنيا. **(الثالثة)** نشأة البرزخ، وهي تحوُّل الروح إلى جسد برزخي شفاف يغاير الجسد الدنيوي.

---

[1] ودليل ذلك ما ورد في صحيح البخاري أن النبي -ﷺ- قال: ((لا تخيروني على موسى فإني أفيق فأجده آخذاً بقوائم العرش)).

ومن جهة أخرى فإن الروح تمر بأربع مراحل: (**المرحلة الأولى**) ما بعد تكوين الجنين في بطن أمه، أي عند تمام مائة وعشرين يوماً من بَدْءِ الحمل، فتدخل الجسد لأول مرة. وفي هذه المرحلة يأمرها الله سبحانه وتعالى أنِ تَظلَّ مُستكِنة ولا تتحرك إلا بمقدار ما تستوجبه حياة الجنين ونزوله من بطن أمه بعد أن يَتِم خَلْقُ جسده كاملاً.

(**المرحلة الثانية**) ما بعد الولادة، فتكون الروح هنا كاملة تماماً لا فرق بينها وبين روح الرجل الكامل أو المرأة، إلا أنها تُؤْمَر من قِبَل الخالق عز وجل أن تنتظر نُمُوَّ الجسد فتتدرج معه حتى يبلغ سِنَّ الإدراك فتعطيه كمال الحِسِّ والحركة والعقل. وتكون الروح خلال هذه المرحلة حبيسة داخل الجسد وليست حرة طليقة في كامل انطلاقها. وفي هذه الحالة يتحكم فيها الجسد، ويكون بمثابة ستارة معتمة تحجب الروح عن انطلاقاتها الحقيقية، وخلال هذه الفترة يكون هناك الاختبار والحساب. ولكن الأجساد ليست في درجة واحدة رغم أننا لانستطيع أن نفرق بينها، وذلك لأن الذنوب والخطايا تجعل الجسد معتماً، ويزداد عتمة حتى تحتبس شفافية الروح تماماً. بينما العمل الصالح والتقرب إلى الله يُعطِي نوعاً من الشفافية للأجساد، وأكثر الأجساد شفافية أجساد الرسل. وهي تتقارب من شفافية الروح وبذلك تصل إلى الملكوت. وخلال احتباس الروح في الجسد تنطلق منه ساعة النوم، وخلال انطلاقها تتمتع بكل مميزات الروح، فتستطيع أن تلتقي مع الأرواح الأخرى التي فارقت أجسادها وتتحدث معها. وتستطيع أن تذهب إلى أماكن بعيدة، ومتى تمت اليقظة عادت الروح حبيسة في الجسد مرة أخرى، وهكذا إلى أن يأتي الموت فتخرج من الجسد وتنطلق في حياة البرزخ، ويكون لها اتصال بالجسد حتى ولو بَلِيَ.

(**المرحلة الثالثة**) ما بعد الموت، وهي حياة البرزخ، فتكون في جسد برزخي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. فإن كانت روحاً طيبة فإنها تحيا في البرزخ حياة طيبة، وإن كانت روحاً خبيثة فإنها تُعذَّب في البرزخ، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ***

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[1].

(**المرحلة الرابعة**) وهي مرحلة البعث يوم القيامة، وفي هذه المرحلة تخرج الأرواح بأجسادها الأصلية التي كانت موجودة بها في الدنيا لأن الله سبحانه وتعالى يعيد هذه الأجساد مرة أخرى. والأدلة على ذلك من القرآن الكريم كثيرة، منها قوله تعالى: **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾**[2]، والبَنان هي أطراف الأصابع المشتملة على البصمات. ومعلوم أنه منذ خَلقِ آدم عليه السلام إلى يوم البعث لا يمكن أن يتشابه إنسان في بصمته مع إنسان آخر، فالعلامة المميزة بين جسد وآخر هي بصمة الأصبع، ومنها قوله عز وجل: **﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾**[3]، وقوله: **﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾**[4]، والإخراج هنا للأجساد بعد إحيائها لأن الأرواح لم تمت كما تقدم، ثم يتحوَّل هذا الجسد بعد الحساب في تركيبه إلى تركيب آخر يتكافأ مع الخلود إما في الجنة، وإما في النار، مع بقاء صورة الإنسان كما هي. ويكون الجميع في سِنِّ الثالثة والثلاثين من العمر، وهي أقوى سِنِّ الشباب، فيتساوى الكبار والصغار، والذكور والإناث في العمر.

---

(1) الواقعة : 89-97 .

(2) القيامة : 3-4 .

(3) يس : 76-78 .

(4) طه : 54 .

هذه هي المراحل الأربع التي تمر بها الروح. ومنها يُفهَم أن الجسد الواحد ليس له إلا روح واحدة، والروح الواحدة ليس لها إلا جسد واحد، فالجسد الدنيوي يتحول في القبر إلى جسد برزخي، ثم يتحول بعد الحساب إلى جسد يجابه الخلود الأبدي إما في الجنة، وإما في النار. ولا توجد أي روح تدخل جسد إنسان آخر أو حيوان أو غير ذلك من المخلوقات كما يدَّعيه الضَّالون عن الحق من القول بتناسخ الأرواح.

حالات انطلاق الروح بغير الموت:

لا يختص انطلاق الروح بالموت فقط، بل إن لها انطلاقات في حالات أخرى بعضها بالجسد وبعضها من دونه فأما التي من دون الجسد فمنها حالة النوم وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ** ﴾[1]. وما يراه النائم من الأحلام ما هو إلا نتيجة لهذا الانطلاق.

وأما التي بالجسد فمنها حالة القرب من الله عز وجل في الدنيا نتيجة لشفافية الجسد من كثرة التقرب إلى الله تعالى بفعل الطاعات وترك المعاصي والزهد في الدنيا بحيث تكون في يده لا في قلبه مما يعطي الروح قدرة على أن تسبح بجسدها حيث تريد بإذن الله وما الكرامات التي نسمع أنها حدثت لأولياء الله تعالى في الماضي إلا نتيجة لقدرة الأرواح على أن تقوم بأفعال لا تقدر عليها أرواح أخرى محبوسة في أبدانها لأن أجسادهم خفت إلى الدرجة التي أصبحت فيها خلال لحظات معينة أجساداً لا تؤثر فيها جاذبية الأرض وأصبح الجسد نورانياً شفافاً ينتقل من مكان إلى مكان آخر في لمح البصر، وهذا ما حدث لرسول الله -ﷺ- ليلة الإسراء والمعراج إذ رفعه الله بجسده

---

(1) الزمر : 39 .

وروحه وخرج من الأرض وانطلق في السموات إلى سدرة المنتهي، وفي هذا المقام الذي يصبح الجسد فيه نورانياً شفافاً كالروح تنمحي بشرية الإنسان وكل حكم هو للجسد على الروح وتصبح الروح منطلقة وكأنها بلا جسد، وعلى هذا الأساس رفع الله سبحانه وتعالى بعض رسله إلى السماء بأجسادهم وأرواحهم منهم إدريس عليه السلام الذي قال عنه سبحانه وتعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾[1] وعيسى بن مريم عليه السلام الذي قال عنه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[2].

حقيقة العقل :

العقل لغة : المنع، مأخوذ من عَقَلَ البعير إذا منعه بالعِقال، وسُمِّيَ بذلك لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل. وعرَّفه الإمام الغزالي رحمه الله بأنه جوهر مجرد. واختلف في محله، والصحيح أن محله القلب وله نور متصل بالدماغ، كما ذهب إليه الإمام الشافعي والإمام مالك رضي الله عنهما وجمهور المتكلمين. وقالت الحكماء وبعض الفقهاء بأن محله الدماغ لأنه يفسد بفساد الدماغ، إلا أن هذا التعليل غير صحيح لجواز أن تكون سلامة الدماغ شرطاً لاستمراره وإن كان محله القلب. وقالت المعتزلة والخوارج والحكماء بجوهريته. وفسره بعضهم بأنه جوهر تُدْرَك به الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة. وعرَّفه الشيرازي من أهل السنة بأنه صفة يُمَيَّز بها الحسن من القبيح. ومن أحسن ما قيل فيه إنه نور روحاني تُدرِك به النفس العلوم الضرورية والنظرية.

وأقوال أهل السنة متطابقة على كونه عَرَضاً لا جِرْماً، إلاّ أن بعضهم قال إنه من قبيل العلوم، وعرَّفه بأنه العلم ببعض العلوم الضرورية كالعلم بوجوب تحيز الجِرْم

---

(1) مريم : 56 .

(2) النساء : 156-157 .

واستحالة خُلوّه عن الحركة والسكون وجواز إحراق النار وغير ذلك، و قال إمام الحرمين وجماعة إنه ليس من قبيل العلوم.

وقال بعضهم إن العقل خمسة أنواع: غريزي: وهو غريزة يُتَهيَّأ بها لإدراك العلوم النظرية. وكَسْبي : وهو ما يكتسبه الإنسان من معاشرة العقلاء . وعَطَائي: وهو ما يعطيه ا لله للمؤمنين ليهتدوا به إلى الإيمان. وعقل الزهاد: وهو الذي يكون به الزهد. وشرفي: وهو ما أعطاه ا لله لنبينا محمد -ﷺ- لأنه أشرف العقول.

واختلف أيهما أفضل: العقل أو العلم. والراجح أن العلم أفضل لأنه صفة من صفات ا لله تعالى. وقد تخيل بعضهم حواراً بين العقل والعلم في هذا المعنى فقال:

عِلْمُ العَلِيمِ وَعَقْلُ العَاقِلِ اختَلَفَا ... مَنْ ذَا الَّذِيمِنهُما قَد أَحْرَزَ الشَّرَفَا

فالعِلْمُ قَالَ أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ ... وَالعَقْلُ قَالَ بِيَ الرَّحْمَنُ قَدْ عُرِفَا

فَأفْصَحَ العِلْمُ إِفْصَاحاً وَقَالَ لَهُ ... بِأَيِّنَا ا للهُ فِي فُرْقَانِهِ اتَّصَفَا

فَبَانَ لِلعَقْلِ أَنَّ العِلْمَ سَيِّدُهُ ... فَقَبَّلَ العَقْلُ رَأسَ العِلْمِ وَانْصَرَفَا

أما من حيث الخوض في حقيقة العقل فبعضهم رجّح جواز الخوض وبعضهم رجّح الوقف عن ذلك وهو المختار، لأنه من المغيبات، وكل ما هو كذلك فالأَوْلَى الكف عن الخوض فيه، وبالجملة فإن حكمه حكم الروح. قال صاحب الجوهرة :

وَالعَقْلُ كَالرُّوحِ وَلَكِنْ قَرَّرُوا ... فِيهِ خِلافاً فَانْظُرَنْ مَا فَسَّرُوا

حقيقة النّفس:

اختلف العلماء في حقيقة النفس؛ هل هي الروح أو هي غيرها. فقال بعضهم : إن النفس غير الروح. وأصحاب هذا الرأي انتهوا إلى أن الخلاف لفظي، وأن النفس والروح شيء واحد، وأن آثار النفس هي عين آثار الروح، ودليل هذا القول ما روي عنه -ﷺ- من قوله: ((ألم تروا أن الإنسان إذا مات شَخَصَ بَصَرُهُ؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: ذلك حين يتبع بَصَرُهُ نفسَهُ))[1]، وقوله في حديث آخر: ((إنّ الرّوح إذا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ))[2]. فنرى أنه عليه الصلاة والسّلام استعمل كلمة الروح والنفس في معنى واحد. وقال بعضهم إن النفس غير الروح، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[3]، ولم يرد كل روح ذائقة الموت لأن الروح لا تموت.

ومن أحسن ما قيل في الفرق بين الروح والعقل والنفس والقلب: أن هناك لطيفة ربانية في الإنسان لا يعلمها إلا الله تعالى، فمِنْ حيث حياة الجسد بها تسمى (روحاً)، ومن حيث تُفكُّرها تسمى (عقلاً)، ومن حيث شهوتها تسمى (نفساً)، ومن حيث عاطفتها تسمى (قلباً).

هذا وقد ذكر العلماء أن النفس لها سبع مراتب: (**أولها**) الأمّارة بالسّوء، وهي نفس الكافر والعاصي، فلا تأمر بخير أصلاً ومع ذلك فهي راضية بفعلها مُحَسِّنَة له، قال تعالى في حقها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ﴾[4]. (الثانية) اللّوّامة، وهي التي تلوم صاحبها ولو كان مجتهداً في الطاعة، وهذا مبدأ الخير وأصل التّرقي، قال تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[5]. (الثالثة) النفس المُلْهَمَة، وهي التي ألهمت فجورها

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم.

(3) العنكبوت : 57 .

(4) يوسف : 53 .

(5) القيامة : 2 .

وتقواها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1]، أي بيّن لها طريق الخير وطريق الشر. (الرابعة) النفس المُطمَئِنة، وهي التي اطمأنت لله وسكنت تحت مقاديره. (الخامسة) النفس الراضية، وهي التي رضيت عن الله تعالى في جميع حالاتها. (السّادسة) النفس المرضيَّة، وهي التي جُوزيت بالرضا من الله تعالى، لأن من رَضِيَ فله الرضا، قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2]. (السابعة) النفس الكاملة، وهي أكمل المراتب.

القَلب :

القلب لغة : الفؤاد، وقد يُعبَّر به عن العقل. قال الفرّاء في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[3]، أي عقل. والدليل على هذا قوله -ﷺ-: ((إن في الجسد مُضغَة إذا صَلَحَت صلح الجسد كله، وإذا فَسَدَت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب))[4]. ومن هنا قال العلماء إنه من أعظم النعم في جسم الإنسان، لأنه هو الذي يُمَيِّز بين الخبيث والطيب والحسن والقبيح. والقلب هو محل النية التي تتوقف عليها صحة العبادة والتي تنصرف بها الأمور الظاهرية إلى حقيقتها الباطنية، وقد تنقلب بها من طاعة إلى معصية، ومن أمنية إلى حقيقة. قال -ﷺ-: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل إمرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه))[5].

---

(1) الشمس : 7-8 .

(2) الفجر : 30-31 .

(3) ق : 37 .

(4) رواه الشيخان والترمذي.

(5) متفق عليه.

وصَلاَح القلب يكون: (أولاً) بتنويره دائماً بالإيمان با لله وتزكيته بالطاعات ومكارم الأخلاق. (ثانياً) بتطهيره من الكفر والمعاصي والأخلاق الرديئة، لأن الطاعات تجلو القلوب وتَصْقُلها، والمعاصي تصدئها وتُفسِدها، قال-ﷺ-: ((إن المؤمن إذا أذنب ذنباً صار نكتة سوداء في قلبه، فإذا تاب واستغفر صُقِلَ قلبه، وإذا زاد في الذنوب زادت النكتة حتى تعلو قلبه (أي تَعُمَّهُ كله) كما يَعُمُّ الصدأ القدر، فذلكم الرَّان الذي ذكره ا لله تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿كَلاَّ بَلْ رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي من الذنوب))[1] .

ادِّعاء تحضير الأرواح :

ذكر بعض الباحثين أن ما يدَّعيه بعض الدَّجَّالين من قدرته على تحضير الأرواح ما هو إلاّ كذب وافتراء ، وذلك لأن الروح بعد صعودها في الملكوت تكون بعيدة عن ماديات الدنيا، فلا يمكن أن تحضر لمجرد أن يأمرها الإنسان بالحضور، أو لمجرد إطلاق البخور أو قراءة الأدعية؛ لأنها لا تخضع لأوامر الإنسان وهي في الملكوت، ولا يمكن أن تأتي لتدل على سارق أو قاتل مثلاً. ولكنها تلتقي بالأرواح التي تريد أن تلتقي بها عندما يكون الإنسان نائماً، وأحياناً في حال اليقظة عند شفافية الجسد، كما تقدم في فقرة (حالات انطلاق الروح بغير الموت).

وعليه فالذي يقول إنه يستطيع أن يُحَضِّر الروح فهو يخلط بين الروح وقرين الإنسان الذي ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾[2] ، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا

---

(1) رواه النسائي والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(2) ق : 27 .

جَآءَانَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[1] . وهذا القرين من الشياطين كما ذكر في الآية، ويقال إنه يلازم الإنسان طول حياته ولا يموت بعده؛ لأن الشياطين لا يموتون إلا بالنفخة الأولى كما تقدم في فقرة (الجن) من الباب الثاني، وهو يعرف كل خصوصياته، وصفاته توازي تماماً صفات الإنسان القرين له من صوت وفكر، فربما بواسطة السِّحر يتوصل السَّاحر إلى جلب هذا الشيطان فيتحدث كما يتحدث الشخص المتوفى عما حصل له قبل مماته، أما بعد مماته فلا يمكن أن يعرف عنه شيئاً، لأن ذلك من أمور الغيب، والشياطين لا يعلمون الغيب، كما قال تعالى في حق سيدنا سليمان عليه السَّلام: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[2] . وخلاصة القول أنه لا صحة مطلقاً لما يُسمَّى بتحضير الأرواح؛ لأن الروح من أمر الله، لا يتصرف فيها غيره.

التنويم المغناطيسي :

نظرية التنويم المغناطيسي مُؤسَّسة على وجود الرُّوح وطاقاتها التي يُمَدُّ بها الجسد حين وجودها فيه وانطلاقها منه حين يكون في حالة نوم واسترخاء كاملين. والقصد منه معرفة الشخص المرتكب لجريمة سرقة أو قتل مثلاً. وتتكون هيئة التنويم من المُنَوِّم وهو إنسان قوي الإرادة، والوَسِيط وهو المُنَوَّم ويكون عادة ضعيف الإرادة بحيث يسيطر عليه المُنَوِّم.

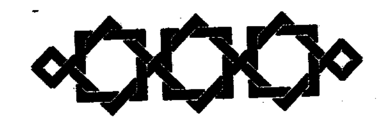
وكيفية التنويم هي أن روح المُنَوِّم تسيطر على روح المُنَوَّم الذي هو الوسيط فتتراخى حواسه وينام نوماً صناعياً، ولكن حالته هي حال النائم الطبيعي، فتنطلق روحه مع تعلقها بالبدن، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى قراءة أفكار المُنَوِّم أو

---

(1) الزخرف : 35-37 .

(2) سبأ : 14 .

أفكار من حوله من أصحاب الحاجات. فإن كان في ذهن الشخص الذي جاء يسأل عن سرقة مثلاً أنه يشك في فلان فإن الوسيط يقرأ ما في ذهن السائل ويقرر أن فلاناً هذا قد سرق، وهو في الحقيقة ينقل اتهاماً ولا ينقل علماً. وأحياناً يفشل الوسيط في ما يوحى به إليه المُنَوِّم، وفي هذه الحالة فإن ما ينقله هو ما وصلت إليه فراسة المُنَوِّم نفسه وما استطاع أن يستخلصه، بصرف النظر عن الحقيقة. ولذلك فإن معظم النتائج التي يتم التوصل إليها عن طريق التنويم المغناطيسي هي نتائج غير حقيقية وغير صحيحة؛ لأنها إما من أفكار صاحب السؤال، أو مِن إيحاء المُنَوِّم، أو من ورقة يمسكها المُنَوِّم في يده ويقرؤها.



عذاب القبر ونعيمه

المراد بعذاب القبر ونعيمه ما يجده الميت بعد موته من العذاب أو النعيم، فيجب الإيمان بذلك لأنه أمر ممكن، وقد أخبر به نبينا محمد -ﷺ-. وكل ما هو كذلك وجب الإيمان به وهوما عليه أهل السُّنة، وأنكره أكثر المتأخرين من المعتزلة، كما أنكره الملاحدة كذلك، وأنكروا سؤال الملكين في القبر. وإنما أُضِيفَ العذاب والنعيم إلى القبر لأنه الغالب فيمن يموت، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه عُذِّب، سواء قُبر أو لم يُقْبَر، ولو صُلب أو غرق أو أكلته الدواب أو حُرِّق حتى صار رماداً وذُرِّيَ في الريح، ولا يمنع من ذلك تفرق أجزاء الميت. ويبدأ العذاب أو النعيم بعد سؤال الملَكين، وقد تقدم الكلام على السؤال وكيفيته في فقرة (الملائكة الكرام) من الباب الثاني.

والدليل على عذاب القبر ونعيمه جاء في القرآن الكريم، قال تعالى حكاية عن مؤمن يس، أي المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَّسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾، إلى قوله: ﴿**إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[1]، ثم خاطب الرسل الثلاثة المرسلين من سيدنا عيسى عليه السلام والذين آمن بهم دون قومه فقال: ﴿**إِنِّيَ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾[2]. فقد روي أنه لما قال ذلك قتله قومه، ويدل على هذا القتل قوله تعالى: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾[3]، والتقدير: قال للرسل: ﴿**إِنِّيَ آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾ فقتله قومه، وعقب القتل مباشرة قيل له من قِبَلِ الله: ﴿**ادْخُلِ الْجَنَّةَ**﴾. قال بعض

---

(1) يس : 19-23 .

(2) يس : 24 .

(3) يس : 25-26 .

المفسرين: وا لله ما خرجت روحه إلا في الجنة، وهذا من نعيم القبر. وقال عز وجل في حق فرعون وقومه: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[1]، فعرضهم على النار غدوًّا وعشيًّا كان عقب إغراقهم في البحر مباشرة، وهذا من عذاب القبر. وقال في قوم نوح عليه السلام: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾[2]، أي عقب غرقهم في الطوفان مباشرة، وهذا من عذاب القبر أيضاً.

والمعذَّب في القبر البدن والروح معاً باتفاق أهل السنة، خلافاً للطبري وابن كرام وغيرهما الذين قالوا المعذب البدن فقط، ويخلق ا لله فيه إدراكاً بحيث يسمع ويعلم ويتلذذ ويتألم. ويكون العذاب للكافر والمنافق وعُصَاة المؤمنين، ويدوم على الكافر والمنافق وينقطع عمن خفَّت جرائمهم من عُصاة المؤمنين، فإنهم يعذبون بحسبها وقد يُرفع عنهم بدعاء أو صدقة أو غير ذلك كما قاله ابن القيم. وكل من لا يُسأل في قبره لا يُعذَّب فيه أيضاً.

ومن عذاب القبر ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه أنه قال سمعت رسول ا لله -ﷺ- يقول: ((يُسلَّط ا لله على الكافر في قبره تسعة وتسعين تِنِّيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة، لو أن تنينا واحداً منها نفخ على الأرض ما أنبتت خضراء))[3]، والتنين هو أكبر الثعابين. قيل وحكمة هذا العدد لأنه كفر بأسماء ا لله وهي تسعة وتسعون.

ومن عذابه أيضاً ضَمَّة القبر وهي التقاء حافتيه، فقد ورد أن الأرض تضم الميت سواء أكان كافراً أم منافقاً أم مؤمناً صالحاً أم طالحاً، كبيراً أم صغيراً. ولم ينجو منها

---

(1) غافر : 45-46 .

(2) نوح : 26 .

(3) رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه.

أحد إلاَّ الأنبياء، وإلاَّ فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب كرم ا لله وجهه لأن النبي-ﷺ- كان يعتبرها بمنزلة أُمّه لأنها رَبَّته وهو صغير. وقد روي أنه بعد أن توفيت وحُفِرَ قبرها جاء رسول ا لله-ﷺ- واضطجع فيه ودعا لها، فلما سئل عن ذلك قال: ليخفف عنها ضمة القبر. وكذلك من قرأ سورة الإخلاص في مرضه الذي مات فيه. وتختلف قوة الضمة باختلاف المضموم، فتشتد على الكافر والمنافق والعاصي حتى تختلف أضلاعه، وتخِفُّ على المؤمن الطائع حتى تكون كضمة الأم لولدها، ولكن لابد منها. قال -ﷺ-: «لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضُمَّ ضَمَّة ثم رُوخِيَ عنه»[1]، والذي قال في موته عليه الصلاة والسلام مبيناً فضله: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»[2].

كما أن المنعَّم في القبر البدن والروح، ولا يختص النعيم بمؤمني هذه الأمة ولا بالمكلفين. ومن نعيم القبر توسعته سبعين ذراعاً عرضاً وكذا طولاً، ومنه أيضاً فتح باب فيه من الجنة وامتلاؤه بالريحان وجعله روضة من رياض الجنة، وجعل قنديل يضيء كالقمر ليلة البدر فينوره. وقد ورد أن ا لله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن تَعَلَّم الخير وعَلِّمْهُ الناس، فإني مُنوِّر لمُعَلِّمِ العِلْمَ ومُتَعَلِّمه قبورهم حتى لا يَسْتوحِشُوا لمكانهم. وعن عمر رضي ا لله عنه: مَنْ نَوَّر مسَاجد ا لله نَوَّر ا لله قَبرَه.

حالة الجسد في القبر:

اتفق العلماء على أن الجسد يتحلل في القبر ويفنى وتأكله الأرض لعموم قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[3]، ويستثنى من ذلك أجساد الأنبياء والأولياء والشهداء وغيرهم ممن جاءت الأحاديث الشريفة بأن الأرض لا تأكل أجسادهم، قال -ﷺ-:

---

(1) رواه الطبراني عن ابن عباس. (انظر الفتح الكبير 49/3 والجامع الصغير للسيوطي 132/2).

(2) رواه الشيخان.

(3) الرحمن : 24 .

«إن الله عز وجل حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[1] . واختلف في (عَجْب الذنَب) ومعنى العَجْب: أصل الذّنَب، وهو عظم صغير كالخردلة في آخر سلسلة الظهر كمغرز الذّنَبِ للدابة. فقال بعضهم إنه لا يفنى وهو القول الأقوى في النظر لقوله-ﷺ-: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجْبَ الذّنَبِ، منه خُلِقَ ومنه يُرَكَّبُ»[2]. وقال المزني إنه يفنى كباقي الجسد تمسكاً بظاهر الآية المذكورة، لأن فناء الكل يستلزم فناء الجزء. ووافقه ابن قتيبة وأضاف بأنه آخر ما يبلى من الميت. وعلى القول ببقائه فقيل إنه أمر تعبدي، وقيل إنه معلّل بكونه علامة للملائكة الموكّلين بإعادة إحياء الخلق، كل إنسان بجواهره التي كانت في الدنيا وهو قول ضعيف، ووجه ضعفه أن الملائكة لا يخفى عليهم أمر الإعادة دون أية علامة. قال صاحب الجوهرة مبرزاً قول المزني بأن عَجْبَ الذّنَب يفنى كباقي الجسد:

عَجْبُ الذّنَبْ كَالرُّوحِ لَكِنْ صَحَّحَا   الْمُزَنِيُّ لِلْبِلَى وَوَضَّحَا

وتشبيه عَجْب الذّنَب بالروح في هذا البيت إنما هو بخصوص ورود الاختلاف في الفناء وعدمه في كل منهما، فكما اختلف العلماء في فناء الروح عند النفخة الأولى اختلفوا أيضا في فناء عَجْب الذّنَب.

ووجه اختلاف العلماء في فناء الروح عند النفخة الأولى وهي نفخة الفناء وتسمى نفخة الصعق ونفخة الفزع أن بعضهم قال بفناء الروح عند هذه النفخة لظاهر قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[3] ، وهذا القول لا يناقض ما تقدم من أن الروح لا تفنى لأن ما تقدم يقصد منه أن الروح لا تموت بموت صاحبها، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء كما تقدم في فقرة (حقيقة الروح)، وإنما الخلاف في فنائها عند النفخة الأولى

---

[1] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم.

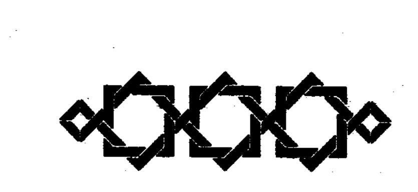
[2] رواه مسلم.

[3] الرحمن : 24 .

التي يموت عندها كل حي إلا من شاء الله. وبعضهم قال بعدم فنائها مطلقاً وباستمرار حياتها إلى أن تعود إلى جسمها بعد أن يعيده الله سبحانه وتعالى بعد النفخة الثانية، وهذا هو القول المختار، وقد استظهره الإمام السُّبكي رحمه الله، والدليل عليه الاستصحاب، لأن الأصل في كل شيء بقاؤه مستمراً حتى يظهر ما يَصْرِفُ عنه، وعلى هذا القول تكون الروح من المستثنيات في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ﴾[1]. قال صاحب الجوهرة مبرزاً قول السُّبكي بأن الروح لا تفنى أبداً:

وَفِي فَنَا النَّفْسِ لَدَى النَّفْخِ اخْتُلِفْ ... وَاسْتَظْهَرَ السُّبْكِي بَقَاهَا اللَّذْعُرِفْ

وقوله في هذا البيت (فنا النفس) يقصد به فنا الروح لجواز إطلاق النفس على الروح، وقوله (اللَّذ عُرِفْ) معناه بقاؤها الذي عرف سابقاً، فاللَّذ لغة في الذي.



---

(1) الزمر: 65.

قيام الساعة

المراد بالساعة القيامة، وسميت بالساعة لسرعة مجيئها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[1] ، أو لسرعة حسابها، أو لأن الخلق جميعاً يُحاسَبون في قدر نصف نهار.

وقيام الساعة هو أعظم ما يراه الناس منذ أن خلقهم الله تعالى، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾[2] . وقيام الساعة من الأمور المخفية التي لا يعلم وقت مجيئها إلا الله، وتأتي الناس بغتة، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[3] ، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[4] . فإذا جاء وقتها أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا إسرافيل عليه السلام فينفخ في الصور النفخة الأولى وهي نفخة الفناء، وتسمى نفخة الفزع لأن الخلائق تفزع منها فزعاً شديداً، ونفخة الصَّعْقِ لأن الخلائق يُصْعَقُون عندها ويموتون إلا من شاء الله، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي

---

(1) النحل : 77 .

(2) الحج : 1-2 .

(3) الأعراف : 187 .

(4) الزخرف : 66 .

الأرْضِ إلاّ مَن شَآءَ اللهُ﴾[1] ، وقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إلاّ مَن شَآءَ اللهُ﴾[2] . والصور قرن من نور بـه ثقـوب علـى عـدد الأرواح التي خلقها الله تعالى، ثم بعد مدة -يعلمها الله- قيل أربعون سـنة وهوالأصح، وقيـل أربعون يوماً، يأمر الله سبحانه وتعالى سـيدنا إسـرافيل عليـه السـلام فينفـخ في الصـور النفخة الثانية وهي نفخة البعث، فتخرج منه الأرواح وتعود إلى أجسادها التي أعاد الله خلقها، كل روح تدخل في جسدها الذي كانت فيه في الدنيا لا تخطئه أبداً، ثم يخـرج الناس من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُـمْ قِيَـامٌ يَنْظُـرُونَ﴾[3] ، وقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾[4] ، أي يخرجـون بسرعة. والأجداث هي القبور.

علامات قيام الساعة:

تقدم أن موعد قيام الساعة لا يعلمه إلا الله لأنه من الأمور المخفية، إلاّ أن العلمـاء ذكروا أن لها علامات تدل على قربها، وتسمى أشـراط الساعة. وهي قسمان:

(القسم الأول) العلامات الصغرى: وهي العلامات البعيدة منها، وهي كثيرة فمنها ما ظهر وانتهى منذ عدة قرون، ومنها ما هو ظاهر الآن، ومنها مـا سـيظهر في المسـتقبل. وأهم هذه العلامات: بعثة النبي-ﷺ-، لقوله عليه الصلاة والسلام :((بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بالسَّبابة والوسطى))[5] ، وقوله عز وجل: ﴿فَهَـلْ يَنْظُـرُونَ إلاّ السَّـاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَا أَشْـرَاطُهَا﴾[6] ، قـال الشـيخ الصـاوي في حاشـيته علـى تفسـير

---

(1) النمل : 89 .
(2) الزمر : 65 .
(3) الزمر : 65 .
(4) يس : 50 .
(5) رواه الشيخان.
(6) محمد : 19 .

الجلالين: أشراطها علاماتها، ومنها بعثة النبي -ﷺ- وانشقاق القمر والدخان. وقيل إن الدخان من العلامات الكبرى كما سيأتي. قد ورد ذكر هاتين العلامتين في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[1] ، وتقدم في فقرة (معجزات أخرى لنبينا محمد-ﷺ-) من الباب الثاني أن انشقاق القمر قد حصل فعلاً، وأنه إحدى معجزاته عليه الصلاة والسلام، وقال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] .

ومن العلامات الصغرى أيضاً كثرة الزلازل وكثرة الزنا وكثرة العقوق ومعاملة الناس بالربا، ففي الحديث الشريف :((ليأتِينَّ على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا آكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره))[3] ، ومنها إمارة الصبيان، والتطاول في البنيان، وفساد السلطان، وكثرة الفتن، ومنها أنْ يُشرَب الخمر، وتكثر النساء ويقل الرجال، ومنها رفع الأسافل، وجور الحكام، وعدم الإنصاف في الأحكام، وكثرة المظالم، وارتكاب المآثم، وقلة الأمانات وكثرة الخيانات، واتخاذ القرآن مغنىً يُغَنَّى به في صدور المجالس والأسواق والمقاهي، وأخذ الرشوة على الحكم، وانقلاب الشتاء صيفاً والصيف شتاء، والتكالب على الدنيا وترك الآخرة، ورفع الأصوات في المساجد، ومنها كساد الأسواق وقلة البركة في الأرزاق، وكثرة الشكوى من الناس، قَلَّ من تجده إلاَّ ويظهر لك الشكوى وعنده ما يكفيه، ومنها قلة العلماء وكثرة الجهال، قال-ﷺ-: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رُؤوساً جُهَّالاً فسُئِلوا فأَفْتَوا بغير علم فَضَلُّوا وأَضَلُّوا))[4] ، ومنها قوله -ﷺ-: ((إذا فعلت أمتي خمسة عشر حَلَّ بها البلاء، قيل وما

---

[1] القمر : 1 .

[2] الدخان : 9-10 .

[3] رواه أبوداود وابن ماجه.

[4] متفق عليه.

هي يارسول الله؟ قال: إذا كان المغنم دُوَلاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وأطاع الرجل زوجته، وعَقَّ أمه، وبَرَّ صديقه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكْرِمَ الرجل مخافة شره، وشُرِبَ الخمر، ولُبِسَ الحرير، واتخذت القينات والمعازف، ولَعَنَ آخر هذه الأمة أولها، وتُعُلِّمَ العلم لغير الدين، وساد القبيلة فَاسِقُهم، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خَسْفاً أو مَسْخاً»[1]

(القسم الثاني) **العلامات الكبرى**: وهي العلامات القريبة منها. وقد ذكر العلماء أنها عشر: **(الأولى)** ظهور الإمام المهدي وهو من ولد الحسن أو الحسين ابني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قيل إنه المقصود من قوله-ﷺ-: «يَحِلُّ بِأُمَّتي آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم لم يُسمع بلاء أشد منه حتى لا يجد الرجل ملجأ، فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلِئَت ظلماً وجوراً ... إلى آخر الحديث»[2] . قال الشيخ الحمزاوي في مشارق الأنوار: إن مولد الإمام المهدي بالمدينة المنورة، وقيل ببلاد المغرب، ثم يهاجر إلى المدينة ثم يهاجر من المدينة إلى بيت المقدس، وأحاديثه بلغت مبلغ التواتر، يبايعه الناس بين الركن والمقام عند الكعبة المشرفة، ويعدل في الرعية ويقسم المال بينهم بالسَّوية، يعز الله به الإسلام بعد ذله، ويحييه بعد موته، ويضع الجزية ويدعو الكفار إلى الله بالسَّيف، فمن أبى الإسلام قتله، يبقى مدة أربعين سنة، يجتمع مع سيدنا عيسىعليه السلام في السَّبع أوالتِّسع الأخيرة منها ويتعاونان على قتل المسيح الدجال، ثم يموت ويُصلِّي عليه عيسى عليه السَّلام، ويدفن ببيت المقدس.

(الثانية) خروج المسيح الدجال[3] . وسُمِّيَ المسيح (بالحاء المهملة) لأنه يمسح الأرض في مدة أربعين يوماً سيراً. كما سُمِّيَ المسيخ (بالخاء المعجمة) لأن عينه ممسوخة فهو

---

(1) رواه الترمذي وقال حديث غريب.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد.

(3) أحاديث خروج الدجال رويت في الصحاح والسنن.

أعور. وقد اختلف في موضع خروجه فقال بعضهم يخرج من المشرق من أرض خراسان، وقال آخرون يخرج من يهود أصفهان، وقال غيرهم يخرج من أرض الكوفة. كما اختلف في أمره اختلافاً كثيراً نظراً لما يقع على يديه من خوارق العادات التي تنافي حال الكذابين مع أنه كذاب. أما وصفه فهو مطموس العين، مُشوَّه الوجه، طويل الأنف، مُحْدَودِبُ الظهر، يركب حماراً، ويمكث أربعين يوماً يسيح في الأرض ويقول للناس (أنا ربكم)، مكتوب بين عينيه كافر، يَرِدُ كل بلد إلا مكة والمدينة، ومعه جبال من خبز والناس في جوع، وبجانبه نهران نهر يُسمِّيه الجنة ونهر يُسمِّيه النار، فمن صدَّقه يُدْخِلُهُ نهر الجنة فيجد نفسه في النار، ومن كذَّبه يُدْخِلُهُ نهر النار فيجد نفسه في الجنة، يقتل إنساناً ثم يحييه ويقول هل يفعل هذا إلا الرّب، فيفر الناس إلى جبل الدخان بالشام فيحاصرهم ويشدد حصارهم، وبينما هم في أشد الضيق والكرب ينزل سيدنا عيسى عليه السلام فيقتله ويُخلِّصُ الناس من فتنته. ويُلقَّب عيسى عليه السلام بالمسيح لأنه ما مسح على ذي عاهة إلا برئ .

(الثالثة) نزول عيسى عليه السَّلام[1]، وقد ذكر العلماء أنه ينزل بدمشق الشام آخر الليل على المنارة البيضاء، ومعلوم أن سيدنا عيسى عليه السَّلام يعيش الآن في السماء الثانية حياً حياة كاملة، وعندما يأتي وقت نزوله يأتيه جبريل عليه السلام ويقول له: يا رُوحَ الله وكَلِمَته، ربك يقرئك السلام ويأمرك بالنزول إلى الأرض، فينزل بدمشق كما تقدم ويأتيه الإمام المهدي ويجتمع به، وعندما يُؤَذَّن لصلاة الصبح يطلب منه المسلمون أن يؤمهم فيمتنع ويقول (إمامكم منكم)، فيتقدم الإمام المهدي ويصلي خلفه سيدنا عيسى عليه السَّلام مأموماً - تكريماً لهذه الأمة ونبيها، وفي هذه إشارة إلى أن عيسى عليه السلام لم يأت بشريعة جديدة وإنما باستمرار شريعة محمد -ﷺ-، وبعد الصلاة يذكر له الإمام المهدي الدجال فيسير معه إليه، وعندما يرى الدجال عيسى عليه

---

(1) أحاديث نزول عيسى عليه السلام رويت في الصحاح والسنن.

السلام يفر هارباً فيلحقانه ويضربه عيسى عليه السلام فيقتله كما يقتل أتباعه، فيستقر الناس ويكسر سيدنا عيسى عليه السَّلام الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية أي يُلغيها، ولا يعتبر إلغاؤها مخالفاً لشريعة نبينا عليه الصلاة والسلام بل تطبيقاً لها لأن الجزية في الشريعة الإسلامية مَلغيَّة بنزوله عليه السّلام، ويكثر الأمن والأمان حتى أن الصبيان يلعبون بالحيَّات والأفاعي فلا تضرهم، وترتع الذئاب مع الأغنام، وتفتح كنوز الأرض ويكثر الخصب والرخاء. ويحج عيسى عليه السلام بالناس ويقيم بالمدينة المنورة ويتزوج ويُولَد له، ويعيش أربعين سنة وقيل سبع سنين، ويحضر خروج يأجوج ومأجوج ويحاصرونه مع أصحابه فيدعو عيسى عليه السَّلام وأصحابه إلى الله فيُرسِل الله على يأجوج ومأجوج داء يُسمَّى (النَّغَف) يصيبهم في رقابهم، وهو دود يصيب الإبل والغنم فيصبحون موتى جميعاً، ويُرسِل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحمل جثثهم فتطرحها حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً تغسل الأرض حتى تتركها كالزلفة أي كالمرآة في صفائها، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرك. ثم يموت عيسى عليه السلام ويُدفَن بالروضة النبوية الشريفة مع نبينا محمد -ﷺ- وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقيل إنه يموت قبل هدم الكعبة بقليل.

(الرابعة) خروج يأجوج ومأجوج، وذلك في عهد سيدنا عيسى عليه السلام، وهم قبيلتان لا يُحصِي عددهم إلا الله تعالى، وأصلهم من يافث بن نوح عليه السلام فهم من بني آدم، وهم الآن محصورون بسد ذي القرنين الذي ذكره الله سبحانه و تعالى في قوله: **﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُواْ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾** إلى قوله: **﴿ فَمَا اسْطَاعُواْ أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً﴾**[1]، والمراد بالسُّدَّين جبلان عاليان، فالسَّد الذي بناه ذو القرنين

---

(1) الكهف : 89-93 .

بينهما، فإذا جاء موعد خروجهم يجعل الله السَّدَّ مبسوطاً كالأرض فيخرجون منه كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّـي حَقّاً﴾[1] ، وكما قال: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[2] ، فإذا خرجوا لا يتركون ماء إلا شربوه ولا شجراً أخضر إلا قطعوه، ويحاصرون سيدنا عيسى عليه السلام وأصحابه فيدعو عليهم عيسىعليه السَّلام فيهلكهم الله جميعاً كما تقدم.

(الخامسة) خروج الدابة، وهي التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾[3] ، وهي دابة تخرج من الصفا بالبيت الحرام، قبل موت سيدنا عيسى عليه السلام، لما روي أنه بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تهتز الأرض وتنشق فتخرج منها الدابة وتكلم الناس بأسمائهم فتقول يا فلان أنت من أهل الجنة ثم تكتب بين عينيه (مؤمن) فَيَبْيَضُّ وجهه، وتقول أنت من أهل النار وتكتب بين عينيه (كافر) فَيَسْوَدُّ وجهه. وقيل إنها تتكلم ببطلان الأديان إلا دين الإسلام.

(السادسة) طلوع الشمس من مغربها، فقد ذكر العلماء أنه بينما الناس مشغولون بشؤونهم وأحوالهم إذ طلعت الشمس من مغربها، واختلف في مدة ذلك، فقيل يوم واحد وقيل ثلاثة أيام، ثم ترجع فتطلع من المشرق على عادتها إلى أن تقوم الساعة. وإذا طلعت من المغرب غربت في المشرق وعند ذلك يغلق باب التوبة على المسلم العاصي والكافر، فلا يُقبَل من الكافر الدخول في الإسلام ولا تُغفَر ذنوب العاصي من المسلمين، قيل وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْراً﴾[4] .

---

(1) الكهف : 94 .
(2) الأنبياء : 95 .
(3) النمل : 84 .
(4) الأنعام : 159 .

(السابعة) ظهور الدخان، فمن العلامات الكبرى لقيام الساعة خروج دخان من الأرض مدة أربعين يوماً يصيب الكافر فيجعله كالسكران، ويصيب المؤمن على هيئة الزُّكام. قال بعضهم وذلك معنى قوله تعالى: ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ* يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[1] . وقيل إن ظهور الدخان من العلامات الصغرى لقيام الساعة، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في أول الكلام على العلامات الصغرى.

(الثامنة) هدم الكعبة المشرفة على أيدي الحبشة بعد موت سيدنا عيسى عليه السلام، لما تقدم من أنه يموت قبل هدم الكعبة بقليل، فقد جاء في الحديث الشريف أنه بينما الناس في أحوالهم إذ جاءت الحبشة في سفن لهدم الكعبة فينقلونها حجراً حجراً ويلقونها في البحر يَصُفُّون من البيت الحرام إلى جدة، ويناول بعضهم بعضاً حجارتها حتى يصل آخر حجر منها إلى آخر رجل منهم، وترفع الملائكة الحجر الأسود منها وتضعه في جبل أبي قبيس فيلتقمه ويُدَّخَرُ فيه إلى يوم القيامة فيشهد لمن استلمه بحق وعلى من استلمه بباطل ويُدخِله الله الجنة . ومن الأحاديث الدالة على هدم الكعبة بفعل الحبشة قوله -ﷺ-: «يُخَرِّبُ الكعبة ذو السُّوَيقَتَينِ من الحبشة»[2] ، وقال عليه الصلاة والسلام: «كأني به أسود أفحج يقلعها حجراً حجراً»[3] ، وقال: «فكأني انظر إلى حبشي أصمع أفدع بيده معول يهدمها حجراً حجراً»[4] .

(التاسعة) رفع القرآن من المصاحف والصدور، فقد ذكر العلماء أنه بينما الناس تَبيت وتُصبح وإذا القرآن قد ارتفع من المصاحف فلا يوجد منه فيها حرف واحد، وبينما هم يَبيتون ويُصبحون وإذا هو قد ارتفع من صدور الرجال فلا يوجد من يحفظ حرفاً

---

(1) الدخان : 9-10 .

(2) رواه الشيخان.

(3) رواه البخاري.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك.

واحداً منه. روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: اقرؤوا القرآن قبل أن يُرفع فإنه لا تقوم الساعة حتى يُرفَع. قيل: يا أبا عبد الرحمن كيف يُرفع وقد أثبتناه في صدورنا؟ قال: يسري عليه ليل فلا يُذكر ولا يُقرأ. أما العلم فقد تقدم أنه يُرفع قبل رفع القرآن ورفعه من العلامات الصغرى لقيام الساعة.

(العاشرة) رجوع أهل الأرض كلهم كفاراً، فقد ذكرالعلماء أنه بعد ظهور الدخان الذي هو العلامة السّابعة تأتي ريح لينة فلا تدع مؤمناً إلا قبضته، ولا يبقى على وجه الأرض من يقول (لا إله إلا الله)، وهذا ما يشير إليه قوله -ﷺ-: ((لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس))[1].

البَعثُ من القُبور:

البعث هو إحياء الموتى وإخراجهم من القبور. وأول من تنشق عنه الأرض نبينا محمد -ﷺ-، فهو أول من يبعث، وأول وارد إلى المحشر، وأول شافع، وأول مُشفَّع، وأول داخل للجنة.

ويكون إخراج الموتى من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية لأجسامهم وهي التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره ولو قطعت قبل موته كاليدين والرجلين وغيرهما من الأعضاء بخلاف التي ليس من شأنها ذلك كالظفر. ويجب الاعتقاد بأن الله يعيد الجسم الأول بعينه، فالجسم الثاني هو نفس الجسم الأول لا جسماً آخر مثله وإلا لزم أن يكون المُثاب أو المُعذَّب غير الجسم الذي أطاع أو عصى، وهو باطل بالإجماع، والدليل على ذلك قوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءَ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**

---

(1) رواه مسلم.

وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَأَبْصَارُكُمْ وَلاَجُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَلاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىأَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3].

واختلف في إعادة الجسم الأول، فقيل تكون بعد عَدَمٍ مَحْضٍ أي بعد أن يصير الجسم معدوماً بالكلية إلا عَجْبَ الذَّنَب كما تقدم، ثم يعيده الله تعالى كما أوجده أولاً بحيث يُذهِب الله عين الجسم والأثر جميعاً ثم يُعِيد الجسم كما كان، وهذا هو القول الصحيح، ودليله قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[4]، وقيل تكون بعد تفريق بحيث يُفَرِّقُ الله الجسم حتى لا يبقى فيه جوهران فردان على الاتصال بل كل جوهر فرد وحده، والمراد بالجوهر الفرد الجزء الذي لا يتجزأ، أي لا يقبل القسمة بأي حال لا بالقطع ولا بالكسر لا فرضاً ولا وهماً.

على أن هذا الخلاف لا يدخل فيه الأنبياء ولا مَنْ في حكمهم من الذين لا تأكل أجسامهم الأرض ولا تَبلى أبدانهم كالشهداء ؛ وهم كل مقتول على الحق ولو لم يكن من شهداء المعركة، وكالمؤذنين احتساباً أي بدون أجرة، وكالعلماء العاملين وحملة القرآن الملازمين لتلاوته العاملين بما فيه المعظمين له بضبط ألسنتهم وطهارتهم وآدابهم، فهؤلاء جميعاً لا يشملهم هذا الخلاف لأن أجسامهم لم تنعدم ولم تتفرق. قال صاحب الجوهرة :

وَقُلْ يُعَادُ الجِسْمُ بِالتَّحْقِيقِ	عَنْ عَدَمٍ وَقِيلَ عَن تَفْرِيقِ
مَحْضَيْنِ لَكِنْ ذَا الخِلافُ خُصَّا	بِالأَنبِيَا وَمَنْ عَلَيهِم نُصَّا

---

(1) فصلت : 18-21 .
(2) يس : 64 .
(3) النور : 24 .
(4) الأعراف : 28 .

واختَلف القائلون بإعادة الجسم في إعادة العَرَض الـذي كـان قائمـاً بـه في الدنيـا، فقال الأكثرون –ومال إلى قولهم الإمام الأشعري- أن العَرَض يُعَاد حين إعادة الجسـم، سواء أكان هذا العرض مما يطـول بقـاؤه كالبيـاض والسَّواد أم مـن غـيره كـالصوت، وسواء أكان مما هو مقدور للعبد كـالضرب أم مـن غـيره كـالعلم، ولا يـلزم أن تكـون إعادته بالتلبس به كما كان في الدنيا، بل ما كـان مـن الأعـراض الملازمـة للـذات مـن بياض أو سواد أو طول أو قصر أو نحوهما فإنه يعاد متعلقاً بها، وما كان من غير ذلك كضرب وكفر وبقية المعاصي وصلاة وصوم وبقية الطاعات فإنه يعـاد مُصَوَّراً بصـورة جسمية، فالحسنات في صورة حسنة والسيئات في صـورة قبيحـة، وهـذا هـو الظـاهر. والتفويض في مثل هـذه الأمـور أسـلم. فـإن قيـل يـلزم علـى ذلـك اجتمـاع المتنافيـات كالطول والقصر والكِبَر والصغر، فالجواب: إن إعادة العرض ليست بدفعة واحـدة بـل على التدريج حسبما كانت في الدنيا، لكن تمر عليه جميع الأعراض كلمح البصر، والله على كل شيء قدير. وقال غيرهم إن العَرَض لا يُعاد مطلقاً، فيوجد الجسم بعرض آخـر لأن الجسم لا ينفك عقلاً عن عَرَض. ورجَّح جماعة من العلماء إعادة الأعراض بأعيانها أي بأشخاصها وأَنْفُسِـها. والمراد بالأعيـان الأشـخاص والأنفـس أي شـخص العـرض ونفسُهُ، فيعاد العرض الذي كان في الدنيا لا عرض آخر مغاير له، بل يعاد بعينه.

واختُلف في إعادة الزمن، فقال بعض العلماء تُعاد جميع أزمنة الأجسام الـتي مـرت عليها في الدنيا لتَشهَد للإنسان أو تشهد عليه بما وقع فيها من الطاعات والآثـام. وقـال آخرون لا تُعاد لاجتماع المتنافيات كالماضي والحـال والاستقبال. وأجـاب عـن ذلـك القائلون بالقول الأول بأن إعادته ليست دفعة واحدة بـل علـى التدريـج حسـبما كـان عليه في الدنيا لكن في أسرع وقت كما تقدم في إعادة العرض. قال صاحب الجوهرة:

وَفِـي إِعَـادَةِ الْعَـرَضْ قَـوْلاَنِ وَرُجِّحَـتْ إِعَـادَةُ الأَعْيَـانِ

وَفِـي الزَّمَـنْ قَـوْلاَنِ .... إلخ

الحَشرُ في اليوم الآخِرِ :

الحشـر هـو سَوْقُ جميـع الخلائـق إلى الموقـف بعـد بعثهـم أي إحيـاء أجسـامهم وإخراجهم من قبورهم بأجسادهم وأرواحهم، فيحشر كـل شـخص بجسده وروحـه، خلافاً للفلاسفة الذين ينكرون حشر الأجساد يوم القيامة ويزعمون أن الحشر للأرواح فقط لا للأجساد، وهو كفر منهم. وهذا أحد الأمور الثلاثة الـتي كفـر بهـا الفلاسـفة. والثاني حدوث العالم، حيث زعموا أن العالم قديم. والثالث علم الله تعالى بالجزئيات والكليات، حيث زعموا أن الله يعلم الكليات دون الجزئيات. وقد نظم بعضهـم هـذه الأمور الثلاثة في بيتين تقدم ذكرهما في شرح الصفة التاسعة مـن الصفـات الواجبـة لله تعالى وهي (صفة العلم) من فقرة (العقائد الواجبة في حقه عزّ وجل) من الباب الأول.

والموقف هو الموضع الذي يقفون فيه من الأرض المُبدَّلة والتي لم يُعْصَ الله عليها، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَـرَزُواْ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[1]، ويقال إنها من أرض القدس. ولا فرق في ذلك بين من يجـازى من الخلائق وهم الإنس والجن والملائكة وبين من لا يجازى كالبهائم والوحوش على ما ذهب إليه المحققون وصححه النووي. وذهبت طائفـة إلى أنـه لا يحشـر إلا مـن يجازى وهذا ظاهر في كامل الخِلقة. وأما السِّقْط الذي وُلِدَ قبل ستة أشهر من بدء الحمل فإن سقط بعد نفخ الروح فيه أُعِيدَ بروحـه ويَصير عنـد دخـول الجنـة كأهلهـا في الجمـال والطول، وإن سـقط قبـل نفـخ الـروح فيـه كـان كسـائر الأجسـام الـتي لا روح فيهـا كالحجر، فيُحشَر ثم يصير تراباً كالبهائم والوحوش.

ومراتب الناس في الحشر متفاوتة، فمنهم الراكب وهو التّقي، ومنهم الماشـي على رجليه وهو قليل العمل، ومنهم الماشي علـى وجهـه وهـو الكـافر. فيُسـاقون جميعـاً إلى

---

(1) إبراهيم : 50 .

المحشر فيقفون جميعاً موقفاً واحداً في يوم واحد وهو اليوم الآخر. قال الشيخ البيجوري: واليوم الآخر هو يوم القيامة، وأوله من وقت الحشر إلى ما لا نهاية له على الصحيح. وقيل إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. وسُمِّيَ باليوم الآخر لأنه آخر أيام الدنيا، بمعنى أنه متصل بأيام الدنيا لا أنه منها، بل هو في الحقيقة من أيام الآخرة. وسُمِّيَ بيوم القيامة لقيام الناس فيه بين يدي خالقهم وقيام الحجة لهم وعليهم. ويشتد الهول لطول الوقوف فيه، قيل ألف سنة كما في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]، وقيل خمسون ألف سنة كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2]، وقيل يختلف باختلاف أحوال الناس، فيطول على الكفار، ويتوسط على الفساق، ويخفف على الطائعين حتى يكون كصلاة ركعتين، كما قال-ﷺ-: ((يَخِفُّ الموقف للحساب على أُمَّتي حتى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة))[3].

ومما يزيد في هول الموقف أن الشمس تدنو منهم حتى يكون بينهم وبينها مقدار ميل، كما في الحديث الشريف: ((تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حُقْوَيْهِ، ومنهم من يُلجِمه العرق إلجاماً وأشار عليه الصلاة والسلام إلى فِيه))[4]، والميل فُسِّرَ بالمسافة المحدودة من الأرض وبمرود المُكْحُلَة، قال سليم بن عامر: وا لله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض أو الميل الذي يُكتحَل به، والأول أقرب. وكذلك سؤال الملائكة لهم عن أعمالهم

---

(1) السجدة : 4 .

(2) المعارج : 4 .

(3) رواه أحمد في مسنده.

(4) رواه مسلم.

وتفريطهم فيها، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[1] ، وكشهادة الألسن والأيدي والأرجل والسَّمع والبصر والجلد والأرض والليل والنهار والحفظة الكرام.

ولا ينال شيء مما ذكر الأنبياء والأولياء ولا سائر الصالحين لقوله تعالى في حقهم جميعاً: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[2] ، لكنهم يخافون ربهم خوف إجلال وإعظام.

الشّفاعة العُظمى :

الشفاعة لغة: الوسيلة، وعُرفاً : سؤال الخير من الغير للغير، هذا بالنسبة للمخلوق. أما بالنسبة للخالق فهي عبارة عن العفو على من عصاه، فيجوز في حقه تعالى أن يعفو عمن قال (لا إله إلا الله) وأثبت الرسالة للرسول الذي أُرسِل إليه، حتى ولو لم يعمل حسنة واحدة فيتفضل عليه بعدم إدخاله النار. أما شفاعة الأنبياء والمرسلين وغيرهم فإن نبينا محمداً -ﷺ- هو الذي يفتح الباب لهم، ففي الصحيحين يقول -ﷺ-: «أنا أول شافع وأول مشفَّع»[3] ، ففي هذا الحديث يَثْبُتُ له -ﷺ- ثلاثة أشياء، وهي: كونه شافعاً، وكونه مشفَّعاً أي مقبول الشفاعة، وكونه مُقدَّماً على غيره من الأنبياء والمرسلين، فلا يشفع أحد منهم إلا بعد شفاعته عليه الصلاة السلام. فقد روي أنه إذا اشتد الهول بالمحشر وتمنت الخلائق الانصراف ولو إلى النار يُلْهَمون أن الأنبياء هم الواسطة بين الله وخلقه فيذهبون إلى آدم عليه السَّلام فيقولون له أنت أبو البشر اشفع لنا، فيقول لست لها، نفسي نفسي لا أسأل اليوم غيرها، ويعتذر بالأكل من الشجرة. فيذهبون إلى نوح عليه السَّلام ويسألونه الشفاعة فيعتذر لهم كما اعتذر آدم عليه

---

(1) الصافات : 24 .

(2) الأنبياء : 102 .

(3) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن.

السلام، وهكذا يأتونهم نبياً نبياً إلى أن يَصِلوا إلى نبينا محمد -ﷺ- فيسألونه الشفاعة فيقول: ((أنا لها أنا لها، أمتي أمتي))، ثم يذهب فيسجد تحت العرش، فينادي مناد من قِبَل الله: اِرفَع رأسك يا محمد واشفع تُشفَّع، فيرفع رأسه ويشفع في فصل القضاء، وهي (الشفاعة العظمى)، وأول المقام المحمود المذكور في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[1]، أي يَحْمَدُكَ فيه الأولون والآخرون. وسُمِّيت بالشفاعة العظمى لأنها ليست قاصرة على أمته فقط بل عامة لجميع من في المحشر.

وله -ﷺ- شفاعات أخرى خاصة بأمته، منها شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب، ومنها شفاعته في عدم دخول النار لقوم استحقوا دخولها، ومنها شفاعته في إخراج الموحِّدين العاصين من النار، ومنها شفاعته في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها.

ولا تختص شفاعته -ﷺ- بأهل الذنوب الصغائر بل تشمل أهل الكبائر، سواء قبل دخولهم النار أو بعد دخولهم، لقوله -ﷺ-: ((شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي))[2]، ولا يَرِدُ على ذلك حديث: ((لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي))، لأنه حديث موضوع باتفاق. وعلى تقدير صحته فهو محمول على من ارتد منهم. وخالف المعتزلة ومن وافقهم في نوعين من الشفاعات المتقدمة حيث أنكروا الشفاعة فيمن استحق النار وفيمن دخلها، فقالوا إن من استحق النار لا بد وأن يدخلها، وأن من دخل النار لا يخرج منها.

كما أن سائر الأنبياء والمرسلين وغيرهم ممن ارتضاه الله من الأخيار كالملائكة والصحابة والشهداء والعلماء العاملين والأولياء كل منهم يُشفَّع في أهل الكبائر على قدر مقامه عند الله تعالى، إلا أنه لا يشفع أحد ممن ذكر إلا بعد انتهاء العقاب. فإن قيل وما الفائدة في الشفاعة حينئذ؟ فالجواب: إن فائدتها إظهار مزية الشافع على غيره،

---

(1) الإسراء : 79 .

(2) رواه أبوداود والبزار والطبراني وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

كما أنه لولا الشفاعة لجوزي العصاة بالبقاء في العذاب مع جواز العفو عنهم. وبالجملة فذلك من باب القضاء المعلق.

وإنما قبلت الشفاعة في العصاة لأنه لا يجوز عقلاً ولا سمعاً منع الشفاعة عن غير الكافر، بل إن الجائز عقلاً وسمعاً غفران غير الكفر من الذنوب بلا شفاعة فبالشفاعة أولى. وأما غفران الكفر فهو وإن كان جائزاً عقلاً فهو ممتنع شرعاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1]، ولا يقال إن مفهوم هذه الآية أن الله يغفر ذنوب الكافر غير المشرك كاليهودي أو النصراني، إذ لا فرق في الحكم بين الكفر والشرك بل إن الشرك داخل في الكفر لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[2]. وقال الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ...الآية﴾: إن الله لا يغفر للكافر، سواء كان كفره إشراكاً أم غيره. فالمراد بالشرك الكفر، بخلاف الشرك الأصغر الذي هو الرياء فإنه من جملة الذنوب التي يجوز أن تغفر. ثم قال: وهذا ردّ على اليهود حيث زعموا أن الشرك لا يضرهم لكون أجدادهم أنبياء ولأنهم كما زعموا أبناء الله وأحبّاؤه. ا.هـ.

والحكمة في غفران الذنوب التي دون الكفر أنها لا تنفك عن خوف عقاب ورجاء عفو ورحمة بخلاف الكفر، وذلك لأن صاحب الذنب مُسْلِمٌ يعتقد نقص نفسه فيخاف العقاب ويرجو العفو والرحمة، بخلاف صاحب الكفر فإنه لا يعتقد نقص نفسه فلا يخاف العقاب ولا يرجو العفو والرحمة.

وإذا كان يجوز أن يغفر الله ما دون الكفر من الذنوب فلا يجوز أن نُكَفِّر مؤمناً بالذنب، سواء أكان هذا الذنب من الصغائر أم الكبائر، وسواء أكان مرتكبه جاهلاً أم

---

(1) النساء : 47 .

(2) البينة : 1 .

عالماً، ما لم يكن مُكَفِّراً كإنكار علمه تعالى بالجزئيات، أو يكن مرتكبه مُستحِلاً له وهو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا مثلاً، وإلاّ فيجوز أن نُكَفِّرَه. وخالفت الخوارج فكفّروا مرتكب الذنب مطلقاً، وجعلوا جميع الذنوب كبائر. ولم يُكْفَروا بتكفير مرتكب الذنب مع أن مَنْ كفَّرَ مؤمناً كَفَر هو، لأنهم قالوا ذلك بتأويل واجتهاد. وأما المعتزلة فأخرجوا مرتكب الكبيرة من الإيمان ولم يُدخِلوه في الكفر إلا باستحلاله فجعلوه منزلة بين منزلتين، فلا هو مؤمن ولا هو كافر. فمرتكب الكبيرة عند الخوارج والمعتزلة مُخلَّد في النار، إلا أنه عند الخوارج يُعذَّب عذاب الكفار وعند المعتزلة يُعذَّب عذاب الفساق. وإلى ما تقدم من الشفاعة والشفعاء والعفو عن الذنوب أشار صاحب الجوهرة بقوله :

وَوَاجِبٌ شَفَاعَةُ الْمُشَفَّعِ ... مُحَمَّدٍ مُقَدَّماً لاَ تَمْنَعِ

وَغَيْرُهُ مِنْ مُرتَضَى الأخيَارِ ... يَشْفَعُ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الأخبَارِ

إِذْ جَائِزٌ غُفرَانُ غَيرِ الكُفْرِ ... فَلاَ نُكَفِّرْ مُؤْمِناً بِالوِزْرِ

وقال صاحب الشيبانية :

وَكُلُّ نَبِيٍّ خَصَّهُ بِفَضِيلَةٍ ... وَخَصَّ بِرُؤْيَاهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدَا

وَأَعْطَاهُ فِي الحَشْرِ الشَّفَاعَةَ مِثْلَ مَا ... رُوِي فِي الصَّحِيحَينِ الحَدِيثُ وَأُسْنِدَا

فَمَنْ شَكَّ فِيهَا لَمْ يَنَلْهَا وَمَنْ يَكُنْ ... شَفِيعاً لَهُ قَدْ فَازَ فَوْزاً وَأُسْعِدَا

وَيَشفَعُ بَعدَ الْمُصْطَفَى كُلُّ مُرْسَلٍ ... لِمَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا وَمَاتَ مُوَحِّدَا

وَكُلُّ نَبِيٍّ شَافِعٌ وَمُشَفَّعٌ ... وَكُلُّ وَلِيٍّ فِي جَمَاعَتِهِ غَدَا

وَلَمْ يَبْقَ فِي نَارِ الْجَحِيمِ مُوَحِّدٌ ... وَلَوْ قَتَلَ النَّفْسَ الْحَرَامَ تَعَمُّدَا

واختُلف فيمن ارتكب ذنباً من الكبائر غير المُكفِّرة بلا استحلال لهذا الذنب ولم يَتُبْ إلى الله تعالى قبل أن يموت، فقيل يُعفَى عنه وقيل يعاقب، والصحيح أن أمره مُفوَّض لربه عز وجل، فلا يُقطَع بالعفو عنه لئلا تكون الذنوب في حكم المباحة، ولا بالعقوبة لأنه يجوز في حقه تعالى أن يغفر ما عدا الكفر من الذنوب. قال صاحب الجوهرة:

وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ

وعلى تقدير وقوع العقاب فلا يُخلَّد في النار، وهذا هو مذهب أهل السنة، واستدلوا على ذلك بالآيات والأحاديث الدالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة البتة كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: ((من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة))[2]. ولا يصح أن يدخل عبد الجنة ثم يدخل النار، لأن من يدخل الجنة لا يخرج منها، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[3]، وعليه فيتعيَّن أحد أمرين: إما أن يدخل الجنة دون أن يدخل النار وهذا هو العفو العام، وإما أن يدخل النار بقدر ذنبه ثم يخرج منها ويدخل الجنة، وهذا هو عدم الخلود في النار.

كما اختُلِف في تعذيب العُصَاة من أمة محمد -ﷺ- فقال بعض العلماء يجب شرعاً تعذيب بَعضٍ غير معين من عُصَاة هذه الأمة ارتكب كبيرة من غير تأويل يُعذَرُ به ومات بلا توبة، بخلاف من ارتكب صغيرة أو ارتكب كبيرة بتأويل كما يقع من البغاة المتأولين، أو ارتكبها من غير تأويل ولكنه تاب قبل الموت فلا يُعذَّب.

وهل المراد بالأمة أُمَّة الدعوة، فتشمل الكفار بحيث يجوز أن يكون البعض المُعذَّب

---

(1) الزلزلة : 7 .

(2) رواه الطبراني في الأوسط والكبير .

(3) الحجر : 48 .

على الكبائر غير الكفر بعض الكفار، وهذا القول هو المعتمد، وعليه يجوز طلب المغفرة لجميع المسلمين لفدائهم بالكفار كما قال صاحب الشيبانية :

وَيَغْفِرُ دُونَ الشِّرْكِ رَبِّي لِمَنْ يَشَا وَلاَ مُؤْمِنٌ إلاَّ لَهُ كَافِرٌ فِدَا

أو المراد بها أمة الإجابة، فلا تشمل الكفار، وعليه فلا يجوز أن يكون البعض المُعذَّب على الكبائر بعض الكفار، بل لا بد أن يكون من المسلمين.

والمرادِ بالبعض الذي يُعذَّب على الكبائر طائفة تضم واحداً على الأقل من كل صنف من العُصَاة كالزناة وقتلة الأنفس وشاربي الخمر إلى آخر الأصناف، فلا بد من نفوذ الوعيد ولو في طائفة واحدة، وهذا علي طريقة الما تريدية القائلين بأنه لا يجوز تخلف الوعيد، أما على طريقة الأشاعرة القائلين بجواز تخلف الوعيد لأنه على تقدير المشيئة كما هي عادة الكريم فإنه إذا قال إن فعل زيد كذا أُعَاقِبه، ولما فعل زيد ما نُهِيَ عنه لم يُعَاقبه فيعتبر تخلف الوعيد كرماً منه، لأن المراد أعاقبه إن شئت، كما قال الشاعر يمدح نفسه :

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

فعلى هذه الطريقة لا يجب تعذيب بعض العُصَاة لجواز تخلف الوعيد من أكرم الكرماء، وعلى القول بالتعذيب فإن خلود من أراد ا لله تعذيبه من عُصَاة المؤمنين في النار غير واقع و لم يقل به أحد. قال صاحب الجوهرة :

وَوَاجِبٌ تَعْذِيبُ بَعضِ ارْتَكَبْ كَبِيرَةً ثُمَّ الْخُلُودُ مُجْتَنَبْ

والحاصل أن الناس على قسمين: مؤمن وكافر. فالكافر مُخلَّد في النار إجماعاً. والمؤمن على قسمين: طائع وعاصٍ، فالطائع في الجنة إجماعاً، والعاصي على قسمين: تائب وغير تائب، فالتائب في الجنة إجماعاً، وغير التائب في المشيئة، وعلى تقدير عذابه لا يُخلَّد في النار.

الحِسَاب :

الحساب لغة : العدد، واصطلاحاً : توقيف الله الناس على أعمالهم خيراً كانت أو شراً، قولاً أو فعلاً، وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، فالكتاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[1]، والسنة قوله-ﷺ-: ((الكَيِّسُ (أي العاقل) من دان نفسه (أي حَاسَبَها) وعَمِلَ لِمَا بعد الموت، والعاجز من أَتْبَعَ نفسه هواها وتَمَنَّى على الله الأماني))[2]، وقوله: ((مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ))[3]. والإجماع أجمع المسلمون عليه، فيجب الإيمان به. ويكون للمؤمن والكافر، إنساً أو جِنًّا، إلا من استُثْنِيَ منهم، ففي الحديث الشريف يقول الله سبحانه وتعالى في حديثه القدسي: ((يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك))[4]، وروي عنه -ﷺ- أنه قال: ((يدخل الجنة مِن أمتي سبعون ألفاً بغير حساب. فقيل له هلاَّ استزدت ربك؟ فقال استزدته فزادني مع كل واحد من السبعين سبعين ألفاً. فقيل له هلاَّ استزدت ربك؟ فقال استزدته فزادني ثلاث حَثْيات))[5]، والحَثْيَة على وزن رَمْيَة هي الدفعة من غير عدد. فهؤلاء جميعاً يدخلون الجنة بغير حساب، ثم إذا كان من المؤمنين من هو أدنى إلى الرحمة فيدخل الجنة بغير حساب، وإذا كان من الكافرين من هو أدنى إلى الغضب فيدخل النار بغير حساب. وبذلك تنقسم الخلائق إلى ثلاثة أقسام: قسم يدخلون الجنة بغير حساب وعلى رأسهم الأنبياء والعلماء العاملون والشهداء والصالحون، وقسم يدخلون النار بغير حساب، وقسم يُوقَف للحساب.

واختلف في المراد بتوقيف الله الناس على أعمالهم، فقيل المراد به أن يخلق الله في

---

(1) آل عمران : 199 .

(2) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(3) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

(4) رواه البزار .

(5) رواه أحمد وابن حبان .

قلوبهم علوماً ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب، وقيل المراد بـه أن يوقفهـم بين يديه ويكلمهم في شأن أعمالهم وما لها من الثواب ومـا عليهـا مـن العقـاب، وهـذا القول هو الذي تشهد له الأحاديث الصحيحة. ولا تُشْغِلُهُ تعالى محاسبة أحد عن أحـد، بل يحاسب الناس جميعاً في وقت واحد حتى أنَّ كل واحد يـرى أنـه المحاسـب وحـده. وأما كيفيته فمختلفة، فمنه اليسير ومنه العسير، ومنه السر ومنه الجهـر، ومنـه التوبيـخ، ومنه الفضل، ومنه العدل. وحكمته إظهار تفـاوت المراتـب في الكمـال وفضـائح أهـل النقص، ففيه ترغيب في الحسنات وزجر عن السيئات.

صُحُف الأعمال :

ومما ثبت شرعاً أخذ العباد صحف الأعمال، ودليله من الكتاب والسنة والإجماع، فالكتاب قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُـولُ هَـآؤُمُ اقْـرَؤُا كِتَابِيَـهْ * إِنِّـي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ**﴾[1]، وقوله: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِـي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ**﴾[2]، وقوله: ﴿ **فَأَمَّـا مَـنْ أُوتِـيَ كِتَابَـهُ بِيَمِينِـهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَـنْ أُوتِـيَ كِتَابَـهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً * وَيُصَلَّى سَعِيراً**﴾[3]. والسُّنة قوله -ﷺ-: ((ما من مؤمن إلا وله كل يوم صحيفة، فإذا طويت وليس فيها استغفار طويت وهـي سـوداء مظلمة، وإذا طويت وفيها استغفار طويت ولها نور يتلألأ))[4]. والإجماع أجمع المسلمون عليه، فيجب الإيمان به، ومن أنكره فهو كافر.

والمراد بالصحف الكتب التي كَتَبت فيها الملائكة ما فعلـه العبـاد في الدنيـا. وكـل

---

(1) الحاقة : 18-19 .

(2) الحاقة : 24-25 .

(3) الانشقاق : 7-12 .

(4) أخرجه أحمد والبيهقي وابن ماجه .

مُكلّف له صحيفة واحدة يوم القيامة، فإن قيل إذا كان كل مُكلّف له صحيفة واحدة يوم القيامة، بينما أن له في الدنيا كل يوم صحيفة كما تقدم في الحديث السابق، فكيف يُجمَع بين هذين القولين؟ فالجواب: قيل إن صُحُفَ الدنيا توصل ببعضها حتى تكون صحيفة واحدة، وقيل يُنسَخ ما في جميع صحف الدنيا في صحيفة واحدة.

ويُستثنى من أخذ الصحف الأنبياء والملائكة فلا صحف لهم لعصمتهم، وكذلك يدخلون الجنة بغير حساب. واختلف فيمن يُعطي الصحف لأصحابها، فقيل إن الريح تطيرها من خزانة تحت العرش فلا تخطئ صحيفة عنق صاحبها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾[1]، وقيل إن كل واحد يُدعَى فيُعطَى كتابه. ويمكن الجمع بين القولين بأن الريح تُطيِّرها أولاً من الخزانة فتتعلق كل صحيفة بعنق صاحبها، ثم تناديهم الملائكة فتأخذها من أعناقهم وتعطيها لهم في أيديهم، فالمؤمن الطائع يأخذها بيمينه، والكافر يأخذها بشماله من وراء ظهره. واختُلِف في المؤمن الفاسق فقيل يأخذها بيمينه وهو المشهور، وقيل يأخذها بشماله، وقيل بالوقف وهو أسلم.

كما اختُلِف في قراءة الصحيفة، فقيل إن صاحبها يقرؤها قراءة حقيقية وهو الراجح، ولو كان أُميًّا، وقيل قراءة مجازية وهي عبارة عن عِلْمِه بما فيها من حسنات وسيئات، ومنهم من لم يقرأها ذهولاً ودهشةً مما يرى فيها من منكرات وقبائح.

الـمِـيـزَان:

ومما يجب الإيمان به لثبوته شرعاً الميزان، ويؤتى به لوزن أفعال العباد. وهو ميزان واحد على الراجح، له عمود وكفّتان ولسان، كل كفّة أوسع من طباق السّموات والأرض، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، وجبريل آخذ بعموده ناظر إلى

---

(1) الإسراء : 13 .

لسانه وميكائيل أمين عليه. ووقته بعد الحساب، وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[1] ، وقوله: ﴿وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[2] . وأما السُّنة فقد بلغت الأحاديث الواردة فيه مبلغ التواتر ومنها (حديث البطاقة)، وهو ماروي عن عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما أنَّ رسول ا لله -ﷺ- قال: «إن ا لله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مَدَّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب. فيقول: ألك عُذْرٌ؟ فيقول: لا يارب. فيقول: ألك حسنة؟ فيقول: لا يارب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظُلم عليك. فتخرج له بطاقة كالأنملة مكتوب فيها (أشهد أن لا إله إلا ا لله وأشهد أن محمداً رسولا لله) فيقول: يارب ما هذه البطاقة؟ وما قيمتها مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلم. ثم توضع السّجلات التسعة والتسعون في كفة، والبطاقة في كفة، فتطيش السجلات وتثقل، فلا يثقل مع اسم ا لله شيء»[3] . قيل وهذا ليس لكل عبد بل لعبد أراد ا لله به خيراً. وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون عليه.

ويكون الميزان في حق كل واحد إلا الأنبياء والملائكة ومن يدخلون الجنة بغير حساب فهو فرع عن الحساب، وهذا بالنسبة للمؤمنين. أما الكفار فتوزن سيئاتهم ليجازوا عليها بالعقاب، فقوله تعالى: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾[4] معناه فلا نقيم لهم وزناً نافعاً.

---

(1) الأنبياء :47 .

(2) الأعراف :7-8 .

(3) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي .

(4) الكهف :100 .

واختُلِف في الموزون، فقيل هي الصحف التي سُجّلَت فيها أعمال العباد، على أساس أن الحسنات مميزة بكتاب والسيئات بآخر، ويشهد له حديث البطاقة المتقدم. وقيل إن الموزون أعيان الأعمال، فتُصوَّر الأعمال الصالحة بصورة حسنة نورانية ثم تطرح في كفة النور وهي اليمنى المعدة للحسنات فتثقل بفضل الله سبحانه وتعالى، وتُصوَّر الأعمال السيئة بصورة قبيحة ظلمانية ثم تطرح في كفة الظلمة وهي التي عن الشمال المعدة للسيئات فتخف، وهذا في المؤمن، أما الكافر فتخف حسناته وتثقل سيئاته.

وثِقَلُ الميزان وخِفّته على صورته في الدنيا، فالكفة التي تثقل تنخفض والتي تخف ترتفع، وقيل على عكس صورته في الدنيا فالتي تثقل ترتفع والتي تخف تنخفض، والله أعلم بالحقيقة.

فإن قيل إن وزن أعمال المؤمنين وجهه ظاهر لأن لهم من الحسنات ما يقابل السيئات، أما الكفار فليس لهم حسنات حتى تقابل بها سيئاتهم، فالجواب : إن للكفار أعمالاً حسنة في الدنيا كصلة الرحم ومواساة الناس ونحو ذلك من الأعمال التي لا تتوقف صحتها على نية، فتجعل هذه الأمور إن صدرت منهم في مقابل سيئاتهم غير الكفر، أما هو فلا فائدة في وزنه لأن عذابه دائم، أما فائدة وزن الأعمال الحسنة لهم فهو تخفيف العذاب الذي استوجبوه عن ترك المأمورات كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من الواجبات وعن فعل المنهيات كالزنا وشرب الخمر وأكل الخنزير وغيرها من المنهيات، لأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة أي أنهم يعذّبون على الكفر من ناحية وعلى غيره من ناحية، فتخفيف العذاب الذي يحصل لهم يكون في العذاب الذي استوجبوه عن غير الكفر.

وقيل إن الكفر أيضاً يوزن مع السيئات الأخرى بحيث يوضع الكفر في كفة مع السيئات الأخرى، وتوضع الأعمال الحسنة -إن وجدت- في الكفة الأخرى ولكن الكفر يرجح بها، فلا ينفعهم فعل الخير مع الكفر يوم القيامة وإنما قد ينتفعون به في

الدنيا من صحة وسعة رزق وتمتع باللذات إلى غير ذلك من نعيم الدنيا بحيث يلقون ربهم ولاحسنة لهم، قيل وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾[1].

الصِّراط:

الصِّراط لغة: الطريق الواضح، ومنه قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2]. وشرعاً: جسر ممدود على متن جهنم، يَرِدُه الأولون والآخرون حتى النبيين والصديقين ومن يدخل الجنة بغير حساب، وكلهم ساكتون إلا الأنبياء فيقولون: اللهم سَلِّم سَلِّم. وهو ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، فالكتاب قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبَقُواْ الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾[3]، والسنة قوله -ﷺ-: «يضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجوز»[4]، والإجماع فقد أجمع عليه المسلمون. وفي بعض الروايات أنه أَرَقُّ من الشعرة وأَحَدُّ من السيف[5]. ورَدَّ بعضهم على هذا القول بأنه على فرض صحته فهو محمول على غير ظاهره فيُؤَوَّل بأنه كناية عن شدة المشقة، وحينئذ فلا ينافي ما ورد من الأحاديث الدالة على قيام الملائكة بجانبيه، وعلى حافتيه كَلاليب مُعلَّقة مأمورة بأخذ من أمرت به[6]. والصحيح أنه عريض وفيه طريقان يُمنَى ويُسرَى، فأهل السعادة يُسلَك بهم ذات اليمين، وأهل الشقاوة يُسلَك بهم ذات الشمال[7]. أما طوله

---

(1) الفرقان : 23 .

(2) الفاتحة : 5 .

(3) يس : 65 .

(4) متفق عليه .

(5) رواه البيهقي في الشعب عن أنس بإسنادين أحدهما ضعيف والآخر قد صححه، ورواه أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها.

(6) متفق عليه.

(7) رواه الحاكم في المستدرك.

فمسيرة ثلاثة آلاف سنة، ألف منها صعود وألف هبوط وألف استواء[1]. وأوله عند الموقف وآخره في مَرْج الجنة، وهذا مذهب أهل السنة خلافاً للمعتزلة الذين يقولون إن المراد به طريق الجنة وطريق النار. وأضاف بعض العلماء أن فيه طاقات بعدد طبقات جهنم، كل طاقة تنفذ إلى طبقة، كما أنه يضيق ويتسع بحسب قِصَر النور وانتشاره، فعرض صراط كل أحد يكون بقدر انتشار نوره، فإن نور كل إنسان لا يتعداه إلى غيره فلا يمشي أحد في نور أحد، قال -ﷺ-: ((من المؤمنين من يُضيء نوره إلى عدن وصنعاء أي إلى مسافة كما بين مكة أو المدينة وعدن وصنعاء، ومنهم دون ذلك، ومنهم من لا يُضيءُ نوره إلا موضع قدميه))[2].

أما المنافقون فلا نور لهم، فلا يرون أين يضعون أقدامهم، حتى أن بعضهم يقول للمؤمنين أبصرونا أو أمهلونا لنستضيئ بنوركم، فيقال لهم على سبيل الاستهزاء ارجعوا وراءكم فابحثوا عن نور، وإلى هذا الموقف يشير القرآن الكريم بقوله عز وجل: **﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾**[3].

ويتفاوت الناس في المرور بحسب تفاوتهم في الإعراض عن حرمات الله، فمن كان منهم أسرع إعراضاً عما حرَّم الله كان أسرع مروراً في ذلك اليوم. كما يتفاوتون في النجاة من الوقوع في النار وعدم الوقوع، ففريق منهم سالم من الوقوع فيها وهم

---

(1) أخرج ابن عساكر أن الفضيل بن عياض قال : بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة ؛ خمسة آلاف صعود، وخمسة آلاف هبوط، وخمسة آلاف مستوياً.

(2) رواه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة.

(3) الحديد: 12-13 .

المؤمنون الطائعون، وفريق منتلف أي واقع فيها إما على الدوام والتأبيد وهم الكفار والمنافقون، وإما إلى مدة يريدها الله تعالى ثم ينجو كبعض عُصَاة المؤمنين ممن قضى الله عليهم بالعذاب. والفريق الأول هم السالمون من السيئات وأهل رجحان الأعمال الصالحة ممن خصهم الله بسابقة الحسنى، وهؤلاء يجوزون كطرف العين، وبعدهم الذين يجوزون كالبرق الخاطف، وبعدهم الذين يجوزون كالريح العاصف، وبعدهم الذين يجوزون كالطير، وبعدهم الذين يجوزون كالجواد السابق، وبعدهم الذين يجوزون سَعياً ومَشياً، وبعدهم الذين يجوزون حَبْواً، وجبريل في أوله وميكائيل في وسطه يسألان الناس عن عمرهم فيما أفنوه، وعن شبابهم فيما أبلوه، وعن مالهم من أين اكتسبوه وفيما أنفقوه، وعن عِلمهم ماذا عملوا به.

والحكمة في مرورهم على الصراط إظهار النجاة من النار وتَحَسُّر الكفار بفوز المؤمنين دونهم مع اشتراكهم معهم في المرور. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1].



[1] مريم : 71 .

الجنة والنار

مما يجب اعتقاده على كل مكلف وجود الجنة والنار، فالجنة هي دار الثواب، والنار هي دار العقاب. ووجودهما ثابت بالكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فإن القرآن حافل بذكرهما، فلا تكاد تخلو سورة من ذكرهما أو ذكر ما أعد الله فيهما لعباده المؤمنين من النعيم وللكافرين من العذاب الأليم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُواْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُواْ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾[2]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[3].

---

(1) الحج: 19-22.

(2) الواقعة: 12-27.

(3) الواقعة: 54-59.

وأما السنة فإن الأحاديث الدالة عليهما لا تُحصَى، ومن ذلك قوله -ﷺ-: «أُوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت فهي سوداء مظلمة»[1]، وقوله: «ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها»[2]، وقوله في الحديث القدسي: «قال ربكم عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرؤا إن شئتم قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3]، وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون عليهما.

هذا وقد اتفق علماء الأمة على أن الجنة والنار قد أُوجِدَتا فيما مضى خلافاً للفلاسفة الذين ينكرون وجودهما أصلاً، ولبعض المعتزلة كأبي هاشم وعبدالجبار اللّذَين ينكران وجودهما فيما مضى ويقولان بوجودهما يوم القيامة. أما الدليل على أصل وجودهما فقد تقدم، وأما الدليل على وجودهما فيما مضى فيكفي دليلاً على ذلك قصة أبينا آدم عليه السلام التي تكررت في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ* فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[4]، وقال: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي

---

(1) رواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي والطبراني في الأوسط.

(2) رواه الترمذي

(3) متفق عليه.

(4) البقرة : 34-36 .

لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ* فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ* قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1] ، وقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً* وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى* فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى* إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى* وَإِنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى* فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى* فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[2] .

فهذه الآيات من السور الثلاث تدل دلالة لا ريب فيها ولا شك على أن الجنة قد أوجدت من قبل أن يُخلَق آدم عليه السلام، وإذا ثبت وجود الجنة ثبت وجود النار لأنه لا قائل يقول بثبوتها دون النار. ولا يُلتفت لقول بعض الملحدين من أن آدم كان رجلاً في جنة أي بُستَان له على رَبْوَةٍ في مكان مرتفع فعصى ربّه فأُنزل لبطن الوادي، فمن صدَّق هذه الفِرْيَة يكون مُلحِداً كقائلها.

هذا و لم يرد نص صريح في تعيين مكان الجنة أو النار، إلا أن الأكثرين يقولون إن الجنة فوق السموات السبع وتحت العرش، وإن النار تحت الأرضين السبع، والحق تفويض علم ذلك إلى اللطيف الخبير.

والنار سبع طبقات أعلاها جهنم وهي لمن يُعذَّب على قدر ذنبه من عُصَاة المؤمنين

---

(1) الأعراف: 18-23 .

(2) طه : 112-119 .

وتصير خراباً بخروجهم منها، وتحتها لَظَى وهي لليهود، ثم الحطمة وهي للنصارى، ثـم السعير وهي للصابئين وهم فرقة من اليهود، ثم سقر وهي للمجوس، ثم الجحيـم وهـي لعبدة الأصنام، ثم الهاوية وهي للمنافقين[1]. وقد نظم بعضهم هذه الطبقات فقال:

جَهَنَّـمُ لِلْعَـاصِي لَظَــى لِيَهُودِهَــا ... وَحُطْمَةُدَارٌ لِلنَّصَارَى أُوْلِي الْغُمَمْ

سَعِيرٌ عَـذَابُ الصَّابِئِينَ وَدَارُهُـمْ ... مجُوسٌ لَهَا سَقْرٌجَحِيمٌ لِذِي صَنَـمْ

وَهَاوِيَــةٌ دَارُ النِّفَــاقِ وُقِيتُهَـــا ... وَأَسْأَلُ رَبَّ الْعَرْشِ أَمْناً مِنَ النِّقَمْ

وكل طبقة أشد عذاباً من الطبقة التي فوقها وأقل عذاباً من الطبقة التي تحتها، وقـد يطلق اسم بعض الطبقات على النار بصفة عامة كجهنـم والسـعير وسـقر والجحيـم إلى آخره.

وجاء في الأحاديث أن هذه النار التي في الدنيا أصلها من جهنم وهي الطبقة الأولى ولما أُخرجت غُمِسَت في البحر مرتين، ولولا ذلك ما استطاع أن ينتفـع بهـا أحـد، ثـم بعد أخذ نار الدنيا منها أوقد عليها ألف سنة حتى احمرَّت ثم ألف سـنة حتـى ابيضَّت ثم ألف سنة حتى أسودَّت، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لَهَبُهَا ولا يـبرد حَرُّهـا، جمرهـا الكفار والأصنام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[2].

واختُلِف في الجنة، فقيل هي سبع جنات متجاورة واحدة بجانب الأخرى وأفضلها وأوسطها الفردوس وهي أعلاها، والمجاورة لا تنافي العلو، وفوقها عرش الرحمن، ومنهـا تتفجر أنهار الجنة، ويليها في الأفضلية جنة عدن، ثم جنة الخلد، ثم جنة النعيم، ثم جنة

---

(1) وترتيب أبواب النار على هذا النحو أخرجه ابن جرير وابن أبي الدنيا عن ابن عمر رضي الله عنهمـا، وأخرجـه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) التحريم : 6 .

المأوى، ثم دار السلام، ثم دار الجلال. والجنان كلها متصلة بمقام نبينا محمد -ﷺ- بجنة الفردوس ويسمى مقام الوسيلة ليتنعم أهل الجنة كلهم بمشاهدته -ﷺ- لظهوره لهم فيها لأنها تُشرِق على أهل الجنان الأخرى كإشراق الشمس على أهل الدنيا.

وكون الجنان سبعاً هو ما ذهب إليه ابن عباس، وقيل أربع فقط لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[1] أي جنة النعيم وجنة المأوى، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[2] أي جنة عدن وجنة الفردوس، وهو ما ذهب إليه الجمهور. وقال بعض المفسرين إنها جنة واحدة ويطلق عليها الأسماء السبعة لتحقق معانيها فيها، قال تعالى: ﴿سَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: إن الجنة كسبع سموات وسبع أرضين وصل بعضها ببعض. وهذا كله على سبيل التشبيه تقريباً للأذهان أما حقيقة سعتها فهي أعظم من ذلك بكثير.

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله -ﷺ- قال: ((إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً فيها، وهو رجل يخرج من النار حَبْواً فيقول له الله عز وجل اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيقول يا رب وجدتها ملأى، فيقول له اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيقول يا رب وجدتها ملأى، فيقول له اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول يارب أتسخر بي أو تضحك بي وأنت الملِك؟ قال ابن مسعود فلقد رأيت رسول الله -ﷺ- ضحك حتى بدت نواجذه، وقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة))[4].

---

(1) الرحمن : 45 .

(2) الرحمن : 61 .

(3) آل عمران : 133 .

(4) متفق عليه.

ويدخل المؤمنون الجنة جُرْداً مُرْداً أبناء ثلاث وثلاثين سنة الذكور منهم والإناث، ويكونون دائماً على هذه الحالة، لا يزيدون في العمر ولا ينقصون ولا يشيبون ولا يمرضون ولا يموتون ولا يتوالدون، وبأجسامهم التي خُلِقوا بها في الدنيا وبُعِثوا بها من قبورهم بعد أن يُعَاد تركيبها بما يتناسب وما ينتظرهم من النعيم الدائم، فتُزَال منهم النقائص فلا أعور ولا أعمى ولا أعرج ولا أصم ولا أبكم ولا غير ذلك مما يُعَد نقصاً فيهم، بل يكونون جميعاً في أجمل صورة. كما يدخل الكفار النار الذكور منهم والإناث بأجسامهم التي خُلِقوا بها في الدنيا وبُعِثوا بها من قبورهم بعد أن يُعاد تركيبها بما يتناسب وما ينتظرهم من العذاب الأليم، فتُضَخَّم أجسامهم، إذ ورد أن ضرس الكافر في النار مثل أُحد، وفخذه مثل وَرِقَانِ وهما جبلان بالمدينة زيادة في تعذيبهم. ولا صحة لكلام من يقول إن الناس يبعثون من قبورهم بأجسام جديدة غير أجسامهم في الدنيا وهي التي يدخلون بها الجنة أو النار، لأنه يلزم على ذلك أن يكون الجسم المُنعَّم غير الجسم الذي أطاع، وأن يكون الجسم الْمُعذَّب غير الجسم الذي عصى وهو لا يصح. كما أنه لا صحة لمن يقول إن أهل النار يعتادون العذاب بحيث لو أدخلوا الجنة لتألموا فهو محض افتراء لقوله تعالى: **﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾**[1]، وقوله: **﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾**[2]، وقوله: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ قَالُواْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ بَلَى قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾**[3].

والخلود في كل من الجنة والنار مؤبد لا نهاية له ما عدا أهل المعاصي من المؤمنين فخلودهم في النار غير مؤبد بل بقدر ذنوبهم، ثم يخرجون منها إلى الجنة ويكونون من

---

(1) النبأ : 30 .

(2) النساء : 55 .

(3) غافر : 49-50 .

أهل الخلود المؤبد في الجنة، والدليل على الخلود المؤبد قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

قال صاحب تفسير الجلالين: قوله في حق الأشقياء ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ أي مدة دوامها في الدنيا، وقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي غير ما شاء الله من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له، والمعنى خالدين فيها أبداً. وقال الشيخ الصاوي في حاشيته على التفسير المذكور قوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إلى آخره معناه أنهم يُخلَّدون في النار مقدار مكث الدنيا غير الزيادة التي شاء الله، وما شاء الله جاء في آيات أخر منها قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[3].

وما قيل في الخلود في النار يُقال في الخلود في الجنة، أي أنهم يُخلَّدون في الجنة مقدار مكث الدنيا غير الزيادة التي شاء الله، وما شاء الله جاء في آيات أخر منها قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى قوله: ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[5].

والمراد بالسَّموات والأرض في الآيات المتقدمة سَقْفُ النار وأرضها وسَقْفُ الجنة وأرضها لا سماء الدنيا وأرضها لأنهما يفنيان بعد البعث وقبل الحشر ويبدلان بأرض جديدة يكون عليها المحشر والحساب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾[6] أي تبدل هي أيضاً بغيرها.

---

(1) هود: 106-108.
(2) البينة: 8.
(3) البقرة: 166.
(4) البينة: 8.
(5) الحجر: 45-48.
(6) إبراهيم: 50.

وإلى ما ذكر من الجنة والنار والخلود المؤبد في النعيم أو العقاب أشار صاحب الجوهرة بقوله:

وَالنَّارُ حَـقٌّ أُوجِـدَتْ كَالْجَنَّـهْ   فَـلاَ تَمِـلْ لِجَـاحِدٍ ذِي جِنَّـهْ
دَارَا خُلُـودٍ لِلسَّعِيدِ وَالشَّـقِي   مُعَـذَّبٍ مُنَعَّـمٍ مَهْمَـا بَقِـي

وقوله في الشطر الثاني من البيت الأول (فلا تمل لجاحد ذي جنة) معناه لا تُصْغِ لقول منكر الجنة والنار أصلاً لكفره كالفلاسفة، ولا لقول منكر وجودهما في الماضي لبدعته كبعض المعتزلة، لأن من مال إلى عقيدتهما فكأنه مال إلى مجنون، والمجنون لا يقول صواباً. وقوله في الشطر الأول من البيت الثاني (دارا خلود) معناه أن الجنة والنار تعتبران مكانين مؤبدين لكل من السَّعيد والشَّقي، فالسعيد يكون مُنعماً إلى الأبد، والشقي يكون مُعذباً إلى الأبد، وفي ذلك رَدٌّ على الجَهميَّة الذين يقولون بفناء الجنة والنار وفناء أهلهما، وهي طائفة كافرة لمخالفتها الكتاب والسُّنة.

واختُلف في أطفال المؤمنين، فقيل في الجنة كآبائهم وهو قول الجمهور، وقيل في المشيئة. ومحل الخلاف في غير أولاد الأنبياء ، أما هم ففي الجنة إجماعاً. كما اختُلف في أطفال المشركين، فقيل في الجنة وهو الصحيح، وقيل في النار، وقيل على الأعراف. والأعراف هو سور الجنة، وسيأتي الكلام عليه في الفقرة التالية.

والسعيد هو من مات على الإسلام وإن تقدم منه كفر. ويدخل في السَّعادة عُصَاة المؤمنين، فدار خلودهم الجنة، فلا يخلدون في النار إن دخلوها بل لا يدوم عذابهم فيها مدة بقائهم لأنهم يُحوَّلون إلى الجنة بشفاعة نبينا محمد -ﷺ- ، لما روي أنه إذا نفذ حكم الله في عُصَاة المؤمنين وعوقبوا على ما فعلوا من المعاصي يأتي النبي -ﷺ- إلى العرش فيخر تحته ساجداً ثم يقول: يا رب العصاة من المؤمنين قد أنفذت فيهم حكمك وأنزلت بهم قضاءك فشفعني فيهم، فيقول الله عز وجل: قد شفَّعتك فيهم فأت النار

فأخرج منها كل من قال (لا إله إلا الله)، فينطلق النبي -ﷺ- ويُخرجهم جميعاً ويدخلون الجنة[1].

هذا وقد أجمع العلماء على أن من رحمة الله تعالى لعصاة المؤمنين ممن قُضِيَ عليهم بالعذاب أنهم إذا أُدخِلوا النار ليعاقبوا على ذنوبهم فإن عقابهم فيها يختلف عن عقاب الكفار، فلا تُغَلُّ أيديهم، ولا تُقَيَّدُ أرجلهم، ولا تَسْوَدُّ وجوههم، ولا يُختَم على أفواههم، فإن عوقبوا بقدر معاصيهم أُخرجوا منها بشفاعة نبينا محمد -ﷺ- وأُدخِلوا الجنة كما تقدم.

أما الشقي فهو من مات على الكفر وإن عاش طول عمره على الإيمان. ويدخل في الشقي الكافر الجاهل وهو من يجهل الدين الإسلامي، والمعاند وهو من يعلم الدين الإسلامي ولكنه يُصِرُّ على الكفر ومن بالغ في النظر فلم يصل إلى الحق وترك التقليد الواجب عليه. ولا يدخل في الأشقياء أطفال المشركين على الصحيح كما تقدم.

ومن أنواع العذاب في النار الزمهرير وهو البرد الشديد، والحيات والعقارب والزقوم والغِسلين وغير ذلك مما لا يخطر على بال.

ومن أنواع النعيم في الجنة المأكولات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا اشتاق المؤمن في الجنة الطعام يأمر الله تعالى أن قدموا له الطعام فيأتونه بسبعين طبقاً، كما قال الله تعالى: **﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾**[2]، واذا اشتهى الشراب يأتونه بماء السلسبيل وماء الكافور والخمر اللذيذ، قال تعالى: **﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾**[3].

---

(1) أخرج البخاري ومسلم أحاديث في معناه.

(2) الزخرف : 71 .

(3) الواقعة : 19-23 .

ومن خصائص أهل الجنة أنهم لا يبولون ولا يتغوطون، فالأكل والشرب يظهر على أجسامهم عرقاً رائحته كرائحة المسك، ولا ينامون لأن النوم أخو الموت، ولا موت في الآخرة.

ويتلذذ أهل الجنة بالجماع مع أزواجهم ومع الحور العين، فقد روي أن لكل مؤمن في الجنة ما يريد من الحور العين، كما أن أزواجهم في الدنيا يكن أزواجاً لهم في الجنة، فكل زوجة ماتت وهي في عصمة رجل فإنها تكون زوجة له في الجنة، وكل زوج مات عن زوجة فإنه يكون زوجاً لها في الجنة. وإذا مات الزوج عن أكثر من زوجة فإنهن يكن أزواجاً له، وإذا ماتت الزوجة عن أكثر من زوج فقيل إنها تكون للأول، وقيل تخير بينهم فمن اختارته فهو زوجها.

ولا تنظر الزوجة في الجنة إلى غير زوجها، كما لا تنظر الحوراء إلى غير صاحبها، قال تعالى: ﴿**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ**﴾[1] أي أن نساء الجنة نظرهن قاصر على أزواجهن ولم يُزِل بكارة أي منهن سوى زوجها، وكلما أراد أن يجامعها يجدها بكراً بلا دم، ولا يخرج منهما مَنِيٌّ وإنما لذة بدون مَنِيٍّ، ومن مات ولم يتزوج أو ماتت ولم تتزوج فإن الله يزوجهم من بعضهم.

ويُفهَم من تزوج المؤمنين بأزواجهم في الدنيا أن هناك تعارفاً بين أهل الجنة بحيث يعرف الزوج زوجته والوالد ولده والابن أباه والقريب قريبه والصديق صديقه، بل إن التعارف يحصل بينهم قبل ذلك أي عند الحشر وعند الحساب ولكنهم في هذه الحالة يكونون مشغولين، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ**

---

(1) الرحمن : 55 .

يُنجيهِ﴾[1] ، وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ* يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[2] .

هذا وإن أعظم ما يكرم الله به عباده المؤمنين في الجنة على الإطلاق تَفضُّله عليهم برؤيته سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3]، وقال -ﷺ- لما سأله بعض الصحابة عن رؤيته سبحانه وتعالى: « هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا. قال: هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك»[4] . وروي عنه -ﷺ- أنه قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله تعالى لأهل الجنة: هل تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أُعْطُوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»[5].

أما الكفار فلا يرون ربهم لقوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[6].

أصحاب الأعراف:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[7]. قال صاحب تفسير الجلالين: الأعراف هو سُور الجنة، والرجال هم أصحاب الأعراف، وهم من استوت حسناتهم وسيئاتهم. وقال الشيخ الصاوي في حاشيته على التفسير المذكور : قوله (من

---

(1) المعارج : 8-14 .
(2) عبس : 32-36 .
(3) القيامة : 21-22 .
(4) رواه الشيخان .
(5) رواه مسلم .
(6) المطففين : 15 .
(7) الأعراف : 45-46 .

استوت حسناتهم وسيئاتهم) هذا أحد الأقوال الواردة فيهم، وقيل هم أولاد المشركين الذين ماتوا صغاراً دون البلوغ، وقيل هم عدول القيامة يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة. ودليل القول الأول ما روي أنه إذا كان يوم القيامة وحُوسِب الناس فمن كانت حسناته أكثر ولو بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر ولو بواحدة داخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، وهو سور بين الجنة والنار من وقف عليه ينظر الجنة والنار فيُوقفون عليه، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نَادَوْهم (سَلامٌ عَليكُم)، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين)، فلم يدخلوا الجنة ولكنهم يطمعون في دخولها. قال الحسن: لم يُطمِعهم الله في دخولها إلا لكرامة يريدها بهم. وروى الحاكم عن حذيفة قال: بينما هم كذلك إذ كشف الحجاب بينهم وبين ربهم، فقال: قوموا ادخلوا الجنة، فقد غفرت لكم.

أنهار الجنة:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[1].

قال صاحب تفسير الجلالين: معنى (مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) من ماء غير متغير بخلاف ماء الدنيا فإنه يتغير بأي عارض يعرض له. ومعنى (مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) أي بخلاف لبن الدنيا فإن طعمه يتغير لخروجه من الضروع. ومعنى (مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ) من خمر ليس فيها حموضة ولا مرارة وليس في شربها ذهاب عقل بل هي لمجرد التلذذ، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ* بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ* لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[2]. ومعنى (مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى) من عسل غير مخلوط بشيء بخلاف عسل الدنيا فإنه بخروجه من بطون النحل يخالطه الشمع وغيره.

---

(1) محمد : 16 .

(2) الصافات : 45-47 .

فإن قيل لِمَ قال في جانب الخمر لذة للشاربين و لم يقل في جانب اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين، ولا في جانب العسل مصفى للناظرين؟ فالجواب: إن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فَرُبَّ طعام يلتذ به شخص ويَعَافُه الآخر، أما الخمر فإنها كريهة الطعم في الدنيا فقال (لذة للشاربين) أي بِأسْرِهم، إذ ليس في خمر الآخرة كراهة طعم مطلقاً، وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس.

ومن أنهار الجنة الكوثر، وهو يصب في حوض النبي-ﷺ-، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[1]، ولقد بيَّن القرآن أنواعاً من شراب أهل الجنة فقال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾[2]، وقال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾[3]، وقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾[4]، وقال: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾[5].

حوض النبي (ﷺ):

مما يجب على المؤمن التصديق به الحوض الذي يُعطَاه أفضل المرسلين نبينا محمد -ﷺ-، ولكن لا يَكفُر من أنكره كالمعتزلة وإنما يُفسَّقُ. وهو جسم مخصوص كبير مُتَّسِعُ الجوانب يكون على الأرض المُبدَلة وهي أرض بيضاء كالفضة، من شَرِبَ منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً. ومكانه خارج الجنة، قيل قبل الصراط وهو قول الجمهور، وصحَّحه بعضهم لأن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً فيَرِدُون الحوض للشرب منه، وقيل بعد الصراط، وصحَّحه بعضهم لأنه يَنصَبُّ فيه الماء من الكوثر وهو النهر الذي

---

(1) الكوثر : 1 .

(2) الإنسان : 5 .

(3) الإنسان : 17-18 .

(4) المطففين : 25 .

(5) المطففين : 26 .

في داخل الجنة كما تقدم. وعليه فيكون بعد الصراط في جانب الجنة، ولو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين الماء الذي ينصب فيه من الكوثر. ويَرِدُ على هذا القول أنه إذا كان الحوض عند الجنة لم يُحْتَج للشرب منه لقرب أنهار الجنة، ويُجَابُ على ذلك بأن الناس يحبسون هناك لأجل المظالم التي بينهم حتى يتحلَّلوا منها، وهذا المكان يسمى موقف القصاص.

وقيل له -ﷺ- حوضان: حوض قبل الصِّراط يشرب منه الناس بعد خروجهم من القبور، وحوض بعده يشربون منه عندما يوقفون للقصاص في المظالم التي بينهم، وصحَّح القرطبي هذا القول. وهذا كله لا يجب اعتقاده، وإنما يجب اعتقاد أنه -ﷺ- له حوض، ولا يضر الجهل بكونه قبل الصراط أو بعده.

وهذا الحوض مخصص له عليه الصلاة والسلام دون سائر الرسل ، وتَرِدُه أمته -ﷺ-. أما وصفه فكما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه -ﷺ- قال: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كعدد نجوم السماء ، من شَرِبَ منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً»[1] . قال صاحب الشيبانية:

وَحَوْضُ رَسُولِ اللهِ حَقاً أَعَدَّهُ	لَهُ اللهُ دُونَ الرُّسْلِ مَاءً مُبَرَّدَا
وَيَشْرَبُ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ وَكُلُّ مَنْ	سُقِي مِنْهُ كَأْسَاًلَمْ يَجِدْ بَعْدَهُ صَدَا
أَبَارِيقُهُ عَدَّ النُّجُومِ وَعَرْضُهُ	كَبُصْرَىوَصَنْعَا فِي الْمَسَافَةِ حُدِّدَا

وقيل يَرِدُهُ كل مؤمن يدخل الجنة ولو من الأمم السابقة، وقيل إن لكل نَبيٍّ حوضاً تَرِدُه أمته، فعن الحسن مرفوعاً قال -ﷺ-: «لكل نَبيٍّ حوض، وهو قائم على حوضه وبيده عصا يدعو من عرفه من أمته»[2] . قال بعضهم وإنما خُصَّ حوض نبينا عليه

---

(1) رواه الشيخان .

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط والترمذي .

الصلاة والسلام بالذكر دون غيره لوروده بالأحاديث البالغة مبلغ التواتر، بخلاف غيره لوروده بالآحاد.

ومن الأحاديث الواردة في حوضه عليه الصلاة والسلام ما روي أنه فيما أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام من صفة نبينا -ﷺ- أن له حوضاً أبعد من مكة إلى مطلع الشمس، فيه آنية مثل عدد نجوم السماء ، له لون كل شراب الجنة وطعم كل ثمارها. قيل ومعنى كونه له لون كل شراب الجنة أن بعض لونه أحمر وبعض لونه أبيض وهكذا، ومعنى كونه له طعم كل ثمارها أن له طعم الخوخ والموز والمشمش وغيرها، فمن شرب منه يجد طعم جميع ثمار الجنة فيه.

وينال الشرب من هذا الحوض من أوفوا بعهدهم لله عز وجل حينما أشهدهم على أنفسهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾ وهم المؤمنون الطائعون، ويُطرَد عنه من أخلفوا هذا العهد وهم قسمان: قسم يُطرَد طرد حرمان وهم الكفار، وقسم يُطرَد طرد عقوبة وهم عُصَاة المؤمنين ومنهم المبتدعة ثم يشرب. قال صاحب الجوهرة:

إِيمَانُنَا بِحَوْضِ خَيْرِ الرُّسْلِ ... حَتْمٌ كَمَا قَدْجَاءَنَا فِي النَّقْلِ
يَنَالُ شُرْباً مِنْهُ أَقْوَامٌ وَفَوْا ... بِعَهْدِهِمْ وَقُلْ يُذَادُ مَنْ طَغَوْا

العَرش والكُرسي والقلَم واللّوح:

ومما يجب الإيمان بوجوده: العرش والكرسي والقلم واللوح. فالعرش جسم عظيم نوراني على هيئة قبة فوق العالم ذات أربعة أعمدة ، يحمله في الدنيا أربعة من الملائكة وفي الآخرة ثمانية، قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[1]. والكرسي جسم عظيم نوراني تحت العرش ملتصق به فوق السماء السابعة. والقلم

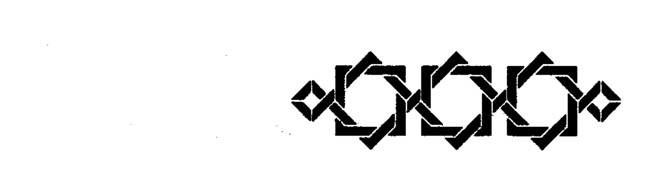
---

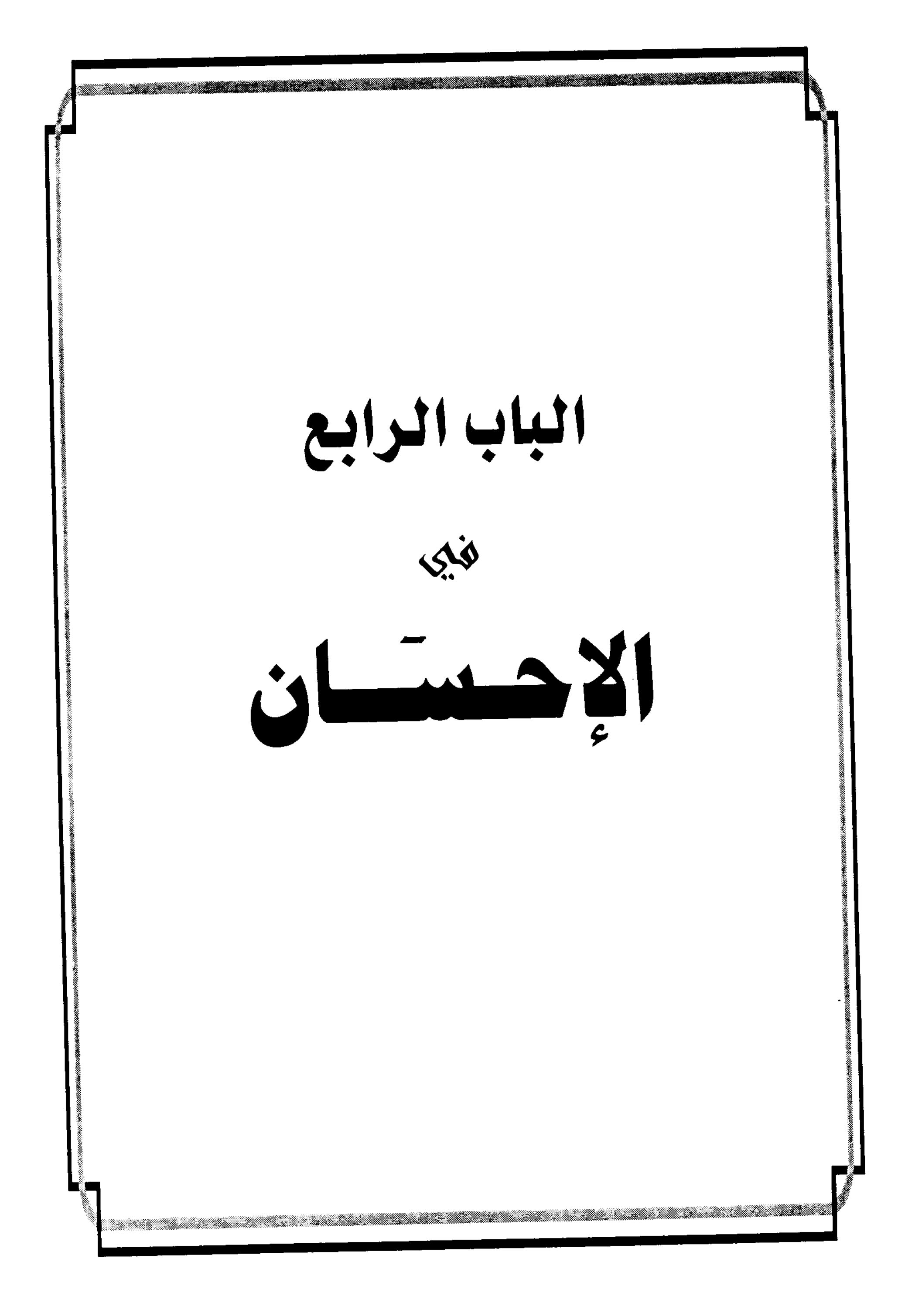
(1) الحاقة : 16 .

جسم نوراني خلقه الله وأمره أن يكتب في اللوح ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. واللوح هو اللوح المحفوظ، جسم نوراني يكتب فيه القلم بمجرد القدرة لا بواسطة الملائكة ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وهذه الأشياء لم يخلقها الله لاحتياجه إليها. قال صاحب الجوهرة:

وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ ثُمَّ الْقَلَمُ   وَالْكَاتِبُونَ اللَّوْحُ كُلٌّ حِكَمُ
لاَ لاِحْتِيَاجٍ، وَبِهَا الإِيمَانُ   يَجِبْ عَلَيْكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ

وقوله (والكاتبون) المراد بهم الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد ويكتبون ما في اللوح المحفوظ وما في صحف الملائكة.

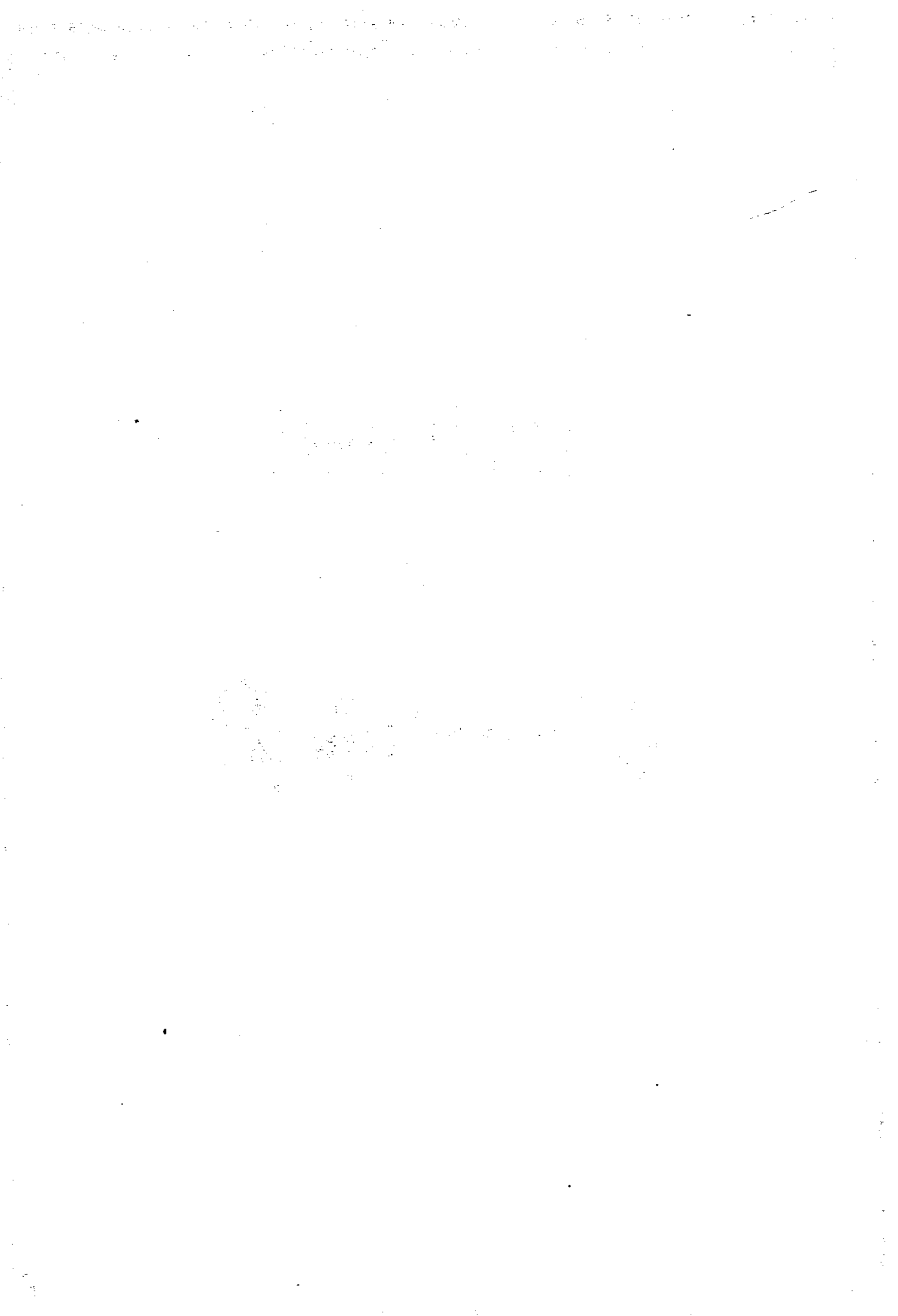




الباب الرابع

في

الإحسان



الإحسان

تمهيد:

الإحسان هو أعلى مراتب العبادة، وهو القسم الثالث من أقسام الدين. فالدين ثلاثة أقسام : الإسلام والإيمان والإحسان. فالإسلام له خمس قواعد وهي: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. والإيمان له ستة أركان: وهي أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. والإحسان له مرتبتان وهما: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1].

وقد تناولت قواعد الإسلام الأربع التي بعد الشهادتين وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج بالشرح والتفصيل في كتابي (**النجوم النيرات في أحكام العبادات**)، كما تناولت بالشرح والتفصيل أيضاً قاعدة الإسلام الأولى وهي الشهادتان وكذلك أركان الإيمان الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره في مقدمة كتابي هذا وفي الأبواب الثلاثة التي بعد المقدمة.

وبذلك لم يبق من أقسام الدين إلا القسم الثالث وهو الإحسان وسأتناوله في هذا الباب.

---

(1) رواه البخاري.

تعريف الإحسان :

الإحسان لغة : الإتقان، تقول أَحْسَنتُ فِعْلَ كذا أي أَتقنتُهُ. وله معنى آخر وهو إيصال النفع إلى الغير، تقول أَحْسَنتُ إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع. والمراد هنا المعنى الأول وهو الإتقان لأن المقصود إتقان العبادة. واصطلاحاً : هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فالإحسان في العبادة له مرتبتان: **(الأولى)** أن تعبد الله كأنك تراه، وذلك بأن تغلب عليك مشاهدة الحق سبحانه وتعالى بقلبك حتى كأنك تنظر إليه بعينيك أي وهو ينظر إليك. **(الثانية)** أن تعبد الله كأنه يراك، وذلك بأن تَسْتَحْضِر أنَّ الله تعالى مُطَّلِع عليك، يرى كل ما تعمل. والمرتبة الأولى أرفع درجة من المرتبة الثانية لأن العبد في هذه الحالة يكون أشد رهبة وخوفاً من الله عز وجل، ومثاله كالبصير في حضرة الملِك، فالرؤية تكون من الجانبين، هو يرى الملك والملك يراه. أما في الحالة الثانية فيكون أقل رهبة وخوفاً من الله تعالى، ومثاله كالأعمى في حضرة الملك، فالرؤية تكون من جانب واحد، الملك يراه وهو لا يرى الملك. ولا شك أن الرؤية من الجانبين أقوى منها من جانب واحد، ولكن كلاًّ من الحالتين تثمر معرفة الله وخشيته لأن آداب العبادة لا تُراعى إلا إذا كان العبد يشاهد ربه بقلبه لا لكونه يرى ربه بل لكون ربه يراه، وهو سبحانه وتعالى يرى عبده دائماً، وحينئذ فيجب على العبد أن يُحسِن عبادته لله عز وجل حتى ولو لم يشاهده بقلبه وذلك باستحضار أن الله مطلع عليه. وهذه الحالة يجب أن تكون أقل مايكون عليه العبد في استشعار مراقبةِ الله له في أقواله وأفعاله.

وهناك قسم ثالث أو حالة ثالثة وهي أن تعبد الله دون أن تغلب عليك مشاهدة الحق بقلبك، ودون أن تستحضر أن الله مطلع عليك، فهذه الحالة ليست من الإحسان في العبادة لأنها خالية من معرفة الله وخشيته. هذا تعريف الإحسان - القسم الثالث من أقسام الدين. قال ابن عاشر :

وَأَمَّا الإِحْسَانُ فَقَالَ مَنْ دَرَاهْ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهْ
إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ إِنَّهُ يَرَاكْ وَالدِّينُ ذِي الثَّلَاثُ خُذْ أَقْوَى عُرَاكْ

هذه أقسام الدين الثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان. ومن جهة أخرى فللدين أربعة أمور وهي: الصحة في العقد، والوفاء بالعهد، والصدق في القصد، واجتناب الحد. وكلها ترجع إلى أقسام الدين الثلاثة، فالصحة في العقد هو الجزم بعقائد أهل السنة، وهو يرجع إلى التوحيد. والوفاء بالعهد هو فعل المأمورات أي الواجبات وهو يرجع إلى العبادات. والصدق في القصد هو أداء العبادة بالنية والإخلاص وهو يرجع إلى الإحسان. واجتناب الحد هو ترك المنهيات أي المحرمات وهو يرجع إلى الإحسان أيضاً.

ومما ينبثق عن الإحسان التصوف، وفيما يلي تعريفهُ وبيان حقيقته :

تعريف التَّصوُّف :

التصوف لغة : مأخوذ من الصفاء ، لأن صاحبه يكون صافياً من الكدر أي الذنوب. قال سهل بن عبد الله: الصُّوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من العِبَر، وانقطع إلى الله عن البشر، وتساوى عنده الذهب والمدر أي التراب.

واصطلاحاً: علم بأصول يُعرَف به إصلاح القلب وسائر الحواس. وقال الإمام الغزالي: هو تجريد القلب لله تعالى واحتقار ما سواه، أي تخليص القلب لله تعالى، واعتقاد أن ما سواه لا ينفع ولا يضر، فلا يعول إلا على الله. فالمراد باحتقار ما سواه اعتقاد أنه لا يضر ولا ينفع وليس المراد به الازدراء أو التنقيص. وقيل سُمِّيَ التصوف تصوفاً لغلبة لُبْسِ الصوف على أهله كالمرقعات، وقيل لتسمية المنتسبين إليه بأهل الصُّفَّة، وهم جماعة من فقراء المسلمين يُسمَّون بضيوف الإسلام ومنهم أبو هريرة وعمار بن ياسر رضي الله عنهما بذلوا أنفسهم في عبادة الله والجهاد في سبيله،

واتخذوا آخر مسجد رسول الله -ﷺ- مكاناً يأوون إليه يُسمَّى بالصُّفَّة، فإن دعا داعي الجهاد كانوا أول من يخرج إليه، فإذا انتهى القتال رجعوا إلى مكانهم، فإذا جاءت هدية لرسول الله -ﷺ- أصاب منها وبعث إليهم منها، وإذا جاءته صدقة بعثها إليهم ولم يصب منها شيئاً.

وروي في الحديث أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: والله إني كنت أعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، كما كنت أشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على الطريق الذي يخرج منه الناس، فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله، وما سألته إلا ليستتبعني فلم يفعل، فمر عمر فسألته عن آية من كتاب الله، وما سألته إلا ليستتبعني فلم يفعل، فمر رسول الله -ﷺ- فعرف ما في وجهي وما في نفسي، فقال: أبا هريرة. فقلت: لبيك يا رسول الله. قال: الْحَقْ بي. فتبعته فدخل بيته واستأذنت فأذن لي، فوجد لبناً في قدح فقال: من أين لكم هذا اللبن؟ فقالوا: أهداه لنا فلان أو آل فلان. فقال: يا أبا هريرة. قلت: لبيك يا رسول الله. قال: انطلق إلى أهل الصُّفَّة فادْعُهُم. قال: فأحزنني ذلك، وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أَقْوَى بها بقية يومي وليلتي، وقلت في نفسي: أنا الرسول إلى القوم، فإذا جاءوا كنت أنا الذي أعطيهم فلم يبق لي من هذا اللبن شيء. ولكن لم يكن لي من طاعة الله وطاعة رسوله بدٌّ، فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم -ﷺ- فأخذوا مجالسهم من البيت، ثم قال: يا أبا هريرة، خذ فأعطهم. فأخذت القدح وجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يَرْوَى ثم يرد القدح، فأعطيه الآخر فيشرب حتى يَرْوَى ثم يرد القدح، حتى أتيت على آخرهم ودفعته إلى رسول الله -ﷺ- ، فأخذه وقد بقي فيه فضلة، ثم رفع رأسه فنظر إلي وتَبسَّم وقال: يا أبا هريرة. فقلت: لبيك يا رسول الله. قال: اقعد فاشرب. فقعدت وشربت، ثم قال: اشرب. فشربت، ومازال يقول اشرب

فأشرب حتى قلت والذي بعثك بالحق نبياً ما أجد له مسلكاً. فقال: ناولني القدح فناولته إياه فشرب من الفضلة»[1].

وقيل سُمُّوا بأهل الصُّفَّة لصفاء قلوبهم، وصحح هذا القول الشيخ أبو الفتح البُستِي حيث قال:

تَخَالَفَ النَّاسُ في الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا   جَهْلاً وَظَنُّوهُ مَأخُوذاً مِنَ الصُّوفِ
وَلَسْتُ أَنْحَلُ هَذَا الإِسْمَ غَيرَ فَتىً   صَافَى فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي

ومنه يفهم أن التَّصوُّف ليست بمجرد لُبْسِ الصوف المرقع، أو بمجرد الانتساب إلى ما يعرف الآن بالطرق الصوفية مع خلو القلب من التقوى والإخلاص، وليس هو التظاهر بالخشوع والبكاء عند سماع الأناشيد، ولا هو الصياح والرقص والتخبط كالمجانين، ولا هو استعمال الحديد والنار، ولا هو غير ذلك من الأمور المخالفة للشرع والدين، بل التصوف هو صفاء القلب بمحبة الله والخشوع له والعمل بكتاب الله وسنة رسوله والندم على الذنوب. وما أحسن قول ابن الحاج في كتابه المدخل:

لَيْسَ التَّصوُّفُ لُبْسَ الصُّوفِ تَرقَعُهُ   وَلاَ بُكَاؤُكَ إِنْ غَنَّى الْمُغَنُّونَا
وَلاَ صِيَاحٌ وَلاَ رَقْصٌ وَلاَ طَرَبٌ   وَلاَ اخْتِبَاطٌ كَأَنْ قَدْ صِرْتَ مَجْنُونَا
بَلِ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصفُو بِلاَ كَدَرٍ   وَتَتْبَعَ الْحَقَّ وَالقُرآنَ وَالدِّينَا
وَأَنْ تُرَى خَاضِعاً لِلَّهِ مُكْتَئِباً   عَلَى ذُنُوبِكَ طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُونَا

---

(1) رواه البخاري.

التَّوبة من الذنوب:

الذنوب جمع ذَنْب وهي المعاصي، وهي عند جمهور أهل السنة قسمان: صغائر وكبائر، خلافاً للمُرْجِئة وهم فرقة من المبتدعة القائلين بأن الذنوب كلها صغائر لا تَضُر مرتكبها ما دام على الإسلام، كما قال شاعرهم :

مُتْ مُسْلِماً وَمِنَ الذُّنوبِ فَلاَتَخَفْ ... حَاشَا الْمُهَيْمِنَ أَنْ يُرِي تَنْكِيدَا

لَوْ رَامَ أَن يُصْلِيكَ نَارَ جَهَنَّمٍ ... مَا كَانَ أَلْهَمَ قَلْبَكَ التَّوْحِيدَا

وخلافاً للخوارج القائلين بأنها كلها كبائر ويَكفُرُ مرتكبها، وخلافاً لغير هؤلاء وأولئك القائلين بأنها كلها كبائر، نظراً لعظمة من عُصِيَ بها سبحانه وتعالى، ولكن لا يكفر مرتكبها إلا بما هو كفر كسجودٍ لصنم ورميٍ لمُصحَفٍ في قاذورة أو نحو ذلك.

والكبائر ليست منحصرة في عدد وإنما هي كل ذنب كَبُرَ كِبراً يصح معه أن يُطلَق عليه اسم الكبيرة، ولها أمارات منها إيجاب الحد، ومنها الإيعاد عليها بالعقاب، ومنها وصف فاعلها بالفسق، ومنها اللعن. وأَكْبَرُها الشرك با لله، ثم قتل النفس التي حرم ا لله إلا بالحق، وما سوى هذين منها كالزنا واللواط وعقوق الوالدين والسحر والقذف والفرار يوم الزحف وأكل الربا، ومن أكبر الكبائر الكذب على رسول ا لله-ﷺ-، خلافاً لأبي محمد الجويني الذي قال من تعمد الكذب على رسول ا لله فإنه يكفر استناداً إلى قوله -ﷺ-: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1]، والصحيح أنه لا يكفر لأن هذا الحديث لا يدل على الكفر وإنما يدل على الإيعاد بشدة العقاب. أما غير ذلك من الذنوب فيختلف أمره باختلاف الأحوال والمفاسد المترتبة عليه، فيقال لكل واحدة من الكبائر هي من أكبر الكبائر وليست أكبرها، وإن جاء في موضع أنها أكبر الكبائر كان المراد من ذلك أنها من أكبر الكبائر.

---

(1) رواه الشيخان .

وكل ما خرج عن حد الكبيرة وضابطها فهو صغيرة، وقد تُعطَى حكم الكبيرة دون أن تنقلب كبيرة. قال ابن حجر في شرح الأربعين النووية : وإن وقع في عبارة بعضهم أنها تنقلب كبيرة بالإصرار عليها وهي معاودة الذنب مع نية العود إليه عند الفعل، فإن هذا القول لا يشمل مَن عاود الذنب مِن غير نية العود عند الفعل لأن ذلك لا يعد إصراراً على الأصح. وقال بعضهم إن الإصرار على الذنب هو تكراره، سواء عزم على العود إليه عند الفعل أم لا، وكذلك التهاون أي الاستخفاف به وعدم المبالاة والفرح بفعله والافتخار وصدوره عن عالم يُقتدَى به فيها.

وقد نقل الشيخ ميارة في الشرح الكبير للمرشد المعين في كتاب التَّصوُّف ما جاء في الكوكب الساطع في نظم جمع الجوامع للإمام جلال الدين السيوطي تشتمل على نحو سبع وثلاثين من الكبائر، راعى الناظم فيها القول بأنّ كل ذنب يُؤْذِنُ بقلة اكتراث مرتكبه بالدين وضعف الديانة فهو من الكبائر. وفيما يلي منظومة هذا الإمام الجليل:

وَفِي الكَبِيرَةِ اضْطِرَابٌ إِذْ تُحَدْ ... فَقِيلَ ذُو تَوَعُّدٍ وَقِيلَ حَدْ

وَقِيلَ مَا فِي جِنْسِهِ حَدٌّ وَمَا ... كَانَ بِنَصِّهِ كَذَا قَدْ حُرِّمَا

وَقِيلَ لاَ حَدَّ لَهَا بَلْ أُخْفِيَتْ ... وَقِيلَ كُلٌّ وَالصِّغَارُ نُفِيَتْ

وَالْمُرْتَضَى قَوْلُ إِمَامِ الْحَرَمَيْنْ ... جَرِيمَةٌ تُؤْذِنُنَا بِغَيْرِ مَيْنْ

بِقِلَّةِ اكْتِرَاثِ مَنْ أَتَاهُ ... بِالدِّينِ وَالرِّقَّةِ فِي تَقْوَاهُ

كَالقَتْلِ وَالزِّنَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ ... وَمُطْلَقِ الْمُسْكِرِ ثُمَّ السِّحْرِ

وَالقَذْفِ وَاللِّوَاطِ ثُمَّ الفِطْرِ ... وَيَأْسِ رَحْمَةٍ وَأَمْنِ الْمَكْرِ

وَالغَصْبِ وَالسَّرِقَةِ وَالشَّهَادَةْ ... بِالزُّورِ وَالرِّشْوَةِ وَالقِيَادَةْ

مَنْعُ الزَّكَاةِ وَدِيَانَةٌ فِرَارْ ... خِيَانَةٌ فِي الكَيْلِ وَالوَزْنِ ظِهَارْ

نَمِيمَـــةٌ كَتْـــمُ شَـــهَادَةٍ يَمِـــينْ فَـاجِرَةٌ كَـذْبٌ عَلَـىَ النَّبِي يَبِـينْ
وَسَبُّ صَحْبِـهِ وَضَـرْبُ الْمُسْلِمِ سِـعَايَةٌ عُقُـوقُ قَطْـعُ الرَّحْـمِ
حِرَابَــةٌ تَقدِيمُـــهُ الصَّـــلاَةَ أَوْ تَأْخِيرُهَـــا وَمَـــالُ أَيْتَـــامٍ رَوَوْا
وَأَكْـلُ خِـنْزِيرٍ وَمَيْـتٍ وَالرِّبَـــا وَالغِـلُّ أَو صَغِـيرةٌ قَـدْ وَاظَبَـــا

قال الشيخ ميَّارة : قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في شرح العُمـدة: سـلك بعض المتأخرين من العلماء طريقاً لمعرفة الفرق بين الصغائر والكبـائر، فقـال: إذا أردت أن تفرق بين الصغائر والكبائر فاعرض مفسدة الذنب علـى مفاسـد الكبـائر المنصوص عليها فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر فهي من الصغائر، وإن سـاوت أدنـى مفاسـد الكبائر أو زادت عليها فهي مـن الكبـائر، وذلـك مثـل إلقـاء المصحـف في القـاذورات وتضميخ الكعبة بالعذرة أي الغائط، فهي من الكبائر وإن لم ينص عليـه الشـارع. قـال الشيخ ميارة: وقد كنت لفَّقـت أبياتـاً لتكمـل الفـائدة بضمهـا لنظـم الإمـام السـيوطي المذكور آنفاً فقلت:

وَلِتَقِـيٍّ الدِّيـنِ عَـن بَعـضٍ نَظَـرْ فِيمَا نَشَا عَن بَعضٍ مَا مِنْهَا ذُكِـرْ
مِـنَ الْمَفَاسِـدِ مَـعَ الَّـذِي نَشَـا عَنْ غَيرِهَا مِـنْ مُغْفَـلٍ مَهْمَـا تَشَـا
فَـإِنْ تَسَـاوَيَا أَو أَرْبَـى الآخَـرُ فَهْـيَ كَبِـيرةٌ وَقِـسْ مَـا يُذْكَـرُ

وعلى القول بأن الذنوب قسمان كبائر وصغائر -وهو قول أهل السُّنة كما تقـدم في أول هذه الفقرة- فإنه يجب التوبة من الذنوب الكبائر فوراً ولو حال التَّلبُّـس بهـا، فتأخير التوبة من التَّلبُّس بالفعل إلى الفراغ منه ذنب آخر وإن كـان يُضَـم إلى الذنـب المتلبس به، ولو تراخى مع التفـاوت في الكيـف باعتبـار طـول الزمـان وقصـره، خلافـاً للمعتزلة القائلين بأنه يتعدد بتعدد الزمان حتى لو أخرها لحظة واحدة بعد لحظة الذنب،

فتأخير التوبة عندهم بعد لحظة الذنب تعتبر أربعة ذنوب: (**الأول**) فعل الذنب في اللحظة الأولى. (**الثاني**) تأخير التوبة منه في هذه اللحظة. (**الثالث**) فعل الذنب في اللحظة الثانية. (**الرابع**) تأخير التوبة منه في هذه اللحظة، وهكذا.

والتوبة لغة : مطلق الرجوع. وشرعاً : الرجوع من المعصية إلى الطاعة. ولها ثلاثة شروط أساسية: (**الشرط الأول**) الإقلاع عن الذنب في الحال، فلا تقبل توبة المستغفر بلسانه المُصِرّ على الذنب، لأن ذلك توبة المستهزئين، قال-ﷺ-: ((المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه))[1]. (**الشرط الثاني**) العزم على عدم العود إلى الذنب أبداً، فلا تقبل توبة تارك الذنب في الحال وهو ينوي الرجوع إليه في المستقبل. (**الشرط الثالث**) الندم على ما فعل من الذنوب، فمن لم يندم على ما فعل من الذنوب في الماضي لا تقبل توبته. فإن تعلّق الذنب بحق آدمي فلها (**شرط رابع**) وهو رد المظالم إلى أهلها، سواء أكان مالاً أم غيره مما يمكن رَدُّه، أم تحصيل البراءة منه ولو إجمالاً عند المالكية، خلافاً للشافعية الذين يشترطون تحصيل البراءة منه تفصيلاً. وفي قول المالكية فسحة عظيمة وخاصة إن كان الذنب يتعلق بالعِرض كالغيبة مثلاً، فإن لم يقدر على ذلك بأن كان الذنب يتعلق بالشرف كالزنا مثلاً فالمطلوب كثرة التضرع إلى الله تعالى وكثرة الدعاء والاستغفار للخصماء - لعل الله يُرْضِي عنه خصماءه يوم القيامة.

هذا إن كانت التوبة في سعة من الوقت، فإن كانت في ضيق فلها شرطان آخران: (**أولهما**) أن تقع قبل اليأس من الحياة، فمن تاب عند اليأس من الحياة لا تُقبل توبته، قال تعالى في حق من تاب عند الغرغرة أي عند حضور الموت: ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**﴾[2]، وقال في حق من يموت عند معاينة أسباب الموت خوفاً منها كفرعون: ﴿**حَتَّى إِذَا**

---

(1) رواه ابن ماجه والطبراني وابن أبي الدنيا والبيهقي.

(2) النساء : 18 .

﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُواْ إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] أي أتتوب الآن وتؤمن بعد أن عاينت أسباب الموت فلن يقبل منك الآن إيمان. وقال في حق من يتوب عند معاينة العذاب ممن كذبوا الرسل خوفاً من الموت: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[2].

(الثاني) أن تقع التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها، فمن تاب عند ذلك الوقت أو بعده لا تُقبل توبته، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾[3]، والمعنى: يوم تظهر بعض علامات السَّاعة، وهي كما ذكرها المفسرون طلوع الشمس من مغربها لا ينفع الإيمان النفس الكافرة، ولا تنفع التوبة النفس العاصية، لغلق باب التوبة عند ذلك الوقت، قال-ﷺ-: ((إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها))[4].

فالتوبة المستوفية للشروط المذكورة يقبلها الله تعالى سواء أكانت من مسلم أم كافر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ﴾[5]، ومعلوم أن توبة الكافر هي ترك الكفر والدخول في الإسلام، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[6].

ثم إنَّ من تاب مع توفر شروط التوبة المتقدمة ثم عاد للحالة التي كان عليها قبل التوبة فعند أهل السُّنة لا يعود عليه ذنبه الذي تاب منه، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون بانتقاض التوبة بعوده للذنب، فيعود ذنبه الذي تاب منه بعوده له لأن من شروط التوبة

---

(1) يونس: 90-91.
(2) غافر: 83-84.
(3) الأنعام: 159.
(4) رواه مسلم والنسائي.
(5) الشورى: 23.
(6) الأنفال: 38.

عندهم أن لا يعاود الذنب بعد التوبة. وعلى مذهب أهل السّنة يجب عليه تجديد التوبة للذنب الذي ارتكبه ثانياً فلا يضر إلا الإصرار على المعاصي بخلاف ما إذا كان كلما وقع في ذنب تاب منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[1] وهم الذين كلما أذنبوا تابوا. وقال -ﷺ-: ((التَّائب من الذَّنب كمن لا ذنب له))[2].

هذا وقد اختلف في قبول التوبة وعَدَمِهِ، والصحيح أنها تقبل قطعاً. ومحل الخلاف في توبة العاصي غير الكافر، أما توبة الكافر وهي دخوله في الإسلام فلا خلاف في قبولها. وإلى ما ذكر من الذنوب والتوبة منها أشار صاحب الجوهرة بقوله:

ثُمَّ الذُنوبُ عِنْدَنَا قِسمَانِ   صَغِيرةٌ كَبِيرةٌ فَالثَّانِي
مِنْهُ الْمَتابُ وَاجِبٌ في الْحَالِ   وَلا انْتِقَاضَ إن يَعُدْ لِلحَالِ
لَكِنْ يُجَدِّدْ تَوبةً لِمَا اقترَفْ   وَفي القَبُولِ رَأيهُم قَدِ اختَلَفْ

هذا بالنسبة للذنوب الكبائر، أما الذنوب الصغائر فلا تحتاج إلى توبة بل تُكفَّر باجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[3] أي الذنوب الصغائر. وقال-ﷺ-: ((ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويُخرِج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فُتِحَت له أبواب الجنة وقيل له ادخل بسلام))[4]. والسّبع الموبقات هي المذكورة في قوله-ﷺ-:((اجتنبوا السَّبع الموبقات، (أي المهلكات). قالوا :يا رسول الله، وما هنّ؟ قال: الشّرك با لله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الرّبا، وأكل مال اليتيم، والتَّولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))[5]. والكبائر ليست مقيدة بهذه السَّبع

---

(1) البقرة : 220 .
(2) رواه ابن ماجه والطبراني وابن أبي الدنيا والبيهقي.
(3) النساء : 31 .
(4) رواه النسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان .
(5) متفق عليه .

بل غيرها من الكبائر كذلك، وإنما خُصَّت هذه بالذات لمجيئها في حديث واحد، ومثلها قوله-ﷺ-: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يردّدها حتى قلنا ليته سكت»[1].

والمراد من اجتناب الكبائر ما يَعُمُّ التوبة منها بعد فعلها وما يَخُصُّ عدم ارتكابها بالمرة، بخلاف التَّلبُّس بها من غير توبة.

كما تُكَفَّر الذنوب الصغائر بالعبادات، قال-ﷺ-: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكفِّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يسبغ عبد الوضوء إلا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[3]، والمراد بإسباغ الوضوء إتقانه.

وإلى ما تقدم من تكفير الذنوب الصغائر يشير صاحب الجوهرة بقوله:

وَبِاجْتِنَابٍ لِلْكَبَائِرْ تُغْفَرُ ... صَغَائِرٌ وَجَا الوُضُو مُكَفِّرُ

فإن قيل إذا كَفَّرَ الوضوء الذنوب مثلاً فلا تجد الصلوات ما تُكَفِّر، فالجواب: إن الذنوب كالأمراض والطاعات كالأدوية، فكما أن لكل نوع من أنواع الأمراض نوعاً من أنواع الأدوية لا ينتفع منه غيره فكذلك كل نوع من أنواع الذنوب له نوع من أنواع الطاعات لا يُكَفِّر بغيره، ويدل على ذلك قوله -ﷺ-: «إن من الذنوب ذنوباً لا يُكفِّرها صوم ولا صلاة ولا جهاد وإنما يكفرها السَّعْيُ على العيال»[4].

وهذا كله في الحقوق المتعلقة بحقوق الله تعالى، أما المتعلقة بحقوق الخلق فلا بد

---

(1) متفق عليه.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه البزار بإسناد حسن.

(4) رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والديلمي في الفردوس عن أبي هريرة.

فيها من القِصاص إن لم تُرَدَّ المَظلمة للمظلوم في الدنيا أو يتحصل الظالم منه على البراءة كما تقدم في أول هذه الفقرة، وذلك بأن يؤخذ من حسنات الظالم وتُعطَى للمظلوم، فإذا نفدت حسناته أخذ من سيئات المظلوم ووضعت على الظالم، قال -ﷺ- لأصحابه يوماً: ((أتدرون من المُفلِسُ فيكم؟ قالوا: المُفْلِسُ فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: المُفْلِسُ من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طُرِحَ في النار))[1]. على أنه من الجائز في حق الله تعالى أن يغفر لعبده التَّبِعات وهي حقوق الخلق بحيث يُرضِي خصماءه من فضله يوم القيامة، وخاصة إن كانت هذه التَّبِعات من الأعراض التي لا يمكن التصريح بها لأصحابها في الدنيا حتى يحصل على البراءة منهم كالزنا مثلاً إذا لجأ العبد إلى ربه ودعا لخصمائه واستغفر لهم. ومن الدعاء المأثور في هذا المقام: (اللهم اغفر لنا ولمن له حق علينا، ولمن أحسن إلينا ولمن أسأنا إليه ولجميع المسلمين). ومن ذلك ما نقله الشيخ البيحوري في حاشيته على الجوهرة بقوله: أخرج البزار عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: ((من قرأ قل هو الله أحد إلى آخرها (مائة ألف مرة) فقد اشترى نفسه من الله عز وجل، ونادى مناد من قِبَل الله تعالى في سماواته وفي أرضه إن فلاناً عتيق الله، فمن له قِبَله تباعة فليأخذها من الله عز وجل))، قيل وهذه هي العَتَاقة الكبرى. ومنها ما روي أن من قال (لا إله إلا الله) سبعين ألف مرة كانت فداء له من النار، كما نقله الشيخ ميارة في الشرح الكبير للمرشد المعين عند شرحه لقول الناظم (وقول لا إله إلا الله) إلى آخر الأبيات الثلاثة. ومن ذلك أيضاً الحج المبرور، وهو الذي لا يعود صاحبه بعده إلى المعاصي والفجور لقوله -ﷺ-: ((الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[2].

---

(1) رواه مسلم والترمذي .

(2) متفق عليه .

تضعيف الحسنات :

من رحمة الله بهذه الأُمَّة أن ضاعف لها الحسنات بفضله لا وجوباً عليه. والحسنات جمع حسنة، وهي ما يُمدَح فاعلها شرعاً. وسُمِّيت حسنة لِحُسنِ وجه صاحبها عند رؤيتها يوم القيامة، وأقل مراتب التضعيف عشرة، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]، وقد تضاعف إلى سبعين أو إلى سبعمائة أو أكثر من غير انتهاء إلى حد يقف عنده التضعيف، وتفاوت مراتب التضعيف بحسب ما يقترن بالحسنة من الإخلاص وحسن النية.

والحسنات التي تُضَاعف هي الحسنات المقبولة الأصلية المعمولة للعبد وما في حكمها، كالتي عَمِلَها عنه غيره، كما إذا تصدق غيره بصدقة ونوى له ثوابها، لا المأخوذة في نظير مظلمة فلا تتضاعف . فخرج بالمقبولة المردودة بنحو رياء فلا تحسب له أصلاً، وبالأصلية المضاعفة فلا تضاعف مرة أخرى، وبالمعمولة له أو ما في حكمها الحسنة التي لم يعملها ولكنه هَمَّ بها فتكتب له واحدة من غير تضعيف، بخلاف ما لو هَمَّ بمعصية ثم تركها فله حسنة مضاعفة.

ومن رحمته أيضاً أنه لم يُضاعِف عليها السيئات بل يقدرها بمثلها إن جازاه عليها، قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2]، وله أن يعفو عنها إن لم تكن كفراً وإلاَّ خُلِّدَ في النار. والسيئات جمع سيئة وهي ما يذم فاعلها شرعاً، صغيرة كانت أو كبيرة. وسُمِّيت سيئة لأن فاعلها يُسَاء عند المعاقبة عليها يوم القيامة. والمراد بها السيئات التي عملها العبد حقيقة أو حكماً بأن طُرِحَت عليه من الغير لمظلمة له عليه كما تقدم.

وإلى هذا التضعيف للحسنات وعدمه في السيئات أشار صاحب الجوهرة بقوله :

---

(1) الأنعام : 161 .

(2) الأنعام :161 .

فَالسَّـــيِّئَاتُ عِنــــدَهُ بِـــالْمِثْلِ وَالْحَسَنَاتُ ضُوعِفَتْ بِـالفَضْلِ

وإذا كان العبد يُحاسَب على ما فعل من الذنوب يوم القيامة فيجب عليه أن يُحاسِب نفسه كل صباح ومساء على جميع ما عمل في الليل والنهار، فما وجد من حسنة حَمِدَ الله، وما وجد من سيئة استغفر الله عنها، ففي الحديث الشريف قال -ﷺ-: ((الكَيِّسُ (أي العاقل) من دان نفسه (أي حاسبها) وعَمِلَ لما بعد الموت، والعاجز من أَتْبَعَ نفسه هواها وتمنى على الله الأماني))[1]. وقال عمر رضي الله عنه: (حَاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا، وزِنُوها قبل أن تُوزَنوا)، لأن من حاسب نفسه في الدنيا خَفَّ عنه حساب الآخرة، وعليه مع ذلك أن يُقَلِّل الأمل في الدنيا. والأمل هو رجاء ما تحبه النفس كطول العمر وزيادة الغنى وهو مذموم إلا للعلماء إذا أمَّلوا طول عمرهم لنفع المسلمين فهو ممدوح ويثابون على نياتهم، ومع ذلك فالمطلوب من العبد أن يتخذ الدنيا دار مَمَرٍ لا دار مَقر عملاً بقوله -ﷺ-: ((كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل))[2] ، وعليه أن يَجِدَّ في الطاعات ليتحصل على أعلى الدرجات يوم القيامة، لأن من جَدَّ وجد. قال صاحب الجوهرة :

فَحَاسِبِ النَّفْسَ وَقَلِّلْ الاَمَلاَ فَرُبَّ مَنْ جَدَّ لأِمْرٍ وَصَلاَ

ورحم الله الإمام الطرطوشي إذ يقول :

إنَّ لِلَّــهِ عِبَـــاداً فُطَنَـــا طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

---

(1) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(2) رواه البخاري .

كُفر من جحد بما عُلِمَ من الدين بالضرورة ومن في حكمه :

كل من جحد أمراً معلوماً من الدين بالضرورة بحيث يعرفه خواص المسلمين وعوامهم، كوجوب الصلاة والصوم وتحريم الربا والقمار ونحوهما فإنه يعتبر كافراً مرتداً، وعقوبته القتل كفراً لا حَدًّا إلاَّ إذا تاب، لأن جحوده ذلك يستلزم تكذيب النبي -ﷺ-.

وكذلك من نَفى حُكماً مُجمعاً عليه إجماعاً قطعياً وهو ما اتفق المعتبرون على كونه إجماعاً، وكان معلوماً من الدين بالضرورة فإنه يُقتَل كفراً، فإن لم يكن معلوماً من الدين بالضرورة كاستحقاق بنت الابن السُّدسَ مع بنت الصلب فلا يُقتَل على الصحيح، خلافاً لمن قال بقتله وهو قول ضعيف. ويخرج بالإجماع القطعي الإجماع السُّكوتي فإنه ظني لا قطعي.

ومثلهما من استباح أي اعتقد إباحة مُحرَّم مُجمَع على حُرمَتِهِ معلوم من الدين بالضرورة كالزنا وشرب الخمر فإنه يُقتَل كفراً ولو كان الذنب صغيرة، سواء أكان تحريمه لعينه كالزنا وشرب الخمر أم لعارض كصوم يوم العيد، فإن تحريمه لعارض وهو الإعراض عن ضيافة الله تعالى، خلافاً لبعض الماتريدية الذين قالوا من اعتقد حِلَّ مُحَرَّمٍ فإن كان تحريمه لعينه كالزنا وشرب الخمر كفر وإلا فلا، كمن استحل صوم يوم العيد.

قال صاحب الجوهرة :

وَمَنْ لِمَعْلُومٍ ضَرُورَةً جَحَدْ　　مِنْ دِينِنَا يُقْتَلُ كُفْراً لَيْسَ حَدْ
وَمِثْلُ هَذَا مَنْ نَفَى لِمُجْمَعِ　　أَوِ اسْتَبَاحَ كَالزِّنَا فَلْتَسْمَعِ

الرِّزق ما انْتُفِعَ به :

الرزق بمعنى الشيء المرزوق، وهو عند أهل السنة ما ساقه الله إلى خلقه فانتفعوا به بالفعل، ولا يَرِدُ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] حيث إنه يقتضي عدم اعتبار الانتفاع في الرزق بالفعل، لأن المراد بكلمة الرزق في هذه الآية المعنى اللغوي وهو الإعطاء أي ومما أعطيناهم ينفقون، فالجزء الذي ينفقونه على غيرهم ليس من رزقهم وإنما هو مما أُعطِيَ لهم زيادة على الرزق، أو إن المراد به ما هُيِّءَ لكونه رزقاً فما انتفعوا به منه بالفعل فهو رزقهم، وما أنفقوه منه على غيرهم فليس برزقهم. ويدخل في الرزق على هذا التعريف رزق الإنسان وغيره من الحيوان والدواب، ويشمل المأكول وغيره مما ينتفعون به كالمشروب والملبوس. ويخرج ما لم ينتفع به بالفعل كمن ملك شيئاً و لم ينتفع به بالفعل حتى مات المالك أو ضاع المملوك، فذلك الشيء لا يعتبر رزقاً لمن ملكه وإنما هو رزق لمن انتفع به بالفعل، سواء في حياة المالك أم بعد موته. وبهذا يتضح قول أكابر أهل السنة (إن كل أحد يستوفي رزقه وإنه لا يأكل أحدٌ رزقَ غيره ولا يأكل غَيْرُه رزقه). وفي الخبر عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً أن رسول الله -ﷺ- قال: ((إن روح القدس نفث في رُوعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجْمِلُوا في الطلب، ولا يَحْمِلَنَّ أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته))[2] . وروح القدس هو جبريل عليه السَّلام، وقوله-ﷺ- نفث في رُوعي معناه نفخ في قلبي، فالرُّوعُ هو القلب.

والأرزاق نوعان : ظاهرة، وهي للأبدان كالأقوات والملابس. وباطنة، وهي للقلوب كالعلوم والمعارف. وخالف المعتزلة أهل السّنة في تعريف الرّزق فقالوا: ليس

---

(1) البقرة : 2 .

(2) رواه الحاكم في المستدرك وابن أبي الدنيا في القناعة عن ابن مسعود، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة، وقال السيوطي عنه إنه ضعيف.

الرّزق ما انْتُفِعَ به، بل هو ما مُلِكَ، فلا يُعتَبر فيه الانتفاع وإنما تُعتَبَر فيه المِلكِيَّة، سواء انتفع به مالكه أم لا. ويلزم على هذا القول أن الشخص ربما لا يستوفي رزقه قبل موته، وقد يأكل رزق غيره، وقد يأكل غيره رزقه. ولكن هذا القول لم يتّبعه الأئمة لفساده طرداً وهو التلازم في الثبوت، وعكساً وهو التلازم في النفي. وتوضيح الأول أن الله تعالى مالك لجميع الأشياء، ولا يسمى ملكه رزقاً اتفاقاً وإلا لكان الله مرزوقاً. وتوضيح الثاني أن الحيوانات والدواب لا يصح منها التملك، وإذا لم يُسمَّ ما تنتفع به من المأكولات والمشروبات رزقاً، فبماذا يُسمَّى؟

ويتفرَّع على مذهب أهل السُّنة أن الله سبحانه وتعالى يرزق الحلال والمكروه والمحرم انفراداً، بأن يرزق عبداً رزقاً حلالاً، وآخر رزقاً مكروهاً، وثالثاً رزقاً حراماً. واجتماعاً، بأن يرزق عبداً رزقاً بعضه حلال وبعضه مكروه وبعضه حرام، أو بعضه حلال وبعضه مكروه، أو بعضه مكروه وبعضه حرام، أو بعضه حلال وبعضه حرام. والحلال ما كان مباحاً بنصٍّ أو إجماع أو قياس جَلِيٍّ. قال الشيخ البيجوري في حاشيته على الجوهرة: لا ينبغي اليوم أن يُسألَ عن أصل الشيء لأن الحلال ما جُهِلَ أصله، والأصول قد فسدت واستحكم فسادها، فأَخذُ الشيء على ظاهر الشرع أولى من السؤال عن شيء قد يتبين تحريمه. قال القزويني: من قال إن الحلال غير موجود فقد طعن في الشريعة، وهو أحمق حصل له ذلك من جهله، فإن الله لم يكلف خَلقَه بالبحث عن عين الحلال في علم الله تعالى، بل كلفهم أن يصيبوا الحلال في اعتقادهم وظنهم. والمكروه هو ما نُهِيَ عنه نهياً غير مؤكد، كما في نهيه -ﷺ- عن أكل لحم الجلاّلة وشرب لبنها حتى تعلف أربعين ليلة، والجلاّلة البقرة التي تأكل فضلة الآدميين أي ما يخرج منهم من الغائط. والحرام وهو ما نُهِيَ عنه نهياً مؤكداً كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به إلى آخر المحرمات المذكورة في أول سورة المائدة. وخالف المعتزلة في الحرام، فقالوا إن الحرام لا يعتبر رزقاً بناء على التحسين والتقبيح العقليّين عندهم وهو قول فاسد.

هذا وقد اختلف العلماء في أفضلية الاكتساب وأفضلية التوكل، فرجح بعضهم الاكتساب وهو مباشرة الأسباب بالاختيار كالبيع والشراء لأجل الربح، ومثله تعاطي الدواء لأجل الصحة ونحو ذلك. وإنما رجّحوه لما فيه من كف النفس عن التطلع لما في أيدي الناس ومنعها من الخضوع لهم والتذلل بين أيديهم مع حيازة منصب التوسعة على عباد الله ومواساة المحتاجين وصلة الأرحام بتوفيق الله تعالى.

ورجَّح قوم التوكل وهو الاعتماد على الله تعالى وقطع النظر عن الأسباب مع التمكن منها، وإنما رجّحوه لما فيه من ترك ما يُشغِل عن الله تعالى والاتصاف بالرغبة إلى الله تعالى والوثوق بما عنده مع حيازة مقام السلامة من فتنة المال والمحاسبة عليه. وقد أخرج القضاعي: ((من انقطع إلى الله تعالى كفاه الله كل مَؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكَّله الله إليها))[1] . وقال سليمان الخواص: لو أن رجلاً تَوكَّل على الله بصدق النية لاحتاج إليه الأمراء ومن دونهم. وكيف يحتاج هو إلى أحد ومولاه هو الغني الحميد. والراجح في هذه المسألة التفصيل حسبما عُرِف من كتب القوم كالإحياء للغزالي، والرسالة للقشيري. وحاصل التفصيل أنهما يختلفان باختلاف أحوال الناس، فمن يصبر عند ضيق معيشته بحيث لا يَتسخَّط ولا يتطلع لسؤال أحد فالتوكل في حقه أرجح لما فيه من مجاهدة النفس على ترك شهواتها ولذاتها والصبر على شدتها، ومن لم يكن كذلك فالاكتساب في حقه أرجح حذراً من التسخُّط وعدم الصبر، بل ربما وجب الاكتساب في حقه. وهذا كله إنما يقال في حال أن التوكل ينافي الكسب كما هو طريقة أبي جعفر الطبري ومن ولفقه بخلافه على طريقة الجمهور وهو أن التوكل لا ينافي الكسب فقد يكون متوكلاً وهو يكتسب، لأن حقيقة التوكل على هذه الطريقة : الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه والاعتقاد أن الأمر منه وإليه ولو مع مباشرة الأسباب، كما كان يفعله -ﷺ-.

---

(1) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب، كلهم عن عمران بن حصين مرفوعاً، وقد حسَّنه بعض الحفاظ.

قال الإمام الغزالي: اخذ الزاد في السفر بنية عون مسلم أفضل، والأفضل تركه لمنفرد قوي القلب يُشغله الزاد عن عبادة الله. وقد كان المصطفى -ﷺ- وأصحابه والسلف الصالح يحملون الزاد بنيات الخير لا لميل قلوبهم إلى الزاد عن الله تعالى. والمعتبر القصد، فكم حاملٍ زاداً وقلبه مع الله وكم تارك زاداً وقلبه مع الزاد. والدخول في البوادي بلا زاد توكلاً بدْعَة لم تُنقَل عن أحد من السلف لأنه مخاطرة بالروح، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1].

وإلى ما تقدم في مسألة الرزق والاكتساب والتوكل يشير صاحب الجوهرة بقوله :

وَالرِّزْقُ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا بِهِ انْتُفِعْ ... وَقِيلَ لاَ بَلْ مَا مُلِكْ وَمَا اتُّبِعْ

فَيَرْزُقُ اللهُ الْحَلاَلَ فَاعْلَمَا ... وَيَرْزُقُ الْمَكْرُوهَ وَالْمُحَرَّمَا

فِي الاِكْتِسَابِ وَالتَّوَكُّلِ اخْتُلِفْ ... وَالرَّاجِحُ التَّفْصِيلُ حَسْبَمَا عُرِفْ

أَكْلُ الحَلالِ ونَبْذُ الحَرامِ :

عرفنا في الفقرة السابقة أن الله تعالى يرزق الحلال والحرام انفراداً واجتماعاً، فمن الناس من يرزقه الحلال والحرام معاً، ومنهم من يرزقه الحلال فقط، أو الحرام فقط، وهذا لا يعني إباحة أكل الحرام. ولذا يجب على المسلم أن يحفظ بطنه من الحرام ما استطاع، ودليل هذا الوجوب من الكتاب والسنة والإجماع. أما من الكتاب فقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً﴾[2]، وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[3]، ومن السنة قوله-ﷺ-: «طلب الحلال فريضة

---

(1) البقرة : 194 .
(2) البقرة : 167 .
(3) البقرة : 171 .

بعد الفريضة))[1] أي واجب بعد أداء الصلاة المكتوبة، وقوله: ((كل لحم نبت من سُحْتٍ فالنار أولى به))[2] . أما الإجماع فقد أجمع المسلمون على تحريم أكل الحرام. ويقصد بالأكل الانتفاع، فيشمل الشرب واللباس وغير ذلك من كل ما ينتفع به الإنسان. قال الشيخ ميارة في الشرح الكبير للمرشد المعين من كتاب التصوف: يجب على المكلف ترك الحرام جملة من غير تفصيل، وأكل الحلال المجمع عليه، فإن لم يجده فالمتفق عليه، فإن لم يجده فالمختلف فيه في المذهب، فإن لم يجده فالمختلف فيه في غير المذهب، فإن لم يجده فكما قال القاسم بن محمد: (لو كانت الدنيا كلها حراماً لما كان لنا بُدٌّ من العيش فيها) أي بالأكل من الحرام، لأن (الضرورة تبيح المحظورة). قال تعالى عقب ذكره للمحرمات في آية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ ﴿فَمَنُ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3] .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعروف هو ما أمر به الشرع من واجب ومندوب، سواء بالنسبة لعبادة الله عز وجل كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من سائر العبادات، أو بالنسبة لمعاملة الخَلْقِ كالصدق والأمانة والوفاء بالعهد وغيرها من سائر المعاملات، والمنكر هو ما نهى عنه الشرع من محرم ومكروه، سواء بالنسبة لعصيان الله عز وجل كترك ما أمر به من الواجبات، أو فعل ما نهى عنه من المحرمات كالزنا وشرب الخمّر مثلاً، أو بالنسبة للإضرار بالناس كالسرقة والقتل والغدر والخيانة وغير ذلك من سائر الجرائم الخُلُقية والاجتماعية.

---

(1) رواه الطبراني والبيهقي .

(2) رواه الترمذي وابن حبان .

(3) المائدة : 4 .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصوصيات هذه الأمة، قال تعالى مخاطباً لها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[1]، فيجب أن تكون في هذه الأمة جماعة يقومون بهذا الواجب، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، والمراد بالأمة في هذه الآية جماعة تتوفر فيهم شروط معينة للقيام بواجب الأمر والنهي كالعلماء والوعاظ، فإذا وُجِدَت هذه الجماعة وقامت بهذا الواجب سقط الفرض عن بقية المسلمين لأنه من فروض الكفاية. وهذا بالنسبة للأوامر والنواهي التي لا يعرفها إلا العلماء، أما الأوامر والنواهي التي يستوي في معرفتها العلماء وغيرهم كوجوب الصلاة وتحريم الزنا والخمر مثلاً فلا يقتصر الفرض فيها على جماعة معينة بل يتعين على جميع المسلمين، قال-ﷺ-: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[3].

ويشترط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة شروط: (أولها) أن يكون الآمر والناهي عالماً بحكم ما يأمر به وينهى عنه، فالجاهل لا يجوز له الأمر ولا النهي إلا فيما تستوي معرفته بين الخاص والعام كوجوب الصلاة وتحريم الزنا والخمر مثلاً، فكل واحد له أن يأمر وينهى في ذلك.

(الثاني) أن يكون الآمر والناهي عاملاً بما يأمر به، مجتنباً لما ينهى عنه، فإن لم يكن فلا يجوز له الأمر ولا النهي لأن من أكبر الذنوب أن يأمر الإنسان بما لم يفعل، وينهى عما لم يجتنب، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[4]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[5].

---

(1) آل عمران : 110 .
(2) آل عمران : 104 .
(3) رواه مسلم .
(4) البقرة : 43 .
(5) الصف : 2-3 .

(**الثالث**) أن يأمر وينهى بالشفقة واللين ليكون أبلغ وأنفع، فلا ينبغي للآمر والناهي أن يكون فظاً غليظاً لأن ذلك يُنفِّر الناس منه، قال تعالى لنبيه محمد -ﷺ-: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] ، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[2] ، وقال لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[3] .

ولا ينافي وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[4] لأنه ليس معناها كما يعتقده بعضهم من أن كل إنسان مسؤول عن نفسه ولا علاقة له بغيره سواء أصلحوا أم أفسدوا، بل معناها إذا فعلتم ما وجب عليكم ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يضركم تقصير غيركم بعدم امتثاله الأمر والنهي، فالذي عليكم القول لا القبول، ولذا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[5] وتضعونها في غير موضعها، وإني سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: ((إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه))[6] . وروي أنه -ﷺ- سُئِل عن معنى هذه الآية فقال: ((ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر، فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوىً متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك))[7] .

---

(1) النحل : 125 .

(2) آل عمران : 159 .

(3) طه : 43 .

(4) المائدة : 107 .

(5) المائدة :107 .

(6) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي.

(7) رواه ابن ماجه وأبو داود والترمذي وحسّنه.

تقوى الله عز وجل

تقوى الله عز وجل هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه ظاهراً وباطناً. قال ابن عاشر:

وَحَاصِلُ التَّقْوَى اجْتِنَابٌ وَامْتِثَالْ   فِي ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ بِذَا تُنَالْ

قال الشيخ ميارة في الشرح الكبير للمرشد المعين من كتاب التصوف : الدين شطران: امتثال الأوامر واجتناب النواهي. واجتناب النواهي أشد على النفس من امتثال الأوامر، لأن امتثال الأوامر يفعله كل أحد، أما اجتناب النواهي فلا يفعله إلا الصِّديقون، ولذا سُمِّيَ بالجهاد الأكبر، قال -ﷺ- لقوم قَدِمُوا من الغزو: ((رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس عن هواها))[1]. وروي عنه -ﷺ- أنه قال: ((حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات))[2] يعني أن من خاض المكاره على النفس وهي الطاعات دخل الجنة، ومن خاض الشّهوات للنفس وهي المعاصي دخل النار.

وامتثال الأوامر واجتناب النواهي إنما يُزاول بالجوارح السّبعة، وهي: اللسان والسّمع والبصر واليدان والرجلان والبطن والفرج. وسُمِّيت جوارح لأنها كواسب تكسب الخير والشر، وصلاح هذه الجوارح وفسادها من القلب، قال -ﷺ-: ((إن في الجسد مُضغَة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي

---

(1) أخرجه البيهقي في الزهد عن حديث جابر.

(2) رواه مسلم.

القلب»[1] . فالقلب من أعظم وأجلّ نعم الله على الإنسان لأنه هو الذي يميز بين الخبيث والطيب وبين القبيح والحسن، كما أنه محل النية التي تتوقف عليها صحة العبادة، وتنصرف بها الأمور الظاهرية إلى حقيقتها الباطنية، وقد تنقلب بها من طاعة إلى معصية ومن أُمْنِيَّةٍ إلى حقيقة، قال -ﷺ-: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2] . وفي الخبر يؤتى بعبد يوم القيامة فيُدفَع له كتاب فيأخذه بيمينه فيجد فيه حَجًّا وجهاداً وصدقة ما فعل شيئاً منها، فيقول هذا ليس بكتابي، فيقال له بل هو كتابك لأنك عشت عمراً طويلاً وأنت تقول لو كان لي مال حججت منه، لو كان لي مال تصدقت منه، فعُرِفَ ذلك من صدق نيتك فأُعْطِيت ثوابه كلّه. ولذا قيل: نِيَّة بلا عمل خَيرٌ من عمل بلا نِيَّة.

ولما كانت القلوب كسائر مخلوقات الله تعالى منها الطيب والخبيث، ومنها الصالح والفاسد، فقد بَيَّن النبي -ﷺ- أن صلاح الجسد متوقف على صلاح القلب، وأن فساد القلب يترتب عليه فساد الجسد، ذلك لأن القلب كالأرض والأعضاء كالنبات، فإذا كانت الأرض طيبة خرج منها النبات طيباً، وإذا كانت الأرض خبيثة خرج منها النبات خبيثاً، قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[3] .

وصلاح القلب يكون (أولاً) بتنويره بالإيمان بالله، وتزكيته بالطاعات. (ثانياً) بتطهيره من الكفر والمعاصي، لأن الطاعات تجلو القلوب وتصقلها والمعاصي تصدئها وتفسدها، قال-ﷺ-: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً صار نكتة سوداء في قلبه، فإذا تاب

---

(1) رواه الشيخان والترمذي.

(2) متفق عليه.

(3) الأعراف : 57 .

واستغفر صُقِلَ قلبه وإذا زاد في الذنوب زادت النكتة حتى تعلـو قلبـه (أي تَعُمَّـهُ كلـه) كما يَعُمُّ الصّدأ القِدْر، فذلكم الرّان الذي ذكره ا لله في كتابه العزيز بقوله: ﴿كَـلاَّ بَـلْ رَّانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1] أي من الذنوب.

هذا وإن من أعظم المعاصي التي تصدئ القلوب وتفسدها الرياء والحسد والعجب والكِبْر، وتسمى بأمراض القلوب لأنها متعلقة بالقلب خاصة.

فأما الرِّياء فهو التظاهر بالعبادة وخصال الخير أمام النـاس طلبـاً لمدحهـم وثنـائهم والتكاسل عنها في الخلوة، ويُسمَّى بالشـرك الأصغـر لأن فيـه إشـراك الخلـق في معاملـة الخالق التي هي العبادة، وقد نهى ا لله عنه بقوله تعالى: ﴿فَمَـن كَـانَ يَرْجُـواْ لِقَـاءَ رَبِّـهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[2] ، وحذر منه النـبي-ﷺ- بقولـه: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول ا لله؟ قال: الرّياء، يقول ا لله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هـل تجـدون عندهـم الجـزاء))[3] ، وقولـه: ((إن ا لله عـز وجل يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشـرك فيـه غـيري فأنـا منه بريء وهو للذي أشرك))[4] .

وأما الحسد فهو تمني زوال نعمة الغير، فالحاسد هو الذي يتمنى زوال نعمـة غـيره، سواء تمناها لنفسه أم لا. وأما من تمنى مثل نعمة الغير دون أن يتمنى زوالها عنه، كمـن رأى صاحب عِلْمٍ أو جَاهٍ أو مالٍ فتمنى أن يكون مثله فلا تُسـمَّى حالتـه هـذه حسـداً وإنما تسمى غبطة وهي محمودة، قال الفضل بن عياض: المؤمن يَغبِـط والمنـافق يَحسُـد.

---

(1) رواه النسائي والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(2) الكهف : 105 .

(3) رواه أحمد باسناد جيد وابن أبي الدنيا والبيهقي.

(4) رواه مسلم وابن ماجه.

وقد نهى الله عن الحسد بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[1] ، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[2] ، وحذر منه النبي -ﷺ- بقوله: ((إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب))[3] .

ومما ينشأ عن الحسد الغِل والحِقد وهما من أخطر مضاعفات أمراض القلوب، قال -ﷺ- لأنس بن مالك رضي الله عنه: ((يا أنس لا تبيتَنَّ ليلة ولا تُصبحَنَّ يوماً وفي قلبك غش لأحد من أهل الإسلام، فإن ذلك من سُنَّتي، ومن أحب سُنَّتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة))[4] .

وأما العُجْبُ فهو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم الحقيقي وهو الله تعالى، فالمُعْجَبُ بنفسه هو من يرى أن ما به من قوة وصحة وما له من جاه وسلطان ومال كل ذلك من تفكيره وتدبيره وحده وليس لله عليه فضل فيها، وينسى قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[5] . وهو من أكبر الذنوب لأنه طغيان بنعمة الله وكفر بها وجحود لفضل الله ونكران لخيره، ولقد أخبر القرآن الكريم بأن كثيراً من الناس أهلكهم الله تعالى بسبب عُجبهم بأنفسهم وطغيانهم على خالقهم ورازقهم فزالت عنهم نعمة الله ونزل بهم غضبه ونقمته، قال تعالى في حق عاد وثمود وفرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[6] .

---

(1) النساء : 32 .

(2) النساء : 53 .

(3) رواه ابو داود والبيهقي وابن ماجه.

(4) رواه الترمذي.

(5) النحل : 53 .

(6) الفجر : 6-14 .

وأما الكِبْر فهو الاستعلاء والتعاظم على الغير، وهو من صفات الخالق عز وجل التي لا يشاركه أحد فيها، قال تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ا للهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] ، وقال في حديثه القدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»[2] ، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[3] .

ولنرجع الآن إلى الكلام عن الجوارح السبع فنقول: إن اللسان هو أشد الجوارح السبع خطراً، فهو الذي يقودها إلى الخير أو الشر، وهو الذي يوصلها إلى النجاة أو الهلاك، فهو أعظم نعمة في الجسد بعد القلب لأنه هو المُعبِّر عما في ضمير الإنسان من شعور وإحساس، والمُفصِح عما في قلبه من نوايا وأفكار. ولما كانت هذه الأفكار منها الخبيث والطيب، ومنها الحسن والقبيح، فقد جعل الشارع حداً يُوقَف عنده اللسان ويمنع من الإفصاح والبيان، فقال عليه الصلاة السلام: «من كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[4] ، أي إما أن يقول كلاماً نافعاً مفيداً وإما أن يُمسِك عن الكلام، ومن لم يفعل ذلك وأطلق الزمام للسانه وتركه يخوض في الكلام من دون تَرَوٍّ ولا تمييز فإنه يكون عرضة للهلاك في الدنيا والآخرة، لأن اللسان خطره عظيم، ولا سلامة من خطره إلا بالصمت عما نهى ا لله عنه، ولذا قال-ﷺ-: «من صمت نجا»[5] ، وقال لمعاذ بن جبل رضي ا لله عنه لما سأله عما يدخله الجنة ويباعده عن النار: «كف عليك هذا، وأشار إلى لسانه»[6] .

---

(1) الحشر : 23 .

(2) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(3) لقمان : 17 .

(4) متفق عليه.

(5) رواه الترمذي والطبراني.

(6) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وقد روي أنه ما من صباح إلا والجوارح تشكو اللسان وتقول له: ناشدناك الله، إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا. ويقال إن في الصمت سبع حكم: فهو حُصنٌ من غير حائط، وزينةٌ من غير حُلِيٍّ، وهيبةٌ من غير سُلطان، وعبادةٌ من غير عَنَاء، وسَترٌ للعيوب، واستغناءٌ عن الاعتذار، وراحةٌ للكِرام الكاتبين.

وليس المراد بالصمت أن الإنسان لا يتكلم أبداً، وإنما المراد منه أن يُمسِك عن الكلام المُضِر أو الذي لا نفع فيه. ولهذا قسم العلماء الكلام إلى ثلاثة أقسام: قسم لا منفعة فيه ولا ضرر، وهو الكلام الذي لا يُثَاب عليه صاحبه ولا يُعاقَب ويسمى بالفضول أو اللغو. وهذا القسم ليس ممنوعاً شرعاً ولا مطلوباً، ولكن لا ينبغي الإكثار منه. وقد مدح الله سبحانه وتعالى الذين يُعرِضون عن مثل هذا الكلام فقال عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[2]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾[3]. وقسم فيه منفعة وليس فيه ضرر، وهو الكلام الذي يُثَاب عليه صاحبه، كقراءة القرآن ومُدَارَسة العِلم والتسبيح والذكر والتخاطب مع الغير للتفاهم وتبادل المصالح الدنيوية والأخروية. وهذا القسم المطلوب شرعاً، وهو ما خلق لأجله اللسان. وقسم منه ضرر وليس فيه منفعة، وهو الكلام الذي يُعاقَب عليه صاحبه، ويسمى بآفات الكلام. وهذا القسم ممنوع شرعاً، فيجب اجتنابه والإمساك عنه، وهو أنواع كثيرة، أهمها الكذب والزور والغيبة والنميمة.

فأما الكذب فهو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه، وهو ضد الصدق، ودليل منعه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[4]. وقد حَذَّر

---

(1) المؤمنون : 1-3 .

(2) الفرقان : 72 .

(3) القصص : 55 .

(4) آل عمران : 60 .

منه النبي -ﷺ- بقوله: «إياكم والكذب! فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتَب عند الله كذاباً. وعليكم بالصدق! فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتَب عند الله صديقاً»[1].

ويستثنى من تحريم الكذب أربعة أمور: **(أولها)** إذا كان من أجل إنقاذ نفس أو مال، كما لو هرب شخص من ظالم إلى جهة من الجهات فيُسْأَل عنه فيقول المسؤول إنه ذهب يميناً مع أنه ذهب شمالاً أو العكس، فالكذب في هذه الحالة واجب. **(الثاني)** إذا كان من أجل إرهاب الكفار في الجهاد كأن يقال لهم إن المسلمين تَهيَّئوا للقائكم بكثرة العَدد والعُدد ونحو ذلك، فالكذب في هذه الحالة مندوب. **(الثالث)** إذا كان من أجل الإصلاح بين المسلمين، كما إذا وقعت شحناء بينهم وأراد أهل الفضل أن يُصلِحوا بينهم وخلال الحديث للإصلاح أراد المُصلِح أن يستعطف الطرفين للصلح فقال لكل منهما كلاماً ادعى قوله من الآخر يتضمن ترضية لكل منهما، مع أن أحداً منهما لم يقل ذلك، فالكذب في هذه الحالة مندوب أيضاً. **(الرابع)** الكذب للزوجة في بعض طلباتها العادية كأن تطلب المرأة من زوجها شيئاً ليس ضرورياً فيقول لها إن هذا الشيء لا يوجد، أو ليس لديَّ ما أشتريه به، مع أنه يوجد وله قدرة على شرائه، فالكذب في هذه الحالة مكروه وقيل مباح.

قال بعضهم: ومن الكذب المباح ما إذا أتى للإنسان من لا يريد لقاءه فيقول لجاريته أو ابنته مثلاً اُنظره في المسجد أو في السوق أو نحو ذلك، أو أنه ليس هنا، إلا أن الأحسن في هذا التعريض لا التصريح. قيل وكان (الشعبي) إذا أتاه من يكره رؤيته يقول لجاريته اجعلي أصبعك في وسط دائرة وقولي له إنه ليس هنا.

---

[1] متفق عليه.

وأما الزُّورُ فهو كالكذب في التعريف إلا أنه خاص بالشهادة، ودليل منعه قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ﴾[1]. وهو من أكبر الكبائر قال-ﷺ-: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس ثم قال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يرددها حتى قلنا ليته سكت))[2]. والزور أعظم ذنباً من الكذب لأن فيه الكذب وزيادة. فشهادة الزور لا يقتصر ضررها على صاحبها فحسب، وإنما يتعداه إلى غيره، يتعداه إلى المشهود عليه بتضييع حقه أو تحميله عقاباً لا يستحقه، ويتعداه إلى المشهود له بإعطائه حقاً لغيره وتعريضه لعقاب الله تعالى وغضبه، ويتعداه إلى القاضي بحَملِه على الخطأ في حُكمه ومجانبة الصواب، بل ويتعداه إلى الناس جميعاً بنصرة الظالمين وخذلان المظلومين.

ومن قبيل الزور التلفظ بالألفاظ القبيحة المُستهجَنة التي يُستَحيا من ذكرها بدون كناية كالتعبير عن الذكر والفرج والجماع والدبر ونحوها بالألفاظ العَامِّية القبيحة. قال-ﷺ-: ((إن الله يبغض الفاحش البذيء))[3]، وهو الذي لا يكنى عن الألفاظ المتفاحشة.

وأما الغيبة فهي ذِكر المسلم أخاه المسلم بما يكره، وإن كان فيه. ولا فرق بين أن يكون ذلك بالقول أو الإشارة أو بغير ذلك، فكل ما يُفهِم به شخص نقصان شخص آخر في دينه أو دنياه أو في ذاته أو في أهله أو في كل ما يتعلق به، حتى ولو قال القصير أو الطويل إلا بقصد التعريف، كل ذلك يعتبر من الغيبة، لما روي ((أن امرأة قصيرة دخلت على رسول الله-ﷺ- ومعه السيدة عائشة رضي الله عنها، فلما خرجت قالت عائشة: ما أقصرها. فقال -ﷺ-: لقد اغتبتها. فقالت: ما قلت إلا ما فيها. قال: قلت

---

(1) الحج : 28 .

(2) متفق عليه.

(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

أقبح ما فيها»[1]. وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الغيبة، ومثّل المُغتَاب بمن يأكل لحم أخيه ميّتاً، فقال عز وجل: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وقد اختلف العلماء في مرتبة الغيبة من التحريم، فقال القرطبي من المالكية: إنها كبيرة، وإليه ذهب كثير من الشافعية. وقال صاحب العدة: إنها صغيرة، وأقره عليه الرافعي ومن تبعه لعموم البلوى بها، فَقَلَّ من يسلم منها. والذي جزم به ابن حجر الهيثمي في شرح الشمائل إن غيبة العالم وحامل القرآن كبيرة، وغيبة غيرهما صغيرة وهو المعتمد.

وكما يَحْرُمْ على المُغتَاب ذكر الغيبة يَحْرُمْ على السامع استماعها وإقرارها، فيجب على كل من سَمِعَ إنساناً يذكر إنساناً آخر بغيبة أن ينهاه عن ذلك، فإن لم ينته خرج من مجلسه إن لم يخف ضرراً ظاهراً. ولا يكفي الإنكار بحسب الظاهر ويجب أن يكون الإنكار بالقلب أيضاً، فمن قال للمُغتَاب اسكت بلسانه وهو يشتهي بقلبه استمراره فذلك نفاق، وربما الحق مجلس الغيبة بمظان الإجابة كأن يقول: الله يلطف بنا وبفلان فعل كذا وكذا، وما أشبه ذلك فهذا كله غيبة محرمة.

ويستثنى من تحريم الغيبة ست حالات تباح فيها، بل ربما تجب: **(الأولى)** التظلم، كأن يقول المظلوم لمن له الولاية كالقاضي فلان ظلمني بكذا فأنصِفني منه. **(الثانية)** الاستعانة على تغيير المنكر، كأن يقول لمن يرجو قدرته على تغيير المنكر فلان يعمل كذا فأعِنّي على منعه، بشرط أن يكون قصده التوصل إلى تغيير المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً. **(الثالثة)** الاستفتاء، كأن يقول للمفتي ظلمني فلان بفعل كذا فهل له ذلك وما طريق الخلاص منه. **(الرابعة)** التحذير، كأن يذكر عيوب شخص لمن يريد

---

[1] رواه الترمذي وأبو داود عن عائشة.

[2] الحجرات : 12 .

مخالطته في تجارة أو زواج أو صحبة إذا لم ينكف عنه بدون ذكرها، وإلا حَرُمَ. (الخامسة) التعريف، كأن يقول فلان الأعمش أو الأعرج أو الأعمى أو نحوها فيمن يكون معروفاً بذلك، فإن كان بقصد التنقيص حَرُم. (السادسة) زجر المُتجاهِر بالفسق، كأن يقول لمن يعتقد إعانته إن فلاناً متجاهر بشرب الخمر مثلاً فأعِنّي على منعه، بشرط أن يذكر ما تجاهر به لا غيره من العيوب، وحديث ((لا غيبة لفاسق))[1] قد ضعَّفه أهل العلم بالحديث. وقد نظم العلاّمة الجوجري هذه الحالات الست بقوله :

لِستٌ غِيبَةَ جَوِّزْ وَخُذْهَا	مُنَظَّمَةً كَأَمْثَالِ الْجَوَاهِرْ
تَظَلَّمْ وَاسْتَعِنْ وَاسْتَفْتِ حَذِّرْ	وَعَرِّفْ وَاذْكُرَنْ فِسْقَ الْمُجَاهِرْ

ومن قبيل الغيبة السُّخْرِيَة والاستهزاء بالناس ومخاطبتهم بالألقاب التي يكرهونها والبحث عن عيوبهم، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيْمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2] وقال: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُواْ﴾[3].

وقال -ﷺ-: ((من تَتبَّع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته))[4].

ومن قبيل الغيبة أيضاً المزاح الذي يجرح الشعور أو يتضمن ألفاظاً قبيحة لأنه يؤدي إلى ذهاب الهيبة والوقار ويسبب الإهانة والاحتقار. قال بعض الحكماء: لا تمازح الشريف فيَحقِرك، ولا تمازح الدنيء فيُهينَك. أما المزاح الذي يُسَرِّي عن القلوب ولا

(1) أخرجه الطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان والقضاعي في مسنده.
(2) الحجرات : 11 .
(3) الحجرات : 12 .
(4) رواه أبو داود .

يجرح الشعور ولا يتضمن ألفاظاً قبيحة فليس من قبيل الغيبة، وهو جائز شرعاً. وقد روي أنَّ النبي -ﷺ- كان يَمزَح ولا يقول إلا حقًّا، ومن مزاحه عليه الصلاة والسّلام أن عجوزاً سألته ذات يوم أن يدعو لها بدخول الجنة، فقال لها إن الجنة لا تدخلها عجوز. فبكت، فقال لها أمَا سَمِعتِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾[1]، فخرجت مسرورة[2].

وأما النميمة فهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على وجه الإفساد بينهم، وهي أعظم ذنباً من الغيبة لأنَّ فيها الغيبة وزيادة. فالنمام يدخل بين الناس في صورة الناصح الأمين، وينقل إليهم أخبار بعضهم مُحرَّفة مَمْسوخة، وربما يضيف إليها من عنده كذباً وزوراً ما يزيدهم عداوة وحقداً على بعضهم. فعمل النمَّام أَضَرُّ على الناس من عمل الشيطان، لأن عمل الشيطان بالوسوسة والخيال، وعمل النمَّام بالمعاينة والحقيقة، ولذا قال-ﷺ-: ((لا يدخل الجنة نمَّام))[3]. وقد أجمع العلماء على أن النميمة من الكبائر لأن الله تعالى وصف النمام بالفاسق، وأمر بالتروي والتثبت فيما ينقله من أخبار، وعدم تصديقه فيما يقوله من كلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[4]، وقال: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[5].

قال الشيخ البيحوري: المراد من قوله-ﷺ-: ((لا يدخل الجنة نمّام)) أنه لا يدخلها مع السابقين أي لا أنه لا يدخلها أبداً، إذ أن الجنة لا تحرُم إلا على الكفار وهو ليس بكافر، بل قد يغفر الله له ويدخل الجنة مع السابقين.

---

(1) الواقعة: 37-40.

(2) رواه الترمذي عن الحسن مرسلاً.

(3) متفق عليه.

(4) الحجرات: 6.

(5) القلم: 10-13.

ويستثنى من تحريم النميمة ما إذا كانت للتنبيه على وقوع مكروه بالمُخبَر ليكون على حذر لأنها حينئذ ليست نميمة بل نصيحة، كما إذا أخبرك شخص بأن فلاناً يريد البطش بك أو بأهلك أو بمالك أو نحو ذلك لتكون على حذر، فليس ذلك بحرام لما فيه من دفع المفاسد بل هو واجب إن تَيقَّن وقوع ذلك لو لم يخبرك بهذا الخبر، وقد يكون مُستحباً إذا شك في ذلك.

هذه أهم آفات الكلام، وقد أضاف إليها العلماء أنواعاً أخرى وصلت إلى عشرين نوعاً، وقد نظمها الشيخ ميارة في قوله :

وَلِلْكَلاَمِ مِنَ الآفَاتِ فَاسْتَمِعَنْ	عِشْرُونَ خُذْ عَدَّهَاعنْ عَالِمٍ رَجُلِ
مَالَيْس يَعْنِيكَ وَالْفُضُولَ فَاجْتَنِبَنْ	والخَوْضَ في بَاطِلٍ مِرَاءَ مَعْ جَدَلِ
خُصُومَةً وَتَصْنِيعَ الْكَلاَمِ وَزِدْ	سَباً وَلَعْناً غِنَا كَشَاعِرٍ مَحِلِ
مَزْحٌ وَسُخْرِيَةٌ وَعْدٌ كَذُوبُ كَذَا	إفْشَاءُسِرٍّ مَعَ الْكَذَّابِ ذِي الْحِيَلِ
نَمِيمَةٌ غِيبَةٌ مَدْحٌ يُضَافُ لَهَا	وَمَنْ لَهُ فَاعْلَمَنْ وَجْهَانِ كَالْجَبَلِ
وَالسَّهْوُ عَنْ خَطَإِلَدَى الْكَلاَمِ وَزِدْ	شُغْلَ ذَوِى الجَهْلِ بِالتَّوْحِيدِوَالْعِلَلِ
مِنْ غَيْرِ مَا كُلِّفُواْ خَوْضاً بِهِ وَهُنَا	قَدْ تَمَّ مَارُمْتُ بِالتَّفْصِيلِ وَالْجُمَلِ

وقوله (مِراءَ مع جَدَلِ) المِرَاءُ والجَدَلُ أو الجدال معناهما واحد وهو مقابلة الحجة بالحجة، ومحل حرمة كل منهما إذا كان لإفساد قول الغير، أما إذا كان لإحقاق حق أو إبطال باطل فهو جائز، بل قد يكون واجباً، ومنه قوله تعالى لنبينا محمد -ﷺ-: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، قال الإمام الشافعي: ما ذاكرت أحداً وقصدت إفحامه، وإنما أُذاكره لإظهار الحق من حيث هو حق.

---

(1) النحل : 125 .

وبعد اللسان يأتي دور السمع، فيجب على كل مكلف أن يَكُفَّ سَمعَه عن كل ما يأثم بسماعه كالغيبة والنميمة والأغاني المحرمة وكلام المرأة الأجنبية، فإذا تعمد سماع شيء من ذلك فهو آثِم، وإن لم يتعمد فلا شيء عليه إلاّ إذا واصل الاستماع. والدليل على ذلك قوله -ﷺ-: ((المغتاب والمستمع شريكان في الإثم))[1]، وما نُقِلَ عن الإمام مالك من قوله (إذا كنت في قوم فكن أَصْمَتَهم، فإن أصابوا أصبت معهم، وإن أخطؤوا سَلِمتَ منهم) محله إذا كان المستمع لا يقدر على تغيير المنكر.

والمراد بالأغاني المحرمة الأغاني التي تحرك محبة المخلوق لغلبة الشهوة، فتخرج الأغاني التي تحرك القلب وتظهر ما فيه من الخوف ومحبة الله تعالى فيجوز سَمَاعها، بل قيل بندبها، كما تخرج الأغاني التي تُسمَع للتَّسَرِّي والتَّقوِّي على العمل أو المشي أو نحوهما فلا يحرم سماعها بل يكره لأهل الفضل والدين لأنها من اللهو واللعب، قيل بالجواز. ومن هذا القبيل ما يُسمَّى بالحُدَاء وهو ثابت في كل المخلوقات بما في ذلك الحيوانات وخصوصاً الإبل فإنها كلما طالت عليها المسافات في البراري وسمعت غناء سائقها مَدَّت أعناقها وطوت المراحل والقفار. ويقال إن الطير كانت تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته.

ثم يأتي دور البصر، فيجب على كل مكلف أن يَغُضَّ بصره عن النظر إلى كل محرم وخاصة إلى النساء الأجنبيات، والمراد بالأجنبية كل من يجوز له التزوج بها، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾[2] ، كما يجب على المرأة أن تَغُضَّ بصرها عن النظر إلى كل من يجوز لها التزوج به، قال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ

---

(1) قال العراقي غريب، وللطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بسند ضعيف نهى الرسول-ﷺ- عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة. (انظر تخريج أحاديث الإحياء : 235/1 ، وكشف الخفا : 215/2).

(2) النور : 30 .

﴿فُرُوجَهُنَّ﴾[1]، وقوله -ﷺ-: ((العينان زناهما النظر))[2]. وليس في النظرة الأولى بغير تعمد إثم، أما النظرة الثانية وكذا الأولى بتعمد فلا تجوز من الجانبين الرجل والمرأة لقوله-ﷺ- لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ((لا تُتْبِع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة))[3].

ويستثنى من ذلك ثلاث حالات: **(الأولى)** المرأة المتجالة، وهي العجوز التي لا أرب فيها للرجال، فيجوز النظر إليها لمن لا يُتَّهم أن يتعلق بها قلبه كالشاب، أما الشيخ فلا يجوز له النظر إليها إذ قد يتشوف لها قلبه، وفي الأمثال عن العرب: (لكل ساقطة لاقطة). **(الثانية)** الشَّابة لِعذر من شهادة عليها إذا باعت أو اشترت أو تزوجت، فيجوز للشهود النظر إليها ليتحققوا من صفتها، وهذا إن لم يكونوا يعرفونها وإلا فيكفيهم سماع كلامها. وينبغي أن لا يشهد للشابة أو عليها إلا من بلغ ستين سنة فأكثر. **(الثالثة)** المخطوبة، فيجوز للخاطب أن ينظر من مخطوبته الوجه والكفين.

وكما لا يجوز النظر بين الأجنبي والأجنبية كما تقدم لا يجوز أن يصافح أحدهما الآخر، ولو كانت المرأة متجالة أو مشهوداً لها أو عليها أو مخطوبة، لأن الاستثناء المتقدم خاص بالنظر.

ثم يأتي دور اليدين والرِّجلين، فإن الله سبحانه وتعالى خلق اليدين لتُستعمَلا في طاعته وفيما يعود على الإنسان بالخير والمنفعة، وخلق الرِّجلين لتُستعمَلا في السير إلى أماكن الطاعة والعبادة وفيما يعود على الإنسان بالمصلحة الدنيوية والأخروية، فلا يجوز للمكلف أن يستعمل اليدين للإضرار بالناس والاعتداء عليهم، ولا أن يستعمل الرجلين في السير إلى أماكن الفسق والفجور وإلى كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

---

(1) النور : 31 .

(2) رواه الشيخان.

(3) رواه أبو داود والترمذي.

ثم يأتي دور البطن، فإن الله عز وجل خلق البطن لتكون وعاء للطعام والشراب اللذين يتقوى بهما الجسم ويتمكن من العمل المفيد له في الدنيا والآخرة، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان البطن وعاء للطعام الحلال، فلا يجوز للمسلم أن يجعل بطنه وعاء للطعام الحرام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[1]، ولهذا قال بعض الحكماء : من أكل الحلال أطاع الله أَحَبَّ أم كَرِه، ومن أكل الحرام عَصَى الله أحب أم كره، لأنه إذا أكل الحلال شربت عروقه منه ونشطت للعبادة، وإذا أكل الحرام شربت عروقه منه وكسلت عن العبادة.

وأخيراً يأتي دور الفرج، فإن الله جَلَّتْ قدرته خلق الفرج للذكر والأنثى للزواج الحلال والتناسل، ووصف الذين يحفظون فروجهم من الزنا وغيره بالفلاح، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[2]، كما وصف الذين طلبوا غير ما أَحَلَّ لهم بأنهم المتجاوزون حدود الله، فقال عز وجل: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[3]. والمراد بِمُلك اليمين الجواري اللاتي مُلِكْنَ بحكم الرق حينما يكون هناك رق، فيجوز لمالك الجارية خاصة أن يطأها بدون عقد، وأما غيره فلا يجوز له ولو بإذنه، لأن الجارية لمالكها في حكم الزوجة لزوجها، ومعلوم أن الزوجة لا يجوز لها أن تُمَكِّن من نفسها غير زوجها ولو رضي زوجها بذلك. وقد نهى الله سبحانه وتعالى إكراه الإماء على الزنا، فقال مخاطباً من كان يفعل ذلك: ﴿ وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَا إِن أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾[4]. قال الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين : قوله (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) لا مفهوم له، بل يحرم الإكراه على الزنا وإن لم يُرِدن التحصُّن أي التعفف،

---

(1) البقرة : 171

(2) المؤمنون: 5 – 6

(3) المؤمنون : 7

(4) النور : 33 .

وإنما نص على ذلك لأنه الواقع من عبد الله بن أُبي الذي نزلت في حقه الآية. وكما لا يجوز الإكراه لا يجوز الإذن لها في حال رضاها. ولا يدخل في ملك اليمين البهائم، لأن المراد بملك اليمين الإناث من الآدميات.

ويشمل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ستة أمور: (أولها) الزنا، فقد حَرَّمَه الله تحريماً قاطعاً، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1] وجعله من الكبائر، وأوجب على مرتكبه من الرجال والنساء الحَدَّ، وهو مائة جلدة لغير المُحصَن وهو من لم يسبق له الزواج ذكراً كان أم أنثى مع تغريب عامٍ للذكر أي نفيه عن بلده مدة عام كامل، والرجم بالحجارة حتى الموت للمُحصَن وهو من سبق له الزواج ذكراً كان أم أنثى، ودليل ذلك بالنسبة لغير المحصن قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[2] . أما بالنسبة للمحصن ففعله -ﷺ-، فقد روي أنه -ﷺ- أمر برجم زوجة الرجل التي زنت مع العسيف أي الأجير بعد اعترافها بالزنا وجلد الزاني مائة جلدة لأنه لم يسبق له الزواج ونفاه عن المدينة مدة عام كما نُقِلَ ذلك في الموطأ. (الثاني) اللّواط، وهو نكاح الذكر للذكر كما كان يفعل قوم لوط، فهو أشد حرمة من الزنا، ولو كان المفعول به مملوكاً للفاعل لما تقدم من أن ملك اليمين إنما يحل به وطء الإناث من الآدميات لا الذكور. ولشدة تحريمه جعل الشارع الحد فيه الرجم بالحجارة حتى الموت لكل من الفاعل والمفعول به. (**الثالث**) وطء المرأة في دُبرها، ولو كانت زوجة، لأن الزواج إنما يحل به وطء الزوجة في فرجها لا في دُبرها، ولذا فإنه حرام قطعاً. (**الرابع**) وطء البهيمة من أي نوع من أنواع الحيوانات، وهو حرام أيضاً ويجب فيه التعزير أي العقوبة بالاجتهاد. (**الخامس**) المساحقة، وهو تلذذ المرأة بالمرأة عن طريق وضع الفرج على الفرج فهي

---

(1) الإسراء : 32 .

(2) النور : 2 .

حرام. ويشتد التحريم إن كانت المساحقة بآلة كذكر صناعي، وتجب فيه العقوبة بالاجتهاد في الحالتين. (**السادس**) الاستمناء باليد، وفيه ثلاثة أقوال: التحريم والكراهة والجواز. ومحل الخلاف إن كان الاستمناء بيد الفاعل نفسه، أما إن كان بيد غيره ذكراً كان أم أنثى فهو حرام، إلا إذا كانت الأنثى زوجته وفعل ذلك لعذر يمنعه من جماعها كحيض أو نفاس مثلاً فهو جائز لأنه من قبيل التلذذ بمباشرة الزوجة.

تحية الإسلام :

تحية الإسلام هي (**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**) وهي سنة كفاية في حق البادئ وفرض كفاية في حق الرَّاد، أي أنه إذا التقت جماعة بجماعة وسَلَّم واحد من إحدى الجماعتين على الجماعة الأخرى سقطت السُّنية عن جماعته، وكذلك إذا رَدَّ واحد من الجماعة الثانية على من سَلَّم من الجماعة الأولى سقط الفرض عن جماعته. وقيل البدء فرض كفاية والرد فرض عين، والقول الأول هو المشهور، وعليه فيُسَنُّ البدء بالسلام للداخل والمار على غيره، والراكب على الماشي. ويكفي أن يقول البادئ (السلام عليكم) بالتعريف مع تقديم المبتدأ على الخبر وهو المعتمد، وقيل بجواز التنكير وتقديم الخبر على المبتدأ كأن يقول (سلام عليكم) أو (عليكم السلام)، وفي جميع الأحوال لابد من ميم الجماعة ولو كان المُسلَّم عليه امرأة واحدة وإلا فلا يكون آتياً بالسنة، لأن المُسلَّم عليه معه الحفظة من الملائكة وهم كجماعة من بني آدم.

ويجب على المُسلَّم عليه سواء أكان واحداً أم جماعة أن يَرُدَّ على المُسلِّم، ويكفي أن يرد واحد من الجماعة كما تقدم. ويكون الرد إما بأحسن من البدء أو بمثله، والأفضل الإتيان بالواو في الرد، فإذا قال المُسلِّم (السلام عليكم)، يقول المُسلَّم عليه (وعليكم السلام ورحمة الله) أو يقول (وعليكم السلام)، وإذا قال المُسلِّم (السلام عليكم ورحمة الله) يقول المُسلَّم عليه (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) أو يقول

(وعليكم السلام ورحمة الله)، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[1]. ويجوز أن يكون الرد بصيغة الابتداء كأن يَرُدَّ المُسلَّم عليه بقوله (السلام عليكم) هو أيضاً، ولا يجوز أن يَنقُص الرد عن البدء على المشهور كأن يقول البادئ (السلام عليكم ورحمة الله) فيقول الرَّادُّ (وعليكم السلام)، وقيل بجواز ذلك. والأفضل لكل من البادئ والراد أن يتم التحية وذلك بأن يقول البادئ (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ويقول الراد (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) لما ورد أن من قال (السلام عليكم) كتب الله له عشر حسنات، ومن زاد (ورحمة الله) كتب له عشرون حسنة، ومن زاد (وبركاته) كتب له ثلاثون حسنة.

وهناك حالات يكره فيها بدء السلام، فمنها: السلام على الكافر، فيكره بدء السلام عليه، فإن سَلَّم علينا بصيغتنا يُندَب الرَّدُّ عليه ولا يجب، كما يكره بدء السلام على الشابة التي ليست محرماً بخلاف المتجالة أو الشابة المحرم فلا يكره، ويكره بدء السلام على من هو في قضاء الحاجة البشرية، وكذلك السكران والمجنون ومن يُعلَم أنه لا يرد السلام كالصبي غير المميز بخلاف المميز فلا يكره. واختلف في الرد عليهم إذا سَلَّموا فقيل بالندب عملاً بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[2]، وقيل بالجواز. وهناك حالات أخرى يكره البدء فيها بالسلام على أهلها، وقد نظم بعضهم جميع هذه الحالات بما فيها الحالات المتقدمة فقال:

سَلاَمُكَ مَكْرُوهٌ عَلَى مَنْ سَتَسْمَعُ	وَمِنْ بَعْدِ مَا أُبْدِي يُسَنُّ وَيُشْرَعُ
مُصَلٍّ وَتَالٍ ذَاكِرٌ وَمُحَدِّثٌ	خَطِيبٌ وَمَنْ يُصْغِي إِلَيْهِ وَيَسْمَعُ
مُكَرِّرُ فِقْهٍ جَالِسٌ لِقَضَائِهِ	وَمَنْ بَحَثُوا فِي الْعِلْمِ دَعْهُمْ لِيَنْفَعُوا

---

(1) النساء : 85 .

(2) البقرة : 82 .

مُـدَّرِسٌ أَيْضَـاً أَوْ مُقِيـمٌ بِحَلْقِهِـمْ كَـذَا الْفَتَيَـاتُ الأَجْنَبِيَّـاتُ يُمْنَـعُ

وَلُعَّابُ شِطْرَنجٍ وَشِـبْهٍ بِحَلْقِهِـمْ وَمَـنْ هُـوَ مَـعْ أَهْـلٍ لَـهُ يَتَمَتَّـعُ

وَدَعْ كَافِراً أَيْضاًوَمَكْشُوفَ عَوْرَةٍ وَمَنْ هُوَفِي حَالِ التَّغَـوُّطِ أَشْـنَعُ

وَدَعْ آكِـلاً إِلاَّ إِذَا كُنْـتَ جَائِعـاً وَتَعْلَـمُ مِنْـهُ أَنَّـهُ لَيْـسَ يَمْنَـعُ

كَذَلِـكَ أُسْـتَاذٌ مُغَـنٍّ مُطَـيِّرٌ فَهَـذَا خِتَـامٌ وَالزِّيَـادَةُ تُمْنَـعُ

أما المصافحة وهي وضع بطن كف أحد المتصافحين على بطن كف الآخر فهي مندوبة على المشهور بين الرجل والرجل وبين المرأة والمرأة لقوله -ﷺ-: ((تصافحوا يذهب الغِل عنكم))[1]، وقوله: ((ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبل أن يفترقا))[2]. ويكره تقبيل اليدين عقب المصافحة، سواء تقبيل كل منهما يد الآخر أم تقبيله يده إلا لمن تُرجَى بَركتُه من والد وشيخ وصالح، ويشمل الوالد الأب والأم والجد والجدة فلا يكره بل يُطلب، لما روي أن سعد بن مالك قَبَّلَ يده -ﷺ-. أما المصافحة بين الرجل والمرأة الأجنبية فلا تجوز ولو كانت مُتجالَّة، بخلاف المرأة المَحْرَم فتجوز مصافحتها. أما مصافحة المسلم للكافر فلا تجوز إلا للضرورة.

وأما المُعَانَقة وهي وضع عنق أحد المتعانقين على عنق الآخر فقد اختُلِف فيها، فقيل بالجواز وهو قول سفيان بن عيينة، ويشهد له قول الشَّعبِي كان أصحاب محمد -ﷺ- إذا التقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا. وقيل بالكراهة وهو قول الإمام مالك وهو المشهور وإن كان يَرِدُ عليه القول الأول لأن العمل حُجَّة، كما يَرِدُ عليه أيضاً ما روي أنه -ﷺ- عانق سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حين قَدِمَ من السفر.

---

[1] رواه مالك.

[2] رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب.

ومحل الخلاف في المعانقة إنما هو إذا كانت بالكيفية المتقدمة، أما إن كانت بتقبيل كُلٍّ من المتعانقين خَدَّ الآخر فلا خلاف في كراهتها، بل وقد تَحرُم كما لو كانت بين أجنبيين أحدهما رجل كبير والآخر شاب أمرد.

ويحرم هجران الشخص المسلم فوق ثلاثة أيام بلياليها، لقوله -ﷺ-: «لا يَحِلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[1] إلاَّ لوجه شرعي كهجر الشيخ لتلميذه، أو هجر الوالد لولده، أو الزوج لزوجته عند ارتكاب ما لا ينبغي، فيجوز الهجر أكثر من ثلاثة أيام. وأما هجر ذي بدعة مُحرَّمة كالمعتزلة فهو واجب بلا حَدٍّ، وإلى أن يترك البدعة. وهجر ذي بدعة مكروهة كتطويل الثياب خيلاء حتى تجر على الأرض فهو مندوب إلى أن يترك البدعة، وقيل مباح.

من آداب الإسلام :

من آداب الإسلام الاستئذان لدخول البيوت المسكونة، وإكرام الجار، وصلة الرَّحِم.

فأما الاستئذان فقد أمر الله به في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[2] ، والمعنى : إن من أراد أن يدخل بيتاً غير بيته فيجب عليه أن يستأنس أي يستأذن أهله ويسلم عليهم، فإن وقع بصره على أحد في البيت قَدَّم السَّلام على الاستئذان. ويكون كل من الاستئذان والسلام ثلاث مرات، يفصل بين كل مرتين بسكوت يسير، الأول للإعلام، والثاني للتهيؤ، والثالث للدخول. فإذا أتى الباب لا

---

(1) متفق عليه.

(2) النور : 27 .

يستقبله من تلقاء وجهه بل يجيء من جهة ركنه الأيمن أو الأيسر، ثـم يقـول: (السـلام عليكم، أأدخل؟) ويكرر ذلك ثلاث مرات، فإن أُذِنَ له دخل، وإن لم يؤذن لـه رجـع. وإذا طُلِبَ منه تعيين نفسه فليعين نفسه بصفة تميزه ولا يقتصر على قوله (أنا)، أو علـى قوله (صاحب)، بل يقول (أنا فلان الفلاني) مثلاً، فإن لم يجـد أحـداً في البيـت رجـع، عملاً بقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُواْ فَارْجِعُواْ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَا للهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1] .

ومـن أراد أن يدخـل بيتـاً غـير مُعَـدٌّ لسُكنى طائفـة معينـة كالخانـات والفنـادق والحوانيت ونحوها ليَسْتكِن فيـه مـن حَرٌ أو بَـردٍ فـلا حـرج عليـه في الدخـول بـدون استئذان، فإن وجد فيه أحد سَلَّم عليه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[2] .

ومن دخل بيته وليس فيه أحد فيُسَنُّ له أن يُسَلِّم على نفسه فيقول (السـلام علينـا وعلى عباد ا لله الصالحين) فإن الملائكة تَرُدُّ عليه، فإن كان فيه أحد من أهله سَلَّم عليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[3] .

وأما إكرام الجار فقد أمر ا لله بـه في قولـه تعـالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾[4] ، وفي قوله -ﷺ-: ((من كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليكرم جاره))[5] .

وإكرام الجار يكون بمقابلته بالبشر، والإهداء له، والسؤال عنه إن غـاب، وعيادتـه إن مرض، وتهنئته بالفرح، والتعزية فيه إن مات، وتشييع جنازته، وحضور الصلاة عليه

---

(1) النور : 28 .

(2) النور : 29 .

(3) النور : 59 .

(4) النساء : 36 .

(5) متفق عليه.

ودفنه، وكف الأذى عنه، والصبر على أذاه، قال -ﷺ-: ((من كان يؤمن بـا لله واليـوم الآخر فلا يؤذي جاره))[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه))[2]. وقال الحسن البصري رضي ا لله عنه: ليس حسن الجوار كف الأذى عن الجار، ولكن حسن الجوار الصبر على الأذى من الجار.

وأما صلة الرحم فهي العطف على الأقارب ومواصلتهم، وقد أمر ا لله بها في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[3]، ونهـى عن قطعها في قولـه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ﴾[4]. وقال -ﷺ-: ((الرَّحِم متعلقة بالعرش تقول من وصلني وصله ا لله، ومن قطعني قطعه ا لله))[5]، وقال عليه الصلاة والسلام: ((من أحب أن يُبسَط له في رزقه ويُنسَأ له في أثره (أي يُؤخَّر له في أجله وعمره) فَلْيَصِل رحمه))[6].

فُروض الكِفاية :

فروض الكفاية هي الواجبات التي إذا قام بها البعض سقط فرضها عن الباقين، وهي نوعان: دنيوية كالحِرَفِ المُهِمَّة، ودينية -وهي جُلُّها- ومترددة بينهما كالقضاء والشهادة. والدينية نوعان: عِلْمٌ وهو القيام بعلوم الشريعة، وعَمَلٌ كالأمر بالمعروف والجهاد ونحوها. وقد نظمها بعضهم في الأبيات الآتية فقال أحدهم في البيتين الآتيين:

بِالشَّرْعِ قُمْ جَاهِدْ وَزُرْ اقْضِ اشْهَدِ   بِالْعُرْفِ مُرْ أُمَّ سَلاَمَاً ارْدُدِ

وَرَابِطِ افْتِ وَاحْتَرِفْ وَالمَيْتَ صُنْ   وَاحْضِنْ وَوَثِّقْ وَافْدِ وَادْرَأْ تُؤْتَمَنْ

---

(1) متفق عليه.

(2) متفق عليه.

(3) الإسراء : 26 .

(4) محمد : 24 .

(5) رواه الشيخان.

(6) رواه الشيخان.

وزاد عليها بعضهم ما يلي :

عِيَادَةٌ تَمْرِيضُ مَعْ حُضُورِ مُحْتَضِرٍ ضِيَافَةُ الْمُرُورِ
وَحِفْظُ قُرْآنٍ سِوَى الْمَثَانِي نَصِيحَةٌ زِدْهَا مَعَ الأَذَانِ
تَشْمِيتُ عَاطِسٍ وَسَتْرُ عَوْرَهْ إِطْعَامُ جَائِعٍ تَمَامُ الْعَشَرَهْ
فَكُلُّهَا فَرْضُ كِفَايَةٍ فَإِنْ أَلْفَيْتَ غَيْرَهَا أَضِفْهُ لاَ تَبِنْ

الاتّبَاعُ والابْتِدَاعُ :

الاتباع هو العمل بمذهب أهل السُّنة من السلف الصالح من المؤمنين، والابتداع هو الانسياق مع أهل البدع الضَّالة المُضِلَّة، قال -ﷺ-: ((عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة))[1]. وقال صاحب الجوهرة:

فَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفْ وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفْ

والبدعة لغة : ما كان مخترعاً على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى لنبيه محمد -ﷺ-: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾[2]. وشرعاً: ما لم يقع في زمنه -ﷺ-. وتكون البدعة في الخير والشر. قال صاحب شرح عقيدة العوام : البدعة تعتريها الأحكام الخمسة، وذلك بحسب ما تتناوله القواعد الشرعية وأدلتها، فتكون واجبة إن تناولتها قواعد الوجوب كتدوين القرآن الكريم وعلوم الشريعة الإسلامية خوفاً من الضياع، وتكون مُحرَّمة إن تناولتها قواعد التحريم كأخذ المكوس والضرائب، وتكون مندوبة إن تناولتها قواعد الندب كصلاة التراويح جماعة، وتكون مكروهة إن تناولتها

---

(1) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.
(2) الأحقاف : 8 .

قواعد الكراهة كزخرفة المساجد وتزيين المصاحف، وتكون مباحة إن تناولتها قواعد الإباحة كإتخاذ المناخل للدقيق والتوسع في لذيذ المآكل والمشارب. ومنها المصافحة بعد الصلاة في حق من تصافحوا قبلها، وإلا فهي مندوبة.

هذا بالنسبة للبدعة وحكمها، أما بالنسبة لأهل البدع المحرمة فإن عددهم اثنتان وسبعون فرقة، قال -ﷺ-: ((افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة وكلها في النار إلا واحدة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. فقالوا: وما تلك الواحدة يا رسول الله؟ قال: من سيكونون على مثل ما عليه أنا وأصحابي))[1].

قال الشبرخيتي في شرح الحديث السابق ((عليكم بسنتي...إلى آخره)) : أهل البدع المخالفين لمثل ما كان عليه رسول الله-ﷺ- سبع طوائف: (**الطائفة الأولى**) المعتزلة القائلون بخَلْقِ العباد أعمالهم وبنفي الرؤية لله عز وجل، ووجوب الثواب والعقاب وغير ذلك مما تقدم في أغلب فقرات هذا الكتاب، وهم أكثر الطوائف مخالفة لأهل السُّنة وعددهم عشرون فرقة. (**الطائفة الثانية**) الشِّيْعَة المُفرِطُون في حب الإمام علي كرم الله وجهه، حتى أن منهم من فَضَّله على غيره من الخلفاء الراشدين، بل إن بعضهم من يعتقد أن الرسالة له وليست لمحمد -ﷺ-، ولا شك في كفر من يعتقد ذلك، وعددهم اثنتان وعشرون فرقة. (**الطائفة الثالثة**) الخوارج، وهم الذين خرجوا عن طاعة الإمام علي كرم الله وجهه بعد التحكيم بينه وبين معاوية رضي الله عنه. قال الشيخ عبد القادر الجيلاني في الغُنْيَة: ومن اعتقاداتهم الفاسدة أنهم يُكفِّرون المؤمن بالذنب، ولا يرون الجماعة إلا خلف إمامهم، ويُجيزون تأخير الصلاة عن وقتها، والصوم قبل رؤية الهلال والفطر مثل ذلك، والنكاح بغير ولي، ويُجيزون نكاح المتعة، ولا يؤمنون بعذاب القبر ولا بالحوض ولا بالشفاعة، ويشتمون أصحاب رسول الله-ﷺ-

---

[1] رواه أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجه والبيهقي والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك.

وأنصاره، ويتبرؤن منهم ويرمونهم بالكفر والعظائم، ويُسمَّون بالمَارِقَة لأنهم كما وصفهم -ﷺ-: ((يَمْرُقون من الدين كما يَمْرُق السهم من الرَّمِيَّةِ ثم لا يعودون فيه))[1]. ومنهم من يزعم أن من عرف الله وكفر بما سواه من رسل أو جنة أونار، أو فعل سائر الجنايات من قتل نفس واستحلال الزنا فهو بريء من الشرك. ومنهم الإباضية الذين يزعمون أن ما افترضه الله تعالى على خلقه إيمان، وأن كل كبيرة تعتبر كُفْرَ نعمة لا كُفْرَ شرك. ومنهم الأزارقة الذين يزعمون أن الصلاة ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾[2]، وعددهم عشرون فرقة. (**الطائفة الرابعة**) المُرْجِئَة القائلون بأنه لا يضر مع الإيمان معصية، وبالاستثناء في الإيمان، فيقول أحدهم (أنا مؤمن إن شاء الله) وهم خمس فرق. (**الطائفة الخامسة**) النجَّاريَّة، وهم يوافقون أهل السنة في خلق الله أفعال العباد، ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات وحدوث الكلام، وهم ثلاث فرق. (**الطائفة السادسة**) الجَبْرِيَّة، القائلون بسلب الاختيار عن العبد في أفعاله، وهم فرقة واحدة. (**الطائفة السابعة**) المُشَبِّهة، وهم الذين يُشبِّهون الحق سبحانه وتعالى بالخلق، وهم فرقة واحدة. وبهذه تتم الفرق الاثنتان والسبعون.

ومن أهل البدع السُّوفِسْطائيون، وهم الذين ينكرون حقائق الأشياء ويزعمون أنها خيالات، خلافاً لأهل السنة الذين يقولون بأن الشيء هو الموجود، فإن الأمر باعتبار تحققه في نفسه يقال له شيء، وباعتبار تحققه في الخارج يقال له موجود. قال صاحب الجوهرة:

وَعِنْدَنَا الشَّيْءُ هُوَ الْمَوْجُودُ   وَثَابِتٌ في الْخَارِجِ الْمَوْجُودُ

وُجُودَ شَيْءٍ عَيْنِهِ..........   ....إلخ

---

(1) رواه الشيخان.

(2) هود: 114.

حُكِيَ أن سُوفسْطائياً أتى على بغلة إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله ليناظره، فأمر الإمام أحد غلمانه أن يذهب بالبغلة ويخفيها، فلما خرج السُّوفسطائي لم يجدها، فطلبها، فقال له الإمام أنت تزعم أنه لم يكن لبغلتك حقيقة فلا تطلبها. فرجع عن معتقده ورُدَّت إليه بغلته.

مقامات اليقين :

مقامات اليقين تسع، وهي المذكورة في قول ابن عاشر :

وَيَتَحَلَّى بِمَقَامَاتِ الْيَقِينْ خَوْفٌ رَجَا شُكْرٌ وَصَبْرٌ تَوْبَهْ

زُهْدٌ تَوَكُّلٌ رِضَا مَحَبَّهْ

وأهم هذه المقامات (الخوف والرجاء)، أي الخوف من عقاب الله تعالى، والرجاء في ثوابه، بحيث يجمع العبد بينهما، قال تعالى: ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[1]، غير أنه ينبغي أن يغلب الخوف على الرجاء في حال الصحة، والرجاء على الخوف في حال المرض وخاصة عند الاحتضار، لقوله -ﷺ-: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى))[2]، وقوله عز وجل في حديثه القدسي: ((أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء))[3]. والرجاء هو تعلق القلب بمرغوب فيه مع الأخذ في الأسباب، فمن رجا ثواب الله تعالى فعليه أن يواظب على الطاعات ويستمر في اجتناب المعاصي. أما من أهمل الطاعات، وانهمك في المعاصي واللذات المحرمة وانتظر مغفرة الله يوم القيامة، فإن انتظاره هذا لا يسمى رجاء وإنما يسمى طمعاً وغروراً، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ

---

(1) الزمر : 10 .

(2) رواه مسلم وابو داود .

(3) رواه مسلم والحاكم .

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[1]، وقال -ﷺ-: ((ليس الإيمان بالتمنّي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل، وإن قوماً غرتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن با لله تعالى وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل))[2]، وقال: ((الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على ا لله الأماني))[3].

نسأل ا لله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الخائفين الراجين، والطائعين المخلصين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.



---

(1) الأعراف : 169 .

(2) رواه البخاري.

(3) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

خاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين.

وبعد، فهذا آخر ما يَسَّره الله لي مما قصدته من تأليف هذا الكتاب المبارك **(الجوهر الفريد في عِلْمِ التَّوحِيدِ)**، وأحمد الله الذي وفَّقني لإتمامه، وأسأله سبحانه وتعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، موجباً للخلود مع أحبابه في جنات النعيم، بجاه نبينا محمد -ﷺ-، وأن ينفع به كما نفع بأصله نفعاً يدوم بدوام ملك الله. وأعتذر لذوي الألباب من الخلل الواقع فيه نتيجة لخطأ أو تقصير، فالكمال لله وحده العلي القدير، راجياً أن ينظروا إليه بعين الرضا، ويتأولوا ما به القلم زلَّ وطَغَى، والله يجازي الجميع على نيته الحسنة بخير الدنيا والآخرة، ويعفو عما اقترفه الكل عفواً يحيط بالذنوب المتقدمة والمتأخرة، إنه جواد كريم رؤوف رحيم، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

هذا وقد كان الفراغ منه في غرة ذي القعدة سنة 1408 هـ. الموافق 15 يونيه سنة1988م.

المؤلف

عبد الهادي أبو أصبع

محتويات الكتاب

الباب الأول في الإلهيات

الباب الثاني في النبوات

الباب الثالث في السمعيات

الباب الرابع في الإحسان

